

# فتح القلم

• بياب كأنه تنزيل من التّزيل ،  
أو قَبَس من نور الذّكر الحكيم ،  
سعد زغلول

كُتِبَ

مصطفى صادق الرافعي

ضبطه وصححه وعلق حواشيه

محمد سعيد العرابي

سنة ١٤١١

الجزء الثالث

[حقوق الطبع محفوظة]

[الطبعة الأولى]

مطبعة الأهرام - القاهرة

١٣٦٠ هـ - ١٩٤١ م



# السمو الروحي الأعظم

والجمال الفني في البلاغة النبوية <sup>(١)</sup> <sup>(\*)</sup>

لما أردت أن أكتب هذا الفصل وهممت به، عرضت لى مسألة نظرت فيها أطلب جوابها، ثم قدرت أن يكون أبلغ فلاسفة البيان في أوربا لعهدنا هذا رجلاً يحسن العربية المبيّنة، وقد بلغ فيها مبالغ أتمتها علماً وذوقاً، ودرس تاريخ النبي صلى الله عليه وسلم درس الروح لأعمال الروح، وتفقه في شريعته فقه الحكمة لأسرار الحكمة، واستوعب أحاديثه واعتبرها بفن النقد البياني الذي يبحث في خصائص الكلام عن خصائص النفس؛ وتمثلت أنى لقيت هذا الرجل فسألته: ما هو الجمال الفني عندك في بلاغة محمد صلى الله عليه وسلم؟ وماذا تستخرج لك فلسفة البيان منه؟ وما سره الذي يجتمع فيه؟

ولم يكذب يخطر لى ذلك حتى انكشف الخاطر عن وجه آخر، وذلك أن يكون معنى هذا السؤال بعينه قد وقع في شيء من حديث النفس لأبلاغ أولئك العرب الذين رأوا النبي صلى الله عليه وسلم، وآمنوا به، واتبعوا النور الذي أنزل معه، وقد صحته فطالت صحبته، لا يفوته من كلامه في الملائكة، وغالطه حتى كان له في الإحاطة بأحوال نفسه كبعض التاريخ،

(١) أنشأ المؤلف رحمه الله هذا البحث جواباً لرجاء جمعية الهداية الإسلامية في بغداد سنة ١٣٥٢ هـ؛ وانظر كتابنا «حياة الرافعي»، ص ١٧٥ - ١٧٦ و ١٧٨

(هـ) بسطنا الكلام في كتابنا «إعجاز القرآن»، عن بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه كثيرة، وبقي هذا المعنى الذي تراه، فهذه المفالة كالتكملة على ما هناك

فتدبر ماعسى أن يكون سر الجمال فى بلاغته صلى الله عليه وسلم ، وما مرجعه الذى يرد إليه ؟

لودار السؤال دورتيه فى هذه السايقة العربية المحكمة التى رجعت أن تكون فلسفة تشعر وتحس ، وفى تلك الفلسفة البيانىة الملهمة التى بلغت أن تكون سليقة تدرس وتفكر — لما خلاص من كليهما إلا برأى واحد تلتقى عليه حقيقة البيان من طرفيها : وهو أن ذلك الجمال العنى فى بلاغته صلى الله عليه وسلم إنما هو أثر على الكلام من روحه النبوية الجديدة على الدنيا وتاريخها .

وبعد فأنا فى هذه الصفحات لا أصنع شيئاً غير تفصيل هذا الجواب وشرحه ، باستخراج معانيه ، واستنباط أدلته ، والكشف عن أسرارهِ وحقائقهِ ؛ ولقد درست كلامه صلى الله عليه وسلم ، وقضيت فى ذلك أياماً أتتبع السر الذى وقع فى التاريخ القفر المجدب فأخصب به وأنبت للدنيا أزهاره الإنسانية الجميلة ، فكانوا ناساً إن عبتهم بشىء لم تعبهم إلا أنهم دون الملائكة ؛ وكانوا ناساً دارت الكرة الأرضية فى عهدهم ثلاث دورات : واحدة حول الشمس ، وثانيه حول نفسها ، وثالثة حول أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم . ثم تركت الكلام النبوى يتكلم فى نفسى ويلهمنى ما أفصح به عنه ، فلما كأنى به يقول فى صفة نفسه : إني أصنع أمة لها تاريخ الأرض من بعد ، فأنا أقبل من هنا وهناك ، وأذهب هناك وهنا ، مع القلوب والأنفس والحقائق ، لأمع الكلام والناس والوقت .

إن ههنا دنيا الصحراء ستلد الدنيا المتحضرة التى من ذريتها أوربا وأمريكا ؛ فالقرآن والحديث يعملان فى حياة أهل الأرض بنور متم لما يعملهُ نور الشمس والقمر .



وقد كان المسلمون يغزون الدنيا بأسلحة هي في ظاهرها أسلحة المقاتلين ،  
ولكنها في معانيها أسلحة الأطباء ؛ وكانوا يحملون الكتاب والسنة ، ثم مضوا  
إلى سبيلهم وبقى الكلام من بعدهم غازياً محارباً في العالم كله حرب تغيير  
وتحويل إلى أن يدخل الإسلام على ما دخل عليه الليل (\*)

هذا منطق الحديث في نفسى ، وقد كنت أقرؤه وأنا أتمثله مرسلًا  
بتلك الفصاحة العالية من فم النبي صلى الله عليه وسلم حيث يمر إعجاز الوحي  
أول ما يخرج به الصوت البشرى إلى العالم ، فلا أرى ثمَّ إلا أن شيئاً  
إلهياً عظيماً متصلاً بروح الكون كله اتصال بعض السر ببعض السر ، يتكلم  
بكلام إنسانى هو هذا الحديث الذى يحىء في كلمات قوية رائدة ، فنها في بلاغتها  
كالشباب الدائم .

كنت أتأمله قطعاً من البيان فأراه ينقلنى إلى مثل الحالة التى أتأمل فيها  
روضة تتنفس على القلب ، أو منظرًا يهز جماله النفس ، أو عاطفة تزيد بها  
الحياة فى الدم ، على هدوء وروح وإحساس ولذة ؛ ثم يزيد على ذلك أنه  
يُصلح من الجهات الإنسانية فى نفسى ، ثم يرزق الله منه رزق النور فإذا  
أنا فى ذرق البيان كأنما أرى المتكلم صلى الله عليه وسلم وراء كلامه .  
وأعجب من ذلك أنى كثيراً ما أقف عند الحديث الدقيق أتعرف أسرارهِ ،

---

(\*) فى الحديث الشريف : ليدخلن هذا الدين على ما دخل عليه الليل . وكان  
العبارة نص على أن الإسلام يعم حين تظلم الدنيا ظلامها الشعوى ... إذا طمست  
الإنسانية بلذاتها ، وأظلمت آفاقها الروحانية ؛ فيجىء الإسلام فى قوة أخلاقه كشباب  
الفجر ، يبعث حياة النور الإنسانى بعثاً جديداً ؛ وهذا هو رأينا فى مستقبل الإسلام :  
لا بد من انحلال أوربا وأمريكا ، كما يصفر النهار ثم يختلط ، ثم يظلم ثم تطلب  
الطبيعة نورها الحى من بعد .

فإذا هو يشرح لي ويهديني بهديه ؛ ثم أحسه كأنما يقول لي مايقول المعلم لتليذه : أفهمت ؟

وقفت عند قوله صلى الله عليه وسلم : إن قوماً ركبوا في سفينة ، فاقتسموا ، فصار لكل رجل منهم موضع ، فقصر رجل منهم موضعه بفأس ، فقالوا له : ما تصنع ؟ قال : هو مكاني أصنع فيه ماشئت ! فإن أخذوا على يده نجوا ونجوا ، وإن تركوه هلك وهلكوا (٥) (١)

فكان لهذا الحديث في نفسى كلام طويل عن هؤلاء الذين يخوضون معنا البحر ويسمّون أنفسهم بالمجددين ، وينتحلون ضرراً من الأوصاف : كربة الفكر ، والغيرة ، والإصلاح ؛ ولا يزال أحدهم ينقر موضعه من سفينة ديننا وأخلاقنا وآدابنا بفأسه ، أى بقلبه ... زاعماً أنه موضعه من الحياة الاجتماعية يصنع فيه مايشاء ، ويتولاه كيف أراد ، موجّهاً حماقة وجوها من المعاذير والحجج ، من المدنية والفلسفة ، جاهلاً أن القانون في السفينة إنما هو قانون العاقبة دون غيرها ، فالحكم لا يكون على العمل بعد

---

(٥) روى البخارى هذا الحديث على وجه آخر ، وفيه زيادة من الجمال الفنى ؛ قال : مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها : فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً

فهذا تمثيل لحالة طائفة في ( الأسفل ) تعمل لرحمة من هم في ( الأعلى ) : عاطفة شريفة ولكنها سافلة ، وحمية ملتزمة ولكنها باردة ، ورحمة خالصة ولكنها مهالكة ؛ ولن تجد كهذا التمثيل في تصوير البلادة الاجتماعية والغفلة الفلسفية لآناس هم عند أنفسهم أمثلة الجد والعمل والحكمة ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول لهؤلاء من ألف وثلثمائة سنة : أنتم المصلحون إصلاحاً مخزوقاً ... ١

وقوعه كما يُحكم على الأعمال الأخرى ؛ بل قبل وقوعه ؛ والعقاب لا يكون على الجرم يقتطفه المجرم كما يعاقب اللص والقاتل وغيرهما ، بل على الشرع فيه ، بل على توجه النية إليه ؛ فلا حرية هنا في عمل يفسد خشب السفينة أو يمسسه من قرب أو بعد مادامت ملجئة في بحرها ، سائرة إلى غايتها ؛ إذ كلمة (الخرق) لا تحمل في السفينة معناها الأرضي ، وهناك لفظة (أصغر خرق) ليس لها إلا معنى واحد وهو (أوسع قبر) ...

ففكر في أعظم فلاسفة الدنيا مهما يكن من حريته وانطلاقه ، فهو ههنا محدود على رغم أنفه بحدود من الخشب والحديد تفسيرها في لغة البحر حدود الحياة والمصلحة ، وكما أن لفظة (الخرق) يكون من معانيها في البحر القبر والغرق والهلاك ، فكلمة (الفلسفة) يكون من بعض معانيها في الاجتماع الخماقة والغفلة والبلاهة ، وكلمة الحرية يكون من معانيها الجنابة والزيف والفساد<sup>(٥)</sup> وعلى هذا القياس اللغوي فالقلم في أيدي بعض الكتاب من

---

(٥) الزائغون في التاريخ الإسلامي كله صنفان ليس لهما ثالث ، وقد وصفهما الحديث الذي رواه البخاري بسنده إلى حذيفة بن اليمان قال : كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني ، فقلت : يا رسول الله ، إنا كنا في جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد الخير من شر ؟ قال : نعم ، قلت : وهل بعد الشر من خير ؟ قال : نعم ، وفيه دخن . قلت : وما دخنه ؟ قال : « قوم يهدون بغير هدى ، تعرف منهم وتذكر » ، قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : نعم ، « دعاة إلى أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها » قلت : يا رسول الله ، صفهم لي . قال : هم من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا . قلت : يا رسول الله ، فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم . قلت : فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت ، أُنْتِ عاصية . أنته الحديث .

معانيه الفأس ، والكاتب من معانيه المخرب ، والكتابة من معانيها الخيانة ؛  
قال لي الحديث : أفهمت ؟

هكذا يجب تأمل الجمال الفنى فى كلامه صلى الله عليه وسلم ، فهو كلام  
كلما زدت فكراً زادك معنى ، وتفسيره قريب قريب كالروح فى جسمها  
البشرى ، ولكنه بعيد بعيد كالروح فى سرها الإلهى ، فهو معك على قدر  
ما أنت معه ، إن وقفت على حد وقف ، وإن مدت مد ، وما أدبت به  
تأدى ، وليس فيه ، شئ مما تراه لكل بلغاء الدنيا من صناعة عبث القول ،  
وطريقة تأليف الكلام ، واستخراج وضع من وضع ، والقيام على الكلمة  
حتى تبيض كلمة أخرى ... ، والرغبة فى تكثير سواد المعانى ، وترك اللسان  
يطيش طيشه اللغوى يتعلق بكل ماعرض له ، ويحذو الكلام على معانى  
ألفاظه ، ويحتاج له منها ويستكرهها على أغراضه ، وبطلب لصناعته من  
حيث أدرك وعجز ، ومن حيث كان ولم يكن ؛ إنما هو كلام قيل لتصير به

---

== فتأمل قوله : يهدون بغير هدى ، تعرف منهم وتنكر ، ؛ فهؤلاء هم الذين يريدون  
الإصلاح للمسلمين لامن طريق الإسلام بل من طرق أخرى فيها معروفها ومنكرها ،  
وفيهما علمها وجهلها ، وفيها عقلها وحماقتها . ولعل من هذا قولهم : المدنية الأوروبية  
بحسناتها وسبباتها ... وتأمل قوله : إلى أبواب جهنم ، فليست الدعوة إلى باب واحد  
بل إلى أبواب مختلفة لعل آخر ما فتحوها منها باب الأدب المكشوف ...

ثم تأمل قوله صلى الله عليه وسلم : ولو أن تعض بأصل شجرة ، فإن  
معناه الاستمسك بما بقى على الطبيعة السليمة ، لا يستطيع أولئك أن يغيروه  
ولا أن يحدوده ، أى بالاستمسك ولو بأصل واحد من قديم الفضيلة والإيمان ،  
وعبارة العنصر بأصل شجرة تمثل أبداع وأبلغ وصف لمن يلزم أصول الفضائل  
فى هذا الزمن ، ومبلغ ما يعانى فى التمسك بفضيلته ، وهى وحدها فن كأجل ما يبدعه  
مصور عبقرى .

المعاني إلى حقائقها ، فهو من لسان وراء قلب ، وراءه نور ، وراءه الله جل جلاله ؛ وهو كلام في بجمعه كأنه دنيا أصدرها صلى الله عليه وسلم عن نفسه العظيمة ، لا تبرح ماضيه في طريقها سوى على دين الفطرة ، فلا تتسع لخلاف ، ولا يقع بها التنافر ؛ والخلاف والتنافر إنما يكونان من الحيوانية المختلفة بطبيعتها ، لقيامها على قانون التنازع تعدو به وتحترم وتأثم ، فهي نازلة إلى الشر ، والشر بعضه أسفل من بعض ؛ أما روحانية الفطرة فتسقة بطبيعتها ، لا تقبل في ذاتها افتراقاً ولا اختلافاً ؛ إذ كان أولها العلو فوق الذاتية ، وقانونها التعاون على البر والتقوى ؛ فهي صاعدة إلى الخير ، والخير بعضه أعلى من بعض .

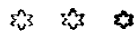
فكلامه صلى الله عليه وسلم يجرى مجرى عمله : كله دين وتقوى وتعليم ، وكله روحانية وقوة وحياة ؛ وإنه يخيل إلى وقد أخذت بطهره وجماله - أن من الفن العجيب أن يكون هذا الكلام صلاة وصياماً في الألفاظ .

أما أسلوبه صلى الله عليه وسلم فأجد له في نفسه روح الشريعة ونظامها وعزيمتها ، فليس له إلا قوة قوة أمر نافذ لا يتخلف ، وإن له مع ذلك نسقاً هادئاً هدوء اليقين ، مبيناً بيان الحكمة ، خالصاً خلوص السر ، واقعاً من النفس المؤمنة موقع النعمة من شاكرها ؛ وكيف لا يكون كذلك وهو أمر الروح العظيمة الموجهة بكلمات ربها ووحيه ، ليتوجه بها العالم كأنه منه مكان المحور : دورته بنفسه هي دورته بنفسه وبما حوله ، روح نبي مصلح رحيم ، هو باصلاحه ورحمته في الإنسانية ، وهو بالنبوة فوقها ، وهو بهذه وتلك في شمائله وطباعه مجموع إنساني عظيم لو شبه بشيء ل قيل فيه : إنه كمجموع القارات الخمس لعمران الدنيا .

ومن درس تاريخه صلى الله عليه وسلم وأعطاه حقه من النظر والفكر

والتحقيق ، رأى نسقاً من التاريخ العجيب كنظام فلك من الأفلاك موجه بالنور في النور من حيث يبدأ إلى حيث ينتهى ، فليس يمتري عاقل يميز أن هذه الحياة الشريفة ، بذلك النظام الدقيق ، في ذلك النوجه المحكم - لا يطيقها بشر من لحم ودم على ناموس الحياة إلا إذا كان في لحم ودمه معنى النور والكهرباء على ناموس أقوى من الحياة .

ولم يكن مثله صلى الله عليه وسلم في الصبر والثبات واستقرار النفس واطمئنانها على زلازل الدنيا ، ولا في الرحمة ورقة القلب والسمو فوق معاني البقاء الأرضي ؛ فهو قد خلق كذلك ليغلب الحوادث ويتسلط على المادة ؛ فلا يكون شأنه شأن غيره من الناس : تدفنهم معاني التراب وهم أحياء فوق التراب ، أو يحدّهم الجسم الانساني من جميع جهاتهم بحدود طباعه ونزعاته ؛ وبذلك فقد كان عليه الصلاة والسلام منيع تاريخ في الإنسانية كلها دائماً ، ولرأس الدنيا نظام أفكاره الصحيحة .



عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : انطلق ثلاثة رهط بمن كان قبلكم حتى أووا المبيت إلى غار فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا : إنه لا يُنجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم ! فقال رجل منهم : اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً (\*) فنادى بي في طلب شيء يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما ، فخلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين ، ففكرت أن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً ، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر ، فاستيقظا فشربا غبوقهما اللهم

(\*) أى لا يسقى الغبوق أحداً من أهله أو جماعته قبلهما

إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك ففرّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة !  
فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : وقال الآخر : اللهم كانت لي بنت عم كانت  
أحبّ الناس إليّ ، فأردتها عن نفسها فامتنعت مني ، حتى أملتُ بها سنةً من  
السنين <sup>(٥)</sup> فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها !  
ففعلتُ ، حتى إذا قدرت عليها قالت : لا أحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه !  
فانفرجت من الوقوع عليها ، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إليّ ، وترك  
الذهب الذي أعطيتها . اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا  
ما نحن فيه ! فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : وقال الثالث : اللهم إني استأجرت أجراءً  
فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب ، فتممّرت أجره حتى  
كثرت منه الأموال ، فجاءني بعد حين فقال : يا عبد الله ، أدّ إليّ أجرى .  
فقلت له : كلُّ ما ترى من أجرك ، من الإبل والبقر والغنم والرقيق ! فقال :  
يا عبد الله لا تستهزئ بي ! فقلت : إني لا أستهزئ بك ! فأخذه كله فاستاقه فلم  
يترك شيئاً اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه !  
فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون . انتهى الحديث .

وأنا فإست أدري ، أهذا هو النبي صلى الله عليه وسلم يتكلم في الإنسانية  
وحقوقها بكلام بين صريح لافلسفة فيه ، يحمل ما بين الإنسان والإنسان من  
النية هو ما بين الإنسان وربّه من الدين ؛ أم هي الإنسانية تنطق على لسانه  
بهذا البيان العالي ، في شعر من شعرها ضاربة فيه الأمثال ، مشيرة فيه إلى  
الرموز ، واضعة إنسانها بين شدة الطبيعة ورحمة الله ، محكمة عناصر روايتها

الشعرية ، محققة في بيانها المكشوف أغمض معانيها في فلسفة الحاسة الإنسانية حين تتصل بأشياءها فتظهر الضرورة البشرية وتختفي الحكمة ، وفلسفة الروح حين تتصل بهذه الأشياء ذاتها فتظهر الحكمة وتختفي الضرورة - مينة أثر هذه وتلك في طبيعة الكون ، مقرررة أن الحقيقة الإنسانية العالية لن تكون فيما ينال الإنسان من لذته ، ولا فيما ينجح من أغراضه ، ولا فيما يقنعه من منطق ، ولا فيما يلوح من خياله ، ولا فيما ينتظم من توائمه ؛ بل هي السمو على هذه الحقائق الكاذبة كلها ، وهي الرحمة التي تغلب على الأثرة فيسميها الناس برًا ، والرحمة التي تغلب على الشهوة فيسميها الناس عفة ، والرحمة التي تغلب على الطمع فيسميها الناس أمانة ؛ وهي في ضبط الروح لثلاث من الحواس : حاسة الدعة التي يقرم بها حظ الخمول ، وحاسة اللذة التي يقوم بها حظ الهوى ، وحاسة التملك التي يقوم بها حظ القوة .

وتزيد الإنسانية على ذلك في نسق شعرها أنها أثبتت أن البر من العفة والأمانة هو على إطلاقه كالأساس لهما ؛ فمن نشأ على بر أبويه كان خليقاً أن يتحقق بالعفة والأمانة ، وأن العفة من الأمانة والبر هي مساكهما وجامعتهما في النفس ، وأن الأمانة من البر والعفة هي كمال هذه الفضائل ، وكلهن درجات لحقيقة واحدة ، غير أن بعضها أسمى من بعض في الشأن والمنزلة ، وبعضها طريق لبعض يجر سبب منها سبباً منها ؛ وأن الرحمة الإنسانية التي هي وحدها الحقيقة الكبرى إنما هي هذا الحب ، بادئاً من الولد لأبويه ، وهو الحب الخاص ؛ ثم من المحب لحبيبه ، وهو الحب الأخص ، ثم من الأنسار للإنسانية ، وهو الحب مطلقاً بعمومه وبغير أسبابه الملجئة من الحاجة والغريزة ؛ وهي درجات كدرجات الحياة نفسها من طفولتها إلى شبابها إلى الشيخوخة ، ومن العاطفة إلى الرغبة إلى العقل .



ثم إنه مادام كمال الفضيلة هو الأمانة ، فما قبلها أنواع منها ؛ فبرّ الولد أمانة الطبع المتأدب ، وعفة المحب أمانة القلب الكريم ، والثالثة أمانة الخلق العالى ، وهى أسماهن ، لأنها لن تكون خلقاً ثابتاً إلا وقد خضع لقانونها الطبع والقلب ، ودخل فى أسبابها الأدب والكرم ؛ فالأمانة الكاملة فى هذه الفلسفة هى الأمانة الإنسانية العامة المتصلة بالمرء من أبعد جهاته ، دون الإنسانية الخاصة بكل شخص من أب ، أو أم ، أو قريب ؛ ودون التى هى أخص وهى إنسانية الحب .

ونرى فى لفظ الحديث أن كل رجل من هؤلاء الذين مثلوا رواية الإنسانية الفاضلة فى فصولها الثلاثة ، لا يقول إنه فعل ما فعل من صالح أعماله إلا (ابتغاء وجه الله) ، وقد تطابقوا جميعاً على هذه الكلمة ، وهى من أدق ما فى فلسفة الإنسانية فى شعرها ذلك ، فإن معناها أن الرجل فى صالح عمله إنما كان مجاهداً نفسه ، يمنعها ما تحرص عليه من حظها أو لذتها أو منفعتها ، أى منخلعاً من طبيعته الأرضية المنازعة لسواها ، المنفردة بذاتها ، متحققة بالطبيعة السماوية التى لا يرحم الله عبداً إلا بها ، وهى رحمة الإنسان غيره ، أى اندماجه باستطاعته وقوته ، وإعطاؤه من ذات نفسه ، ومعاونته كفأذاه .

والحديث كالنص على أن هذه الرحمة فى النفس هى الدين عند الله ، لا يصلح دينٌ بغيرها ، ولا يقبل الله صرفاً ولا عدلاً من نفس تخلو منها ؛ وإذا كانت بهذه المنزلة ، وكانت أساس ما يفرض على الإنسان من الخير والحق ، فهى من ذلك فى معنى الحديث أساس ما يصلح هذه الإنسانية من الشر والباطل ؛ وبهذا كله تكون الغاية الفلسفية التى ينتهى إليها كلامه صلى الله عليه وسلم ، أن تلمسنة الناس على البر والعفة والأمانة الإنسانية هى وحدها الطريقة العملية الممكنة لحل معضلة الشر والجريمة فى الاجتماع البشرى . وانظر كيف

جعل نهاية السمو في رحمة المال الذى يصفونه بأنه شقيق الروح ، فكأن الإنسان لا يخرج فيها لغيره من بعض ماله ، بل ينخلع من بعض روحه ؛ وهذا يقرر لك فلسفة أخرى : أن السعادة الانسانية الصحيحة فى العطاء دون الأخذ ، وأن الزائفة هى فى الأخذ دون العطاء ؛ وذلك آخر ما انتهت إليه فلسفة الأخلاق ؛ فما المرء إلا ثمرة تنضج بموادها ، حتى إذا نضجت وأحلّولت كان مظهر كمالها ومنفعتها فى الوجود أن تهب حلاوتها ؛ فإذا هى أمسكت الحلاوة على نفسها لم يكن إلا هذه الحلاوة بعينها سبب فى عفنها وفسادها من بعد . أفهمت ؟ ...

وما دمنا قد وصفنا رحمة المال ، فإننا نتم الكلام فيها بهذا الحديث العجيب فى فن تمثيله وبلاغة فنه : عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما خبتان من حديد ، من ثديهما إلى تراقيهما ؛ فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفّرت على جلده حتى تُخفى بنائه وتعفو أثره ، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها ، فهو يوسعها فلا تتسع . انتهى

فأنت ترى ظاهر الحديث ، ولكن فنه العجيب فى هذا الحديد الذى يراد به طبيعة الخير والرحمة فى الإنسان ، فهى من أشد الطبائع جموداً وصلابة واستعصاء متى اعترضتها حظوظ النفس الحريصة وأهواؤها ، ومع ذلك فإن السخاء بالمال يبسط منها وينتهى فى الطبع إلى أن يجعلها لينّة ، فلا تزال تمتد وتسبغ حتى يكون كمال طبع السخاء هو كمال طبع الخير فى النفس الكريمة ، فمن ألزم نفسه الجود والإنفاق راضها رياضة عملية كرياضة العضل بأثقال الحديد ومعاناة القوة فى الصراع ونحوه ؛ أما الشح فلا يناقض

تلك الطبيعة ولكنه يدها جامدة مستعصية لاتلين ولا تستجيب ولا تيسر .

وقد جعل الجبة من الثدى إلى التراقي ، وهذا من أبداع ما في الحديث ؛ لأن كل إنسان فهو منفق على ضروراته ، يستوى في ذلك الكريم والبخيل ، فهما على قدر سراءٍ من هذه الناحية ؛ وإنما التفاوت فيما زاد وسبغ من وراء هذا الحد ، فهنا يبسط الكريم بسطه الإنساني ، أما البخيل فهو « يريد » لأنه إنسان ، والإرادة عمل عقلي لا أكثر ، فإذا هو حاول تحقيق هذه الإرادة وقع من طبيعة نفسه الكزة فيما يعانيه من يوسع جبة من الحديد لزقت كل حلقة من حلقاتها في مكانها ، فهي مستعصية متماسكة ، فهو يوسعها فلا تنسع ألا ترى كيف تتوجه الحجة ، وكيف تدق الفلسفة وهي في أظهر البيان وأوضحه ؟ وهل تحسب طبيعة البخيل في دقائقها النفسية لو هي نطقت — بالغة من وصف نفسها هذا المبلغ من جمال الفن وإبداعه ؟ وهو بعدُ وصف لونقل إلى كل لغات الأرض لزانها جميعاً ، ولكان في جميعها كالإنسان نفسه : لا يختلف تركيبه ، فلن يكون بثلاثة أعين ، لافي بلاد شكسبير ولا في بلاد الزوج .

إن كلام نبينا صلى الله عليه وسلم يجب أن يترجم بفلسفة عصرنا وآدابه ، فستراه حينئذ كأنما قيل مرة أخرى من فم النبوة ، وستراه في شرحه الفلسفي كالازهار الناضرة : حياتها بشاشتها في النور ؛ وتعرفه إنسانية قائمة تصحح بها أغلاط الزمن في أهله ، وأغلاط الناس في زمنهم ؛ وتجده يرف على البشرية المسكينة بحنان كحنان الأم على أطفالها ، والناس الآن كالاطفال غابت أمهم ، فهم في تنافر صبيانى ... وما الأم بطبيعتها إلا الميزان لاستبدادهم ، والحكمة لطيشهم ، والائتلاف لتنافرهم ، والنظام لعبثهم ؛ وبالجملة فحنان قلبها الكبير

هو القانون لكل قضايا هذه القلوب الصغيرة  
وقد كتبنا في فلسفة الأدب وحقيقته ، ومعانيه الإنسانية ، وأن  
الأديب التام الأداة هو الإنسان الكوني ، وغيره هو الإنسان فقط ،  
وأن علم الأديب هو النفس الإنسانية بأسرارها المتجهة إلى الطبيعة ،  
والطبيعة بأسرارها المتجهة إلى النفس ؛ ولذلك فموضعه من الحياة موضع  
فكرة حدودها من كل نواحيها الأسرار - وأن الأديب مكلف تصحيح  
النفس الإنسانية ونفي التزوير عنها ، وإخلاصها مما يلتبس بها على تتابع  
الضرورات ، ثم تصحيح الفكرة الإنسانية في الوجود ، ونفي الوثنية عن هذه  
الفكرة ، والسمو بها إلى فوق ، ثم إلى فوق ، ودائماً إلى فوق (٥)

فإذا تدبرت هذا المقال ، واعتبرت كلام النبي صلى الله وسلم على ما بيننا  
وشرحنا ، وأخذته من عصره ومن العصر الذي نعيش فيه ، ونظرت إلى  
ألفاظه ومعانيه ، واستبرأت ما بينها من خواص الفن بمثل ما نبهناك إليه  
من التأويل الذي مريبك ، وعلمت أن كل حقيقة فنية لا تكون كذلك  
إلا بخاصة فيها ، وأن سر جمالها في خاصتها - إذا جمعت ذلك لم تر مذهباً  
عن الإفراز بأن النبي صلى الله عليه وسلم كما هو أعظم نبي وأعظم مصلح ،  
فهو أعظم أديب ؛ لأن فيه الأدبي أعظم فن يحقق للإنسانية حياة أخلاقها ،  
وهو بكل ذلك أعظم لإنسان . صلى الله عليه وسلم

\*\*\*

---

(٥) نشر هذا المقال في مقتطف شهر يوليو سنة ١٩٣٢ ، وأكثر ما فيه يعد متممياً لفلسفة  
هذا الفصل ؛ وسنجمع كل مقالاتنا في كتاب يصدر إن شاء الله في آخر صيف هذا العام ؟  
قلت : وأحسبه كان يعني كتابه « قول معروف ، وقد استغنى عنه بهذا الكتاب دوحى  
القلم » وقد نشرنا هذه المقالة في هذا الجزء وانظر ص ١٦٩ و ٢٣٤ « حياة الرافعي »

فالفن في هذه البلاغة هو في دقائقه أثرُ تلك الروح العليا بكل خصائصها العظيمة التي يحتاج إليها الوجود الروحاني على هذه الأرض ، ولذا ترى كلامه صلى الله عليه وسلم يخرج من حدود الزمان ، فكل عصر واجدٌ فيه ما يقال له ، وهو بذلك نبوة لا تنقضي ، وهو حي بالحياة ذاتها ، وكأنما هو لون على وجه منها كما ترى البياض مثلاً هو اللون على وجه طائفة من الجنس البشري ...

فإذا نظرت في هذا الفن فانظره في حديثه ، وفي عمله ، وفي الدنيا التي ألّفها من التاريخ تأليف القطعة البليغة النادرة من الكلام ، وردّ كل ما تدبرته من ذلك إلى تلك الروح الجديدة على تاريخ الأرض ؛ فلنعلن حينئذ أن كل بليغ ذو شمة مضيئة صنعت لها مادة النور نوراً وجمالاً ، بجانب هذه الشمس التي خلقت فيها مادة النور نوراً وجمالاً وحياة وقوة ؛ هناك نور لذي عينين ، وهنا النور لكل ذي عينين ؛ وذلك يتخيل كالحلم ، وهذا يفصح كالحقيقة ؛ وذلك ضوء من حوله الظلمة دائية ، وهذا قد طرد الظلمة عن نصف الدنيا إلى نصف الدنيا ؛ والأول نور بلا روح ، والثاني هو روح النور .

تلك في رأينا هي الطريقة التي كان يفهم بها أصحابه صلى الله عليه وسلم ، كما يفهم الشاعر نور القمر في ليلة صيف بهمان من الزمان والمكان ، ومن النفس والحالة ، ومن الهيئة والشكل ، ومن العين والفكر ، ومن السماء والأرض ؛ ففيه النور وزيادة ، أي الحقيقة وما ترتفع به على نفسها ؛ وبهذه الطريقة كانوا معه كأعظم فلاسفة الفن مع الفن إعجاباً وحباً واثقياً وطاعة حتى انخلعوا من عصرهم ودنياهم ، وخرجوا من أحوالهم وطبائعهم ، وانجذبوا إليه أشد انجذاب عرفه التاريخ ، وأصبحوا مصرّفين معه تصريف الحوادث لا تصريف الأشخاص ، وعادت أنفسهم وكأن تأثير الأرض يلنق فيها بتأثير .

( ٢٢٣ رحي القلم )

هو القانون لكل قضايا هذه القلوب الصغيرة

وقد كتبنا في فلسفة الأدب وحقيقته ، ومعانيه الإنسانية ، وأن  
الأديب التام الأداة هو الإنسان الكونى ، وغيره هو الإنسان فقط ،  
وأن علم الأديب هو النفس الإنسانية بأسرارها المتجهة إلى الطبيعة ،  
والطبيعة بأسرارها المتجهة إلى النفس ؛ ولذلك فموضعه من الحياة موضع  
فكرة حدودها من كل نواحيها الأسرار - وأن الأديب مكلف تصحيح  
النفس الإنسانية ونفى الزور عنها ، وإخلاصها مما يلتبس بها على تنابع  
الضرورات ، ثم تصحيح الفكرة الإنسانية في الوجود ، ونفى الوثنية عن هذه  
الفكرة ، والسمو بها إلى فوق ، ثم إلى فوق ، ودائماً إلى فوق (\*)

فإذا تدبرت هذا المقال ، واعتبرت كلام النبي صلى الله وسلم على ما بيننا  
وشرحنا ، وأخذته من عصره ومن العصر الذى نعيش فيه ، ونظرت إلى  
ألفاظه ومعانيه ، واستبرأت ما بينها من خواص الفن بمثل ما نبهناك إليه  
من التأويل الذى مريبك ، وعلمت أن كل حقيقة فنية لا تكون كذلك  
إلا بخاصة فيها ، وأن سر جمالها فى خاصتها - إذا جمعت ذلك لم تر مذهباً  
عن الإفراز بأن النبي صلى الله عليه وسلم كما هو أعظم نبي وأعظم مصلح ،  
فهو أعظم أديب ؛ لأن فنه الأدبى أعظم فن يحقق للإنسانية حياة أخلاقها ،  
وهو بكل ذلك أعظم إنسان . صلى الله عليه وسلم

\*\*\*

---

(\*) نشر هذا المقال فى مقتطف شهر يوليو سنة ١٩٣٢ ، وأكثر ما فيه يعد متممها لفلسفة  
هذا الفصل ؛ وسنجمع كل مقالاتنا فى كتاب يصدر إن شاء الله فى آخر صيف هذا العام ؟  
قلت : وأحسبه كان يعنى كتابه « قول معروف ، وقد استغنى عنه بهذا الكتاب ووحى  
القلم ، وقد نشرنا هذه المقالة فى هذا الجزء وانظر ص ١٦٩ و ٢٣٤ « حياة الرافعى »

فالفن في هذه البلاغة هو في دقائقه أثرُ تلك الروح العليا بكل خصائصها العظيمة التي يحتاج إليها الوجود الروحاني على هذه الأرض ، ولذا ترى كلامه صلى الله عليه وسلم يخرج من حدود الزمان ، فكل عصر واجدٌ فيه ما يقال له ، وهو بذلك نبوة لا تنقضي ، وهو حي بالحياة ذاتها ، وكأنما هو لون على وجه منها كما ترى البياض مثلاً هو اللون على وجه طائفة من الجنس البشري ...

فإذا نظرت في هذا الفن فانظره في حديثه ، وفي عمله ، وفي الدنيا التي ألّفها من التاريخ تأليف القطعة البليغة النادرة من الكلام ، وردّ كل ما تدبرته من ذلك إلى تلك الروح الجديدة على تاريخ الأرض ؛ فلنعلن حينئذ أن كل بلوغ هو شئمة مضيئة صنعت لها مادة النور نوراً وجمالاً ، بجانب هذه الشمس التي خلقت فيها مادة النور نوراً وجمالاً وحياة وقوة ؛ هناك نور لذي عينين ، وهنا النور لكل ذي عينين ؛ وذاك يتخيل كالعلم . وهذا يفصح كالحقيقة ؛ وذلك ضوء من حوله الظلمة دائية ، وهذا قد طرد الظلمة عن نصف الدنيا إلى نصف الدنيا ؛ والأول نور بلا روح . والثاني هو روح النور .

تلك في رأينا هي الطريقة التي كان يفهم بها أصحابه صلى الله عليه وسلم ، كما يفهم الشاعر نور القمر في ليلة صيف بمكان من الزمان والمكان ، ومن النفس والحالة ، ومن الهيئة والشكل ، ومن العين والفكر ، ومن السماء والأرض ؛ ففيه النور وزيادة ، أي الحقيقة وما ترتفع به على نفسها ؛ وبهذه الطريقة كانوا معه كأعظم فلاسفة الفن مع الفن إعجاباً وحُباً واثقياً وطاعة حتى انخلعوا من عصرهم ودنياهم ، وخرجوا من أحوالهم وطبائعهم ، وانجذبوا إليه أشد انجذاب عرفه التاريخ ، وأصبحوا مصرفين معه تصريف الحوادث لا تصريف الأشخاص ، وعادت أنفسهم وكأن تأثير الأرض يلنق فيها بتأثير

السماء فيغسل في سحب عالية فلا يكون فيها كما يريد الله ؛  
ورجعت قلوبهم لا تلبس على دينها رأيا ولا هوى ، وكأنما وضع لها هذا  
الدين حرساً على كل سمع وعلى كل بصر ؛ وبالجمله فأولئك قوم كأنما تنار لهم  
النبي صلى الله عليه وسلم وأفرغهم ثم ملأهم ، وما انتقلوا إلى منزلتهم العالية في  
الباريح إلا بعد أن نقلهم هو إلى منزلة من منازل نفسه الشريفة .

وناهيك من رجال يمثل لهم بهذا المثل الذى يضربه لهم في الإيمان ليباغوه  
أو يقاربوه ؛ فعن خباب بن الارت رضى الله عنه قال : شكونا إلى رسول الله  
صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة ، فلنا : ألا تستنصر  
لنا ؟ ألا تدعو الله لنا ؟ قال : كان الرجل فيمن قبلكم يُحضر له في الأرض  
فُيُجعل فيه فيُجاء بالمشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن  
دينه ، ويُمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك  
عن دينه !

فانظر يا هذا ، فإنه لو اجتمعت قوى الكون فجاءت يشد بعضها بعضاً  
فزات في عبارة من الكلام لتملأ نفوس المؤمنين بقوتها لما وضعت إلا هذا  
الوضع من هذا التمثيل بأمشاط المسامير وأسنان المشار في عظم الإنسان الحى  
ولحمه . وظاهر التمثيل على ما رأيت من العجب ، ولكن له باطنا أعجب من  
ظاهره ، وهو البلاغة كل البلاغة والبيان حق البيان ، فإنما يريد صلى الله  
عليه وسلم أن الحديد لا يأكل ولا يمزع من أولئك الأقوياء بإيمانهم عظما  
ولحما وعصبا ، بل هو حديد يأكل حديداً مثله أو أشد منه ، فإن الروح المؤمنة  
المسلطة على جسمها قوة تصنع هذه المعجزة ، فيمر الحديد في العظم واللحم  
والعصب يسلبها الحياة ، ولكنها تسلبه شدة وجلده وصبره !



وكل ما جاء من التمثيل في كلامه صلى الله عليه وسلم ينطوى فيه من إبداع الفن البياني وإعجازه ما يفوت حدود البلغاء ، حتى لا تشك إذا أنت تدبرته بحقه من النظر والعلم أن بلاغته إنما هي شيء كبلادة الحياة في الحى : هي البلاغة والكنها أبدع مما هي ، لأنها الحياة أيضاً .

وأنت خير أن هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم كانت تأخذه عند نزول الوحي عليه أحوالٌ وُصفت في كتب الحديث : قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً . وفي حديث آخر عنها قالت : فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر عنه مثل الجمان من العرق في يوم شاتٍ . وفي حديث زيد بن ثابت : فأنزل الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ونخذه على نخذى ، فثقلت على حتى خفت أن تُرض نخذى . وفي حديث يعلى بن أمية حين قال لعمر : أرني النبي صلى الله عليه وسلم حين يوحى إليه . وأشار عمر إلى ، فجئت وعلى رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوب قد أظل به فأدخلت رأسي ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمر الوجه وهو يغط ، أى يردد نفسه من شدة ثقل الوحي . فهذه كلها أحوال تصف عمل الدماغ بكل ما فيه من جهد القوى العصبية : ليرتفع بالحياة إلى ما فوقها ويتركها لوعى الروح وحدها ، لا يشاركها في هذا الوعي فكر ولا هاجس ، ولا يتصل به شيء من حياة الحى ، فيتحقق للنبي صلى الله عليه وسلم وجود آخر غير وجوده المحدود بجسمه وطباعه ودنياه ؛ ويخرج بوعيه من هذه الجاذبية الأرضية إلى ما وراء حدود الطبيعة من قوى الغيب ؛ وبذلك يتلقى عن روح الكون ، ثم يفصم عنه وقد وعى ما أوحى إليه . وما وصفه زيد بن ثابت من أن نخذه كادت ترضى — برهان قاطع على أن روحه صلى الله عليه وسلم تنسرح من

جسمه ساعة الوحي فيثقل الجسم ، لأنه إنما يخف بالروح وتبقى وظائف الحياة عاملة أعمالها بعسر وبطء ، لاتصالها بشعاع من الروح دون الروح بحملتها ؛ ولسنا هنا بصدد الكلام عن الوحي ، فله موضع إن شاء الله في كتابنا (أسرار الإعجاز) <sup>(١)</sup> وإنما نريد أن ندل على أن هذه التهيئة الإلهية لذلك الجهاز العصبي لها أثرها العظيم في فن بلاغته صلى الله عليه وسلم ، وبها امتاز عن كل بلغاء الدنيا ؛ فإن الملهم من أفذاذ العبقرين على هذه الأرض إنما يبلغ ما يبلغه ببعض هذا الذي رأيت ، وفي بعض هذا أبداع ما ورثت الدنيا من فنون البيان ، وكأن في الدماغ مادة في موضع منه يميز بها من تختارهم السماء لحكمتها وإلهادها ، وإذا كان فن العبقرين هو أسمى الكلام الإنساني ، لما خُصوا به من هذه التهيئة ، فإن فنه صلى الله عليه وسلم يكون ولا جرم من باب الأكبر مما هو أكبر في إلهام الإنسانية كلها .

ولهذه القوة البادرة كان بيانه قوياً على مزج معانيه بالنفس بما فيه من صنعة الحياة ، وإنما فلسفة البيان الفنى أن تمتد الحياة من النفس إلى اللفظ ، فتصنع فيه صنعها ، فنفصل العبارة العنية عن كاتبها أو قائلها وهي قطعة من كلامه ، لتستحيل عند قارئها أو سامعها قطعة من الحياة في صورة من صور الإدراك ؛ فالبيان الفنى هو الوسيلة لحمل الوجود وبعثرته في مواضع غير مواضعه ، وخلقه خلقاً آخر في النفس الإنسانية ؛ وبذلك يؤول قوله صلى الله عليه وسلم : إن من البيان لسحراً . جعل نوعاً من البيان هو السحر ، لا البيان كله ، فالحديث كالنص على ما تسميه الفلسفة الأوربية اليوم ( بالبيان الفنى ) ، كأنه قال : إن من البيان فناً هو سحر من عمل النفس في اللغة تغير به الأشياء ، وله عجب السحرو تأثيره وتصرفه ؛ وهذا معنى لم يتدبه إليه أحد ، ولا يُذكر معه

كل ما قالوه في تفسير الحديث ، وبذلك الأول يكون هذا الحديث قد احتوى  
أسمى حقيقة فلسفية للفن .

ومن أثر تلك القوة أيضاً ما تراه من شدة الوضوح في كلامه صلى الله  
عليه وسلم ، واقد رأينا هذه البلاغة النبوية العجيبة قائمة على أن كل لفظ هو  
لفظ الحقيقة لا لفظ اللغة ، فالعناية فيها بالحقائق ، ثم الحقائق هي تختار ألفاظها  
اللغوية على منازلها ؛ وبذلك يأتي الكلام كأنه نطق للحقيقة المعبر عنها ،  
والكلمة الصادقة تنطق مرة واحدة ؛ فصورتها اللغوية لا تكون إلا صريحة  
منكشفة عن معناها المضى كأنما ألقى فيها النور .

وهو معلوم أنه صلى الله عليه وسلم لا يتكاف ولا يتعمّل ، ولم يكتب ولم  
يؤلف ، ومع هذا لا تجد في بلاغته موضعاً يقبل التنقيح ، أو تعرف له رقة  
من الشأن كأنما بين الألفاظ ومعانيها في كل بلاغته مقياس وميزان ، أو كأن  
هذه البلاغة تنبثق بالكلام على طبيعة عامة فيه بقواها الدائمة الثابتة ، ففتها  
الجميل هو التركيب الذي تجيء فيه كما ترى الشجر مثلاً كاسيامن ورقه وزهره ؛  
فأنت منه بازاء عمل جميل لأنك بازاء حقيقة طبيعية قد انفردت في ذاتها ،  
ومعنى انفرادها في ذاتها أنها كذلك هي ، فليس فيها موضع لشيء غير ما هو فيها ؛  
ثم لا تنس أن النبوة أكبر السبب في ذلك الوضوح البياني العجيب ؛  
فإن الحياة لا تستغلق في البلاغة بإنسان إلا وهي غنية عنه ؛ ولعل غموض  
بعض الفلاسفة وبعض الشعراء هو من دليل الطبيعة على أنهم زائدون في  
الطبيعة ... ألا ترى أن من أساليبهم الفلسفية والشعرية ما يجعل معنى الكلمة  
أحياناً هو نقض معناها <sup>(٥)</sup> إذ يتصنعون للفكر ويستجلبون له وبشقة

---

(٥) من ذلك قول جيته شاعر الألمان : إن الكل باطل ، معناه أن الكل ليس

بباطل . ولعل هذا في البديع الفكرى ، من باب أكل النفي للاثبات ...

فيه كما يفعل أهل صناعة الألفاظ بالألفاظ ، فهذه البديع اللفظي ؛ وهناك البديع  
الفكري ، ولا طائل وراءهما إلا صناعة وبهرجة .

ومتى كان النبي قسما من الحياة ، بل مادة لمعانها الجديدة ، فإن يكون بيانها  
إلا على ما وصفنا لك جمالا ، ووضوحاً ومنفعة ودقة وسمواً بقدر ذلك كله .



وهنا معنى نريد أن نذبه إليه ونتكلم في سره وحقيقته ، فانك تقرأ  
ما تجمع من الكلام النبوي فلا تصيب فيه ، تصيبه في بلاغة أدباء العالم بما  
فنه الكلام في المرأة ، والحب ، وجمال الطبيعة ، وهو في بلاغة الناس كالقلب  
في الجسم : لا تخلو منه ولا تقوم إلا به ، حتى تجد الكلام في المرأة وحدها  
شطر الأدب الإنساني ، كما أن المرأة هي شطر الإنسانية ، ولا يُعرف له  
صلى الله عليه وسلم في هذه الأغراض إلا كلمات بيانية جاءت بما يفوت الوصف  
من الجمال والدفقة ، متناهية في الحسن . ظاهرة في الدلالة ، يظهر في وجه بلاغتها  
ما يظهر في وجه العذراء من طبيعة الحياء والخفر : كقوله في النساء : « رفقا  
بالقوارير » ، وقوله لأسامة بن زيد ، وقد كساه قُبْطِيَّة (٥) فكساها امرأته  
« أخاف أن تصف حجم عظامها » . قال الشريف الرضي في شرح هذه الكلمة :  
وهذه استعارة ، والمراد أن القُبْطِيَّة برقتها تلصق بالجسم ، فتبين حجم الثديين ،  
والرادفتين ، وما يشتد من لحم العضدين والفخذين ، فيعرف الناظر إليها  
مقادير هذه الأجزاء ، حتى تكون كالظاهرة للحظة ، والممكنة للمسح ، فجعلها  
عليه الصلاة والسلام لهذه المحال كالواصفة لما خافها ، والمخبرة عما استتر بها ؛  
وهذه من أحسن العبارات عن هذا المعنى ، ولهذا الغرض رمى عمر بن الخطاب

---

(٥) بضم القاف ثوب من ثياب مصر رقيقة بيضاء ، وضعوا قافه فرقا بينه وبين  
ما ينسب إلى القبط من غير الثياب

في قوله : « إياكم ولبس القباطى » ، فإنها إلا تشتت تصف . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عذرة هذا المعنى ، ومن تبعه فإنما سلك فيه .

قلنا : وهذا كلام حسن ، ولكن في عبارة الحديث سرا هو من معجزات البلاغة النبوية لم يهتد إليه الشريف ، على أنه هو حقيقة الفن في هذه الكلمة بخاصتها ، ولا نظن أن بليغاً من بلغاء العالم يتأتى لمثله ، فإنه عليه الصلاة والسلام لم يقل : أخاف أن تصف حجم أعضائها ، بل قال : حجم عظامها ، مع أن المراد لحم الأعضاء في حجمه وتكوينه ، وذلك منتهى السمو بالأدب ، إذ ذكر « أعضاء » المرأة في هذا السياق ، وبهذا المعرض ، هو في الأدب الكامل أشبه بالرفق ، ولفظه « الأعضاء » تحت الثوب الرقيق الأبيض تنبه إلى صور ذهنية كثيرة هي التي عدّها الرضى في شرحه ، وهي تودع إلى صور أخرى من ورائها ، فتنزه النبي صلى الله عليه وسلم عن كل ذلك ، وضرب الحجاب اللغوى على هذه المعانى السافرة ... وجاء بكلمة « العظام » ، لأنها اللفظة الطبيعية المبرّأة من كل نزغة ، لا تقبل أن تلتوى ، ولا تشير معنى ، ولا تحمل غرضاً ؛ إذ تكون في الحى والميت ، بل هي بهذا أخص ؛ وفي الجميل والقبيح ، بل هي هنا أليق ؛ وفي الشباب والهرم ، بل هي في هذا أوضح . والأعضاء لا تفوم إلا بالعظام ، فالمجاز على ما ترى ، والحقيقة هي ما علمت

ومن كلماته في الوصف الطبيعي قوله صلى الله عليه وسلم وهو يذكر أوقات الصلاة : « العصر إذا كان ظل كل شيء مثله ، وكذلك ما دامت الشمس حية ، والعشاء إذا غاب الشفق إلى أن تضى كواهل الليل » وكواهل الليل : أوائله وفروعه المتقدمة منه ، كالذى يتقدم المطايا من أعناقها الممتدة بمض الامتداد ؛ وقوله وقد سأله رجل متى يصلى العشاء الآخرة ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إذا

ملاً الليل بطن كل واد ، ؛ وقوله : « إذا طلع حاجب الشمس فأخروا الصلاة حتى ترتفع » ؛ وقوله : « إن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع ، فقال له : ألسنتَ فيما شئت ؟ قال : بلى ، ولكي أحب أن أزرع . قال : فبذر فادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاده فكان أمثال الجبال ، . وقوله : « بنا رجل يمشى فاشتد عليه العطش ، فنزل بئراً ، فشرب منها ثم خرج ، فإذا بكنب ياهث يأكل الثرى من العطش ، فقال : لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي ! فلا خفه ثم أمسكه بفيه ، ثم رقي فسقى الكلب فشكر الله له ، فغفر له . قالوا يا رسول الله ، وإن لنا في البهائم أجراً ؟ قال : « في كل كبد رطبة أجر »

فهذا ونحوه من الفن البديع النادر ، وهو مع ذلك لا يأتي في كلامه صلى الله عليه وسلم إلا في مثل ما رأيت ، فلا يراد منه استجلاب العبارة ، ولا صناعة الخيال . فيظن من لا يميز ولا يحقق أن خـلو البلاغة النبوية من فن وصف الطبيعة والجمال والحب ، دليل على ما ينكره أو يستجفيه ، ويقول : بدأوة وسذاجة ونحو ذلك مما تشبهه الغفلة على جهلة المستشرقين ومن في حكمهم من ضعاف أدبائنا وجهلة كتابنا ؛ وإنما انتفى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم لا انتفاء الشعر عنه وكونه لا يلغى له كما بسطناه في موضعه<sup>(٥)</sup> ؛ فعمله أن يهدي الإنسانية لأن يزین لها ، وأن يدها على ما يجب في العمل ، لا ما يحسن في صناعة الكلام ، وأن يهديها إلى ما تفعله لتسمو به ، لا إلى ما تنخيله لتلهو به . والخيال هو الشيء الحقيقي عند النفس في ساعة الانفعال والتأثر به فقط ، ومعنى هذا أنه لا يكون أبداً حقيقة ثابتة ، فلا يكون إلا كذباً على الحقيقة . ثم هو صلى الله عليه وسلم ليس كغيره من بلغاء الناس : يتصل بالطبيعة ليستملي منها ؛ بل هو نبي مرسل متصل بمصدرها الأزلي ليملي فيها ، وقد كانت

آخر ابتسامته له في الدنيا ابتسامته للصلاة<sup>(٥)</sup> يتهايل لطهارة النفس المؤمنة وجعلها قائمة بين يدي خالقها ، مدسكباً في طهارتها روح النور ، وكل إنسان إنما يبدو الكون في عينه على ما يرى مما يشبه ما في نفسه ، فكل مارآه المصلي الخاشع في صلاته<sup>(٥٥)</sup> يبدر له كأنه يصلي في ضرب من العبادة على نحو من الدين ، وكل مارآه السكران في سكره يكاد يراة متخبطاً يعربد ما ينماسك ! ثم إن الكلام في وصف الطبيعة والجمال والحب على طريقة الأساليب البيانية ، إنما هو باب من الأحلام ؛ إذ لا بد فيه من عيني شاعر ، أو نظرة عاشق ؛ وهنا نبي يوحى إليه ، فلا موضع للخيال في أمره ، إلا ما كان تمثيلاً يراة به تقوية الشعور الإنساني بحقيقة ما في بعض ما يعرض من باب الإرشاد والموعظة ، كما مر بك من أمثله ، وكقوله صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه ! » وهذا كلام أبلغ ما أنت واجدٌ من تفسيره تلك النفس المؤمنة بإحساسها الرقيق ، كأنه حاسة من النور رُكبت في شعورها ، وتلك النفس الفاجرة بإحساسها الغليظ ، كأنه حاسة من التراب ...

ويكاد المؤمن الذي يسمع هذا الوصف يذكّر ذنوبه - أن يحس بحركة

---

(٥) عن أنس أن أبا بكر كان يصلي بهم في وجع النبي صلى الله عليه وسلم الذي توفي فيه ، حتى إذا كان يوم الاثنين وهم صفوف في الصلاة ، فكشف النبي صلى الله عليه وسلم ستر الحجره ينظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف ، ثم تبسم يضحك ، فهممنا أن نفتن من الفرح بروية النبي صلى الله عليه وسلم ، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف ، وظن أن النبي صلى الله عليه وسلم خارج إلى الصلاة ، فأشار إلينا النبي صلى الله عليه وسلم أن أنموا صلاتكم ، وأرخى الستر ، فتوفي من يومه .

(٥٥) من الكلمات الجميلة الدقيقة في نحو هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام : لا تزالون في صلاة ما انتظرت الصلاة !

جبل يهيم أن ينقاع فيميل عليه ، أما الفاجر فيسمعه يذكره ذنوبه فإذا هي في خياله نقط سود تمر مرور الذباب ، ليس منه إلا الحس به ، كما يحس من يضرب على أنفه برجل ذبابة ... وجعل الذباب يمر على أنفه دون عينه أو فمه ، وذلك منتهى الجمال في التصوير ، لأن الذباب إذا وقع على الفم أو العين ثبت وألح ، فإذا وقع على قصبه الأنف لم يكذب يقف ومر مروره .

الكون في نظر النبي صلى الله عليه وسلم آية الحكمة لا آية الفن ، ومنظر المستيقن لا منظر المتخيل ، ومادة العبودية لله لا مادة التأله الإنسان ، وبذلك حرم الإسلام أشياء وكره أشياء لا يكون الفن بغيرها فنا ، في ضروب من الشعر والتصوير والموسيقا والحب ، لأنه إنما ينظر الإنسان واحداً وجمعاً ، وحاضراً وآتياً ؛ وواجباً ومنفعة . ولذة وألماً ؛ وهذه كلها لا إطلاق فيها إلا من أجل القيد ، على حين أن الفن لا قيد فيه إلا من أجل الإطلاق ، وأساس الدين حظ الجماعة هو قيودها ، وأساس الفن حظ الفرد وحرية : وهذه الحياة لا تبدو في حالة تركيب وانتظام إلا إذا كانت لكل . فإذا كانت لفرد ظهرت في هيئة انحلال وانتقاض ، وأصبحت في الكون كله كأنها عمر إنسان واحد .

ثم إن للفن ألواناً لا بد منها لتصويره الجميل الذي تعجب به النفس ، والشيطان هو اللون الأحمر فيها ... أي هو أشدها زهراً وإشراقاً وجمالاً في التصوير الفني لكل ما في المرأة والحب والجمال وشهوات النفس ، ولأننا ننسركر أن الحياة القوية حين تمتاز بها هذه الفنون تكسب مرحاً ونشاطاً ويكون لها رونق ، وفيها متاع ؛ ولكن الحياة لا تكون بها كذلك إلا من أنها تحتسى نحرها ... فلها بعد من عاقبة هذه الفنون شبيه بما يكون للجسم القوى من عاقبة الخمر إذا تغلغلت الخمر في شعاب كبده وأحالت رطبها يابسة ،



كما وقع في أطوار كثيرة من تاريخ الأمم : فليس الاعتبار في هذا التشبيه بما  
يعرض من تأثير الساعة الزائلة بأفراحها وفن حيانها ، بل الشأن للعاقبة المحتومة  
متى جاءت ساعاتها الباقية بأحزانها وفن هلاكها ، فلا سلام فيما حرم وكره  
من ذلك لم يزد على أن أراد للحياة أن تحيا ، لأنه لا يقر صورة من صور  
انتحارها .

ومن كان أكبر عمله إنشاء الحقائق الإنسانية وتقريرها شريعة وعاطفة  
وأعمالا ، فلا جرم كان منه غير الذي أكبر عمله تمويه تلك الحقائق وزخرفتها  
ليقع الإحساس بها على غير وجهها ، فتخف بالواقع منها على النفس خفة  
الكذب في ساعة تصديقه ؛ وهذا هو أكبر عمل الشعر

وهنا سر دقيق لا يتم كلامنا إلا بشرحه ، لنقطع القول في هذا المعنى ،  
فيظهر حقه من باطله : قلما آنفأ إن النى صلى الله عليه وسلم ليس كغيره من  
بلغاء الناس : يتصل بالطبيعة يستمل منها ، بل هو نبي مرسل متصل بمصدرها  
الأزلى ليملى فيها . ومعنى هذا أنه لا يعرض له من زيغ النفس ما يعرض لغيره  
من الناس ، فأحكم حكماء الدنيا لا يستطيع أن يتبين جزءاً صغيراً من الكون  
على حقيقته ؛ إذ كانت حواس الجسم غير مهياة لذلك ، ففهم جزء من الكون  
فهماً صادقاً جزءاً لا يتم إلا بفهم الكون بأجمعه ، فهو كله ذرة مكبرة إلى  
ملا ينتهى ولا يحد ، وليست النبوة شيئاً غير الاتصال بالسر

والحاضر الذى يكون فى إنسان من الناس ، هو حاضر ليس غير ، لأنه  
يتحول ويفنى ، فهو من الزيغ الذى يعترى النفس ، ومنه كل أغراض الحياة  
البشرية الفانية ، ولهذا كان طابع الله على نبينا صلى الله عليه وسلم هو تجريده  
من زيغ الهوى وسرف الطبيعة ، فهو من الناس ولكنه متخلق بأخلاق الله  
سبحانه ، وله فى هذا الباب ما ليس لأحد ولا يطيقه أحد ، ويجب على من

يقرأ سيرته وشمائله وحديثه أن يبحث دائماً عن طابع الله في كل شيء منها ، فإنه سيرى حينئذ كأنه يدرسها مع الملائكة لا مع الناس ، وسيظهر له من تفسيرها أن الدنيا لم تستطع تحقيق غايتها الأخلاقية العليا إلا فيها ، وأنه صلى الله عليه وسلم كان إنساناً ، وكان أيضاً حركة في تقدم الإنسانية : وأن من معجزاته أنه أطاق في تاريخه ما عجزت عنه البشرية في تاريخها ، وأن كل أموره صلى الله عليه وسلم موضوعة وضعاً إلهياً كأنها صفات كوَّنها الله وعلقها في التاريخ لمعانى الحياة ، تعليق الشمس في السماء لمواد الحياة .

إن الشهوات والمصالح إنما هي حصر النفس في جانب من الشعور محدود بلذات وهموم وأحاسيس تجعل غرض الإنسان في الإنسان نفسه ، فهو كما يملأ معدته ويتأنق في الاختيار لها ، يريد من كل ذلك أن يملأ شخصه على هذه الطريقة بعينها ، طريقة إشباع معدته ... وبهذا تسخر منه حقائق الكون ، لأنها لا تحد بشخص ، ولا تنحصر في أحد ، وكل من كانت حدود الإنسانية جسمه ولذات جسمه ، فهو في مقدار هذا الكون كالميت المحدود من الأرض كلها بقبره وتراب قبره ؛ وإنه ليجد جسمه وأكاذيب الطبيعة عليه ، ولكنه لن يجد الروح وحقائقها ؛ وإذا لم يجد هذه فلن يعرف الكون وأسراره ؛ وإذا فقد هذا فهو الحاضر الضيق المشوه المكذوب ، ومن ثم ففنه شهوة إحساسه وإن كان مخدوعاً ، وشهوة نظره وإن كان ملتبساً عليه ، وشهوة خياله ، وإن كان التوبة والزور . والحاضر الضيق المشوه المكذوب الخادع هو المسمى في لغة القرآن والحديث « بالدنيا » ؛ فإذا اتسع الإنسان لروحه وأدرك حقيقتها ، وعى ما بينها وبين الكون ؛ وأخذ يحقق هذه الروح السماوية في أعماله ، وتخطى حدود جسمه إلى فكرة الخلود ؛ فهذا كله هو المسمى في لغة القرآن والحديث « بالآخرة » ؛ فهما كلمتان في منتهى الإبداع من الفن والفلسفة ؛ وعلى ذلك يؤول قوله صلى الله عليه وسلم في

خطبته : من كان همه الآخرة جمع الله شمله ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة ؛ ومن كان همه الدنيا فرق الله أمره وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له .

وأنت إذا فسرت هذه الكلمات بما وصفنا لك ووجهتها على ذلك التأويل ، رأيت عجائب معانيها لا تنقضي ، وأدركت سر قوله صلى الله عليه وسلم : « إني على علم من الله علّمني » فأتساع الذات الإنسانية ومادّتها لحقائق الكون ، يجعل الإنسان كالكون نفسه ، مجتمعاً غير مفرق على هموم الحياة ؛ ويجعل الغنى معنى لا مادة ؛ ولو امتلك إنسان من الناس كل ما طلعت عليه الشمس ، وكان له كنز في المشرق وكنز في المغرب ، لما بلغ شيئاً قليلاً من لذة هذا المعنى في قلبه ؛ وفي هذه الحالة تصبح الدنيا العريضة التي يهلك الناس في تحصيلها وليست إلا ضرورة صغيرة ، قد تكون في ثوب واققيات ونحوها بما لا خطر له ، وهذا هو إرغامها وهي مالكة الملوكة ، فإذا ضاق الإنسان عن روحه أصبحت النفس كالمنخل يوضع الدقيق الناعم فيه ليخرج منه فيمسكه كله ولا يمسك منه شيئاً ، ووضع بين عينيها معنى الفقر ، فهي تعمل أبداً لتمتاع ، ولا تمتاع أبداً ؛ وإذا كان المنخل متخذاً على الطريقة التي صنع بها ، فققره ولا جرم معلق عليه من ذات تركيبه . « أفهمت » ؟

ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم متساوقاً مع الحقيقة ، متصلاً بها ، محدوداً بربه لا بنفسه ، كان لذلك خارجاً من حاضر ما نحن فيه ، يمتدأ بمعناه الإنساني الكامل إلى المستقبل الذي وراء الحياة ، فما نحصره نحن بطبيعتنا في بعض الأسماء ، لا يلتفت هو إليه بطبيعته ؛ ومن ذلك أوصاف الغنى والخلية والنعيم والمتاع والجمال والمطعم والمشرب ، وما داخل الطبيعة من مثل معانيها ، وما جرى هذا المجرى ، فهذا كله يراه الناس من جهة الحاجة إليه والمطمع فيه ؛ إذ كان ضعف إدراكهم وضيق وعيهم بما يدرع لهم أكاذيب الخيال ، فتجىء

من ذلك أوصافهم وفنون أوصافهم ؛ أما النبي صلى الله عليه وسلم فيرى ذلك من ناحية الغنى عنه والسمو عليه ؛ إذ كان لا ينظر بطبيعة روحه العظيمة إلا أعلى النظريين وأطهرهما ، فأخر إدراكنا للحقيقة والطبيعة أول إدراكه هو للطبيعة والحقيقة ، وما تعجز عنه الإنسانية تبدأ منه النبوة .

وعلى هذا فإن من أقوى البراهين على كماله صلى الله عليه وسلم ونبوته واتساع روحه ونفاذ إدراكه لحقائق الـكون - أنه لم يتبسط في تلك الفنون كما يصنع البلغاء ، ولم يأخذ مأخذهم فيها ؛ إذ كانت كلها من أكاذيب القلب والفكر والعين .

وفي قانون الحقيقة أن الأشياء هي كل الأشياء وهي كما هي ، أما في قانون الكذب فالأشياء كلها هي ما تختاره أنت منها ، وكما تختاره .

بحسب الدنيا من جمال فنه صلى الله عليه وسلم ما يضيف إلى الحياة عظمة الأشياء العظيمة ، ويدفع الإنسانية في طريقها الواحد الذي هو بين الأب والأم ، طريق الأخ إلى أخيه ، يكون في الدنيا بين الرجلين كما هو في الدّم بين القلبين رحمة ومودة ؛ وبحسبنا من جمال هذا الفن ما يهدي الإنسان إلى حقيقة نفسه ؛ فيقره في الحقيقى من وجوده الإنسانى ؛ ويجعل الفضائل كلها تربية للقلب ؛ يكبر بها ثم يكبر ؛ ثم لا يزال يكبر حتى يتسع لحقيقة هذه الكلمة الكبرى : الله أكبر

## قرآن الفجر<sup>(١)</sup>

كنتُ في العاشرة من سنّي وقد جمعتُ القرآنَ كلّهُ حفظاً وجودتهُ بأحكام القراءة ؛ ونحن يومئذ في مدينة (دمهور) عاصمة البحيرة ؛ وكان أبي رحمه الله كبير القضاة الشرعيين في هذا الإقليم ، ومن عادته أنه كان يعتكفُ كل سنة في أحد المساجد عشرة الأيام الأخيرة من شهر رمضان ؛ يدخل المسجد فلا يبرحه إلا ليلة عيد الفطر بعد انقضاء الصوم ؛ فهناك يتأمل ويتعبد ويتصل بمعناه الحق ، وينظر إلى الزائل بمعنى الخالد ، ويطل على الدنيا لإطلال الواقف على الأيام السائرة ، ويغير الحياة في عمله وفكره ، ويهجر تراب الأرض فلا يمشي عليه ، وتراب المماني الأرضية فلا يتعرض له ، ويدخل في الزمن المتحرر من أكثر قيود النفس ، ويستقر في المكان المملوء للجميع بفكرة واحدة لا تتغير ؛ ثم لا يرى من الناس إلا هذا النوع المرطب الروح بالوضوء ، المدعّر إلى دخول المسجد بدعوة القرة السامية ، المنحني في ركوعه لينخضع لغير المعاني الذليلة ، الساجد بين يدي ربه ليذكر معنى الجلال الأعظم .

وما هي حكمة هذه الأمكنة التي تقام لعبادة الله ؟ إنها أمكنة قائمة في الحياة ، تُشعر القلب البشريّ في نزاع الدنيا أنه في إنسان لا في بهيمة ...



وذهبتُ ليلةً فبتُ عند أبي في المسجد ؛ فلما كنا في جوف الليل الأخير أيقظني للسّحور ، ثم أمرني فتوضأت لصلاة الفجر وأقبل هو على قراءته ؛  
(١) أنشأها قبل موته بثلاثة أشهر ، فاعجب له يذكر أوليته وهو على أبواب آخرته ... !

فلما كان السَّحَرُ الأعلى هتف بالدعاء المأثور : اللهم لك الحمد ؛ أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد ؛ أنت بهاء السموات والأرض ، ولك الحمد ؛ أنت زين السموات والأرض ، ولك الحمد ؛ أنت قيام السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن ؛ أنت الحق ومنك الحق ... إلى آخر الدعاء .

وأقبل الناس يفتابون المسجد ، فأنحدرنا من تلك العليّة التي يسمونها ( الدّكة ) وجلسنا ننتظر الصلاة . وكانت المساجد في ذلك العهد تضاء بقناديل الزيت ، في كل قنديل ذبالة يرتعش النور فيها خافئاً ضئيلاً يَبْصُ بصيصاً كأنه بعض معاني الضوء لا الضوء نفسه ؛ فكانت هذه القناديل والظلام يرتج حولها ، تلوح كأنها شقوق مضيئة في الجو ، فلا تكشف الليل ولكن تكشف أسرارهِ الجميلة ، وتبدو في الظلمة كأنها تفسيرٌ ضعيف لمعنى غامض يُومئ إليه ولا يُبيّنهُ ، فما تشعر النفس إلا أن العين تمتد في ضوئها من المنظور إلى غير المنظور كأنها سرّ يشف عن سرّ .

وكان لها منظر كمنظر الجوّم يُتم جمال الليل بإلقائه الشّعل في أطرافهِ العليا وإلباس الظلام زينته النورانية ؛ فكان الجالس في المسجد وقت السّحر يشعر بالحياة كأنها مخبوءة ، ويُحس في المكان بقايا أحلام ، ويسرى حوله ذلك المجهول الذي سيخرج منه الغد ؛ وفي هذا الظلام النوراني تنكشف له أعماقه منسكباً فيها روح المسجد ، فتعتريه حالة روحانية يستكين فيها للقدر هادئاً وادعاً راجعاً إلى نفسه ، مجتمعاً في حواسه ، منفرداً بصفاته ، منعكساً عليه نورُ قابهِ ؛ كأنه خرج من سلطان ما يضيء عليه النهار ، أو كأن تلك الظلمة قد طمست فيه على ألوان الأرض .

ثم يشعر بالفجر في ذلك الغبش عند اختلاط آخر الظلام بأول الضوء ، شعوراً ندياً كأن الملائكة قد هبطت تحمل سحابة رقيقة تمسح بها على قلبه

ليَتَنَضَّرَ من يُبْس ، ويرقُّ من غاظه . وكأنما جاءوه مع الفجر ليتناول النهار  
من أيديهم مبدوءاً بالرحمة مفتتحاً بالجمال ؛ فإذا كان شاعر النفس التقى  
فيه النور السماوى بالنور الإنسانى فإذا هو يتلألاً فى روحه تحت الفجر .

\*\*\*

لا أنسى أبداً تلك الساعة ونحن فى جو المسجد ، والفناديل معلقة كالنجوم  
فى مناطها من الدلك ، وتلك السُّرج ترتعش فيها ارتعاش خواطر الحب ،  
والناس جالسون عليهم وقارُ أرواحهم ، ومن حول كل إنسان هدوء  
قلبه وقد استبهمت الأشياء فى نظر العين ليلبسها الاحساس الروحانى فى  
النفس ، فيكون لكل شيء معناه الذى هو منه ومعناه الذى ليس منه ،  
فيخلق فيه الجمال الشعرى كما يخلق للنظر المنخيل .

لا أنسى أبداً تلك الساعة وقد انبعث فى جو المسجد صوت غرد رخيم ،  
يشقُّ سُدفَةَ الليل فى مثل رنين الجرس تحت الأفق العالى وهو يرتل هذه  
الآيات من آخر سورة النحل :

« اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمُرْءُطَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ  
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ . وَإِنْ عَاقَبْتُمْ  
فَمَا قَبَّيْنَاهُ بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ ؛ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ . وَاصْبِرْ وَمَا  
صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ، وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ . إِنَّ  
اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ،

\*\*\*

وكان هذا القارئ يملك صوته أتم ما يملك ذو الصوت المطرب ؛ فكان  
يتصَّرف به أحلى مما يتصَّرف القمرى وهو ينوح فى أنغامه ، وبلغ فى التطريب  
كلَّ مبالغ يقدر عليه القادر ، حتى لا تفسَّر اللذة الموسيقية بأبداع مما فسرّها  
( ٢ ج ٣ رضى القلم )

هذا الصوت ؛ وما كان إلا كالبلبل هزته الطبيعة بأسلوبها فى جمال القمر ، فاهتزَّ  
يحاولها بأسلوبه فى جمال التغريد .

كان صوته على ترتيب عجيب فى نغماته ؛ يجمع بين قوة الرقة وبين رقة  
القوة ، ويضطرب اضطراباً روحانياً كالحنن اعتراه الفرح على فجأة ؛ يصيح  
الصيحة تترجح فى الجو وفى النفس ، وتتردد فى المكان وفى القلب ، ويتحول  
بها الكلام الإلهى إلى شىء حقيقى ، يلمس الروح فيرفض عليها بمثل الندى ،  
فإذا هى ترف رفيفاً ، وإذا هى كالزهرة التى مسحها الطل .

وسمعنا القرآن غصاً طرياً كأول ما نزل به الوحي ، فكان هذا الصوت  
الجميل يدور فى النفس كأنه بعض السر الذى يدور فى نظام العالم ؛ وكان  
القلب وهو يتلقى الآيات كقلب الشجرة يتناول الماء ويكسوها منه .

واهتز المكان والزمان كأنهما تجلى المتكلم سبحانه وتعالى فى كلامه ، وبدا  
الفجر كأنه وافى يستأذن الله أن يضىء من هذا النور !

وكنا نسمع قرآن الفجر وكأنما محيت الدنيا التى فى الخارج من المسجد  
وبطل باطلها ، فلم يبق على الأرض إلا الانسانية الطاهرة ومكان العبادة ؛  
وهذه هى معجزة الروح متى كانت الانسان فى لذة روحه مرتفعاً على  
طبيعته الأرضية

أما الطفل الذى كان فى يومئذ فكأنما دعى بكل ذلك ليحمل هذه  
الرسالة ويؤديها إلى الرجل الذى يحىء فيه من بعد ؛ فأنا فى كل حالة أخضع  
لهذا الصوت : ادعُ إلى سبيل ربك ؛ وأنا فى كل ضائقة أخضع لهذا الصوت ؛  
واصبر وما صبرك إلا بالله !



# اللغة والدين والعادات<sup>(١)</sup>

باعتبارها من مقومات الاستقلال

ليست حقيقة الأمة في هذا الظاهر الذى يبدو من شعب مجتمع محكوم بقوانينه وأوضاعه ؛ ولكن تلك الحقيقة هى الكائن الروحى المكتن فى الشعب ، الخالص له من طبيعته ، المقصور عاياه فى تركيبه كعصير الشجرة ؛ لا يرى عمله والشجرة كلها هى عمله .

وهذا الكائن الروحى هو الصورة الكبرى للنسب فى ذوى الوشيجة من الأفراد ، بيد أنه يحقق فى الشعب قرابة الصفات بعضها من بعض ؛ فيجعل للأمة شأن الأسرة ، ويخلق فى الوطن معنى الدار ، ويوجد فى الاختلاف زعة التشابه ، ويرد المتعدد إلى طبيعة الوحدة ، ويدع الأمة شخصيتها المتميزة ، ويوجب لهذه الشخصية بازاء غيرها قانون التناصر والحمية ، إذ يجعل الخواطر مشتركة ، والدواعى مستوية ، والوازع متآزرة ؛ فتجتمع الأمة كلها على رأى : تتساند له بقواها ويشد بعضها بعضاً فيه ؛ وبهذا كله يكون روح الأمة قد وضع فى كلمة الأمة معناها .

والخلق القوي الذى يلبسه الأمة كائنها الروحى ، هو المبادئ المنتزعة من أثر الدين واللغة والعادات ، وهو قانون نافذ يستمد قوته من نفسه ، إذ يعمل فى الحيز الباطن من وراء الشعور ، متسلطاً على الفكر ، مُصَرِّفاً لبواعث النفس ؛ فهو وحده الذى يملأ الحى بنوع حياته ، وهو طابع الزمن

---

(١) أنشأها للمسابقة الادبية العامة فى عهد على ماهر باشا سنة ١٩٣٦ ، وانظر ص ١٣١

على الأمم ، وكأنه على التحقيق وَضَعَ الأجدادِ علامتهم الخاصة على ذريتهم .



أما اللغةُ فهي صورةٌ وجودِ الأمة بأفكارها ومعانيها وحقائقِ نفوسها ، وجوداً متميّزاً قائماً بخصائصه ؛ فهي قوميةُ الفكر ، تتحدُّ بها الأمةُ في صور التفكير وأساليب أخذِ المعنى من المادة ؛ والدقةُ في تركيب اللغة دليلٌ على دقة الملاحظات في أهلها ، وعمقها هو عمقُ الروح ودليلُ الحس على ميل الأمة إلى التفكير والبحث في الأسباب والعوامل ، وكثرةُ مشتقاتها برهانٌ على نزعة الحرية وطماحها ، فإن رُوح الاستعباد ضيق لا يتسع ، ودأبه لزوم الكلمة والكلمات القليلة .

وإذا كانت اللغة بهذه المنزلة ، وكانت أمتها حريصة عليها ، ناهضةً بها ، متسعةً فيها ، مكبرةً شأنها ، فما يأتي ذلك إلا من رُوح التسلُّط في شعبها والمطابقة بين طبيعته وعمل طبيعته ، وكونه سيداً أمره ؛ وبحقِّ وجوده ، ومستعمل قوته ، والآخذ بحقه ؛ فأما إذا كان منه التراخي والإهمال وتركُ اللغة للطبيعة السوقية ، وإصغارُ أمرها ، وتهوينُ خطرِها ، وإيثارُ غيرها بالحب والإكبار ؛ فهذا شعبٌ خادم لا مخدوم ، تابع لا متبوع ، ضعيفٌ عن تكاليف السيادة ، لا يطيق أن يحمل عظمة ميراثه ، يُجترئُ ببعض حقه ، مكتفٍ بضرورات العيش ، يوضع لحكمه القانونُ الذي أكثره للحُرمان وأقلُّه للفائدة التي هي للحُرمان .

لا جرمَ كانت لغةُ الأمة هي الهدفُ الأول للمستعمرين ؛ فلن يتحوَّل الشعبُ أولَ ما يتحوَّل إلا من لغته ؛ إذ يكون منشأ التحوُّل من أفكاره وعواطفه وآماله ، وهو إذا انقطع من نسب لغته انقطع من نسب ماضيه ، ورجعت قوميته صورةً محفوظةً في التاريخ ، لا صورةً محققةً في وجوده ؛ وليس

كاللغة نَسَبٌ للعاطفة والفكر ؛ حتى إن أبناء الأب الواحد لو اختلفت ألسنتهم فنشأ منهم ناشئٌ على لغة ، ونشأ الثاني على أخرى ، والثالث على لغةٍ ثالثة ، لكانوا في العاطفة كأبناء ثلاثة آباء .

وما ذلّت لغة شعبٍ إلا ذلّ ، ولا انحطت إلا كان أمره في ذهاب وإدبار ؛ ومن هذا يفرض الأجنبي المستعمر لغته فرضاً على الأمة المستعمرة ، ويركبهم بها ، ويشعرهم عظمته فيها ، ويستلحقهم من ناحيتها ؛ فيحكم عليهم أحكاماً ثلاثة في عملٍ واحد : أما الأول فحبس لغتهم في لغته سجنًا مؤبدًا ؛ وأما الثاني فالحكم على ماضيهم بالقتل تحوُّاً ونسياناً ؛ وأما الثالث فتقييد مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها ؛ فأمرهم من بعدها لأمره تبع .

والذين يتعلّقون اللغات الأجنبية ينزعون إلى أهلها بطبيعة هذا التعاق ، إن لم تسكن عصبيتهم للغتهم تويةً مُستحكمةً من قبل الدين أو القومية ؛ فتراهم إذا وهنت فيهم هذه العصبية يخجلون من قوميتهم ، ويتبرأون من سلفهم ، وينساقون من تاريخهم ، وتقوم بأنفسهم الكراهة للغتهم وآداب لغتهم ، ولقومهم وأشياء قومهم ؛ فلا يستطيع وطنهم أن يوحى إليهم أسرار روحه ؛ إذ لا يوافق منهم استجابة في الطبيعة ، وينقادون بالحب لغيره ، فيتجاوزونه وهم فيه ، ويرثون دماءهم من أهلهم ثم تكون العواطف في هذه الدماء الأجنبي ؛ ومن ثمّ تصبح عندهم قيمة الأشياء بمصدرها لا بنفسها ، وبالخيال المتوهم فيها لا بالحقيقة التي تحملها ؛ فيكون شيء الأجنبي في مذهبهم أجمل وأثمن ، لأن إليه الميل وفيه الإكبار والإعظام ؛ وقد يكون الوطني مثله أو أجمل منه ، بيد أنه فقد الميل ، فضعفت صلته بالنفس ، فعادت كل مميزاتِه فضعفت لا تميزه .

وأعجب من هذا في أمرهم ، أن أشياء الأجنبي لا تحمِلُ معانيها الساحرة

فى نفوسهم إلا إذا بقيت حاملةً أسماءها الأجنبية ، فإن سُمى الأجنبى بلغتهم القوميةِ نقصَ معناه عندهم وتَصَاغَرَ وظهَرت فيه ذلة ... وما ذاك إلا صغرُ نفوسهم وذلتها ، إذ لا يَدْتَحُونَ اقوميتهم فلا يُلِهُمُهم الحرفُ من اغتهم ما يُلِهُمُهم الحرفُ الأجنبى .

والشرق مبتلى بهذه العلة ، ومنها جاءت مَشَاكِلُه أو أكثرها ؛ وليس فى العالم أمةٌ عزيزةٌ الجانبُ تقدّم لغةً غيرها على لغة نفسها ، وهذا لا يعرفون للأشياء الأجنبية موضعاً إلا من وراء حُدود الأشياء الوطنية ؛ ولو أخذنا نحن الشرقيين بهذا ، لكان هذا وحده علاجاً حاسماً لا كثير مشاكلا .

فاللغات تَدَاوَعُ القومية ، وكلّى واللهِ احتلالٌ عقلى فى الشعوب التى ضعفت عصبيتها ؛ وإذا هانت اللغة القومية على أهلها ، أثرت اللغة الأجنبية فى الخلق القومى ما يؤثّر الجوّ الأجنبى فى الجسم الذى انتقل إليه وأقام فيه . أما إذا قويت العصبية ، وعزّت اللغة ، واثارت لها الحميّة ؛ فلر تكون اللغات الأجنبية إلا خادمةً يُرتَفَقُ بها ، ويرجع شبرُ الأجنبى شبراً لا متراً ... وتكون تلك العصبية للغة القومية مادةً وعَوْناً لكل ما هو قومى ؛ فيُصبح كلُّ شىء أجنبى قد خضع لقوة قاهرة غالبية ، هى قوة الايمان بالمجد الوطنى واستقلال الوطن ؛ ومتى تعيّن الأولُ أنه الأولُ ، فكل قوى الوجود لا تجعل الذى بعده شيئاً إلا أنه الثانى .



والدين هو حقيقةُ الخلق الاجتماعى فى الأمة ، وهو الذى يجعلُ القلوبَ كلّها طبقةً واحدةً على اختلافِ المظاهر الاجتماعيةِ عاليةً ونازلةً وما بينهما ؛ فهو بذلك الضميرُ القانونى للشعب ، وبه لا بغيره ثَبَاتُ الأمة على فضاءِ ثلها النفسية ، وفيه لا فى سواه معنى إنسانية القلب .

ولهذا كان الدينُ من أقوى الوسائل التي يُعَوَّلُ عليها في إيقاظ ضمير الأمة ، وتنبيه رُوحها ، واهتياج خيالها ؛ إذ فيه أعظمُ السلطة التي لها وحدها قوةُ الغلبة على الماديات ؛ فسلطانُ الدين هو سلطانُ كل فرد على ذاته وطبيعته ؛ ومتى قوى هذا السلطانُ في شعب ، كان حِمياً أليفاً ، لا تُرغمه قوة ، ولا يعنو للقهَر .

ولولا التدين بالشرعية ؛ لما استقامت الطاعة للقانون في النفس ؛ ولولا الطاعة النفسية للقوانين ؛ لما انتظمت أمة ؛ فليس عملُ الدين إلا تحديد مكانِ الحي في فضائل الحياة ؛ وتعيين تبعته في حقوقها وواجباتها ، وجعل ذلك كله نظاماً مستقراً فيه لا يتغير ، ودفع الإنسان بهذا النظام نحو الأكل ، ودائماً نحو الأكل .

وكل أمة ضعف الدين فيها اختلَّت هندستها الاجتماعية وماج بعضها في بعض ؛ فإنَّ من دقيق الحكمة في هذا الدين أنه لم يجعل الغاية الأخيرة من الحياة غاية في هذه الأرض ، وذلك لتنظيم الغايات الأرضية في الناس فلا يأكل بعضهم بعضاً ؛ فيغتنى الغنى وهو آمن ، ويفقر الفقير وهو قانع ، ويكون ثوابُ الأعلى في أن يعود على الأسفل بالبرّة ، وثوابُ الأسفل في أن يصبر على ترك الأعلى في منزلته ؛ ثم ينصرف الجميع بفضائلهم إلى تحقيق الغاية الإلهية الواحدة ، التي لا يكبر عليها الكبير ، ولا يصغر عنها الصغير ؛ وهي الحق ، والصلاح ، والخير ، والتعاون على البر والتقوى .

وما دام عملُ الدين هو تكوينُ الخلق الثابت الدائم في عمله ، المعترِّ بقرته ، المطمئن إلى صبره ، النافر من الضعف ، الاني على الذل ، الكافر بالاستعباد ، المؤمن بالموت في المداغة عن حورثته ، المجزى بتساميه وبذله وعطفه وإشاره ومفاداته ، العامل في مصلحة الجماعة ، المقيّد في منفعه بواجباته نحو

الناس — مادام عمل الدين هو تكوين هذا الخلق — فيكون الدين في حقيقة هو جعل الحس بالشرعية أقوى من الحس بالمادة ؛ ولعمري ما يجد الاستقلال قوة هي أقوى له وأرد عليه من هذا المعنى إذا تقرر في نفوس الأمة وانطبعت عليه

وهذه الأمة الدينة التي يكون واجبها أن تشرف وتسود وتعتز ، يكون واجب هذا الواجب فيها ألا تسقط ولا تخضع ولا تذلل ، وبذلك الأصول العظيمة التي ينشئها الدين الصحيح القوى في النفس ، يتيمأ النجاح السياسي للشعب المحافظ عليه المتصير له ؛ إذ يكون من خلال الطبيعية في زعمائه ورجاله الثبات على النزعة السياسية ، والصلابة في الحق ، والإيمان بمجد العمل ، وتغليب ذلك على الأحوال المادية التي تعترض ذا الرأي لتفتته عن رأيه ومذهبه ؛ من مال ، أو جاه ، أو منصب ، أو موافقة الهوى ، أو خشية النكمة ، أو خوف لوعيد ، إلى غيرها من كل ما يستميل به الباطل أو يرهب به الظلم

ولا يذهبن عنك أن الرجل المؤمن القوى الإيمان الممتلئ ثقة و يقيناً ووفاء وصدقاً وعزماً وإصراراً على فضيلته وثباتاً على ما يلقى في سبيلها — لا يكون رجلاً كالناس ، بل هو رجل الاستقلال الذي واجبه جزء من طبيعته وغايته السامية لا تنفصل عنه ، هو رجل صدق المبدأ ، وصدق الكلمة ، وصدق الأمل ، وصدق النزعة ؛ وهو الرجل الذي ينفجر في التاريخ كلما احتاجت الحياة الوطنية إلى إطلاق قنابلها للنصر



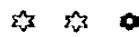
والعادات هي الماضي الذي يعيش في الحاضر ، وهي وحدة تاريخية في الشعب ، تجمعها كما يجمعه الأصل الواحد ؛ ثم هي كالدين في قباها على أساس

أدبى فى النفس ، وفى اشتغالها على التحريم والتحليل ؛ وتكاد عادات الشعب تكون ديناً ضيقاً خاصاً به ، يَحْصُرُهُ فى قَبِيلِهِ ووطنه ، ويحقق فى أفرادهِ الألفة والتَّشَابُك ، ويأخذهم جميعاً بمذهب واحد ؛ هو إجلالُ الماضى وإجلالُ الماضى فى كل شعب تاريخى هو الوسيلةُ الروحيةُ التى يَسْتَوْحِى بها الشعبُ أبطاله ، وفلاسفته ، وعلماءه ، وأدباءه ، وأهلَ الفنِّ منه ؛ فيُوحون إليه وَحْيَ عِظائِمِهِم التى لم يغلبها الموت ؛ وبهذا تكون صُورُهُم العظيمةُ حيَّةً فى تاريخه ، وحيَّةً فى آماله وأعصابه

والعاداتُ هى وحدها التى تجعلُ الوطنَ شيئاً نفسياً حقيقياً ؛ حتى ليشعرُ الإنسانُ أنَّ لأرضه أُوَمَّةَ الأُمِّ التى وَلَدَتْهُ ، ولقومه أبوةَ الأبِ الذى جاء به إلى الحياة ؛ وليس يَعْرِفُ هذا إلا من اغتربَ عن وطنه وخالطَ غيرَ قومه ، واستَوْحَشَ من غير عاداته ؛ فهناك ، هناك يُثْبِتُ الوطنُ نفسَه بعظمةِ وَجَبَرَتِ كَأَنَّهُ وحده هو الدنيا

وهذه الطبيعةُ الناشئةُ فى النفس من أثر العادات هى التى تُدَبِّهُ فى الوطنى رُوحَ التَّمَيُّزِ عن الأجنبي ، وتُوحِشُ نفسَه منه كأنها حاسَّةُ الأرض تدبُّه أهلها وتُنذِرُهُم الخطرَ

ومتى صدقت الوطنيةُ فى النفس أقَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ أجنبيٍّ فى حقيقته الأجنبية ؛ فكان هذا هو أولَ مظاهرِ الاستقلال ، وكان أقوى الذرائع إلى المجد الوطنى



وباللغة والدين والعادات ، ينحصرُ الشعبُ فى ذاته الساميةِ بخصائصها ومقوماتها ، فلا يَسْهُلُ انتزاعه منها ولا انتسافه من تاريخه ؛ وإذا أُلْجِئَ إلى حال من القهر لم يَنْتَحِذْ ولم يَتَضَعَّضْ ، واستمر يعمل ما تعملهُ الشوكَةُ الحادة : إن لم تُتركْ انفسها ، لم تُعْطِ من نفسها إلا الوَخَزَ .....

# تجديد الاسلام<sup>(١)</sup>

## رسالة الأزهر في القرن العشرين<sup>(٢)</sup>

(الأزهر) ، هذه هي الكلمة التي لا يقابلها في خيال الأمة المصرية إلا كلمة (الهَرَم) ؛ وفي كلتا اللفظتين يَكْمُنُ سرٌّ خَفِيٌّ من أسرار التاريخ التي تجعل بعض الكلمات ميراثاً عقلياً للأمة ، يُدْسِي مادة اللغة فيها ولا يُبْقِي منها إلا مادة النفس ؛ إذ تكون هذه الكلمات تعبيراً عن شيء ثابت ثابت الفكرة التي لا تتغير ، مستقرٌّ في الروح القومية استقراره في الزمن ، متجسِّم من معناه كأن الطبيعة قد أفردته بمادته دون ما يشاركه في هذه المادة ؛ فالحجر في الهرم الأكبر يكاد يكون في العقل زماناً لا حجراً ، وفناً لا جسماً ؛ والمكان في الأزهر يَغِيْبُ فيه معنى المكان وينقلب إلى قوة عقلية ساحرة تُوجِدُ في المنظور غير المنظور

وعندى أن الأزهر في زماننا هذا يكاد يكون تفسيراً جديداً للحديث : « يَضُرُّ كِبَانَةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ » ، فعلمناؤه اليوم أسهمٌ نافذة من أسهم الله يرمى بها من أراد دينه بالسوء ، فيُمَسِّكها للهيبة ويرمى بها للصر ؛ ويجب أن يكون هذا المعنى أول معانيهم في هذا القرن العشرين الذي ابتلى بملء عشرين قرناً من الجرأة على الأديان وإهمالها والإلحاد فيها أول شيء في رسالة الأزهر في القرن العشرين ، أن يكون أهله قوة إلهية

---

(١) أنشأها للمسابقة الأدبية العامة

(٢) لم نتكلم في هذه المقالة عن اللغة والأدب وتفصيل علوم الأزهر ؛ لأن هذه هي مادة الأزهر لرسائله الجديدة في رأينا .



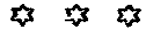
مُعَدَّةٌ لِلنَّصْرِ ، مَهَيَّاةٌ لِلنُّضَالِ ، مَسَدَّةٌ لِلإِصَابَةِ ، مَقْدَّرَةٌ فِي طَبِيعَتِهَا أَحْسَنَ تَقْدِيرٍ ، تُشْعِرُ النَّاسَ بِالْأَظْمَئِثَانِ إِلَى عَمَلِهَا ، وَتُوحِي إِلَى كُلِّ مَنْ يَرَاهَا الْإِيمَانَ الثَّابِتَ بِمَعْنَاهَا ؛ وَلَنْ يَأْتِيَ لَهُمْ هَذَا إِلَّا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى طَبِيعَتِهِم الصَّحِيحَةِ ، فَلَا يَكُونُ الْعِلْمُ تَحَرُّفًا وَلَا مِهْنَةً وَلَا عَكْسِيَّةً <sup>(٥)</sup> ، وَلَا يَكُونُ فِي أَوْرَاقِ الْكُتُبِ خَيَالٌ (أَوْرَاقِ الْبَنْكِ) .... بَلْ تَظَاهُرُ فِيهِمُ الْعَظَمَةُ الرَّحَانِيَّةُ أَمْرَةً نَاهِيَةً فِي الْمَادَةِ ، لَا أُمُورَةً مَنِهَةً بِهَا ؛ وَيَرْتَفِعُ كُلُّ مِنْهُمْ بِنَفْسِهِ ، فَيَكُونُ مُقَرَّرَ خُلُقٍ فِي الْحَيَاةِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ مَعْلَمٌ عِلْمٍ فِي الْحَيَاةِ ، لِيَنْبُثَ مِنْهُمْ مَغْنَطِيسُ النُّبُوَّةِ يَجْذِبُ النُّفُوسَ بِهِمْ أَقْوَى مِمَّا تَجْذِبُهَا ضَلَالَاتُ الْعَصْرِ ؛ فَمَا يَحْتَاجُ النَّاسُ فِي هَذَا الزَّمَنِ إِلَى الْعَالِمِ - وَإِنَّ الْكُتُبَ وَالْعُلُومَ تَمَلَأُ الدُّنْيَا - وَإِنَّمَا يَحْتَاجُونَ إِلَى ضَمِيرِ الْعَالِمِ

وَقَدْ عَجَزَتِ الْمَدَنِيَّةُ أَنْ تُوجِدَ هَذَا الضَّمِيرَ ، مَعَ أَنَّ الْإِسْلَامَ فِي حَقِيقَتِهِ لَيْسَ شَيْئًا إِلَّا قَانُونُ هَذَا الضَّمِيرِ ، إِذْ هُوَ دِينٌ قَائِمٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَى صَوْرَتِهِ وَلَكِنْ إِلَى عَمَلِهِ ؛ فَأُولُو مَا يَلْبَغِي أَنْ يَحْمِلَهُ الْأَزْهَرُ مِنْ رِسَالَتِهِ ، ضَمَائِرُ أَهْلِهِ

وَالنَّاسُ خَاضِعُونَ لِلْمَادَةِ بِقَانُونِ حَيَاتِهِمْ . وَبِقَانُونٍ آخَرَ هُوَ قَانُونُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ ... فَهَمُ مَنْ تَمَّ فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَى أَنْ يَجِدُوا بَيْنَهُمُ الْمَتَسَلِّطَ عَلَى الْمَادَةِ بِقَانُونِ حَيَاتِهِ ؛ ائِرَوْا بِأَعْيُنِهِمُ الْقُوَى الدِّينِيَّةَ مَغْلُوبَةً ، ثُمَّ لِيَجِدُوا فِي هَذَا الْإِنْسَانِ أَسَاسَ الْقُدُورَةِ وَالْإِحْتِدَاءِ ، فَيَتَّصِلُوا مِنْهُ بِقُوَّتَيْنِ : قُوَّةَ التَّعْلِيمِ ، وَقُوَّةَ التَّحْوِيلِ .

وَهَذَا هُوَ سِرُّ الْإِسْلَامِ الْأَوَّلِ الَّذِي نَفَذَ بِهِ مِنْ أُمَّةٍ إِلَى أُمَّةٍ وَلَمْ يَقُمْ لَهُ شَيْءٌ يَصُدُّهُ ، إِذْ كَانَ يَنْفُذُ فِي الطَّبِيعَةِ الْإِنْسَانِيَةِ نَفْسَهَا

(٥) أى احتراف العلم للتكسب به كما نراه اليوم



ومن أحصّ واجبات الأزهري في هذا القرن العشرين، أن يعمل أول شيء لاقرار معنى الاسلام الصحيح في المسلمين أنفسهم، فإن أكثرهم اليوم قد أصبحوا مسلمين بالمتسب لا غير ... وما منهم إلا من هو في حاجة إلى تجديد إسلامه .

والحكومات الإسلامية عاجزة في هذا، بل هي من أسباب هذا الشر؛ لأن لها وجوداً سياسياً ووجوداً مدنياً؛ أما الأزهري فهو وحده الذي يصلح لإتمام نقص الحكومة في هذا الباب، وهو وحده الذي يسعه ما تعجز عنه؛ وأسباب نجاحه مهيأة ثابتة إذ كان له بقوة التاريخ حكم الزعامة الإسلامية، وكانت فيه عند المسلمين بقية الوحي على الأرض، ثم كان هو صورة المزاج النفسى الإسلامى المحض؛ بيد أنه فرط في واجب هذه الزعامة، وفقد القوة التى كان يحكم بها، وهى قوة المثل الأعلى التى كانت تجعل الرجل من علمائه كما قلنا مرة : إنساناً تتخيره المعاي السياسية تظهر فيه بأسلوب عملى، فيكون فى قومه ضرباً من التربية والتعلم بتأعده من مثاليها، مشروحة بهذا المثال نفسه .

والعقيدة فى سواد الناس بغير هذا المثل الأعلى هى أول مغلوب فى صراع قوى الحياة

لقد اعتاد المسلمون من قديم أن يجعلوا أبصارهم إلى علماء الأزهري، فهم يتبعونهم، ويتأسسون بهم، ويمنحونهم الطاعة، وينزلون على حكمهم، ويلتمسون فى سيرتهم التفسير لمشكلات النفس، ويعرفون بهم معنى صغر الدنيا ومعنى كبر الأعمال العظيمة؛ وكان غنى العالم الدينى شيئاً غير المال، بل شيئاً أعظم من المال؛ إذ كان يجد حقيقة الغنى فى إجلال الناس لفقره

كَأَنَّهُ مُلْكٌ لِّافْقَرٍ ؛ وَكَانَ زُهْدُهُ قُوَّةً حَاكِمَةً فِيهَا الصَّلَابَةُ وَالشَّدَةُ وَالْهَيْبَةُ وَالسَّمَرُ ، وَفِيهَا كُلُّ سُلْطَانٍ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، لِأَنَّ فِيهَا كُلَّ النِّزَاعَاتِ الْإِسْتِقْلَالِيَّةِ ؛ وَيَكَادُ الزُّهْدُ الصَّحِيحُ يَكُونُ هُوَ وَحْدَهُ الْقُوَّةُ الَّتِي تَجْعَلُ عُلَمَاءَ الدِّينِ حَقَائِقَ ، وَثَرَةً عَامِلَةً فِي حَيَاةِ النَّاسِ أَغْنِيَاءَهُمْ وَفُقَرَاءَهُمْ ، لِأَحْقَائِقَ مَتْرُوكَةً لِنَفْسِهَا يُوحِشُ النَّاسَ مِنْهَا أَنَّهَا مَتْرُوكَةٌ لِنَفْسِهَا



وَعُلَمَاءُ الْأَزْهَرِ فِي الْحَقِيقَةِ هُمُ الْقَوَانِينُ نَفْسِيَّةٌ نَافِذَةٌ عَلَى الشَّعْبِ ، وَعَمَلُهُمْ أَرْدٌ عَلَى النَّاسِ مِنْ قَوَانِينِ الْحُكُومَةِ ، بَلْ هُمُ التَّصْحِيحُ لِهَذِهِ الْقَوَانِينِ إِذَا جَرَتْ الْأُمُورُ عَلَى عِلَلِهَا وَأَسْبَابِهَا ؛ فَيَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَحْقُقُوا وَجُودَهُمْ ، وَأَنْ يَتَنَاوَلُوا الْأُمَّةَ مِنْ نَاحِيَةِ قُلُوبِهَا وَأَرْوَاحِهَا ، وَأَنْ يُعَدِّثُوا تَلَامِيذَهُمْ فِي الْأَزْهَرِ كَمَا يُعَدِّثُونَ الْقَوَانِينَ الدَّقِيقَةَ ، لَا طَلَابًا يَرْتَقُونَ بِالْعِلْمِ

أَيْنَ صَوْتُ الْأَزْهَرِ وَعَمَلُهُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الْمَسَاجِدِ بِمَا فِي السَّطْحِ وَمَا فِي الْقَاعِ ... وَأَيْنَ وَحْيُ هَذِهِ الْقُوَّةِ الَّتِي مِثْلُهَا أَنْ تَجْعَلَ النَّبُوَّةَ كَأَنَّهَا شَيْءٌ وَافِعٌ فِي الْحَيَاةِ الْعَصْرِيَّةِ لَا تَخْبِرُ تَارِيخِيَّ فِيهَا ؟

أَلَمْ لَقَدْ أَصْبَحَ إِيْمَانُ الْمُسْلِمِينَ كَأَنَّهُ عَادَةُ الْإِيْمَانِ لَا الْإِيْمَانُ نَفْسُهُ ؛ وَرَجَعَ الْإِسْلَامُ فِي كُتُبِهِ الْفَقْهِيَّةِ وَكَأَنَّهُ أَدْيَانٌ مُخْتَلِفَةٌ مُتَنَاقِضَةٌ لِأَدِينٍ وَاحِدٍ . فَرِسَالَةُ الْأَزْهَرِ أَنْ يَجِدَدَ عَمَلَ النَّبُوَّةِ فِي الشَّعْبِ ، وَأَنْ يَنْقَى عَمَلَ التَّارِيخِ فِي الْكُتُبِ ، وَأَنْ يُبَيِّطَ عَمَلَ الْوَثْنِيَّةِ فِي الْعَادَاتِ ، وَأَنْ يُعْطِيَ الْأُمَّةَ دِينَهَا الْوَاضِحَ السَّمَحَ الْمَيْسَّرَ ، وَقَانُونَهَا الْعَمَلِيَّ الَّذِي فِيهِ سَعَادَتُهَا وَقُوَّتُهَا

وَلَا وَسِيلَةَ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْأَزْهَرُ جَرِيئًا فِي قِيَادَةِ الْحَرَكَةِ الرُّوحِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، جَرِيئًا فِي عَمَلِهِ لِهَذِهِ الْقِيَادَةِ ، آخِذًا بِأَسْبَابِ هَذَا الْعَمَلِ ، مُلِحًّا فِي طَلَبِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ ، مُصِرًّا عَلَى هَذَا الطَّلَبِ ؛ وَكُلُّ هَذَا يَكُونُ عَبَثًا إِنْ لَمْ يَكُنْ

رجال الأزهر وطلّابته أمثلة من الأمثلة القوية في الدين والخلق والصلابة ،  
لتبدأ الحالة النفسية فيهم ، فإنها إن بدأت لا تقف ؛ والمثل الأعلى حاكم  
بطبيعته على الانسانية ، مطّاع بحكمه فيها ، محبوب بطاعتها له  
والمادة المطهّرة للدين والأخلاق لاتجدها الأمة إلا في الأزهر . فعلى  
الأزهر أن يثبت أن فيه تلك المادة بإظهار عملها لا بإصاق الورقة  
المكتوب فيها الاسم على الزجاجة ...

ومن ثم يكون واجب الأزهر أن يطلب الاشراف على التعليم الاسلامي  
في المدارس ، وأن يدفع الحركة الدينية دفعاً بوسائل مختلفة ، أولها أن يحمل  
وزارة المعارف على إقامة فرض الصلاة في جميع مدارسها ، من مدرسة حرية  
الفكر ... فنازلاً : والأمة الاسلامية كلها تشد رأى الأزهر في هذا  
وإذا نحن استخرجنا التفسير العملي لهذه الآية الكريمة : « أدع إلى سبيل  
ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » ، دلّتنا الآية بنفسها على كل تلك الوسائل ، فما  
الحكمة هنا إلا السياسة الاجتماعية في العمل ، وليست الموعظة الحسنة إلا  
الطريقة النفسية في الدعوة .

العلماء ورثة الأنبياء ؛ وليس الرب من الأنبياء إلا تاريخ شدايد ونحن ،  
ومجاهدة في هداية الناس ، ومراغمة للوجود الماسد ، ومكابدة التصحيح  
للحالة النفسية الأمة ؛ فهذا كله هو الذي يورث عن الأنبياء لا العلم  
وتعليمه فقط .



وإذا قامت رسالة الأزهر على هذه الحقائق ، وأصبح وجوده هو المعنى  
المتعم للحكومة ، المماون لها في ضبط الحياة النفسية للشعب وحياطتها وأمنها  
ورفاهتها واستقرارها — اتجهت طبيعته إلى أداء رسالته الكبرى للقرن العشرين ،

بعد أن يكونَ قد حقق الذرائعَ إلى هذه الرسالة ، من فتح باب الاجتهاد ، وتنقية التاريخ الفقهي ، وتهذيب الروح الإسلامي والسمو به عن المعاني الكلامية الجدلية السخيفة ؛ ثم استخراج أسرار القرآن الكريم المكتنة فيه ، لهذه العصور العلمية الأخيرة ؛ وبعد أن يكون قد اجتمعت فيه القوة التي تمسك الإسلام على سنته بين القديم والجديد ، لا ينكره هذا ولا غيره ذاك ؛ وبعد أن يكون الأزهر قد استفاض على العالم العربي بكتبه ودُعائه ومبعوثيه من حاملي علمه ورُسلِ إلهامه .

أما تلك الرسالة الكبرى فهي بثُ الدعوة الإسلامية في أوربا وأمريكا واليابان ، بلغات الأوربيين والأمريكيين واليابانيين ، في السنةِ أزهريّةٍ مرهفة مصقولة ، لها بيانُ الأدب ، ودقّة العلم ، وإحاطةُ الفلسفة ، وإلهامُ الشعر ، وبصيرةُ الحكمة ، وقدرةُ السياسة ؛ السنة أزهريّة لا يُوجد الآن منها لسانٌ واحدٌ في الأزهر ، ولكنها لن توجدَ إلا في الأزهر ؛ ولا قيمةَ لرسالاته في القرن العشرين إذا هو لم يوجدَها فنكون المتكلمة عنه ، والحاملةُ لرسالاته . وما هذه البعثات التي قرر الأزهر ابتعاثها إلى أوروبا إلا أولُ تاريخ تلك الألسنة

إن الوسيلةَ التي نَشَرَت الإسلامَ من قبلُ لم تكن أجنحة الملائكة ، ولا كانت قوةً من جهنم ؛ ولا تزال هي التي تشره ؛ فليس مستحيلاً ولا متعذراً أن يغزو هذا الدينُ أوروبا وأمريكا واليابان كما غزا العالم القديم . ولم يكن السلاحُ من قبل إلا طريقة لايجاد إسلام في الأمة الغربية عنه ، حتى إذا وُجد تولى هو الدعوة لنفسه بقوة الناموس الطبيعي القائم على أن الأصلاح هو الأبقى ، وانحازت إليه الانسانية لأنه قانون طبيعتها السليمة ، ودينُ فطرتها القوية ؛ وقد ظل الإسلامُ ينتشر ولم يكن يحمله إلا الناجر ،

كما كان ينتشر وحامله الجيش ؛ فليس علينا إلا تغيير السلاح في هذا العصر وجعله سلاحاً من فلسفة الدين وأسرار حكمته ؛ فهذا الدين كما قلنا في بعض كلامنا<sup>(١)</sup> : أعمال مفصلة على النفس أدق تفصيل وأوفاه بمصالحتها ، فهو يعطى الحياة في كل عصر عقلها العمل الثابت المستقر تنظم به أحوال النفس على مئيزة وبصيرة ، ويدع للحياة عقلها العلمي المتجدد المتغير تنظم به أحوال الطبيعة على قصد وهدى ؛ وهذه هي حقيقة الإسلام في أخص معانيه : لا يغنى عنه في ذلك دين آخر ، ولا يؤدي تأديته في هذه الحاجة أدب ولا علم ولا فلسفة ، كأنما هو نبع في الأرض لمعاني النور ، يزاء الشمس نبع النور في السماء

ليس على الأزهر إلا أن يوجد من الإسلام في تلك الأمم ما يستمر ، ثم الاستمرار هو يوجد ما يثبت ، والثبات يوجد ما يدوم ؛ وكأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أشار إلى هذا في قوله : نضر الله امرأ سمع مني شيئاً فبلغه كما سمعه ، قرب مبلغ أوعى له من سامع

أما والله إن هذا المبلغ الذي هو أوعى له من السامع لن يكون في التاريخ بأدق المعنى إلا أوروبا وأمريكا في هذا الزمن العلمي إذا نحن عرفنا كيف نبأغ

أنا متيقن أن فيلسوف الإسلام الذي سينتشر الدين على يده في أوروبا وأمريكا لن يخرج إلا من الأزهر ، وما كان الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله إلا أول التطور المنتهي إلى هذه الغاية ، وسيكون عمل فلاسفة الأزهر استخراج قانون السعادة لتلك الأمم من آداب الإسلام وأعماله ؛ ثم مخاطبة الأمم بأفكارها وعواطفها ، والإنضاء من ذلك إلى

---

(١) انظر مقالة : الإشراف الإلهي ، ص ٤ ج ٢ ، وحي القلم ،

ضميرها الاجتماعي فإن أول الدين هناك أسلوبه الذي يظهر به



هذه هي رسالة الأزهر في القرن العشرين ، ويجب أن يتحقق بوسائلها من الآن ؛ ومن وسائلها أن يُعالن بها لتكون مَوْثِقًا عليه .  
ويحسنُ بالأزهر في سبيل ذلك أن يضم إليه كلَّ مفكر إسلامي ذي إلهام أو بحثٍ دقيق أو إحاطةٍ شاملة ؛ فتكون له ألقابٌ عليه يمنحهم إياها وإن لم يتخرجوا فيه ، ثم يستعينُ بعلومهم وإلهائهم وآرائهم

وبهذه الألقاب يمتدُّ الأزهر إلى حدود فكرية بعيدة ، ويصبح أوسع في أثره على الحياة الإسلامية ، ويحقق لنفسه المعنى الجامعي

وفي تلك السبيل يجبُ على الأزهر أن يختارَ أياما في كل سنة يجمعُ فيها من المسلمين ( قرش الإسلام ) : ليجدَ مادةَ النفقة الواسعة في نشر دين الله ، وليس على الأرض مسلم ولا مسلمة لا يبسطُ يده ، فما يحتاج هذا التدبيرُ لأكثرَ من إقراره وتنظيمه وإعلانه في الأمم الإسلامية ومواسمها الكبرى ، وخاصة موسم الحج

وهذا العمل هو نفسه وسيلةٌ من أقوى الوسائل في تنبيه الشعوب الإسلامية ، وتحقيقِ المعاونة في نشر الدين وحياطته ؛ وعسى أن تكون له نتائج اجتماعية لا موضعَ لتفصيلها هنا ، وعسى أن يكون ( قرش الإسلام ) مادةً لأعمال إسلامية ذاتِ بال ، وهو على أي الأحوال صلةٌ روحيةٌ تجعلُ الأزهرَ كأنه مُعْطِيه لكلِّ مسلمٍ لا آخذه

والخلاصة أن أول رسالة الأزهر في القرن العشرين ، اهتداءً الأزهر إلى حقيقة موضعه في القرن العشرين : « وجاءك في هذه الحق وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين » .

## الأُسَد

جاس أبو علي أحمد بن محمد الرُّوَدَبَادِي البَغْدَادِي (\*) في مجلس وعظه بمصر بعد وفاة شيخه أبي الحسن بُنَان الحمال الزاهد الواسطي شيخ الديار المصرية (\*\*) وكان يُضرب المثل بعبادته وزهده، وقد خرج أكثر أهل مصر في جنازته، فكان يومه يوماً كالبرهان من العالم الآخر لأهل هذه الدنيا؛ مابقي أحد إلا افتنع أنه في شهوات الحياة وأباطيلها كالأعمى في سوء تمييزه بين لون التراب ولون الدقيق؛ إذ ينظر كل امرئ في مصالحه ومنافعه مثل هذه النظرة، باللمس لا بالبصر، وبالتوهم لا بالتحقيق، وعلى دليل نفسه في الشيء لا على دليل الشيء في نفسه، وبالإدراك من جهة واحدة دون الإدراك من كل جهة؛ ثم يأتي الموت فيكون كالماء صَبَّ على الدقيق والتراب جميعاً، فلا يرتاب مبصر ولا أعمى، ويبطل ما هو باطل ويحق الذي هو حق.

وتكلم أبو علي فقال: كنت ذات يوم عند شيخنا الجنيد (\*\*\*) في بغداد، فجاءه كتاب من يوسف بن الحسن شيخ الرِّيِّ والجبال في وقته (\*\*\*\*) يقول فيه: لا أذاقك الله طعمَ نفسك، فإنك إن ذقتها لم تذق بعدها خيراً

---

(\*) توفي سنة ٣٢٢

(\*\*) توفي سنة ٣١٦

(\*\*\*) توفي سنة ٢٩٨

(\*\*\*\*) كانت وفاته سنة ٣٠٤



أبدًا ! قال : فجعلت أفكر في طعم النفس ماهو ، وجاءني مالم أرضه من  
الرأى ، حتى سمعت بخبر بُنان رحمه الله مع أحمد بن طولون أمير مصر ، فهو  
الذى كان سبب قدومى إلى هنا لأرى الشيخ وأصحابه وأتفجع به .

والبلد الذى ليس فيه شيخ من أهل الدين الصحيح والنفس الكاملة  
والأخلاق الإلهية ، هو فى الجهل كالبلد الذى ليس فيه كتاب من الكتب  
ألبته وإن كان كل أهله علماء ، وإن كان فى كل محلة منه مدرسة ، وفى  
كل دار من دوره خزانة كتب ؛ فلا تغنى هذه الكتب عن الرجال ؛ فإنما  
هى صواب أو خطأ ينتهى إلى العقل ، ولكن الرجل الكامل صوابٌ ينتهى  
إلى الروح ، وهو فى تأثيره على الناس أقوى من العلم ، إذ هو تفسير الحقائق  
فى العمل الواقع وحياتها عاملةً مرئيةً داعيةً إلى نفسها ؛ ولو أقام الناس  
عشر سنين يتناظرون فى معانى الفضائل ووسائلها ، ووضعوا فى ذلك مائة  
كتاب ، ثم رأوا رجلاً فاضلاً بأصدق معانى الفضيلة ، وخالطوه وصحبوه -  
ليكان الرجل وحده أكبر فائدةً من تلك المناظرة وأجدى على الناس منها  
وأدلاً على الفضيلة من مائة كتاب ومن ألف كتاب ؛ ولهذا يرسل الله النبىَّ  
مع كل كتاب منزل ليعطى الكلمة قوة وجودها ، ويخرج الحالة النفسية من  
المعنى المعقول ، وينشئ الفضائل الانسانية على طريقة النسل من  
إنسانها الكبير .

وما مثل الكتاب يتعلم المرء منه حقائق الأخلاق العالية ، إلا كوضع  
الإنسان يده تحت إبطه ليرفع جسمه عن الأرض ؛ فقد أنشأ يعمل ولكنه  
أن يرتفع ؛ ومن ذلك كان شر الناس هم العلماء والمعلمين إذا لم تكن أخلاقهم  
دروساً أخرى تعمل عملاً آخر غير الكلام ؛ فإن أحدهم ليجلس مجلس  
المعلم ثم تكون حوله رذائله تعلم تعليماً آخر من حيث يدرى ولا يدرى ،

ويكون كتاب الله مع الانسان الظاهر منه ، وكتابُ الشيطان مع الانسان الخفى فيه .



قال أبو علي : وقدمتُ إلى مصر لأرى أبا الحسن وأخذ عنه وأحقق ما سمعت من خبره مع ابن طولون ؛ فلما لقيته لقيت رجلا من تلاميذ شيخنا الجنيد ، يتلأأ فيه نور ، ويعمل فيه سره ؛ وهما كالشمعة والشمعة في الضوء وإن صغرت واحدة وكبرت واحدة ؛ وعلامة الرجل من هؤلاء أن يعمل وجوده فيمن حوله أكثر مما يعمل هو بنفسه ، كأن بين الأرواح وبينه نسباً شابكاً ، فله معنى أبوة الأب في أبنائه : لا يراه من يراه منهم إلا أحس أنه شخصه الأكبر ؛ فهذا هو الذى تكون فيه التكملة الانسانية للناس ، وكأنه مخلوق خاصة لاثبات أن غير المستطاع مستطاع .

ومن عجيب حكمة الله أن الأمراض الشديدة تعمل بالعدوى فيمن فاربها أو لامسها ، وأن القوى الشديدة تعمل كذلك بالعدوى فيمن اتصل بها أو صاحبها ؛ ولهذا يخلق الله الصالحين ويجعل النقى فيهم إصابة كإصابة المرض : تصرف عن شهوات الدنيا كما يصرف المرض عنها ، وتكسر النفس كما يكسرها ذاك ، وتفقد الشيء ما هو به شيء ، فتتحول قيمته ، فلا يكون بما فيه من الوهم بل بما فيه من الحق .

وإذا عديم الناس هذا الرجل الذى يعديهم بقوته العجيبة فقلما يصلحون للقوة ، فكبار الصالحين وكبار الزعماء وكبار القواد وكبار الشجعان وكبار العلماء وأمثالهم - كل هؤلاء من باب واحد ، وكلهم فى الحكمة ككبار المرضى .



قال أبو علي : وهممت مرة أن أسأل الشيخ عن خبره مع ابن طولون ، فقطعتني هيبتُهُ ، فقلت : أحتال بسؤاله عن كلمة شيخ الرى : « لا أذاقك الله طعم نفسك » ؛ وبينما أهني في نفسي كلاماً أجرى فيه هذه العبارة ، جاء رجل فقال للشيخ : لى على فلان مائة دينار ، وقد ذهبت الوثيقة التى كتب فيها الدين ، وأخشى أن ينكر إذا هو علم بضياعها ؛ فادع الله لى وله أن يُظفرنى بدينى وأن يشبته على الحق . فقال الشيخ : إني رجل قد كبرت وأنا أحب الحلوى ، فاذهب فاشتر رطلاً منها وائتنى به حتى أدعو لك !

فذهب الرجل فاشترى الحلوى ووضعها له البائع فى ورقة فإذا هى الوثيقة الضائعة ، وجاء إلى الشيخ فأخبره ، فقال له : خذ الحلوى فأطعمها صبيانك لا أذاقنا الله طعم أنفسنا فيما نشتهى ! ثم إنه التفت إلى وقال : لو أن شجرة اشتهت غير مابه صحة وجودها وكال منفعتها فأذيقنا طعم نفسها لأكلت نفسها وذوت .



قال أبو علي : والمعجزات التى تحدث الأنبياء ، والكرامات التى تكون للأتقياء ، وما يخرج من العادة ويخرج عن النسق - كل ذلك كقول القدرة عن الرجل الشاذ : هو هذا . فلم تبق بى حاجة إلى سؤال الشيخ عن خبره مع ابن طولون ، وكنت كأنى أرى بعيني رأسى كل ماسمعت ، بيد أنى لم أنصرف حتى لقيت أبا جعفر القاضى أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى <sup>(٥)</sup> ذاك الذى يحدث بكتب أبيه كلها من حفظه وهى واحد وعشرون مصنفاً فيها الكبير والصغير ؛ فقال لى : لعلك اشتفيت من خبر بنان مع ابن طولون ، فن أجله زعمت جئت إلى مصر . قلت : إنه تواضع فلم يخبرنى وهبته فلم

أسأله . قال : تعال أحدثك الحديث .

كان أحمد بن طولون <sup>(\*)</sup> من جارية تركية ، وكان طولون أبوه مملوكا حمله نوح بن أسد عامل بخارى إلى المأمون فيما كان موظفاً عليه من المال والرقيق والبراذين وغير ذلك ؛ فولد أحمد في منصب ذلة تستظهر بالطغيان ، وكانت هاتان طبيعتيه إلى آخر عمره ، فذهب بهمة مذهباً بعيداً ، وانشأ من أول أمره على أن يتم هذا النقص ويكون أكبر من أصله ، فطلب الفروسية والعلم والحديث ، وصحب الزهاد وأهل الورع ، وتميز على الأتراك وطمح إلى المعالي ، وظل يرمى بنفسه ، وهو في ذلك يكبر ولا يزال يكبر ، كأنما يريد أن ينقطع من أصله وبلتحق بالأمراء ، فلما التحق بهم ظل يكبر لياحق بالملوك ، فلما بلغ هؤلاء كانت نيته على ما يعلم الله

قال : وكان عقله من أثر طبيعتيه كالعقلين لرجلين مختلفين فله يد مع الملائكة ويده الأخرى مع الشياطين ، فهو الذي بنى المارستان وأنفق عليه وأقام فيه الأطباء ، وشرط إذجىء بالعليل أن تنزع ثيابه وتحفظ عند أمين المارستان . ثم يلبس ثياباً ويفرش له ويغدى عليه ويراح بالأدوية والأغذية والأطباء حتى يبرأ ، ولم يكن هذا قبل إمارته ؛ وهو أول من نظر في المظالم من أمراء مصر ؛ وهو صاحب يوم الصدقة : يكثر من صدقاته كلما كثرت نعمة الله عليه ، ومراتبه لذلك في كل أسبوع ثلاثة آلاف دينار سوى مطابخه التي أقيمت في كل يوم في داره وغيرها ، يذبح فيها البقر والكباش ويغرف للناس ، ولكل مسكين أربعة أرغفة يكون في اثنين منها فالودج <sup>(\*\*)</sup> وفي الآخرين من القدور . وينادى : من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر ، وتفتح الأبواب ويدخل الناس

(\*) كانت إمارة ابن طولون نحو ٢٦ سنة ، وتوفي سنة ٢٧٠

(\*\*) نوع من الحلوى ، وهو ما يسميه العامة (البالوظة)

وهو في المجلس ينظر إلى المساكين ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون ،  
فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته ؛ وكان راتب مطبخه في كل يوم ألف دينار ؛  
واقتردى به ابنه خمارويه ، فأنشأ بعده مطبخ العامة <sup>(٥)</sup> ' ينفق عليه ثلاثة وعشرين  
ألف دينار كل شهر .

وقد بلغ ما أرسله ابن طولون إلى فقراء بغداد وعلماؤها في مدة ولايته  
ألفي ألف ومائتي ألف دينار . <sup>(٥٥)</sup> وكان كثير التلاوة للقرآن ، وقد اتخذ  
حجرة بقربه في القصر وضع فيها رجالا سماهم بالمكبرين ، يتعاقبون الليل نوباً  
يكبرون ويسبحون ، ويحمدون ويهللون ، ويقرءون القرآن تطريباً ، وبنشدون  
قصائد الزهد ، ويؤذنون أوقات الأذان ؛ وهو الذي فتح أنطاكية في سنة  
خمس وستين ومائتين ، ثم مضى إلى طرسوس كأنه يريد فتحها ، فلما نابذه  
أهلها وقتلهم أمر أصحابه أن ينزموا عنها ، ليباغ ذلك طاغية الروم فيعلم أن  
جيوش ابن طولون على كثرتها وشدتها لم تقم لأهل طرسوس ، فيكون بهذا  
كأنه قاتله وصدّه عن بلد من بلاد الإسلام ، ويجعل هذا الخبر كالجيش في  
تلك الناحية !

ومع كل ذلك فإنه كان رجلاً طائش السيف ، يحور ويعسف ، وقد أحصى  
من قتلهم صبراً أو ماتوا في سجنه فكانوا ثمانية عشر ألفاً ؛ وأمر بسجن قاضيه  
بكار بن قتيبة في حادثة معروفة وقال له : غرّك قول الناس ما في الدنيا مثل  
بكار ؟ أنت شيخ قد خرفت ! ثم حبسه وقيده وأخذ منه جميع عطاياه مدة  
ولايته القضاء ، فكانت عشرة آلاف دينار ، قيل إنها وجدت في بيت بكار

---

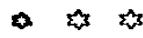
(٥) هذا هو الأصل في مطعم الشعب

(٥٥) الدينار نصف جنيه مصري فعدة ذلك مليون ومائة ألف جنيه ، صدقاته على

بغداد وحدها رحمه الله .

بختمها لم يمسه زهداً وتورُّعا .

ولما ذهب شيخك أبو الحسن يعنفه ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر ، طاش عقله فأمر بالقائه إلى الأسد ، وهو الخبر الذي طار في الدنيا حتى بلغك في بغداد ...



قال : وكنت حاضرَ أمرهم ذلك اليوم ، فجئ بالأسد من قصر ابنه خمارويه وكان خمارويه هذا مشغولاً بالصيد ، لا يكاد يسمع بسبع في غيضة أو بطن واد إلا قصده ومعه رجال عليهم لبود ، فيدخلون إلى الأسد ويتناولونه بأيديهم من غابه عنوة وهو سليم ، فيضعونه في أقفاص من خشب محكمة الصنعة يسمع الواحد منها السبع وهو قائم .

وكان الأسد الذي اختاروه للشيخ أغاظ ما عندهم ، جسيماً ، ضارياً ، عارم الوحشية ، متزيل العضل ، شديد عصب الخلق . هراساً ، فراساً ، أهرت الشدق يلوح شدقه من سعته وروعته كفتحة القبر يلبئ أن جوفه مقبرة ، ويظهر وجهه خارجاً من لبدته ، يهم أن ينقذف على من يراه فيأكله !

وأجلسوا الشيخ في قاعة وأشرفوا عليه ينظرون ، ثم فتحوا باب القفص من أعلاه فجذبوه فارتفع ؛ وهجهجوا بالأسد يزجرونه ، فانطلق يزجر ويزأر زئيراً تفشق له المراثر ، ويتوهم من يسمعه أنه الرعد وراءه الصاعقة !

ثم اجتمع الوحش في نفسه واقشعر ، ثم تمطى كالمنجنيق يقذف الصخرة ، فما بقي من أجل الشيخ إلا طرفة عين ؛ ورأيناه على ذلك ساكناً مطرِقاً لا ينظر إلى الأسد ولا يحفل به ، وما منا إلا من كاد ينهتك حجاب قلبه من الفرع والرعب والإشفاق على الرجل .

ولم يرُعنا إلا ذهول الأسد عن وحشيته ، فألقى على ذنبه ، ثم لصق بالأرض

هنية يفتش ذراعيه ، ثم نهض نهضة أخرى كأنه غير الأسد ، فمشى مترقياً  
ثقيل الخطو تسمع لمفاصله قعقة من شدته وجسامته ، وأقبل على الشيخ وطفق  
يحتك به ويلاحظه ويشمه كما يصنع الكلب مع صاحبه الذي يأنس به ، وكأنه  
يعلم أن هذه ليست مصاولة بين الرجل التقى والأسد ، ولكنها مبارزة بين  
إرادة ابن طولون وإرادة الله !

وضربته روح الشيخ فلم يبق بينه وبين الآدمي عمل ، ولم يكن منه بازاء  
لحم ودم ، فلو أكل الضوء والهواء والحجر والحديد ، كان ذلك أقرب وأيسر  
من أن يأكل هذا الرجل المتمثل في روحانيته لا يحس لصورة الأسد معنى  
من معانيها الفاتكة ، ولا يرى فيه إلا حياة خاضعة مسخرة للقوة العظمى  
التي هو مؤمن بها ومتوكل عليها ، كحياة الدودة والنملة وما دونها من  
الهوام والذرات !

وورد النور على هذا القلب المؤمن يكشف له عن قرب الحق سبحانه  
وتعالى ، فهو ليس بين يدي الأسد ولكنه هو والأسد بين يدي الله ، وكان  
مندمجاً في يقين هذه الآية : « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا » !  
ورأى الأسد رجلاً هو خوف الله ، نخاف منه ، وكما خرج الشيخ من  
ذاته ومعانيها الناقصة ، خرج الوحش من ذاته ومعانيها الوحشية ؛ فليس في  
الرجل خوف ولا هم ولا جزع ولا تعلق برغبة ، ومن ذلك ليس في الأسد فتك  
ولا ضراوة ولا جوع ولا تعلق برغبة .

ونسى الشيخ نفسه فكأنما رآه الأسد ميتاً ولم يجد فيه (أنا) التي يأكلها ،  
ولو أن خطرة من هم الدنيا خطرت على قلبه في تلك الساعة أو اختلجت في  
نفسه خالجة من الشك ، لفاحت رائحة لحمه في خياشيم الأسد فتمزق في أنيابه  
ومخالبه .

قال : رانصرفنا عن النظر في السبع إلى النظر في وجهه الشيخ ، فإذا هو  
ساهم مفكر ، ثم رفعوه وجعل كل منا يظن ظناً في تفكيره ، فمن قائل إنه  
الخوف أذهله عن نفسه ، وقائل إنه الانصراف بعقله إلى الموت ، وثالث  
يقول إنه سكون الفكرة لمنع الحركة عن الجسم فلا يضطرب ، وزعم جماعة  
أن هذه حالة من الاستغراق يسحر بها الأسد ؛ وأكثرتنا في ذلك وتجارينا  
فيه ، حتى سأله ابن طواون : ما الذي كان في قلبك وفيم كنت تفكر ؟  
فقال الشيخ : لم يكن عليّ بأس ، وإنما كنت أفكر في لعب الأسد ،  
أهو طاهر أم نجس ....

-----

## أصراء للبيع ...

قال الشيخ تاج الدين محمد بن علي الملقَّب طوير الليل ، أحد أئمة الفقهاء  
بالمدرسة الظاهرية بالقاهرة (\*) :

كان شيخنا الإمام العظيم شيخ الإسلام تقي الدين بن مجد الدين بن دقيق  
العيد (\*\*) لا يخاطب السلطان إلا بقوله : ( يا إنسان ) فما يخشاه ولا يتعبَّد له  
ولا يَنْجَلِه ألقاب الجبروت والعظمة ولا يُزِنُّه بالنفاق ولا يُداجيه كما يصنع  
غيره من العلماء ؛ وكان هذا عجيباً ؛ غير أن تمام العجب أن الشيخ لم يكن

---

(\*) توفي سنة ٧١٧ هـ

(\*\*) كانت وفاته سنة ٧٠٣ هـ



يخاطب أحدا قط من عامة الناس إلا بهذا اللفظ عينه ( يا إنسان ) ؛ فما يعلو  
بالسلطان والأمراء ولا ينزل بالضعفاء والمساكين ، ولا يرى أحسن ما في  
هؤلاء وهؤلاء إلا الحقيقة الإنسانية !

ثم كان لا يعظم في الخطاب إلا أئمة الفقهاء ، فإذا خاطب منهم أحدا قال  
له : ( يا فقيه ) ؛ على أنه لم يكن يسمح بهذا إلا لمثل شيخ الاسلام نجم الدين  
ابن الرقعة <sup>(٥)</sup> ، ثم يخص علاء الدين بن الباجي وحده بقوله ( يا إمام ) ؛  
إذ كان آية من آيات الله في صناعة الحجة ، لا يكاد يقطعه أحد في المناظرة  
والمباحثة ؛ فهو كالبرهان : إجلاله لإجلال الحق ، لأن فيه المعنى وتثبيت المعنى .  
وقلت له يوما : يا سيدى ، أراك تخاطب السلطان بخطاب العامة ؛ فإن  
علوت قلت ( يا إنسان ) وإن نزلت قلت يا إنسان ؛ أفلا يُسخطه هذا منك وقد  
تذوق حلاوة ألفاظ الطاعة والخضوع ، وخصه النفاق بكلمات هى ظل الكلمات  
التي يوصف الله بها ، ثم جعله الملك إنسانا بذاته في وجود ذاته ، حتى أصبح من  
غيره كالجبل والحصاة : يستويان في العنصر ويتباينان في القدر ، وأقله مهما  
قل هو أكثرها مهما عظمت ، ووجوده شيء ووجودها شيء آخر ؟

فتبسم الشيخ وقال : يا ولدى ، إيش هذا ؟ إننا نفوس لا ألفاظ ، والكلمة  
من قائلها هى بمعناها فى نفسه لا بمعناها فى نفسها ؛ فما يحسن بحامل الشريعة  
أن ينطق بكلام يرده الشرع عليه ؛ ولو نافق الدين لبطل أن يكون ديناً ،  
ولو نافق العالم الدينى لكان كل منافق أشرف منه ؛ فاطخة فى الثوب الأبيض  
ليست كاطخة فى الثوب الأسود ، والمنافق رجل مغطى فى حياته ، ولكن عالم  
الدين رجل مكشوف فى حياته لامغطى ؛ فهو للهداية لا للتلبيس ، وفيه معانى  
النور لا معانى الظلمة ؛ وذاك يتصل بالدين من ناحية العمل ، فإذا نافق فقد

كذب ؛ والعالم يتصل بالدين من ناحية العمل وناحية التبيين ، فإذا نافق فقد كذب وغش وخان .

وما معنى العلماء بالشرع إلا أنهم امتداد لعمل النبوة في الناس دهرًا بعد دهر ، ينطقون بكلماتها ، ويقومون بحجتها ، يأخذون من أخلاقها كما تأخذ المرأة النور : تحويه في نفسها وتلقيه على غيرها ، فهي أداة لإظهاره وإظهار جماله معاً .

أتدرى يا ولدى ما الفرق بين علماء الحق وعلماء السوء وكلهم آخذ من نور واحد لا يختلف ؟ إن أولئك في أخلاقهم كاللوح من البلور : يُظهر النور نفسه فيه ويظهر حقيقته البلورية ؛ وهؤلاء بأخلاقهم كاللوح من الخشب يظهر النور حقيقته الخشبية لا غير !

وعالم السوء يفكر في كتب الشريعة وحدها ، فيسهل عليه أن يتأول ويحتال ويغير ويبدل ويظهر ويخفي ؛ ولكن العالم الحق يفكر مع كتب الشريعة في صاحب الشريعة ، فهو معه في كل حالة يسأله ماذا تفعل وماذا تقول ؟

والرجل الديني لا تتحول أخلاقه ولا تتفاوت ولا يحىء كل يوم من حوادث اليوم ، فهو بأخلاقه كلها ، لا يكون مرة ببعضها ومرة ببعضها ، ولن تراه مع ذوى الساطان وأهل الحكم والنعمة كعالم السوء هذا الذى لو نطقت أفعاله لقاتلته بلسانه : هم يعطوننى الدراهم والدنانير فأين دراهمك أنت ودنانيرك ؟

إن الدينار يا ولدى إذا كان صحيحاً في أحد وجهيه دون الآخر ، أو في بعضه دون بعضه ، فهو زائف كله ؛ وأهل الحكم والجاه حين يتعاملون مع هؤلاء يتعاملون مع قوة الهضم فيهم ... فينزلون بذلك منزلة البهائم : تقدم أعمالها لتأخذ لبطونها :

والبطن الآكل في العالم السوء يأكل دين العالم فيما يأكله ...  
فإذا رأيت لعلماء السوء وقارا فهو البلادة ، أو رقة فسمها الضعف ، أو  
نحاسنة فقل إنها النفاق ، أو سكوتنا عن الظلم فتلك رشوة يأكلون بها !



قال الإمام : وما رأيت مثل شيخى سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام<sup>(٥)</sup>  
فلقد كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيئاً تصنمه طبيعته كما يصنع  
جسمه الحياة ، فلا يبالي هلك فيه أو عاش ، إذ هو في الدم كالقلب : لا تناله  
يد صاحبه ولا يد غيره ؛ ولم يتعلق بمال ولا جاه ولا ترف ولا نعيم ،  
فكان تجرده من أوهام القوة لا تغلب ؛ وانتزع خوف الدنيا من قلبه فعمرته  
الروح السماوية التي تخيف كل شيء ولا تخاف ؛ وكان بهذه الروح كأنه  
تحويل وتبديل في طباع الناس ، حتى قال الملك الظاهر بيبرس وقد رأى كثرة  
الخلق في جنازته حين مرت تحت القلعة : الآن استقر أمرى في الملك ، فلو أن  
هذا الشيخ دعا الناس إلى الخروج على لا تنزع منى المملكة !

وكان سلطانه في دمشق الصالح إسماعيل ، فاستنجد بالافرنج على الملك نجم  
الدين أيوب سلطان مصر ؛ فغضب الشيخ وأسقط اسم الصالح من الخطبة  
وخرج مهاجرا ، فأُتبعه الصالح بعض خواصه يتلطف به ويقول له : ما بينك  
وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وأكثر مما كنت عليه إلا أن  
تتخضع للسلطان وتقبل يده . فقال له الشيخ : يامسكين ! أنا لا أرضى أن يقبل  
السلطان يدي ! أنتم في واد وأنا واد !

ثم قدم إلى مصر في سنة ٦٣٩ ، فأقبل عليه السلطان نجم الدين أيوب

(٥) هو الإمام العظيم شيخ الاسلام عبدالعزيز بن عبد السلام بركة الدنيا في عصره ،

توفي سنة ٦٦٠

وتَحَنَّى به وولاه خطابة مصر وقضاءها ، وكان أيوب ملكا شديدا البأس ، لا يجسر أحد أن يخاطبه إلا مجيباً ، ولا يتكلم أحد بحضرته ابتداء ؛ وقد جمع من المماليك الترك ما لم يجتمع مثله لغيره من أهل بيته ، حتى كان أكثر أمراء عسكره منهم ، وهم معروفون بالحشونة والبأس والفظاظة والاستهانة بكل أمر ؛ فلما كان يوم العيد صعد إليه الشيخ وهو يعرض الجند ويظهر ملكه وسطوته والأمراء يقبلون الأرض بين يديه ؛ فناداه الشيخ بأعلى صوته ليسمع هذا المملأ العظيم : يا أيوب ! ثم أمره بإبطال منكر انتهى إلى علمه في حانة تباع فيها الخمر ؛ فرسم السلطان لوقته بإبطال الحانة واعتذر إليه فحدثني الباجي قال : سألت الشيخ بعد رجوعه من القلعة وقد شاع الخبر ، فقلت : يا سيدي ، كيف كانت الحال ؟

قال : يا بني ، رأيته في تلك العظمة نخشيت على نفسه أن يدخلها الغرور فتبطره فكان ما باديته به .

قلت : أما خفته ؟

قال : يا بني ، استحضرتُ هيبَةَ الله تعالى فكان السلطان أممى كالقط (٥) . ولو أن حاجة من الدنيا كانت في نفسي لرأيته الدنيا كلها ؛ بيد أني نظرت بالآخرة فامتدت عيني فيه إلى غير المنظور للناس ، فلا عظمة ولا سلطان ولا بقاء ولا دنيا ، بل هو لا شيء في صورة شيء .

نحن يا ولدي مع هؤلاء كالمعنى الذي يصحح معنى آخر ، فإذا أمرناهم فالذي يأمرهم فينا هو الشرع لا الإنسان ؛ وهم قوم يرون لأنفسهم الحق في إسكات الكلمة الصحيحة أو طمسها أو تحريفها ؛ فما بد أن يقابلوا من العلماء والصالحين بمن يرون لأنفسهم الحق في إنطاق هذه الكلمة وبيانها وتوضيحها ؛

---

(٥) هذه كلمات الشيخ بحروفها .

فإذا كان ذلك فههنا المعنى بإزاء المعنى : فلا خوف ولا مبالاة ولا شأن للحياة والموت

ولنما الشر كل الشر أن يتقدم إليهم العالم لحظوظ نفسه ومنافعها ، فيكون باطلاً مزوراً في صورة الحق ؛ وههنا تكون الذات مع الذات ، فيخضع الضعف أمام القوة ، ويذل الفقر بين يدي الغنى ، وترجو الحياة لنفسها وتخشى على نفسها ؛ فإذا العالم من السلطان كالخشبة البالية النخرة حاولت أن تقارع السيف !

كلا يا ولدي ! إن السلطان والحكام أدوات يجب تعيين عمالها قبل إقامتها ، وإذا تفككت واحتاجت إلى مسامير دُقت فيها المسامير ؛ وإذا انفتق الثوب فمن أين للإبرة أن تسلك بالخيط الذي فيها إذا هي لم تخزّه ؟  
إن العالم الحق كالمسمار ؛ إذا أوجد المسمار لذاته دون عمله كفرت به كل خشبة ...



قال الإمام تقي الدين : وطغى الأمراء من الممالك وثقلت وطأتهم على الناس ؛ وحيثما وجدت القوة المسلطة المستبدة جعلت طغيانها واستبدادها أدباً وشريعة ؛ إلا أن تقوم بإزائها قوة معنوية أقوى منها ؛ ففكر شيخنا في هؤلاء الأمراء وقال : إن خداع القوة الكاذبة لشعور الناس باب من الفساد ؛ إذ يحسبون كل حسن منها هو الحسن ، وإن كان قبيحاً في ذاته ولا أقبح منه ؛ ويرون كل قبيح عندها هو القبيح ، وإن كان حسناً ولا أحسن منه

وقال : ما معنى الإمارة والأمراء ؟ وإنما قوة الكل الكبير هي عماد الفرد الكبير ، فلكل جزء من هذا الكل حقه وعمله ؛ وكان ينبغي أن

تكون هذه الإمارة أعمالاً نافعة قد كبرت وعظمت فاستحقت هذا اللقب بطبيعة فيها كطبيعة أن العشرة أكثر من الواحد ، لأهواء وشهوات ورذائل ومفاسد تتخذ لقبها في الضعفاء بطبيعة كطبيعة أن الوحش مفترس

وفكر الشيخ فهداه تفكيره إلى أن هؤلاء الأمراء عماليك ، فحكم الرق مُستصحبٌ عليهم لبیت مال المسلمين ، ويجب شرعاً بيعهم كما يباع الرقيق ! وبلغهم ذلك فجزعوا له وعظم فيه الخطب عليهم : ثم احتدم الأمر وأيقنوا أنهم بإزاء الشرع لا بإزاء القاضي ابن عبد السلام وأفتى الشيخ أنه لا يصح لهم بيع ولا شراء ولا زواج ولا طلاق ولا معاملة ، وأنه لا يصحح لهم شيئاً من هذا حتى يباعوا ويحصل عتقهم بطريق شرعي !

ثم جعلوا يتسببون إلى رضاه ، ويتحملون عليه بالشفاعات ، وهو مصرّ لا يعبأ بجلالة أخطارهم ، ولا يخشى اتسائه بعداوتهم ، فرفعوا الأمر إلى السلطان ، فأرسل إليه فلم يتحول عن رأيه وحكمه

واستشنع السلطان فعله وحنق عليه وأنكر منه دخوله فيما لا يعنيه ، وقبح عمله وسياسته وما تطاول إليه ، وهو رجل ليس له إلا نفسه وما تكاد تصل يده إلى ما يقيمه ، وهم وافرون وفي أيديهم القوة ولهم الأمر والنهي

وانتهى ذلك إلى الشيخ الإمام فغضب ولم يبال بالسلطان ولا كبر عليه إعراضه ، وأزمع الهجرة من مصر ، فاكترى حميراً أركب أهله وولده عليها ومشى هو خلفهم يريد الخروج إلى الشام : فلم يبعد إلا قليلاً نحو نصف بريد حتى طار الخبر في القاهرة ففرع الناس وتبعوه لا يتخلف منهم رجل ولا امرأة ولا صبي : وصار فيهم العلماء والصلحاء والتجار والمحترفون

كَأَنَّهُ خَرُوجُهُ خُرُوجِ نَبِيٍّ مِنْ بَيْنِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ ؛ وَاسْتَعْلَنْتْ قُوَّةَ الشَّرْعِ فِي مَظْهَرِهَا الْحَاكِمِ الْآمِرِ مِنْ هَذِهِ الْجُمَاهِيرِ . فَقِيلَ لِلْإِسْلَامِ : إِنَّ ذَهَبَ هَذَا الرَّجُلُ ذَهَبَ مُلْكِكَ !

فَارْتَاعَ السُّلْطَانُ ، فَرَكِبَ بِنَفْسِهِ وَلَحِقَ بِالشَّيْخِ يَتَرَضَّاهُ وَيَسْتَدْفِعُ بِهِ غَضَبَ الْأُمَّةِ ، وَأَطْلَقَ لَهُ أَنْ يَأْمُرَ بِمَا شَاءَ ، وَقَدْ أُيْقِنَ أَنَّهُ لَيْسَ رَجُلَ الدِّينَارِ وَالْدِرْهَمِ وَالْعَيْشِ وَالْجَاهِ وَكُذِّبَ طِيلَسَانُ الْعُلَمَاءِ كَمَا يُلْصَقُ الرِّيشُ عَلَى حَجَرٍ فِي صُورَةِ الطَّائِرِ

وَرَجَعَ الشَّيْخُ وَأَمَرَ أَنْ يُعْقَدَ الْمَجْلِسُ وَيُجْمَعَ الْأُمَرَاءُ وَيُنَادَى عَلَيْهِمُ لِلْمَسَاوِمَةِ فِي بَيْعِهِمْ ، وَضُرِبَ لِذَلِكَ أَجْلاً بَعْدَ أَنْ يَسْكُونَ الْأَمْرَ قَدْ تَعَالَمَهُ كُلُّ الْقَاهِرَةِ ، لِيَتَهَيَّأَ مِنْ يَتَهَيَّأَ لِلشِّرَاءِ وَالسَّوْمِ فِي هَذَا الرَّقِيقِ الْغَالِي !

\*\*\*

وَكَانَ مِنْ الْأُمَرَاءِ الْمَمَالِيكِ نَائِبُ السُّلْطَانَةِ ، فَبَعَثَ إِلَى الشَّيْخِ يَلَاطِفُهُ وَيَسْتَرْضِيهِ ، فَلَمْ يَعْأَ الشَّيْخُ بِهِ ؛ فَهَاجَ هَائِجُهُ وَقَالَ : كَيْفَ يَبِيعُنَا هَذَا الشَّيْخُ وَيُنَادِي عَلَيْنَا وَيَنْزِلُنَا مَنْزِلَةَ الْعَبِيدِ وَيُفْسِدُ مَحَلَّنَا مِنَ النَّاسِ وَيَبْتَذِلُ أَقْدَارَنَا وَنَحْنُ مُلُوكُ الْأَرْضِ ؟ وَمَا الَّذِي يَفْقَدُ هَذَا الشَّيْخُ مِنَ الدُّنْيَا فَيَدْرِكُ مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ إِنَّهُ يَفْقَدُ مَا لَا يَمْلِكُ ، وَيَفْقَدُ غَيْرَ الْمَوْجُودِ ، فَلَا جَزَمَ لَا يَبَالِي وَلَا يَرْجِعُ عَنْ رَأْيِهِ مَا دَامَ هَذَا الرَّأْيُ لَا يَمُرُّ فِي مَنَافِعِهِ ، وَلَا فِي شَهَوَاتِهِ وَلَا فِي أَطْمَاعِهِ ، كَالَّذِينَ نَرَاهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ الدُّنْيَا ؛ أَمَّا وَاللَّهِ لَا ضَرْبَتَهُ بَسِيفِي هَذَا ، فَمَا يَمُوتُ رَأْيُهُ وَهُوَ حَيٌّ .

ثُمَّ رَكِبَ النَّائِبُ فِي عَسْكَرِهِ وَجَاءَ إِلَى دَارِ الشَّيْخِ وَاسْتَلَّ سَيْفَهُ وَطَرَقَ الْبَابَ ، فَخَرَجَ ابْنُهُ عَبْدُ الْوَطِيفِ وَرَأَى مَا رَأَى ، فَانْقَلَبَ إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ لَهُ : انْجِ بِنَفْسِكَ ، إِنَّهُ الْمَوْتُ ، وَإِنَّهُ السَّيْفُ ، وَإِنَّهُ وَإِنَّهُ .

فما اكترث الشيخ لذلك ولا جزع ولا تغير ، بل قال له : يا ولدى ! أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله !

وخرج لا يعرف الحياة ولا الموت ، فليس فيه الإنسانى بل الإلهى ؛ ونظر إلى نائب السلطنة وفي يده السيف ، فانطلقت أشعة عينية في أعصاب هذه اليد فبيست ووقع السيف منها

وتناوله بروحه القوية ، فاضطرب الرجل وتزلزل وكأنما تسكر من أصابه فهو يرعد ولا يستقر ولا يهدأ

وأخذ النائب يبكي ويسأل الشيخ أن يدعو له ؛ ثم قال : ياسيدى ، مات صنع بنا ؟

قال الشيخ : أنا دى عليكم وأبيعكم !

— وفيم تصرف ثمننا ؟

— فى مصالح المسلمين

— ومن يقبضه ؟

— أنا .

وكان الشرع هو الذى يقول ( أنا ) ، فتم للشيخ ما أراد ، ونادى على الأمراء واحداً واحداً ، واشتط فى ثمنهم ، لا يبيع الواحد منهم حتى يافع الثمن آخر ما يافع ؛ وكان كل أمير قد أعد من شيعته جماعة يستامونه ليشتروه ...

ودفع الظلم والنفاق والطغيان والتكبر والاستطالة على الناس بهذه الكلمة التى أعلنها الشرع :

أمراء للبيع ! أمراء للبيع ...



## العجوزان

قال محدّثي : التقى هذان الشيخان بعد فراق أربعين سنة ، وكانت مَثابتهما <sup>(٥)</sup> ذلك المكان القائم على شاطئ البحر في اسكندرية في جهة كذا ؛ وهما صديقان كانا في صدر أيامهما - حين كانت لهما أيام ... - رجُلَي حكومة يعملان في ديوان واحد ، وكانا في عيشهما أخَوَي جد وهزل ، وفضائل ورذائل ، يجتمعان دائماً اجتماع السؤال والجواب ، فلا تنقطع وسيلة أحدهما من الآخر ؛ وكأن بينهما في الحياة قرابة الابتسامة من الابتسامة ، والدمعة من الدمعة .

ولبثا كذلك ماشاء الله ، ثم تبددا وأخذتهما الآفاق كدأب « الموظفين » : ينتظمون وينفثرون ، ولا يزال أحدهم ترفعه أرض وتخفضه أخرى ، وكأن « الموظف » من تفسير قوله تعالى : « وما تدرى نفس بأى أرض تموت » ! وافترق الصديقان على مضض ، وكثيراً ما يكون أمر الحكومة بنقل بعض « موظفيها » هو أمرها بتمزيق بعضهم من بعض ؛ ثم تصرّفت بهما الدنيا فذهبا على طرفي طريق لا يلتقيان ، وأصبح كلاهما من الآخر كيومه الذي مضى : يُحفظ ولا يُرى .



قال المحدث : وكنت مع الأستاذ (م) ، وهو رجل في السبعين من عمره ، غير أنه يقول عن نفسه إنه شاب لم يبلغ من العمر إلا سبعين سنة ...

---

(٥) أى المكان الذى اجتمعا فيه بعد التفرق

ويزعم أن في جسمه الناموس الأخضر الذى يحيى الشجرة حياة واحدة إلى الآخر .

رجل فاره ، متأنق ، فاخر البزة ، جميل السمات ، فارغ الشطاط (\*) كالمصبوب فى قالب لا عوج فيه ولا انحناء ، مجتمع كله لم يذهب منه شيء ، قد حفظته أساليب القوة التى يعانها فى رياضته اليومية ؛ وهو منذ كان فى آنفاته وشبابه لا يمشى إلا متأخر الصدر (\*\* ) ، مشدود الظهر ، مرتفع العنق ، مسنداً قفاه إلى طوقه ؛ وبذلك شب وشاب على استواء واحد ، وكلما سئل عن سر قامته وعوده لم يزد على قوله : إن هذا من عمل إسناد القفا (\*\*\*)

وهو دائماً عطر عبق ، ثم لا يمش إلا عطرا واحدا لا يغيره ، يرى أن هذا الطيب يحفظ خيال الصبي ، وأنه يبقى للأيام رائحتها .  
وله فلسفة من حسه لامن عقله ، وفلسفته قواعد وأصول ثابتة لا تتغير ، ومن بعض قواعدها الزهر ، ومن بعضها الموسيقى ، ومن بعضها الصلاة أيضاً ؛ وكل تلك هى عنده قواعد لحفظ الشباب . ومن فلسفته أن مبادئ الشباب وعاداته إذا هى لم تتغير اتصل الشباب فيها وأطرده فى الروح ، فتكون من ذلك قوة تحرس قوة اللحم والدم ، وتمسك على الجسم حالته النفسية الأولى وهو يزيد فى حكمة الصلاة فكرة رياضية عملية لم ينتبه إليها أحد ، هى

(\*) ممتد الطول .

(\*\*) يقال مستقدم الصدر ، للهرم المحنى الظهر ؛ فأخذنا منها متأخر الصدر ، وذلك بروزه حين يكون مشدودا ، فيكون أعلاه إلى الورا .  
(\*\*\*) هذه حقيقة رياضية ، ولها أقوى الأثر فى شد الجسم وانتصاب القامة إذا اعتادها الانسان ... والمراد بالطوق : البنية (الياقة)

رياضة البطن والأمعاء بالركوع والسجود والقيام ؛ ويقول إن ثروة الصلاة مُنْكَنَزُ في صندوقين : أحدهما الروح لما بعد الموت ، والآخر البطن لما قبل الموت ؛ ويرى أن الإسلام لم يفرض صلاة الصبح قبل الشمس إلا ليجعل الفجر ينصب في الروح كل يوم

\*\*\*

قال المحدث : وبينما نحن جالسان مر بنا شيخ أعجف مهزول موهون في جسمه ، يذلف متقاصراً الخطو كأن حمل السنين على ظهره ، مُرْعَش من الكبر ، مستقدّم الصدر منحني يتوكأ على عصاً ، ويدل الحناؤه على أن عمره قد اعوج أيضاً ، وهو يبدو في ضعفه وهزاله كأن ثيابه ملئت عظاماً لا إنساناً ، وكأنها ماخيطت إلا لتمسك عظاماً على عظم ...

قال : فخلق إليه ( م ) ثم صاح : رينا ! رينا ! فالتفت العجوز ، وما كاد يأخذنا بصره حتى انفتل إلينا وأقبل ضاحكاً يقول : أوه ! ريت ، ريت ! ونهض ( م ) فاحتضنه وتلازما طويلاً ، وجعل رأساهما يدوران ويتطوَّحان ، وكلاهما يقبل صاحبه قبلاً ظامئاً لعهدي بمثلها في صديقين ، حتى لحيل إلى أنهما لا يتعانقان ولا يتلاثمان ، ولكن بينهما فكرة يعتنقانهما ويقبلانهما معا ...

وقلت : ما هذا أيها العجوزان ؟

فضحك ( م ) وقال : هذا صديقي القديم ( ن ) ، تركته منذ أربعين سنة معجزةً من معجزات الشباب ، فها هو ذا معجزة أخرى من معجزات الهرم ، ولم يبق منه كاملاً إلا اسمه ...

ثم التفت إليه وقال : كيف أنت يارينا ؟

قال العجوز ( ن ) : لقد أصبحت كما ترى : زاد العمر في رجلي رجلاً

من هذه العصا . ورجع مصدرُ الحياة في مصدرًا للآلام والأوجاع ،  
ودخلت في طبيعتي عادةً رابعة من تعاطي الدواء  
فضحك (م) وقال : قبح الله هذه الدخيلة ، فما هي العادات الثلاث  
الأصلية ؟

قال العجوز : هي الأكل والشرب والنوم . . . ثم أنت ياريت كيف تقرأ  
الصحف الآن ؟

قال (م) : أقرأها كما يقرأها الناس ، فما سؤالك عن هذا ؟ وهل تقرأ  
الصحف يوما غير ما تقرأ في يوم ؟

قال : آه ! إن أول شيء أقرأ في الصحف أخبارُ الوفيات ، لأرى بقايا  
الدنيا ، ثم (إعلانات الأدوية) . . . ولكن كيف أنت ياريت ؟ إني لأراك  
ما ترال من وراء أربعين سنة في ذلك العيش الرخى ، وأراك تحمل  
شيخوختك بقوة كأن الدهر لم يخزُك من هنا ولا من هنا ، وكأنه يلبسك  
بأصابعه لا بمساميره فهل أصبت معجزة من معجزات العلم الحديث ؟  
قال : نعم

قال : ناشدتك الله ، أفى معجزات العلم الحديث معجزةٌ لعظمى ؟  
قال (م) : ويحك يارينا ! إنك على العهد لم تبرح كما كنت منزلة  
أوبكار . . . ماذا يصنع فيك العلم الحديث وأنت كما أرى بمنزلة بين العظم  
والخشب . . . ؟



قال المحدث : وضحكنا جميعا ، ثم قلت الأستاذ (م) : ولكن ما (رينا  
وريت) ؟ وما هذه اللغة ؟ وفي أى معجم تفسيرها ؟  
قال : فتغامز الشيخان ، ثم قال (م) : يابنى ، هذه لغة ماتت معانيها وبقيت

ألفاظها ، فهي كتلك الألفاظ الآثرية الباقية من الجاهلية الأولى  
قلت : ولـكن الجاهلية الأولى لم تنقض إلا فيكما ... ولا يزال كل  
شاب في هذه الجاهلية الأولى ، وما أحسب (رينا ، ريت) في لغتكما القديمة  
إلا بمعنى (سوسو ، وزوزو) في اللغة الحديثة ؟

فقال (م) : اسمع يا بني : إن رجل سنة ١٩٣٥ (\*) متى سأل في رجل سنة  
١٨٩٥ : مامعنى رينا وريت ؟ فرد عليه : إن (رينا) معناها (كاترينا) ؛ وكان  
(ن) بها صبا مغرمًا ، وكان مُقْتَتَلًا قتله حبها . أما (ريت) فهو لا يعرف معناها .  
فامتعض العجوز (ن) وقال : سبحان الله ! اسمع يا بني : إن رجل سنة ١٨٩٥  
في يقول لك : إن (ريت) معناها (مرغريت) ، وكانت الجوى الباطن ، وكانت  
اللوعة والحريق الذي لا ينطفئ في قلب الأستاذ (م)

قلت : فأنتما أيها العجوزان من عشاق سنة ١٨٩٥ ، فكيف تريان  
الحب الآن ؟

قال العجوز (ن) : يا بني ، إن أواخر العمر كالمنفى ... ونحن نتكلم  
بالألفاظ التي تتكلم بها أنت وأنتما وأنتم ... غير أن المعاني تختلف  
اختلافاً بعيداً

قلت : واضرب لهم مثلاً .

قال : واضرب لهم مثلاً كلمة (الآكل) ، فلها عندنا ثلاثة معان : الأكل ، وسوء  
الهضم ، ووجع المعدة : وكلمة (المشي) فلها أيضاً ثلاثة معان : المشي ، والتعب ،  
وغمزات العظم ... وكلمة (النسيم) ، النسيم العليل يا بني : زيدلنا في معناها : تحرك  
(الروماتزم) ...

فضحك (م) وقال : يا «شيخ» ...

---

(\*) كانت هذه القصة في صيف سنة ١٩٣٥ في اسكندرية

قال العجوز : وتلك الزيادة يابنى لاتجىء إلا من نقص ، فهنا بقيةٌ من يدين ، وبقية من رجلين ، وبقية من بطن ، وبقية من ومن ومن ، وبمجموع كل ذلك بقيةٌ من إنسان .

قال الاستاذ (م) : والبقية فى حياتك ...

قال ( ن ) : وبالجمله يابنى فإن حركة الحياة فى الرجل الهرم تكون حول ذاتها لاحول الأشياء ؛ وما أعجب أن تكون أقصر حركتى الأرض حول نفسها كذلك ، وإذا قال الشاب فى مغامرته : ليمض الزمن ولتصرم الأيام ! فإن الأيام هى التى تتصرم والزمن هو الذى يمر ؛ أما الشيوخ فان يتمنّوه أبداً ؛ فمن قال منهم : ليمض الزمن ، فكأنما قال : فلأمض أنا...

فصاح ( م ) : ياشيخ ياشيخ ...

ثم قال العجوز : واعلم يابنى أن العلم نفسه يهرم مع الرجل الهرم ، فيصبح مثله ضعيفاً لا غناء عنده ولا حيلة له ؛ وكل ماء انع لكشير ومصانع بنك مصر واليابان والأمريكيتين ، وما بقى من مصانع الدنيا ، لا فائدة من جميعها ؛ فهى عاجزة أن تكسو عظامى ...



قال المحدث : فقهه الاستاذ (م) وقال : كدت والله أتخشب من هذا الكلام ، وكادت معانى العظم تخرج من عظامى ؛ لقد كان المتوحشون حكام فى أمر شيوخهم ، فإذا علّت السن بجماعة منهم لم يتركوهم أحياء إلا بامتحان ، فهم يجمعونهم ويلجئونهم إلى شجرة غضة لينة المهزة ، فيكرهونهم أن يصعدوا فيها ثم يتدلّوا منها وقد علقت أيديهم بأغصانها ؛ فإذا صاروا على هذه الهيئة اجتمع الأشداء من فتيان القبيلة فيأخذون بجذع الشجرة يرجونها وينفضونها ساعة من نهار ؛ فمن ضعفت يداه من أولئك الشيوخ أو

كَلَّتْ حَوَامِلُ ذِرَاعِيهِ فَأَفْلَتَ الْغَصْنَ الَّذِي يَتَعَاقُ بِهِ فِرْقَعٌ ، أَخَذُوهُ فَأَكَلُوهُ ؛  
وَمَنْ اسْتَمْسَكَ أَنْزَلُوهُ فَأَمْهَلُوهُ إِلَى حِينٍ !

فاقشعر العجوز (ن) وقال : أَعُوذُ بِاللَّهِ ! هَذِهِ شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ،  
وَلَعْنَةُ اللَّهِ مِنْ حِكْمَةٍ ، فَإِنَّمَا يُطْبَخُونَهُمْ فِي الشَّجَرَةِ قَبْلَ الْأَكْلِ ، أَوْ هُمْ يُجْعَلُونَ مِنْهُمْ  
كَذَلِكَ لِيَتَوَهَّمُوهُمْ طَيُورًا فَيَكُونُ لَهُمْ أَطْيَبُ وَأَلَذُّ ، وَيَتَسَاقَطُونَ عَلَيْهِمْ  
مِنَ الشَّجَرَةِ حَمَائِمٌ وَعَصَافِيرُ

قال (م) : إِنْ كَانَ فِي الْوَحْشِيَّةِ مَنْطِقٌ فَلَيْسَ فِي هَذَا الْمَنْطِقِ « بَابٌ لَمْ » ،  
وَلَا (بَابُ كَيْفٍ) ، وَلَوْ كَانَ بِهِمْ أَنْ يَأْكُلُوهُمْ لَا كَلَّوْهُمْ ، غَيْرَ أَنَّهَا تَرْبِيَةُ الطَّبِيعَةِ  
لَأَهْلِ الطَّبِيعَةِ ؛ فَإِنْ رَوَى الرَّجُلُ هَذِهِ الشَّجَرَةَ وَهَزَّهَا وَعَاقَبَتَهَا يُبْعَدُ عَنْهُ  
الضَّعْفُ وَالتَّخَلُّخُ ، وَيُدْفَعُ إِلَى مُعَانَاةِ الْقُوَّةِ ، وَيَزِيدُ نَفْسَهُ انْتِشَارًا عَلَى  
الْحَيَاةِ وَطُمَعًا فِيهَا وَتَنْشِيطًا لِأَسْبَابِهَا ، فَيَكُونُ سَاعِدُهُ آخَرَ شَيْءٍ يَهْرَمُ ، وَلَا  
يَزَالُ فِي الْحِدَّةِ وَالنَّشَاطِ وَالْوَثْبَانِ ؛ فَلَا يَعْجُزُ قَبْلَ يَوْمِهِ الطَّبِيعِيِّ ، وَيَكُونُ  
الْمُتَوَحِّشُونَ بِهَذَا قَدْ احْتَالُوا عَلَى الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ فَاضْطَرُّوْهَا إِلَى مَجْهُودِهَا ،  
وَأَكْرَهُوْهَا عَلَى أَنْ تَبْذُلَ مِنَ الْقُوَّةِ آخَرَ مَا يَسَعُ الْجِسْمَ

قال (ن) : فَتَنَعِمُ إِذَنْ ، وَلَعْنَةُ اللَّهِ مُعَانِي الضَّعْفِ ؛ كَدَتِ وَاللَّهُ أَظُنُّ  
أَنْيَ لَمْ أَكُنْ يَوْمًا شَابًّا ، وَمَا أَرَاكَ إِلَّا مُتَوَحِّشًا تَخَافُ أَنْ تَوْكَلَ ،  
فَتُظَلُّ شَيْخًا رَجُلًا لَا شَيْخًا طِفْلًا ، وَتَرَى الْعَمَرَ كَمَا يَرَى الْبَخِيلُ ذَهَبَهُ : مَهْمَا  
يَبْلُغُ فَيَكْثُرَتْهُ غَيْرُ كَثِيرَةٍ



قال المحدث : وَأَضْجَرْنِي حَوَارِهِمَا ، إِذْ لَمْ يَعُدْ فِيهِ إِلَّا أَنْ جَسَمُ هَذَا يَرُدُّ  
عَلَى جَسَمِ هَذَا ؛ وَإِنَّمَا الشَّيْخُ مِنْ أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ زَمَانٍ يَتَكَلَّمُ وَيَقْصُ وَيَعْظُ  
وَيَنْتَقِدُ ، وَإِنْ يَكُونُ الشَّيْخُ مَعَكَ فِي حَقِيقَتِهِ إِنْ لَمْ تَرْحَلْ أَنْتَ فِيهِ إِلَى دُنْيَا  
قَدِيمَةٍ ؛ فَقُلْتُ لَهَا : أَيُّهَا الْعَجُوزَانِ ! أَرِيدُ أَنْ أَسَافِرَ إِلَى سَنَةِ ١٨٩٥ ...

## العجوزان<sup>(٥)</sup>

٢

قال محدّثي : ولما قلت لهما ، أيها العجوزان ، أريد أن أسافر إلى سنة ١٨٩٥ : نظر إلى العجوز الظريف (ن) وقال : يا بنيّ ، أحسبُ رؤيتك إياي قد دَنَتْ بك من الآخرة ... فتريد أن نلوذَ بأخبار شبابنا لتنظر إلينا وفيما روح الدنيا .

قال الأستاذ (م) : وكيف لا تريبه الآخرة وأكثرك الآن في المجهول ، قال : ويحك يا (م) ! لا تزال على وجهك مسحة من الشيطان هنا وهنا : كأن الشيطان هو الذي يُصالح في داخلك ما اختلّ من قوانين الطبيعة ، فلا

---

(٥) الجمهور من أهل اللغة على أن (العجوز) وصف خاص بالمرأة إذا شاخت وهرمت ، ولكن جاء في اللسان : « ويقال للرجل عجوز ، ونقله صاحب التاج عن الصاغاني ، ونحن على هذا الرأي ، ولو لم يأت فيه نص عن العرب لا بتدعنا وزدناه في اللغة : ووجهه عندنا أن الرجل والمرأة إذا بلغا الهرم فقد اختلفت خصائص الذكورة والانوثة ، فلم يعودا رجلا وامرأة ، فاستويا في العجز ، فكان الرجل قيناً أن يشارك المرأة في وصفها ، فيقع اللفظ عليهما جميعاً !

ولأنما امتنع العرب أن يقولوا للرجل (عجوز) وخصوا ذلك بالمرأة ، تعسفاً وظلماً وطغياناً ، كدأبهم مع النساء ، فإذا شاخت المرأة فقد بطلت أنوثتها عندهم وعجزت عن حاجة الرجل وعجزت في كثير ، ونفقتها الطبيعة وبرأت منها : أما الرجل فبالخلاف ، لأنه رجل ؛ وإذا شاخ وبطل وعجز ولم يستطع أن يكابر في المعنى - كابر في اللفظ ... وأبي أن يقال إنه (عجوز) ، وزعم أن ذلك خاص بالمرأة ...

ألا إن هذا تزوير في اللغة ، وإن كان للرجال عليهن درجة فذلك في أوصاف القدرة لا في أوصاف العجز !



تَسْتَبِينَ فِيكَ السُّ وَقَدْ نَبَّغْتَ عَلَى السَّبْعِينَ ، وَمَا أَحْسَبَ الشَّيْطَانُ فِي تَنْظِيفِكَ  
إِلَّا كَالَّذِي يَكْنُسُ بَيْتَهُ ...

قال (م) : فَأَنْتَ أَيُّهَا الْعَجُوزُ الصَّالِحُ بَيْتٌ قَدْ تَرَكَ الشَّيْطَانُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ  
كَلِمَةَ (الْإِيْجَار) ...

فضحك (ن) وقال : تَاللهِ إِنَّ الْهَرَمَ لَهُوَ إِعَادَةُ دَرَسِ الدُّنْيَا ، وَفَهْمُهَا  
مَرَّةً أُخْرَى فَهْمًا لَا خَطَأَ فِيهِ ؛ إِذْ يَنْظُرُ الشَّيْخُ بِالْعَيْنِ الطَّاهِرَةِ ، وَيَسْمَعُ بِالْأُذُنِ  
الطَّاهِرَةِ ، وَيَلْبَسُ بِالْيَدِ الطَّاهِرَةِ ... وَتَاللهِ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَا مَعْنَى لَهُ إِلَّا أَنَّهُ وَقَاحَةُ  
الْأَعْصَابِ .

قال (م) : فَأَنْتَ أَيُّهَا الْعَجُوزُ الصَّالِحُ إِنَّمَا أَصْبَحْتَ بِلَا شَيْطَانٍ لِأَنَّ  
الْهَرَمَ قَدْ أَدَّبَ أَعْصَابَكَ ...

قال العجوز الظريف . وعند مَنْ غَيْرِنَا نَحْنُ الشُّيُوخُ تَطَاعَ الْأَوَامِرُ  
وَالنَّوَاهِي الْأَدْبِيَّةُ حَقٌّ طَاعَتُهَا ؟ عِنْدَ مَنْ غَيْرِ الشُّيُوخِ تَقَدَّسَ مِثْلُ هَذِهِ الْحَكْمِ  
الْعَالِيَةِ : لَا تَعْتَدِ عَلَى أَحَدٍ ... لَا تُفْسِدِ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا ...



قال المحدث : وَضَحَكْنَا جَمِيعًا ، وَكَانَ الْعَجُوزُ (ن) مِنْ الْآيَاتِ فِي الظَّرْفِ  
وَالنَّكْتَةِ ، فَقَالَ : تَظَنُّنِي يَا بَنِي فِي السَّبْعِينَ ؟ فَوَاللهِ مَا أَنَا بِجَمَلَتِي فِي السَّبْعِينَ ،  
وَاللهِ وَاللهِ .

قال (م) : لَقَدْ أَهْتَرُ الشَّيْخَ (\*) يَا بَنِي ، فَإِنْ هَذَا مِنْ خَرَفِهِ فَلَا تَصَدِّقْهُ .  
قال (ن) : وَاللهِ مَا خَرَفْتُ وَمَا قُلْتُ إِلَّا حَقًّا ، فَهَئِنَا مَا عَمَرَهُ خَمْسَ سِنَوَاتٍ  
فَقَطْ ، وَهُوَ أَسْنَانِي ...

قلت : « وَرَيْنَا وَرَيْت » وَسَنَهُ ١٨٩٥ ؟

(\*) أَيُّ أَخْطَأَ فِي الرَّأْيِ مِنْ تَأْثِيرِ الْكِبَرِ

قال الأستاذ (م) : أنت يا بنى من المجددين ، فما هواك فى القديم وما شأنك به ؟

وما كاد العجوز (ن) يسمع هذا حتى طَرَفَ بعينه (٥) وحدَّدَ بصره إلى وقال : أئنَّكَ لانت هو ؟ لعمرى إن فى عينيك لضجيجاً وكذباً وجدالاً واحتيالاً وزعماً ودعوى وكفراً وإلحاداً ؛ ولعمرى ...

فقطعت عليه وقلت : « لعمرك إنهم لى سكرتهم يعمهون » ، لقد وقع التجديد فى كل شىء إلا فى الشيوخ أجساماً والشيوخ عقولاً ؛ فهؤلاء وهؤلاء عند النهاية ، وغير مستنكر من ضعفهم أن يدينوا بالماضى ، فإن حياتهم لا تلمس الحاضر إلا بضعف !

قال العجوز : رحم الله الشيخ (ع) : كان هذا يا بنى رجلاً ينسخ للعلماء فى زمننا القديم ، وكان يأخذ عشرة قروش أجراً على الكراسة الواحدة ، وهو ردىء الخط ، فإذا ورق لأديب ولم يعجبه خطه فكلمه فى ذلك تعلق الشيخ به وطالبه بعشرين قرشاً عن الكراسة ؛ منها عشرة للكتابة ، وعشرة غرامة لإهانة الكتابة ...

نعم يا بنى ، إن للماضى فى قلوبنا مواقع ينزل فيها فيتمكن ، ولكن قاعدة (اثنان واثنان أربعة) لا تُعد فى الماضى ولا فى الحاضر ولا فى المستقبل ، والحقيقة بنفسها لا باسمها ؛ وليست تحتاج النار إلى ثوب المرأة إلا فى رأى المغفل .

قال الأستاذ (م) : وكيف ذلك ؟

قال العجوز : زعموا أن مغفلاً كان يرى امرأته تُضرم الحطب فتنفخ

---

(٥) أى حرك أجفانهما

فيه حتى يشتعل ، فاحتاج يوماً في بعض شأنه إلى نار ، ولم تكن امرأته في دارها  
نجاء بالخطب وأضرَم فيه وجعل ينفخ ، وكان الخطب رطباً فدخن ولم يشتعل ،  
ففكر المغفل قليلاً ثم ذهب فلَيس ثوب امرأته وعاد إلى النار ، وكان الخطب  
قد جف ، فلم يكد ينفخ حتى اشتعل وتضرَّم ؛ فأيقن المغفل أن النار تخاف  
امراته ... وأنها لا تتضرَم إلا إذا رأت ثوبها !



قال الأستاذ (م) : إن الكلام في القديم والجديد أصبح عندنا كفنون  
الحرب : تُبدع ما تبدع لتغيير ما لا يتغير في ذات نفسه ، وعلى ما بلغت وسائلُ  
الموت في القديم والجديد فإنها لم تستطع أن تُميت أحداً مرتين .  
لقد قرأت يابني كثيراً فلم أر إلى الآن من آثار المجددين عندنا شيئاً ذا قيمة ؛  
ما كان من هُراء وتقليد زائف فهو من عندهم ، وما كان جيداً فهو كالنفائس  
في ملك اللص : لها اعتباران ، إن كان أحدهما عند مقتنيها ... فالآخر عند  
القاضي (\*)

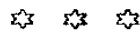
كلا أيها اللص ، لن تسمي مالكاً بهذا الأسلوب : إنما هي كلمة تسخر  
بها من الناس ومن الحق ومن نفسك .

يقولون : العلم والفن والغريزة والشهوة والعاطفة والمرأة وحرية الفكر  
واستقلال الرأي ونبذ التقاليد وكسر القيود ، إلى آخره وإلى آخرها ... فهذا  
كله حسن مقبول سائغ في الورق إن كان في مقالة أو قصة ، وهو سائغ  
كذلك حين ينحصر في حدوده التي تصلح له من ثياب الممثلين أو من بعض

---

(\*) في كتابنا (تحت راية القرآن) كلام كثير عن التجديد والمجددين ، وما نراه  
من ذلك حقاً وما نراه باطلاً

النفوس التي يمثل بها القدر فضوله الساخرة أو فضوله المبكية ، ولكنهم حين يخرجون هذا كله للحياة على أنه من قوتها الموجبة ، ترثه الحياة عليهم بالقوة السالبة ، إذ لا تزال تخلق خلقها وتعمل أعمالها بهم وبغيرهم ، وإذا كان في الإنسانية هذا القانون الذي يجعل الفكر المريض حين يهدم من صاحبه - يهدم في الكون بصاحبه ؛ ففيها أيضاً القانون الآخر الذي يجعل الفكر الصحيح السامى حين يبنى من أهله - يبنى في الكون بأهله .



قال العجوز ( ن ) : زعموا أن أحد سلكى الكهرباء كان فيلسوفاً مجتهداً ، فقال الآخر : ما أراك إلا رجعيّاً ، إذ كنت لا تتبعنى أبداً ولا تتصل بى ولا تجرى فى طريقى ؛ ولن تفلح أبداً إلا أن تأخذ مأخذى وتترك مذهبك إلى مذهبي . فقال له صاحبه : أيها الفيلسوف العظيم ، لو أنى انبعتك لبطلنا معاً فما أذهب فيك ولا تذهب فى ؛ وما علمتُك تشتمنى فى رأيك إلا بما تمدحنى به فى رأيى .

قال العجوز : وهذا هو جوابنا إذا كنا رجعيين عندهم من أجل الدين أو الفضيلة أو الحياء أو العفة إلى آخرها وإلى آخره ؛ ونحن لا نرى هؤلاء المجتهدين عند التحقيق إلا ضرورات من مذاهب الحياة وشهواتها وحمقاتها تلبست بعض العقول كما يتلبس أمثالها بعض الطباع فتزيغ بها ؛ وللحياة فى لغتها العملية مترادفات كالمترادفات اللفظية : تكون الكلمتان والكلمات بمعنى واحد ، فالخرب والخرف والمجدد بمعنى ا

كل مجدد يريد أن يضع فى كل شىء قاعدة نفسه هو ، فلو أطعناهم لم تبقى لشىء قاعدة .

قال الأستاذ ( م ) إن هذه الحياة الواحدة على هذه الأرض يجب أن

تكون على سبيلها وما تصالح به من الضبط والإحكام ، والجلب لهما والدفع عنها والمحافظة عليها بوسائلها الدقيقة الموزونة المقدرة ، والسهولة في عملها الصعبة في تدبيرها ؛ فعلى نحو مما كانت الحياة في بطن الأم يجب أن نعيش في بطن الكون بحدود مرسومة وقواعد مهياة وحيثز معروف ؛ وإلا بقيت حركات هذا الإنسان في معناها لحركات الجنين ، يرتكض ليخرج عن قانونه ، فإن استمر عمله ألقى به مسخاً مشوهاً من جسد كان يعمل في تنظيمه ، أو قذف به ميتاً من جسم كان كل ما فيه يعمل لحياته وصيانتته .

هذا الجسم كله يشرع للجنين ما دام فيه ، وهذا الاجتماع كله يشرع للفرد ما دام فيه ؛ فكيف يكون أمرٌ من أمرٍ إذا كان الجنين مجّداً لا يعجبه مثلاً وضع القلب ولا يرضيه عمل الدم ولا يريد أن يكون مقيداً لأنه حرّ انظر إلى هذا الشرطى في هذا الشارع يضرب مُقبلاً ليدبر ، ومدبراً ليقبل ، وقد ألبسته الحكومة ثياباً يتميز بها ، وهى تتكلم لغة غير لغة الشيا ، وكأنها تقول : أيها الناس ، إن ههنا الإنسان الذى هو قانون دائماً ، والذى هو قوة أبداً ، والذى هو سجنٌ حيناً ، والذى هو الموت إذا اقتضى الحال

أتحسب يابنى هذا الشرطى قائماً في هذا الشارع كجدران هذه المنازل ؟ كلا يابنى ؛ إنه واقفٌ أيضاً في الإرادة الإنسانية وفي الحسّ البشرى وفي العاطفة الحية ؛ فكيف لا يمحوه المجددون مع أنه في ذاته إرغامٌ بمعنى ، وإكراه بمعنى غيره ، وقيد في حالة ، وبلاء في حالة أخرى ؟

لكنه إرغامٌ ليقع به التيسير ، وإكراهٌ لتتطلق به الرغبة ، وقيدٌ لتتمجد به الحرية ؛ وكان هو نفسه بلاءً من ناحية ليكون هو نفسه عصمةً من الناحية التى تقابلها

يابنى ، كل دين صالح ، وكل فضيلة كريمة ، وكل خاق طيب .. كل شيء من

ذلك إنما هو على طريق المصالح الانسانية كهذا الشرطى بعينه : فإما تخريب العالم  
أيها المجددون ، وإما تخريب مذهبكم . . .

\*\*\*

قال العجوز (ن) : أنبحث عما نتسلط به أم نبحث عما يتسلط علينا ؟ وهل  
نريد أن تكون غرائزنا أقوى منا وأشد ، أو نكون نحن أشد منها وأقوى ؟  
هذه هي المسئلة لامسئلة الجديد والقديم

فإن لم يكن هناك المثل الأعلى الذى يعظم بنا ونعظم به ، فسَدَ الحش  
وفسدت الحياة ؛ وكل الأديان الصحيحة والأخلاق الفاضله إن هي  
إلا وسائل هذا المثل الأعلى للسوء بالحياة فى آمالها وغاياتها عن الحياة نفسها  
فى وقائعها ومعانيها

\*\*\*

قال المحدث : ورأيتنى بين العجوزين كأنى بين نابين ؛ ولم أكن مجردا  
على مذهب إبليس الذى ردَّ على الله والملائكة وظن لحقه أن قوة المنطق  
تغير ما لا يتغير ؛ فسكتُ ، حتى إذا فرغا من هذه الفلسفة قلت : والرحلة  
إلى سنة ١٨٩٥ ؟

# العجوزان

٣

قال المحدث : وتبين في العجوز (ن) أثرُ التعب ، فتوجع وأخذ يئن كأن بعضه قد مات لوقته ... أو وقع فيه اختلالٌ جديد ، أو نالته ضربةُ اليوم ؛ والشيخ متى دخل في الهرم دخل في المعركة العاصلة بينه وبين أيامه ثم تأقف وتملل وقال : إن أولَ ما يظهر على من شاخ وهرم ، هو أن الطبيعة قد غيرت القانون الذي كانت تحكمه به

قال الأستاذ ( م ) : إن صاحبنا كان قاضياً يحكم في المحاكم ، وأرى المحاكم قد حكمت عليه بهذه الشيخوخة (مُطَبَّقةً فيها) بعضُ المواد من قانون العقوبات ، فما خرج من المحكمة إلا إلى الحبس الثالث

فضحك (ن) وقال : قد عرفنا « الحبس البسيط » و « الحبس مع الشغل » فما هو هذا الحبس الثالث ؟

قال : هو « الحبس مع المرض » ...

قال ( ن ) : صدقتَ لعمرى ، فإن آخر أجسامنا لا يكون إلا بحساب من صنعة أعمالنا ؛ وكانت كرسى الوظيفة الحكومية قد عرف أنه كرسى الحكومة ، فهو يضرب الضرائب على عظام الموظفين ... أتدرى معنى قوله تعالى : « ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذل العمر » ولمَ سماه الأرذل ؟ قلنا : فلم سماه كذلك ؟

قال : لأنه خَلَطَ الإنسان بعضه ببعض ، ومسخه من أوله إلى آخره ، فلا ( ٦ ج ٣ وحى القلم )

هو رجلٌ ولا شاب ولا طفل ، فهو أردأ وأرذل مافى البضاعة ...  
فاستضحك الأستاذ (م) وقال : أما أنا فقد كنت شيخاً حين كنت فى الثلاثين  
من عمرى ، وهذا هو الذى جعلنى قتيّ حين بلغت السبعين  
قال (ن) : كأن الحياة تصحح نفسها فيك

قال : بل أنا أكرهتها أن تصحح نفسها ؛ فقد عرفتُ من قبل أن سعة  
الإنفاق فى الشباب هى ضائقة الإفلاس فى الهرم ، وأيقنتُ أن للطبيعة  
(عداداً) لا يخطئ الحساب ، فإذا أنا اقتصدت عدتُ لى ، وإذا أسرفتُ  
عدتُ علىّ ؛ ولن تعطينى الدنيا بعد الشباب إلا بما فى جسمى ، إذ لا يعطى  
الكونُ حياً أراد أن ينتهى منه ، فكنت أجعل نفسى كالشيخ الذى تقول  
له الملمات الكثيرة : لستُ لك ؛ ومن ثم كانت لذائق كلها فى قيود الشريعتين :  
شريعة الدين وشريعة الحياة

قال : وعرفتُ أن ما يسميه الناس وهن الشيخوخة لا يكون من  
الشيخوخة ولكن من الشباب ؛ فما هو إلا عملُ الإنسان فى تسميم جسمه  
ثلاثين أو أربعين سنة بالطعام والشراب والإغفال والإرهاق والسرور  
والحزن واللذة والألم ؛ فكنت مع الجسم فى شبابه ليكون معى بعد شبابه ، ولم  
أبرح أتعاهده كما يتعاهد الرجل داره ؛ يزيد محاسنها وينفى عيوبها ، ويحفظ  
قوتها ويتقى ضعفها ، ويجعلها دائماً باله وهمه ، وينظر فى يومها القريب لغدها  
البعيد ، ولا ينقطع حسابُ آخرها وإن بُعد هذا الآخر ، ولا يزال أبداً  
يحتاط لما يخشى وقوعه وإن لم يقع

قال العجوز (ن) : صدقت والله ، فما أفصح إلا من اغتتم الإمكان ؛  
وما نوع الشيخوخة إلا من نوع الشباب ؛ وهذا الجسم الإنسانى كالمدينة  
الكبيرة فيها (مجلسها البلدى) القائم على صيانتها ونظامها وتقويتها ، ورئيس



هذا المجلس الإرادة، وقانونه كله واجبات ثقيلة ، وهو كغيره من القوانين : إذا لم ينفذ من الأول لم يُغن في الآخر

قال الأستاذ ( م ) : وكل جهاز في الجسم هو عضو من أعضاء ذلك ( المجلس البلدى ) ؛ فجهاز التنفس وجهاز الهضم والجهاز العضلى والجهاز العصبي والدورة الدموية ، هذه كلها يجب أن تترك على حريتها الطبيعية وأن تعان على سلتها ، فلا يحال بينها وبين أعمالها برشوة من لذة ، أو مفسدة من زينة ، أو مطمعة في رفاهية ، أو دعوة إلى مدنية ، أو شيء مما يفسد حكمها أو يعطل عملها أو يضعف طبيعتها

والقاعدة في العمر أنه إذا كان الشباب هو الطفولة الثانية في براءته وطهارته ، كانت الشيخوخة هي الشباب الثاني في قوتها ونشاطها ؛ وما رأيت كالدین وسيلة تجعل الطفولة ممتدة بحقائقها إلى آخر العمر في هذا الإنسان ؛ فسر الطفولة إنما هو في قوتها على حذف الفضول والزوائد من هذه الحياة ، فلا يُطغىها الغنى ، ولا يكسرهما الفقر ، ولا تذلسها الشهوة ، ولا يُفزعها الطمع ، ولا يهولها الإخفاق ، ولا يتعاضمها الضر ، ولا يخيفها الموت ؛ ثم لا تمل وهي الصابرة ، ولا تبالغ وهي الراضية ، ولا تشك وهي الموقنة ، ولا تسرف وهي القانعة ، ولا تقبلد وهي العاملة ، ولا تجمد وهي المتجولة ؛ ثم هي لا تتكلف الإنسانية إلا العطف والحب والبشاشة وطبائع الخير التي يملكها كل قلب ؛ ولا توجب شريعتها في المعاملة إلا قاعدة الرحمة ، ولا تقرر فلسفتها للحياة إلا طهارة النظر ؛ ثم تهكم بالدنيا أكثر مما تهتم لها ، وتستغنى فيها أكثر مما تحتاج ، وتستخرج السعادة لنفسها دائماً مما أمكن ، قلّ أو كثير

وبكل هذا تعمل الطفولة في حراسة الحياة الغضة واستمرارها ونموها ، ولولا ذلك لما زها طفل ولا شبّ غلام ولا رأت العيون بين هموم

الدنيا ذلك الرّواء وذلك المنظر على وجوه الأطفال يشبتان أن البراءة في النفس أقوى من الطبيعة .

وكل ذلك هو أيضاً من خصائص الدين وبه يعمل الدين في تهذيب الحياة واطرادها على أصولها القوية السليمة ، ومتى قوى هذا الدين في إنسان لم تكن مفسد الدنيا إلا من وراء حدوده ، حتى كأنه في أرض وهي في أرض أخرى ، وأصبحت البراءة في نفسه أقوى من الطبيعة .

ثم قال : والعجيب أن اعتقاد المساواة بين الناس لا يتحقق أبداً بأحسن معانيه وأكملها إلا في قلبين : قلب الطفل لأنه طفل ، وقلب المؤمن لأنه مؤمن .

فقال المجوز (ن) : إنه ليكافلت . ولعنة الله على هذه الشهوات الآدمية الباطلة ، فإن الشهوة الواحدة في ألف نفس لتجعل الحقيقة الواحدة كأنها ألف حقيقة متعادية متنازعة ؛ والطامعان في امرأة واحدة قد تكون شهوة أحدهما هي الشهوة وهي القتل ؛ ولعنة الله على الملحدّين وإلحادهم ، يُزرون على الأديان بأنها تكاليف وقيود وصناعة للحياة ، ثم لا يعلمون أن كل ذلك لصناعة الآلة النفسية التي تستطيع أن تحرك المختلفين حركة واحدة ، فما ابتليت الإنسانية بشيء كما ابتليت بهذا الخلاف الذي يفتح من كل نفس على كل نفس أبواب التجنى ، ويجعل النفرة وسوء الظن أقرب إلى الطبيعة البشرية من الألفة والثقة .

لقد جاء العلم بالمعجزات ، ولكن فيما بين الإنسان والطبيعة ، وبين الإنسان ومنافعه ، وبين الإنسان وشهواته ؛ فهل غير الدين يحى بالمعجزات العملية فيما بين النفس والنفس ، وبين النفس وهمومها ، وبين ما هو حق وما هو واجب ؟



قال المحدث : ثم نظر إلى العجوز (ن) وقال : صل عمك يابني بالحديث الذى مضى ، فأين بلغنا آنفاً من أمر التجديد والمجدين ؟ وماذا قلنا وماذا قلت ؟ أما إن الحماقة الجديدة والرذيلة الجديدة والخطأ الجديد ، كل ذلك إن كان جديداً من صاحبه فهو قديم فى الدنيا ؛ وليس عندنا أبداً من جديد إلا إطلاق الحرية فى استعمال كل أديب حقّه فى الوقاحة والجهل والخطأ والغرور والمكابرة .

قال الأستاذ (م) : وليس الظاهر بما يظهر لك منه ، ولكن بالباطن الذى هو فيه ، فمستشفى المجاذيب قصر من القصور فى ظاهره ، ولكن المجاذيب هم حقيقة لا البناء ، وكل مجدد عندنا يزعم لك أنه قصر عظيم ، وهو فى الحقيقة مستشفى مجانين ، غير أن المجانين فيه طباع وشهوات ونزوات ؛ وعلى هذا ما الذى يمنع الفجور المتوقع أن يسمى نفسه الأدب المكشوف ؟

قال (ن) : وإذا أنت ذهبت تعترض على هذه التسمية زعموا لك أن للفن وقاحة مقدسة ... وأن ( لا أدبية ) رجل الأمن هى ( الا أخلاقية العالية ) ...

قال الأستاذ (م) : فوقاحة الشهوة إذا استعلنت بين أهل الحياء وأهل الفضيلة أودعت إلى مذهبها ، كانت تجديداً ما فى ذلك ريب ؛ ولكن هذا المذهب هو أقدم ما فى الأرض ، إذ هو بعينه مذهب كل زوجين اجتماعاً من الهائم منذ خلق الله الهائم ...

قال « ن » : وقل مثل ذلك فى مستنسخ على الله وعلى الناس يُخرج من كفره بين أهل الأديان أدباً جديداً ، وفى مغرور يتغفل الناس ، وفى لص آراء ، وفى مقلد تقليداً أعور - كل واحد من هؤلاء وأشباهم مبتلى بعله ،

فذهبه رسالة علمته ؛ وأكثرهم لا يكون ثباته على الرأى الفاسد إلا من ثبات  
العلة فيه .

\*\*\*

قال المحدث : وكنتُ من المجددين ، فأرمنى ذلك وقات للعجوزين :  
إن هذا نصف الصحيح ، أما النصف الآخر فهو فى كثير من هؤلاء الذين  
ينتحلون الدفاع عن الدين والفضيلة ؛ نعم إنهم لا يستعملون حقهم فى الوقاحة ،  
ولكن القروش تستعمل حقها ...

فضحك العجوز ( ن ) وقال : يانى ، إن الجديد فى كل حمار هو أن يزعم  
أن نقيقه موسيقى ... فالحمار والنقيق والموسيقى كل ذلك لا جديد فيه ، ولكن  
التسمية وحدها هى الجديدة ؛ ولو كان البرهان فى خلق الحمار لصح هذا  
الجديد ، غير أن التصديق والتكذيب هنا فى آذان الموسيقيين لا فى حلق  
حمارنا المحترم ...

قال ( م ) وزعموا أن رجلا نصب فخاً لصيد العصافير ، فجاء عصفور  
فنظر من هذا الفخ إلى شئ جديد ، فقال : يا هذا ، مالك مطمورا فى التراب ؟  
قال الفخ : ذلك من التواضع لخلق الله ! قال : فمَّ كان انحنائك ؟ قال الفخ :  
ذلك من طول عبادتى لله ! قال : فما هذه الحبة عندك ؟ قال الفخ : أعددتها  
لطيور الله الصائمين يفطرون عليها ! قال العصفور : فتُبيحها لى ؟ قال : نعم .  
فتقدم المسكين إليها ، فلما التقطها وقع الفخ فى عنقه ، فقال وهو  
يخنق : إن كان العباد يخنقون مثل هذا الخنق فقه دُخاق إبليس جديد ...  
قال ( ن ) : فالحقيقة أن إبليس هو الذى تجدد ليصلح لزمان الآلات  
والمخترعات والعلوم والفنون وعصر السرعة والتحول ؛ وما دام الرقى مطردا  
وهذا العقل الإنسانى لا يقف عند غاية فى تسخير الطبيعة ، فسينتهى الأمر

بتسخير إبليس نفسه مع الطبيعة ... لاستخراج كل مافيه من الشر .  
قال ( م ) : ولكن العجب من إبليس هذا : أترأه انقلب أوروبياً للأوربيين ؟  
والأفأ بالله يخرج فيهم مجددين من جبابرة العقل والخيال ، ثم لا يؤتينا نحن  
إلا مجددين من جبابرة التقليد والحماقة ؟  
قال المحدث : فقلت لهما : أيها العجوزان القديمان ، سأنشر قولكما هذا  
ليقرأه المجددون .

قال الأستاذ ( م ) : وانشر يا بني أن الربيع صاحب الإمام الشافعى . مرَّ  
يوماً فى أزقة مصر فتُثرت على رأسه إجانة (\*) مملوءة رمادا ، فنزل عن  
دابته وأخذ ينفض ثيابه ورأسه ، فقيل له : ألا تزجرهم ؟ قال : من استحقَّ  
النار وصولح بالرماد فليس له أن يغضب ... !



ثم قال محدثنا : واستولى على العجوزان ، ورأيت قولهما يعلو قولى ، وكنت  
فى السابعة والعشرين ، وهى سن الحدة العقلية ، فما حسبتنى معهما إلا ثلث  
عجوز ... مما أثرا على ، وانقلبت لأرى فى المجددين إلا كل سقيم فاسد ،  
واعتبرت كل واحد منهم بعلته ، فإذا القول ما قال الشيخان ، وإذا تحت كل  
رأى مريض مرض ، ووراء كل اتجاه إبرة مغناطيسية طرفها إلى الشيطان ...  
وفرغنا من هذا ، فقلت للشيخين : لقد حان وقت نزولكما من بين الغيوم  
أيها الفيلسوفان ، أما كنتما فى سنة ١٨٩٥ من الجنس البشرى ... ؟



# العجوزان

٤

## تتمّة

قال محدثنا : وكنتُ قد ضُقتُ بهذه اللجاجة الفلسفية ، ورأيتُني مُضْطَعباً على الشيخين معاً ؛ فقلتُ للعجوز ( ن ) : حدّثني ( رحمك الله ) بشيء من قديمكما ، فأنما اختصارُ كل مامرٍّ من الحياة يُستَدَلُّ به على أصله المطوّل إلا في الحب ... وما زلتما في جدّ الحديث تعبثان بي منذُ اليوم ، فقد عدّلتما بي إلى شأنكما ورأيكما في القديم والجديد ، وبقى أن أميلَ بكما ميّلة إلى سنة ١٨٩٥ ، وقد والله كاد ينتحر قلبي يأساً من خبر ( كازينا و مرغريت ) ؛ وإلكأنك تخشى إذ أعلمتني خبراً صاحبك هذه وهي من وراء أربعين سنة — ماتخافه من رجل سيفجّوك معها في الخلوة على حالٍ من الريبة فيأخذك «متلبساً بالجرّيمة» كما تقولون في لغة المحاكم ...

قال فضحك العجوزان وقال ( ن ) : لا والله يا بني ، ولكني أقول ما قال ذلك الحكيم العربي لقومه رقد بلغ مائتي سنة : « قلبي مُضْغَعَةٌ من جسدي ، ولا أظنه إلا قد نحل كما نحل سائر جسدي »<sup>(٥)</sup> واعلم يا بني أنه إذا ذهب الحب عن الشيخ بقي منه الحنان يعمل مثل عمله ؛ فيحب العجوز مكاناً أو شيئاً أو معنى أيّ ذلك كان ، ليعيده ذلك إلى الدنيا أو يُبقيه فيها ( بقدر الإمكان ) ...

---

(٥) هو أكرم بن صيفي حكيم العرب ، قالها لقومه في سفرهم إلى النعمان بن المنذر كيلا يتكلموا عليه في حيلة ولا منطق ؛ ويقال إنه عاش ثلثمائة وثلاثين سنة ، وفي معنى السنة عن العرب كلام ليس هذا موضعه .

فضحك الأستاذ (م) وقال : ولعل ثثرة العجوز (ن) هي الآن معشوقة العجوز (ن) .

ثم قال : وكل شيء يرق في قلب الرجل الهرم ويحول وجهه كأنه لا يطيق أن ينظر إلى معناه الغليظ ؛ ولا بد أن يخرج العجوز من معاني الدنيا قبل أن يخرج من الدنيا ؛ ولهذا لا يهنأ الشيخ إلا إذا عاش بأفكار جسمه الحاضر ، وقدر الأمور على ما هو فيه لا على ما كان فيه ؛ والفرق بين جسمه الحاضر وبين جسمه الماضي أن هذا الماضي كانت تحمله أعضاؤه ، فهو مجتمع من أعمالها وشهواتها ، ماضٍ في تحقيق وجودها ومعانيها ؛ أما الحاضر ، أما الجسم الهرم ، فهو يشعر أنه يحمل أعضائه كلها وكأنها ملفوفة في ثيابه كمتاع المسافر قبل السفر ... وكان بعضها يسلم على بعض سلام الوداع يقول : تفارقني وأفارقك<sup>(\*)</sup> فتملئ الأستاذ (م) وقال : أف لك ولما تقول ! لا جرم أن هذه لغة عظامك التي لا صلابة فيها ، فمن ذلك لا تجيء معانيك في الحياة إلا واهنة ناحلة فقدت أكثرها وبقي من كل شيء منها شيء عند النهاية ؛ أليس في الهرم إلا أن يبقى الجسم ليكون ظاهراً فقط كعمشوش العنقود<sup>(\*\*)</sup> بعد ذهاب الحب منه ، يقول : كان هنا وكان هنا ؟

ألا فاعلم يا (ن) أن هذه الشيخوخة إنما هي غلبة روحانية الجسم على بشريته ، فهذا طور من أطوار الحياة لا تدعه الحياة إلا وفيه لذته وسروره كما تصنع بسائر أطوارها ؛ غير أن لذاته بين الروح والجمال ، ومسراته بين العقل

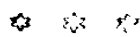
---

(\*) في الحديث الشريف : إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض ، تقول : عليك السلام ، تفارقني وأفارقك إلى يوم القيامة (\*\*) هو ما يبقى من العنقود بعد أكل ما فيه من الحب

والطبيعة ، وكل ما نقص من العمر وجب أن يكون زيادة في إدراك الروح وقوتها وشدتها ونورها ؛ وقد قيل لبعض أهل هذا الشأن وكان في مرض موته : كيف تجد العلة ؟ فقال : سلوا العلة عنى كيف تجدنى ؟

وإنما تشغل الشيخوخة على صاحبها إذا هي انتكست فيه وكانت مراغمةً بينه وبين الحياة ، فيطمع الشيخ فيما مضى ولا يزال يتعلق به ويتسخط على ذهابه ويتصنع له ويتكلف أسبابه ، وقد نسي أن الحياة ردة طفلاً كالطفل ، أكبر سعادته في التوفيق بين نفسه وبين الأشياء الصغيرة البريئة ، وأقوى لذته أن يتفق الجمال الذى فى خياله والجمال الذى فى الكون ، وإنه لكما قلت أنت : لا يهنا الشيخ إلا إذا عاش بأفكار جسمه الحاضر .

وما أصدق وأحكم هذا الحديث الشريف : « إن الله تعالى بعدله وقسطه جعل الروح والفرح فى الرضى واليقين ، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط » . فهذه هى قاعدة الحياة : لا تعاملك الحياة بما تملك من الدنيا ، ولكن بما تملك من نفسك ، وبذلك تكون السعادة فى أشياء حقيقة ممكنة موجودة ، بل تكون فى كل ما أمكن وكل ما وجد ؛ وإذا كان الرضى هو الاتفاق بين النفس وصاحبها ، وكان اليقين هو الاتفاق بين النفس وخالقها ، فقد أصبح قانون السعادة شيئاً معنوياً من فضيلة النفس وإيمانها وعقلها ، ومن الأسرار التى فيها ، لا شيئاً مادياً من أعضائها ومتاعها ودنياها والآخيلة المتقلبة عليها .



فأطرق العجوز (ن) قليلاً ثم قال : « ربّ إني وهنّ العظمُ مني » ، ألا ما أحكم هذه الآية ! فوالله إن قرأتُ ولا قرأ الناس فى تصوير الهرم الفانى أبدع منها ولا أدق ولا أوفى : ألا تحس أن قائمها يكاد يسقط من عَجَفٍ



وهزال وإعياء ، وأنه ليس قائماً في الحياة قيامه فيها من قبل ، وأن تناقض هذه الحياة قد وقع في جسمه فأخلَّ به ، وأن معاني التراب قد تعلقت بهذا الجسم تعمل فيه عملها ، فأخذ يتفتت كأنما لمس القبر عظامه وهو حي ، وأنه بهذا كله أوشك أن ينكسر انكسار العظم بلغ المبرد فيه آخر طبقاته ؟ قال محدثنا : فقلت له : ترى لو أن نابغةً من نوابغ النصور في زمننا هذا تناول بفنّه ذلك المعنى العجيب فكتبه صورةً وألواناً ، لا أحرفاً وكلمات ، فكيف تراه كان يصنع ؟

قال : كان يصنع هكذا : يرسم منظر الشتاء في سماءٍ تعلق سحبها كثيفاً متراكباً بعضه على بعض يخيل أن السماء تدنو من الأرض ، وقد سدت السحبُ الآفاقَ وأظلم بها الجو ظلامه تحت النهار المغطى ، واستطارت بينها وشائعُ من البرق ، ثم يترك من الشمس جانبَ الأفق لمعةً كضوء الشمعة في فتق من فتوق السحاب ، ثم يرسل في الصورة ريحاً باردةً هوجاءً يدل عليها انحناءُ الشجر وتقلبُ النبات ، ثم يرسم رجالاً ونساءً يغلي الشباب فيهم غليانه من قوة وعافية ، وحب وصباية ، وتغلي فيهم أفكار أخرى ... وهم جميعاً في هيئة المسرعين إلى مرتص : وهم جميعاً من المجددين ...

ثم يرسم يابني في آخرهم ( على بُعد منهم ) عمك العجوز ( ن ) ، يرسمه كما تراه ، منحلّ القوة ، منحني الصلب ، مُرَعشاً مُتزلزلاً متضعضاً ؛ قد زعزعته الريح ، وضربه البرد ، وخنقته السحب ؛ وله وجه عليه ذبولُ الدنيا ، يُبئى أن دمه قد وُضع من جسمه في برّادة ، والكونُ كله من حوله ومن فوقه أسباب روماتزم ...

ثم يصوره وقد وقف هناك ساهماً كثيراً ، رافعاً رأسه ينظر إلى السماء .

قال المحدث : وضحكنا جميعاً ، ثم قال الأستاذ (م) : لعمري إن هذه الحياة  
الآدمية كالآلة صاحبها مهندسها ، فإن صالحت واستقامت فمن علمه بها وحياطته  
لها ، وإن فسدت واختلت فمن عبثه فيها وإهماله إياها ، وليس على الطبيعة  
في ذلك سبيلٌ لأئمة ؛ والشيخ الضعيف ليس في هذه الدنيا إلا الصورة الهزلية  
لمفاسد شبابه وضعفه ولينه ودعته ، تظهرها الدنيا ليسخر من يسخر ويتعظ  
من يتعظ .

قال ( ن ) : أكذلك هو يا أستاذ ؟

قال الأستاذ : بل هي الصورة الجدية من هذه الحياة الباطلة التي دأبها ألا  
تصرح عن حقيقتها إلا في الآخر ، فتظهرها الدنيا ليُجلَّ الحقيقة من يُجَاهَا ؛  
وليس إلا بهذه الطريقة يُعرف من خراب الصورة خرابُ المعنى .

قال العجوز ( ن ) : آه من إجلال الشيخوخة واحترام الناس إياها !  
إنهم يرونه احتراماً للشيخ والشيخ لا يراه إلا تعزية . وما الأشياخ الهَرَجِي إلا  
جنازات قبل وقتها ، لا توحى إلى الناس شيئاً غير وحي الجنازة من دهابة وخشوع  
قال الأستاذ : إنما أنت دائماً في حديث نفسك مع نفسك ، ولو كنت  
نهرًا يأمستنقع لما كان في لغتك هذه الأحرف من البعوض .

قال العجوز الطريف : إن هذا ليس من كلام الفلاسفة التي نتنازعها بيننا ،  
تردُّ عليَّ وأرد عليك ، ولكنه كلام القانون الذي لك وحدك أن تنكلم به  
أيها القاضي .

قال (م) : صرح وبين فما فهمنا شيئاً .

قال العجوز : هذا كلام قلته قديماً في حادثة عجيبة ؛ فقد رُفعت إلى ذات  
يوم قضية شيخ هرم كان قد سرق دجاجة ؛ وتوسمته فإذا هو من أذكى الناس ،  
وإذا هو يجل عن موضعه من التهمة ، ولكن صح عندي أنه قد سرق ،

وقامت البيّنة عليه ووجب الحكم ؛ فقلت له : أيها الشيخ ، ما تستحي وأنت شائب أن تكون لصا ؟

قال : ياسيدي القاضي ، كأنك تقول لي : ما تستحي أن تجوع ؟  
فَوَرَدَ عليّ من جوابه ما حيرني ، فقلت له : وإذا جعت أما تستحي أن تسرق ؟  
قال : ياسيدي القاضي ، كأنك تقول لي : وإذا جعت أما تستحي أن تأكل ؟  
فكانت هذه أشدّ عليّ ، فقلت له : وإذا أكلت أما تأكل إلا حراماً ؟  
فقال : ياسيدي القاضي ، إنك إذا نظرت إلى محتاجاً لا أجد شيئاً ، لم ترى سارقاً حين وجدت شيئاً

فأخمني الرجل على جهله وسذاجته ، وقلت في نفسي : لو سرق أفلاطون لكان مثل هذا ؟ فتركت الكلام بالفلسفة وتكلمت بالقانون الذي لا يملك الرجل معه قولاً يراجعني به ، فقلت : ولكنك جئت إلى هذه المحكمة بالسرقة ، فلا تذهب من هذه المحكمة إلا بالحبس سنتين



قال محدثنا : وأرمضني هذا العجوز الثرثار وهلاً صدرى ، إذ ما برح يديرني وأديره عن (كاترينا ومرغريت) ، ورأيت كل شيء قد هرم فيه إلا لسانه ، فحملني الضجر والطيش على أن قلت له : وهب القضية كانت هي قضية (كاترينا) وقد رفعت إليك متهمة ، أفكنت قائلًا لها : جئت إلى المحكمة بالسرقة فلا تذهبين من المحكمة إلا بالحبس سنتين ؟

وجرت الكلمة على لساني وما ألقيت لها بالاً ولا عرفت لها خطراً ؛ فأكفهر القاضي العجوز وتربّد وجهه غضباً ، وقال : يا بغيض ! أحسبني كنت قائلًا لها : جئت إلى المحكمة بالسرقة فلا تذهبين من المحكمة إلا بالقاض ، ... ؟

وغضب الأستاذ ( م ) وقال : ويحك أهذا من أدبكم الجديد الذى تأدبتم به على أساتذة منهم الفجرة الذين يكذبون الأنبياء ولا يؤمنون إلا بدين الغريزة ويسوغونكم مذاهب الحمر والبغال فى حرية الدم ... ؟ أما إني لأعلم أنكم نشأتم على حرية الرأى، ولكن الكلمة بين اثنين لا تكون حرة كل الحرية إلا وهى أحياناً سفينة كل السفاهة، كهذه القولة التى نطقت بها

لقد كان الناس فى زمننا الماضى أناساً على حدة ، وكانت الآداب حالات عقلية ثابتة لا تتغير ولا يجوز أن تتغير ، وكان الأستاذ الكافر بينه وبين نفسه لا يكون مع تلاميذه إلا كاللومس : تجهد أن تربي بذتها على غير طريقته ! قال الحدث : فجلجت وذهبتُ أعتذر ، ولكن العجوز ( ن ) قطع على وأنشأ يقول وقد انفجر غيظه : لقد تمت فى هؤلاء صنعة حرية الفكر ، كما تمت من قبل فى ذلك الواعظ المعلم القديم الذى حدثوا عنه أنه كان يقص على الناس فى المسجد كل أربعاء <sup>(٥)</sup> فيعلمهم أمور دينهم ويعظهم ويحذرهم ويذكرهم الله ووجنته ونارَه ؛ قالوا : فاحتبس عليهم فى بعض الأيام وطال انتظارهم له ، فبينما هم كذلك إذ جاءهم رسوله فقال : يقول لكم أبو كعب : انصرفوا فإنى قد أصبحت مخموراً .....

هذا القاص المخمور هو عند هؤلاء السخفاء إمام فى مذهب حرية الفكر ، وفضيلته عندهم أنه صريح غير منافق ... وكان يكون هذا قولاً فى إمام المسجد لولا أنه إمام المسجد ؛ غير أن حرية الفكر تبني دائماً فى كل ماتبنى على غير الأصل ، وعندها أن المنطق الذى موضوعه

---

(٥) هو أبو كعب القاص ، ذكره الجاحظ فى الحيوان وقال إنه كان يقص كل أربعاء فى مسجد عتاب بالبصرة

ما يجب ، ليس بالمنطق الصحيح ؛ إذ لا يجب شيء مادام مذهبها الإطلاق والحرية كل مفتون من هؤلاء يتوهم أن العالم لا بد أن يمر من تفكيره كما مر من إرادة الخالق ، وأنه لا بد له أن يحكم على الأشياء ولو بكلمة سخيفة تجعله يحكم ، ولا بد أن يقول ( كن ) وإن لم يكن إلا جهله ؛ ومذهبه الأخلاقي : اطلب أنت القوة للمجموع ، أما أنا فالتمس لنفسى المنفعة واللذة ! ويحسبون أنهم يحملون المجتمع ؛ فإنهم ليحملونه ولكن على طريقة البراغيث في جناح النسر

قال (م) : وكيف ذلك ؟

قال : زعموا أن طائفة من البراغيث اتصلت بجناح نسر عظيم واستمرأته ورعت فيه ، فصايرها النسر زمناً ، ثم تأذى بها وأراد أن يرميها عنه ، فطفق يخفق بجناحيه يريد نفضها ، فقالت له البراغيث : أيها النسر الأحق ! أما تعلم أنا في جناحك لنحملك في الجو ... ؟

أما أساتذة هذه الحرية الدينية الفكرية الأدبية ، فقد قال الحكماء : إن بكرة من البعرات كانت معلمة في مدرسة

قال ( م ) : وكيف ذلك ؟

قال : زعموا أن بكرة كبش كانت معلمة في مدرسه الحصى ، فألفت لتلاميذها كتاباً أحكمته وأطالت له الفكرة ، وبلغت فيه جهداً ما تقدر عليه لتظهر عبقريتها الجبارة ؛ فكان الباب الأكبر فيه أن الجبل خرافة من الخرافات ، لا يسوغ في العقل الحر إلا هذا ، ولا يصح غير هذا في المنطق ؛ قالت : والبرهان على ذلك أنهم يزعمون أن الجبل شيء عظيم ، يكون في قدر الكبش الكبير ألف ألف مرة ؛ فإذا كان الجبل في قدر الكبش ألف ألف مرة فكيف يمكن أن يبعره الكبش ... ؟

قال الأستاذ (م) : هذا منطق جديد سديد لولا أنه منطق بعرة !

قال (ن) : وكل قديم له عندهم جديد ، فبكلمة (رجل) قد تخذلت ، وكلمة (شاب) قد تأثت ، وكلمة (عفيفة) قد تدنس ، وكلمة (حياء) قد تنجست ؛ والزمن الجديد ألا يعرف الطالب في هذا العام ماذا تكون أخلاقه في العام القادم ... والحياة الجديدة أن تتقن الغش أكثر مما تتقن العمل ... والذمة الجديدة أن مال غيرك لا يسمى مالا إلا حين يصير في يدك ... والصدق الجديد أن تكذب مائة مرة ، فمضى أن يصدق الناس منها مرة ... ثم الإنسان الجديد ، والحب الجديد ، والمرأة الجديدة ، والأدب الجديد ، والدين الجديد ، والآب الجديد ، والابن الجديد ؛ وما أدرى وما لا أدرى

قالوا : (السوبرمان) ، وتنظّعوا في إخراج المخلوق الكامل بغير دينه وأخلاقه ، فسخرت منهم الطبيعة فلم تخرج إلا الناقص أفحش النقص ، وتركهم يعملون في النظرية وعملت هي الحقيقة



قال محدثنا : ونهض العجوز (ن) وهو يقول : تباركت وتعاليت يا خالق هذا الخلق ! لو فهموا عنك لفهموا الحكمة في أنك قد فتحت على العلم الجديد بالغازات السامة ...

قال : ولما انصرف العجوز ، قلت للأستاذ (م) : ولكن ما خبر (كاترينا) ومرغريت ) وسنة ١٨٩٥ ؟

فقال : أيها الأبله ، أما أدركت بعد أن العجوزين قد سخرأ منك بأسلوب

جديد ..... م

## السطر الأخير من القصة<sup>(١)</sup>

رجعتُ إلى أوراقِ لى قديميةٍ يبلغ عمرها ثلاثين سنةً أو لَوَازِها ،  
زيد قليلاً أو تنقص قليلاً ، وجعلتُ أفلي هذه الأوراقَ واحدةً واحدةً ،  
فإذا أنا على أطلال الأيام في مدينةٍ قائمةٍ من تاريخي القديم ، نائمةٍ تحت  
ظلماتها التي كانت أنوارَ عهدٍ مَضَى ؛ وإذا أنا منها كالذي اغترب ثلاثين سنةً  
عن وطنه ثم آب إليه ؛ فما يَرَى من شيءٍ كان له به عهدٌ في أيامِ حَدَثَانِهِ  
ونشاطه إلا انصلَ بينهما سِرٌّ ؛ ومن طبيعةِ القلبِ العاشقِ في حنينه أن يجعلَ  
كلَّ شيءٍ يتصل به كأنه ذو قلبٍ مثله له حنينٌ ونجوى !

وذلك التلاشي المحفوظُ في هذه الأوراقِ ، يحفظُ لى فيها وفيما تحتويه  
نفساً وطبيعةً كانت نفسَ شاعرٍ وطبيعةَ روضةٍ ، في عهدٍ من الصبي كنتُ فيه  
أتقدمُ في الشباب وفي الكونِ معاً كأنَّ الأشياءَ تُخَلَقُ في خَلْقاً آخرَ ؛ فإذا  
قَرَضْتُ شِعْراً واستوى لى على ما أحب ، أحسستُ إحساسَ الملك الذي  
يُضَمُّ إلى مملكته مدينةً جديدةً ؛ وإذا تناولتُ طاقةً من الزهر وتأملتها على  
ما أحب ، شعرتُ بها كأجمل غانيةٍ من النساءِ تُوحى إلى وحيِ الجمال كله ؛  
وإذا وقفتُ على شاطئ البحر ، تَرَجَّجُ البحرُ بأمواجه في نفسي ، فكنتُ  
معه أكبرَ من الأرضِ وأوسعَ من السماءِ . أما الحب ... أما الحب فكانت  
له معانيه الصغيرة التي هي كضروراتِ الطفل للطفل : ليس فيها كبيرُ شيءٍ ،  
ولكنَّ فيها أكبرُ السعادةِ ، وفيها نَضْرَةُ القلبِ .

عهدٌ من الصبي كانت فيه طريقةُ العقل من طريقةِ الحلم ؛ وكانت العاطفةُ

(١) انظر ص ٢١٩ - ٢٢٠ ، حياة الرافعي ،

هى عاطفة فى النفس ، وهى فى وقتٍ معاً خُدعةٌ من الطبيعة ؛ وكان ماياتى يُذنبى دائماً ماضى ولا يُذكر به ؛ وكانت الأيام كالأطهار السعداء : لا ينام أحدُهم إلا على فكرةٍ لعب ولهو ، ولا يستيقظ إلا على فكرةٍ لهو ولعب : وكانت اللغةُ نفسها كأن فيها ألفاظاً من الحلوى ؛ وكانت الآلام - على قَلتها - كالمرض الذى معه دواؤه المجرب ؛ وكانت فلسفةُ الجمال تضحك من فيلسوفها الصغير ، الواضح كلَّ الواضوح ، المقتصر بكل لفظ على ما يعرف من معناه ، المتفلسف فى تحقيق الرغبة أكثر مما يتفلسف فى تخيل الفكرة ! هو العهد الذى من أخص خصائصه أن تعمل ، فيكون العملُ فى نفسه عملاً ويكون فى نفسك لذة .



فى أوراقى تلك بحثُ عن قصة عنوانها «الدرس الأول فى علبة كبريت» كتبها فى سنة ١٩٠٥ ، وأنا لا أدري يومئذ أنها قصةٌ يسبَّح فى جوها قدرُ روائى عجيب ، سيأتى بعد ثلاثين سنة فيكتب فيها السطر الأخير الذى تم به فلسفة معناها .

وهاذا أنشرها كما كتبتها ؛ وكان هذا القلمُ إذ ذاك غَضاً لم يَصْلُبْ ، وكان كالغصن تميل به السممة ، على أن أساس بلاغته قد كان ولم يزل ، بلاغةً فرحه أو بلاغةً حزنه ؛ وهذه هى القصة :

«عبد الرحمن عبد الرحيم» غلامٌ فلاح ، قد شهد من هذه الدنيا تسعة أعوام ، مرّت به كما يمرّ الزمنُ على ميتٍ : لا تزيده حياةُ الأحياء إلا إهمالاً ، فحشاً مَدْحَاشاً أمثاله ممن فقدوا الوالدين وانتزعوا من شملهم فتركوا للطبيعة تفصلهم وتصلهم بالحياة ، وتضيّق لهم فيها وتوسع . وهيات الطبيعة منه إنساناً حيوانياً ، لا يبلغ أشده حتى يغالب على الرزق



بالحيلة أو الجريمة ، ويستخلص قوته كما يرتزق الوحش بالملحلب والنباب ؛ ولن يكون بعد إلا مجموعة من الأخلاق الحيوانية الفاتكة الجريمة ، فإن الطبيعة متى ابتدأت عملها في تحويل الإنسان عن إنسانيته ، نزلت به إلى العالم الحيواني ، ووصلته بما فيه من الشر والدناءة ، ثم لا تترك عملها حتى يتحول هو إليها .

وَأَلِفَ «عبد الرحمن» في بلده حانوت رجل فقير ، يستغنى بالبيع عن التكفف وعن المسألة ؛ فكان الغلام يُكثر الوقوف عنده ، وكان يطعم من صاحبه أحياناً كرزق الطير ، فُتَاتاً وبقايا ؛ إذ كان الغلام شحاذاً ، وكان صاحب الحانوت لا يرتفع عن الشحاذة إلا بمنزلة تجعل الناس يتصدّقون عليه بالشراء من هَنَاتِهِ التي يسميها بضاعة : كالخيط ، والابرة ، والكبريت والملح ، وغزال للولد ، وكحل للأصبابا ، ونشوق للعجائز ، ونسخة الشيخ الشعرائي ، وما لفّ لفها مما يصعد ثمنه من كسور المليم ، إلى المليم وكسوره ! وتغفّله الغلام مرة وأهوى يده إلى ذخائر الحانوت ، فالتقطت «علبة كبريت» كان الفرق كل الفرق بين أن يسرقها وأن يشتريها - نصف مليم ؛ ولكن مَنْ له « بالعشرين الحُرْدَة » وهي عند مثله دينار من الذهب يرن رنيناً ويرقص على الظفر رقصة إنجليزية ؟

وماذا يصنع بالعلبة ؟ هَمَّتْ نفسه أن تجادله ولما تَسَكُنْ رَعَشَهُ يده من هُزُل الإثم ، ولكن الغلام كان طبيعياً ولم يكن فيلسوفاً ، ولذلك رأى أن يُحرز الحقيقة بعد أن وقعت يده عليها . وقد اصطالح الناس على أن مادة السرقة هي « مذاليد » أخطأت أم أصابت ، وجاءت بالغالى أو جاءت بالرخيص ؛ فضم أصابعه على العلبة وانتزعها ، وترك في مكانها فضيلة الأمانة التي لم يعرف له الناس قيمتها فهانت كذلك على نفسه وانطلق وهي تناديه :

أيها الغلام ، أتدفع ثمن علبة الكبريت ستين من عمرك ؟ وهلا خلا الناس  
من يعرفون لعُمرِكَ قيمة ؟

وارتدَّ رُجْعُ الصوت الخفيّ إلى قلبه من حيث لا يشعر ، فَضَرَبَ قلبه  
ضرباتٍ من الخوف ، ونزا نزوةً مضطربة ؛ فالتفت الغلام مرة أخرى ،  
ثم أَمْعَنَ في الفرار وترك الأمانة تناديه :

أيها الغلام ، إن لك في الآخرة ناراً لا تُوقد بهذا الكبريت ، ولك في  
الدنيا بئس كَهْذه العلبة ، فالعب العبّ مادام الناس قد أهملوك ! لعب  
بالثقب الذي في يدك فسيمتدّ فيك معنى اللهب حتى يجعل حياتك في أعمار  
الناس دُحانا وناراً ؛ وستكون أيامك أعواداً كهذا الكبريت : تشتعل في  
الدنيا وتُحرق .

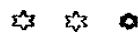
وكان أذنان الشياطين كانت تلهب ظهر الغلام المسكين ، ولكنه ما كان  
يلتفت هذه المرة حتى كان في قبضة صاحب الحانوت ، وإذا هو بكلمة من  
لغة كَفَّه الغليظة ، خَيَّات له في شعرها أن جداراً انقضَّ عليه ، وتلتها جملة  
من قوافي الصّفع جَاجَلَتْ في أذنيه كالأرعد ، وأعقب ذلك مثل الموج من  
جماعات الأطمال أحاط به فترك هذا الزورق الإنساني الصغير يتكفأ على  
صدّمت الأيدي ، فما أحسَّ الغلام التّعسُّ إلا أن الكبريت الذي في  
يده قد انقذح في رأسه ، وكانت أنامل صاحب الحانوت كأنما تحك أعواده  
في جلد وجهه الخشن !



وذهبوا به إلى (دوّار) العمدة يقضى فيه الليل ثم يُصبح على رحلةٍ  
إلى المركز والنيابة : وانطرح المسكين منتظراً حكم الصباح ، مُؤملاً في عقله  
الصغير ألا يُفصّح النهار حتى يكون « سيدنا عزرائيل » قد طمس الجريمة

وشهودها ، ثم أغنى مطمئنا إلى ملك الموت وأنه قد أخذ في عمله بجد ، وأيقن عند نفسه أن سيشجذ في الخيس مما يُوزع في المقبرة صدقة على أرواح العمدة ، وصاحب الحانوت ، والخفير الذى عهدوا إليه جرّه إلى المركز ... ! وكيف يشك فى أن هذا واقع بهم وهو قد توسل بالولى فلان ونذر له شمعة يسرقها من حانوت آخر ... !

هكذا عرف الشر قلب هذا الصبي ، وانتهى به عدل الناس إلى أفضح من ظلم نفسه ، وكأنهم بذلك القانون الذى يصلحونه به على زعمهم ، قد ناولوه سبحة ليظهر بها مظهر الصالحين ؛ ولم يفهموه شيئا ففهم أنهم يقولون له : هذه الجريمة واحدة ، فعذ جرائمك على هذه السبحة لتعرف كم تبلغ ! كانت فى الحقيقة لعبة لاسرقة ، وكانت يد الغلام فيما فعلت مستجيبة لقانون المرح والنشاط والحركة ، كما تكون أعضاء الطفل لا كما تكون يد اللص ؛ وكان أشبه بالرضيع يمد يده لكل ما يراه ، لا يميز ضارة ولا نافعة ، وإنما يريد أن يشعر ويحقق طبيعته ؛ وكان كل ما فى الأمر وقصارى ما تبلغ — أن خيال هذا الغلام ألف قصة من قصص اللهو ، وأن الكبار أخطئوا فى فهمها وتوجيهها ... ! ليست سرقة الطفل سرقة ، ولكنها حق من حقوق ذكائه يريد أن يظهر .



وانتهى « عبد الرحمن » إلى المحكمة ، فقضت بسجنه فى (إصلاحية الأحداث) مدة سنتين ، واستأنف له بعض أهل الخير فى بلدته : صدقة واحتساباً ... إذ لم يكلف الاستئناف إلا كتابة ورقة ؛ فلما مثل الصغير أمام رئيس المحكمة لم يكن معه لفقره محام يدفع عنه ، ولكن انطلق من داخله محام شيطاني يتكلم

بكلام عجيب ، هو سخريةُ الجريمة من المحكمة ، وسخريةُ عملِ الشيطان من  
عملِ القاضى ... !

سأله الرئيس : « ما اسمك ؟ »

- : « اسمى عبده ، ولكن العمدة يسمينى : يابن السكاب ! »

- : « ما سنُّك ؟ »

- : « أبويا هو الذى كان سنان » (٥)

- : « عُمرُك إيه ؟ »

- : « عُمرى ؟ عُمرى ما عملت شقاوة ! »

النيابة للمحكمة : « ذكاءٌ مخيف يا حضرات القضاة ! عُمره تسع سنوات ! »

الرئيس : « صنعتك إيه ؟ »

- : « صنعتى ألعب مع محمود ومريم ، وأضرب الذى يضربنى ! »

- : « تعيش فين ؟ »

- : « فى البلد ! »

- : « تأكل منين ؟ »

- : « آكل من الأكل ! »

النيابة للمحكمة : « يا حضرات القضاة ، مثلُ هذا لا يسرق علبة كبريت

إلا ليحرق بها البلد ... ! »

الرئيس : « ألك أم ؟ »

- : « أمى غَضِبْتُ على أبويا ، وراحت قعدت فى التربة : مارَضِيَّتْش

ترجع ! »

- : « وأبوك ؟ »

---

(٥) ، كان أبو الغلام سناناً ، ومثل هذا القدر من العامية فى القصة هو ملح القصة

- : « أبويا لاخر غَضِبَ وراح لها ،

الرئيس ضاحكا : « وأنت ؟ »

- : « والله يا افندى عارِز اغَضِب ، مُشْ عارِف اغضِب ازاي ا ،

- : « إنتَ سرقت علبة الكبريت ؟ »

- : « دى هى طارت من الدكان ، حسبته عصفورة ومِسْكُتها ... »

النيابة : « وليه ما طارتش العلب اللي معاها فى الدكان ؟ »

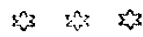
- : « أنا عارف ؟ يَمْسِكِن خافت منى ا ،

النيابة للمحكمة : « جراءة مخيفة يا حضرات القضاة ، المتهم وهو فى هذه

السن ، يشعر فى ذات نفسه أن الأشياء تخافه ! »

فصاح الغلام مسرورا من هذا الشئاء . « والله يا افندى إنتَ راجِل

طيب ا أديك عِرَفْتنى ، رتنا يكفيك شر العمدة والغفير ! »



وأَمْضى الحُكْمُ فى الاستئناف ، وخرج الصغير مع رجال من المجرمين

بسوقهم الجند ، ثم احتَبَسُوا الجميع فترةً من الوقت عند كاتب المحكمة ،

يستوفى أعماله الكتابية ؛ ثم يساقون من بعدُ إلى السجن .

وجلس « عبد الرحمن » على الأرض ، وقد اكتنفه عن جانبيه طائفة من

المجرمين يتحداثون ويتغامزون ، وكلهم رجال والكنه وحده الصغير بينهم ؛

ناطمأن شيئاً قليلا ، إذ قدَّر فى نفسه أنه لو كان هؤلاء قد أُريدَ بهم شرٌّ لما

سكنوا هذا السكون ، وأن الذى يرادُ بهم لا يناله هو إلا أصغرُ منه ،

كصفعة أو صفعتين مثلاً ... وهو يسمع أن الرجال يَقْتلون ويُحَرِّقون

يَسْمُون ويعتدُون وينهبون ؛ وما تكون ( علبة الكبريت ) فى جنب ذلك ؟

خاصةً بعد أن استردَّها صاحبُها ، وقد نال هو ما كفاه قبل الحُكْم !

وما لبث بعد هذا الخاطر الجميل أن ردَّ الاطمئنان في عينيه دموعا كاد يُريقها الجزع ، غير أن القاق اعتاده ، فالتفت إلى كتاب المحكمة مرة وإلى الجند مرة ، ثم لوى وجهه ولم يستبج لنفسه أن يتجرأ على الفكر فيهم ، لأنه قابل مهابتهم بآلهة بلده : العمدة والشيخ والخبراء : فأدرك أن الجنود هم الحكومة القادرة ، واستدل على ذلك بأزرارهم اللامعة ، وخناجرهم الصقيلة ؛ وتمشّت في قلبه رهبة هذه الخناجر ، فاضطرب خشية أن يكونوا قد أسلوه إلى مَن يذبحه ، فظفر إلى الذي يليه من المجرمين وسأله : « راح ياخذوني فين ؟ » فأجابته لكمة خفية انطلق لها دمه ، حتى أسكتته الذي يليه من الجانب الآخر ، وكان في رأيه من الصالحين ؟

ثم اتصل الجزع بين قلبه وعينه ، فهما تضطربان إلى الجهات الأربع ، وكأنما يحاول أن يستشف من أيها سياطيه الموت ذبحا ؛ ولم يكن فهم معنى (الاصلاحية) ، وحكم القضاء عليه كأنه رجل يفهم كل شيء ، ولم يرحموا هذه الطفولة بكلمة مفسرة . وعدل التربية غير عدل القانون ، فكان الواجب على القاضي الذي يحكم على الطفل ، أن يجعل حكمه أشبه بصيغة الفصة منه بصيغة الحكم ، وأن يدع الجريمة نطاق وتذهب فلا يقول لها أمكن ...

وبقى للخناجر رهبتها في نفس هذا المسكين ، فلو أنهم قادوه إلى جبل الشنّاقة لأفهمه ( الحبل ) معنى العقوبة ، أما وهو بين هذه الخناجر المغمدة - وفي الخناجر معنى الذبح - فإنما هو الذبح لا غيره .

وطرقت أذنيه قهقهة المجرم عن يمينه فاستنقذته من هذا الخاطر ، فثبت عينه في الرجل ، فإذا هو يرى وجهاً متلائماً ، وجسماً رابط الجأش ، وهزواً وسخرية بهؤلاء الجنود وخناجرهم .

واستراح الغلام إلى صاحبه هذا ، وألحَ بنظره عليه ، وابتدأ يتعلم في وجهه الفلسفة ؛ وليست الفلسفةُ مقصورةً على الكتب ، بل إن لكل إنسان حالة تشغله ، فنَظَرُهُ في اعتبار دقائقها وكشفِ مستورها هو الفلسفةُ بعينها . وقال الغلام لنفسه : « هذا الرجل أقوى من كل قوة ؛ فهو محكوم عليه ولا يبالي ، بل يقهقه ضحكا ؛ فهذا الحكم إذن لا يخيف ؛ لا ، بل دو تعودَ الأحكام ؛ إذن فمن تعود الأحكام لم يخفِ الأحكام ؛ إذن يا عبد الرحمن ستعود ، فإن الخوف هذه المرة قد غطك من (علبة الكبريت) في حريقٍ متسعر ، وما قَدَرُ (علبة الكبريت) ؟ فلو كانت السرقة جاهوسة ما لَقيتُ أكثر من ذلك ؛ ياليتني إذن ... ولكني لا أزال صغيراً ، فتي كبرت ... آه متى كبرت ... »

وبدأ القانونُ عمله في الغلام : فطرد منه الطفلَ وأقرَّ فيه المجرم .



وأطرق « عبد الرحمن » هادئاً ساكناً . وقامت في نفسه محكمة من الآبالسة بقصاتها ونيابتها ، تتجادل بمصهم بعضاً ، ويداورون بينهم أمر هذا الغلام على وجه آخر .

وقال شيطان منهم : « ولكننا نخشى أمرين : أحدهما أن (الاصلاحية) ستُخرجه بعد سنتين شريفاً يحترف ؛ والثاني أن الناس ربما تولّوه بالتربية والتعليم في المدارس رحمة وشفقة ؛ فيخرج شريفاً يحترف » وما أسرع ما نفي الخوف عنهم تولُّ الغلام نفسه باهجة فيها الحقد والغیظ وقد صفَّه الجندي الذي يقوده إلى السجن - : « وداكله على شأن علة كبريت ٩٠٠٠ »

... ..

فى سنة ١٩٣٤ قَضَتْ محكمة الجنائيات بالموت شنقاً على قاتل مجرم خبيث  
عيَّارٍ مُتَشَطِرٍ ؛ اسمه « عبد الرحمن عبد الرحيم » .

....

## عاصفة القدر<sup>(١)</sup>

على شاطئ النيل فى إقليم ( الغربية ) من هذا البرّ، قرية ليس فيها من جبل ،  
ولكن روح الجبل فى رجل من أهلها ، فإذا أنت اعتبرته بالرجال قوةً  
وضعفاً رأيتهُ ينهض فيهم بمنكبیه نهضة الجبل فيما حوله ؛ وهو بطل القرية  
ولواء كل معركة تنشب فيها بين فتيانها وبين فتيان القرى المتناثرة حولها ؛  
ولا تزال هذه المعارك بين شبان القرى كأنها من حركة الدم الحر الفاتح  
المتوارث فيهم من أجيال بعيدة ، ينحدر من جبل إلى جبل وفيه تلك القطرات  
الشائرة التى كانت تغلى وتفور ، وهى كهدها لا تزال تفور وتغلى ؛ ويلقبون  
هذا الرجل الشديد ( بالجل ) ، لما يعرفونه من جسامه خلقه وصبره على  
الشدائد ، واحتماله فيها ، وكونه مع ذلك سلس القياد سليم الفطرة رقيق الطبع ؛  
على أنه أبطش ذى يدين إن ثار ثائره ، وله إيمان قوى يستمسك به كإيماسك  
الجبل بعنصره الصخرى ، إلا أنه يخلطه ببعض الخرافات ؛ إذ لا بد له من بعض  
الجرائم الشريفة التى يحمل عليها فرط القوة والمروءة فى مثله مع مثله .  
وليس فى تلك القرية من بحر ، غير أن فيها شاباً أعنف طيشاً وعتواً من  
الموجة على بحرها فى يوم ريح عاتية ، حلوا المنظر لـكنه مر الطعم ، صافى الوجه



لكن له غورا بعيدا من الدهاء والخبث، وهو ابن عمدة البلدة وواحد أبويه والوارث من دنياهما العريضة، يبسط يديه على خمسمائة فدان، وقد أفسده النعمة وأهانته عزته على أهله؛ ولو اجتمعت حسنتان لتخرج منهما سيئة من السيئات بأسلوب من الأساليب، لما وسعها إلا أسلوب نشأته من أبويه الطيبين. تعلم وهو يعرف أنه لا حاجة به إلى العلم، فجمعت تلفظه المدارس واحدة بعد واحدة كأنه نواة ثمرة إنسانية فإذا قيل له في ذلك قال: إن خمسمائة فدان لا تسعها مدرسة.... وذهب إلى فرنسا يطلب العلم الذي استعصى عليه في مصر، فأرهمف ذلك العلم.... خياله وصقل حسه، ورجع من باريس رقيق الحاشية خشنا متظرفا لا يصلح شرقيا ولا غربيا!

وليس في تلك القرية غابة لكن فيها عذراء تلتف من جسمها في رداء الجمال الطبيعي الرائع، ولها نفس أشد وعورة مما تنطوى الغابة عليه؛ ففي ظاهرها الروتق الذي يفتن فيجذب إليها، وفي باطنها القوة التي تلتوى فتدفع عنها؛ وهي ابنة عم (الجمال) واسمها (خضراء)، وكأن فيها زهو خضرة الربيع، ولم تكن تعشق إلا القوة، فما يزين لها من الرجال إلا ابن عمها، وهي شديدة الإعجاب به؛ وإنما إعجاب المرأة برجل من الرجال مفتاح من مفاتيح قلبها.

وكانت (خضراء) جاهلة كنساء القرى، بيد أنها تليذة بارعة للطبيعة التي نشأت فيها وزاولت أعمالها؛ فهي بذلك أقوى نفسا وأشد مراسا من الفتيات المتعلبات؛ إذ اتخذت شكلا ثابتا من أشكال الحياة، والحياة هي صنعتها هذه الصنعة أوقامتها على هذه الهيئة. على حين أن المتعلبات يمضين أيام النشأة وسن الغريزة في التاقى عن الألفاظ والكتب، وفي توهم الصور المختلفة للاجتماع دون مباشرتها، وفي توقي أعمال الحياة بدلا من مخالطتها؛ فيشول ذلك منهن إلى

قوة في التخيل قلما ترضى الحقيقة الإنسانية المؤلمة حين تصادمها يوماً؛ وتتم الواحدة منهن ولكن باعتبار أنها تمت تليذة للمدرسة لا امرأة للحياة بما فيها مما يعجب وما لا يعجب

وكانت خضراء أشبه بدورة النهار: تفتح أجفانها على أشعة الفجر كل يوم، ولا تزال نهارها في دأب وعمل، فنفي ذلك عن أخلاقها ما يحلبه السكون من الخمول والميل إلى العيب والدُّعابة، وحصلت لها من الحياة حقيقة عرفت منها أن المرأة عامل من أكبر العوامل في النظام الإنساني؛ عليه أن يصبر على الكد والتعب إذا أراد أن يظهر بطبيعته الحقيقية لا بطبيعته المزورة المصنوعة؛ ورأت الرجل يستأثر بجلائل الأعمال ولا يترك للمرأة إلا كما يترك عقرب الساعات لعقرب الثواني في الرقعة التي تجمعهما؛ فهذا الصغير لا يبرح يضطرب في «دائرته الضيقة» يهتز من جزء إلى جزء، حتى إذا أتم الدقيقة في ستين هزة كاملة ذهب الأول بفضلها كلها وخطا بها خطوة واحدة؛ ثم يعود المستضعف المسكين إلى مثل عمله ولا يزال دأبهما وإن أكثرهما عملاً وتعباً هراً قلها قيمة وظهوراً؛ ولكن هذا الضعيف المغبون لم ينله ما ناله إلا من كونه هو وحده الذي بُني في هذا النظام على فضيلة الصبر والدقة. ليكون أساساً للآخر؛ فعرفت (خضراء) كيف تقيّد طبيعتها من تلقاء نفسها. وتقرها على الصبر والرضا والسكون إلى حظها الطبيعي والاغتياب به؛ إذ كان فضل الرجل على المرأة ليس في كونه أكثر منها فضلاً أو أسباب فضل، بل في كونها هي أكثر منه حباً وتساعاً وصبراً وإيثارة؛ ففضائلها الحقيقية هي التي جعلته الأفضل، كما تجوع الأم لتطعم ابنها!



ورآها (ابن العمدة) ولما تمض أيام على رجوعه من أوربا، وقد لبث

هناك بضع سنين، وكان عهدُه بالفتاة صغيرة، فوثبت إلى نفسه في وثبة واحدة، ورأى شباباً وجمالاً وروعة زيتها في قلبه وسوّلت له مطمعا من المطامع، وجعلته يرى ما يرى بمعنى ويفهم منه ما يفهم بمعنى غيره.

وكانت حين رآها واقفة على النيل تملأ جرتها مع نساء من قومها وهن يتعابثن ويتضاكن، كأن لخصب الأرض في أرواحهن أثراً بادياً، فإذا ما أقبلن على النهر لشأن من شئونهن تندت روح الماء على ذلك الأثر فاهتزت واهتزت المرأة به . فإن كانت ذات مسحة من جمال رأيت لها رفيفاً كرفيف الزهرة حين يمسحها الندی، وذهبت تتموج في جسمها وقد حسرت عن ذراعيها ولمس الماء دمها الجذاب فأرسل فيه تياراً من العافية والنشاط يتصل منها بقلب من يراها إن هو كان شاعراً يحسّ؛ فإن كانت روح الرجل ظمأى ورأى المرأة على هذه الهيئة، فما أحسبُه إلا يشرب منها بعينيه شرباً يجد له في قلبه نشوة كنشوة الخمر؛ وكذلك وقعت الفتاة من نفس هذا الفتى فزينها له الخبث الذي فيه أضعاف مازينها له الجمال الذي فيها، وقذفها القدر إلى قلبه ليخرج من هذا القلب تاريخ جريمة؛ فوقف يتأملها بعين أحد من آلة التصوير لا تفوتها حركة، وسلط عليها فكره وذوقه، وأيقظ لها في نفسه المعاني الراقدة، فنصبت في قلبه عدة من تمائيل الجمال تجسّدت في كل واحد منها على شكل كأنما أفرغت فيه إفراغاً



وكانت نفس ابن العمدة من النفوس الخيالية المتوثبة؛ إذ قامت من نشأتها على أن تطلب فتجاب، وتأمّر فتطاع، وتشتهى فتجد؛ وكأنه ما خلق إلا ليستعبد قلبه والديه، وكانا ساذجين لا يعرفان من علم التربية إلا أن للحكومة مدارس للتربية، وموسرين لا يفهمان من معنى الحاجة في هذه الدنيا إلا أنها

الحاجة إلى المال، ومنقطععين من النسل إلا منه، فكأنه لم يولد لهما بل قد ولدا له ... فله الأمر عليهما من كونه لأمر لهما عليه؛ وبذلك أسرفا له من فضائل الرقة والحنان والإشفاق وما إليها، وهي في نفسها فضائل، ولكن متى أسرف بها الآباء على أولادهم لم تُنشئ في أولادهم إلا ما يكون من أضرارها، كالشجر تفرط عليه الرى فلا يحدث فيه إلا اليبس والذوى، وإنما أنت تسقيه الموت مادم ترويه بمقدار من هواك لا بمقدار حاجته

ونشأ الفتى في أحوال اجتماعية مختلفة جعلت من أخص طباعه تمويه نفسه على الناس، والتباهى بالغنى، والتنبُّل بالأصدقاء والحاشية من وزرائه وعماله، والتهيو بالثياب والأزياء؛ فانصرف باطنه إلى تجميل ظاهره، ورد ظاهره على باطنه بالشهوات والدنايا، وأعانته على ذلك أنه جميل فاتن كأنما خلقت صورته « للصفحة الحساسة » من قلوب النساء؛ وذلك ملكٌ عظيم لم يكن أبوه الرجل الطيب منه إلا كما يكون وزير مالية الدولة ... ولما أرسل إلى باريس وقع منها في بلد عجيب كأنه خيال متخيل لا يؤثمه رجل في الدنيا من كامل أو ناقص وعالم أو جاهل وشريف أو ساقط إلا رأى فيه ما يلائم كل مداخل نفسه ومخارجها، فلو قامت مدينة من أحلام النفوس الإنسانية في خيرها وشرها وطهرها وفجورها واختلاها ونظامها لكانت هي باريس؛ وانقطع الشاب هناك إلى نفسه وإلى صور نفسه من أصدقاء السوء، فلا أهل فيلزموه الفضيلة، ولا إخوان فيردوه إلى الرأى، ولا خاق متين فيعتصم به، ولا نفس مرة فيفقه إليها، ولا فقر ... فيحد له حدوداً في الشهوات يقف عندها؛ وما هو إلا خيال متوقد ومزاج مشبوب وتربية مدللة وطبع جرى ومال يثر في إنفاقه، ومن ورائه أب غنى مخدوع كأنه في يد ابنه كرة الخيط: كلما جذب منها مدت له مداً، ثم ما هنالك من

فنون الجمال ومُتَمِّع اللذات وأسباب اللهو، بما يتناهى إليه فساد الفاسد، وما هو في ذاته كأنه عقوبة مستأصلة للأخلاق الطيبة؛ فكان الشيطان الباريسي من هذا المسكين في سمعه وبصره ورجله ويده، يوجهه حيث شاء؛ وبالجملة فقد ذهب ليدرس فدرس ماشاء ورجع أستاذاً في كل علوم النفس المختلفة الطائشة وفتونها، وأضاف إلى هذه وتلك كلمات يلوى بها لسانه من علوم وأقاويل ليس فيها إلا ما يدل الحاذق على أن هذا الشاب لم يفلح قط في مدرسة فلما وقعت (خضراء) منه ذلك الموقع وأخذت مأخذها في نفسه، اعتدها نزوة من نزواته؛ فما بمثله أن يحب مثلها، ولا هي كفايته في شيء إلا أن تكون له ساعة من ساعاته، أو حادثة تجري فيها حال من أحواله الغرامية؛ وحسبها امرأة ليس لقاءها أبواب تمتنع على مثله، فقدّر أن غناه وفقرها يقتلعان باباً، وعدله وجهها يحطمان باباً آخر، وجماله وحده يضع ما بقي من الأقفال عما بقي من الأبواب! وكان يحسب أن جمال المرأة من المرأة كالحلية من بائعها؛ فكل من ملك ثمنها فليس بينه وبينها إلا هذا الثمن؛ ولكن الأيام جعلت تأتي وتمر وهو لا يزيد على أن يعرض لها وهي ترميه من صدودها كل يوم بداعية من دواعي الهوى؛ فكان لا يجد بنفسه قوة أن يزيدا على النظر شيئاً، وترك لوجهه وثيابه ونظراته وغناه أن تصل بين قلبه وقلوبها بسبب، فلم ينل طائلاً؛ وتمادى في حبه، واستولت عليه فكرة غمرته بهذه المرأة؛ أما هي فأشعرتها غريزتها بما في قلبه منها، وكانت مسماة لابن عمها<sup>(٥)</sup> فكانت تتحاشى هذا الشاب وتحذره حذراً شديداً، وتتوهم أن الناس يحصرون عليها النظرة والالتفاتة ويحسون عليه من مشاهما، ووقع في نفسها أن لهذا الرجل شأنًا غير شأن الرجال الآخرين، فهم لا يستطيعون معها حيلة وهو يستطيعها بغناه ومنزله

---

(٥) معدة لطبته، أو كما يقولون: قرئت مع أهلها الفاتحة

وكان للرجل خادم داهية قد تخرَّج في مجالس القضاء ... من كثرة ما حُكِمَ عليه في تزوير واحتيال وغش وادعاء وإنكار ونحوها، وقد استخلصه لنفسه واتخذ مؤانساً ورفيقاً؛ وجعله دسيساً<sup>(\*)</sup> إلى شهواته السافلة وكان يسميه فيما بينهما (إبليس)؛ فلما أراد أن يرميها به قال: ياسيدى، هذه قضية احتيال عليها، فإذا دخل ابن عمها خصماً في الدعوى كانت قضية احتيال على عمرى أنا! قال: ويحك أيها الأبله! أين دهاؤك ومكرك؟ وإنما أرسلك إلى امرأة فقيرة عيشها كفافها، وأنت تعدّها وتمنيها وتبذل عني ماشئت، ومتى أطمعتها في المال فإن هذا المال سيوجد ما يوجد في كل مكان، فيُشترى مالا يُشترى، وبيع مالا يباع! قال (إبليس): نعم ياسيدى، وكذلك هو ولكن خوف العار يطرد حب المال! قال: فأنت إذن لا تقبل؟ قال: ولا أرفض ... قال الشاب: قاتلك الله! لقد فهمت! سأشتريها منك بثمانين: أحدهما لك والآخر لها؛ ولكن أخبرني كيف تصنع معها ومن أين تبلغ إليها؟ قال (إبليس): لما كنت في السجن عرفت لصاً فاتكأ أعياً قومه خبيثاً وشرّاً؛ وهذا السجن يحسبه الناس عقاباً وردعاً ومنهاة عن الإثم، على أنه المدرسة التي تنشئها الحكومة بنفسها لتلقى علوم الجريمة عن كبار أسانذتها؛ إذ لا يمكن أن يجتمع كبارهم في مكان من الأرض إلا فيه؛ فالسجن طريقة من طرق حل المشكلة الإنسانية، ولكنه هو نفسه يحدث للإنسانية مشكلة لا تحل! قال الفتى: ويحك! أين يُذهب بك؟ وإنما أرسلك إلى المرأة لا إلى السجن! قال: ترسلنى أنت إليها ولكن لا يعلم إلا الله أين يرسلنى ابن عمها: إلى السجن أم إلى المستشفى! ... فاسمع ياسيدى: كان من نصائح أستاذى في ذلك السجن: أن الحيلة على رجل يلغى لإحكامها أن يكون في بعض أسبابها امرأة، والكيد لامرأة يجب

أن يكون في بعض وسائله رجل ... صَة ! انظر انظر ! فالتفت الشاب ، فإذا (الجل) مقبل يتكفأ في مشيته ، وكان غليظاً ، فإذا خطا شدَّ على الأرض بقدميه وتكدَّس بعضه في بعض ؛ وكان منطلقاً وقتئذٍ إلى بعض مذاره ، فلما حاذاهما قال السلام عليكم ! فردَّ جميعاً ، ورمى ابن العمدة بنظرة ثم مضى لوجهه فلم يجاوز غير بعيد حتى بلغه صوت الشاب يناديه : يا فلان ! فانكفأ إليه ، فقال له الشاب : لقد بُعد عهدك بالقوة على ما أرى . قال : فما ذاك ؟ قال : أما بلغك أن فلاناً في هذه القرية التي تجاورنا سيفترن بزوجه بعد أيام ، وأنت تعرف الموقعة التي كانت بين بلدنا وتلك البلدة يوم عرس فلان في السنة الماضية ، وكيف اندفعوا على أهل بلدنا وحطموا فيهم تلك الحطمة الشديدة ولولا أنت أدركتهم ورميتهم بنفسك حتى دفنتهم عن الناس وسقتهم أمامك سوق البعاج ، لكانت بلدنا اليوم أذلَّ البلاد . ولا استطالوا علينا بأنهم غلبونا ؛ ولقد حدثني صاحبي هذا كيف تلقيت بهراوتك يومئذٍ خمساً وعشرين هراوة ، فأطرتها كلها في جوارتك ، وهزمت أصحابها بعد أن أحاطوا بك وتكلبوا عليك ؛ فأنت نخر بلدنا وصاحب زعامتها ، وما أرى لك إلا أن تنهز هذه الفرصة وتسرع الواثبة إليهم برجالك ، فتجزئهم في أرضهم صذيعاً بصنيع مثله !

فهب الجل كتفيه العريضتين وقال : بل سأنتظرهم في يوم عرسى بابتة عمى ... ! قال الشاب : أبلغت ما أرى ؟ فإنك لتخافهم ! قال : لا أخافهم ، ولكن أخاف الحكومة أن تؤخر يوم زواجي .... سنة أو سنتين ! قال الفتى : فإن عملك هذا لا يشدُّ من نفوس رجالنا ، ولا بد أن أولئك سينتظرونكم ويُعدون لكم ، فإذا لم تنجزوهم في بلدكم عدوكم عليكم هزيمة من الهزائم ، وكأنهم ضربوكم بلا ضرب !

قال الجل : هم لا يعرفون معنى الضرب بلا ضرب ؛ لأنهم رجال ؛ والذي ( ٨ ج ٣ رحي فلم )

يُضرب بلا ضرب لا يكون رجلاً ... والسلام عليكم ! ثم انطلق ، فلما أبعد قال الشاب : لقد بدأت الحرب ولا بد لي أن أحطم هذا الفلاح اللعين ! ولقد عرفت الآن من وجهه أن عينه على ، واست أشك في أن بنت عمه لا تمتنع بقوتها بل بقوته ، ولولا معرفتي أنه من انحطاط الغريزة كالوحش في الدفاع عن أنثاه كـ.....

قال ( لـ. ليس ) : لقد تأملت القصة فرأيت أنه لاسبيل لك إلى الفتاة وهي بعد فتاة ، فإذا هو وصل إلى امرأته قطعت أنت بهذه الخطوة نصف الطريق إليها ... وستبلى هي من غلظته وخشونة طبيعته ما يسهل لك أن تجعلها قيمة ظرفك ورقتك ، وستجد من سريره مداميته وقبح تسلطه ما يفتح قلبها لمن يأتيها من قبل الرفق واللين ، وستصيب عنده من ضيق المعيشة وقلتها ويبدسها ما يفهمها معنى ذلك العيش الحلو الخضر الذي تعرضه عليها ؛ ثم إنه لا بد مبتليها بغيرته العمياء بعد ما عرف من حبك إياها ، والغيرة منك هي توجدك بينهما دائماً وتنبه المرأة إليك كلما كرهت من رجالها شيئاً لا ترضاه

ولم تكن إلا مدة يسيرة حتى أهديت المرأة إلى زوجها ، وإنما تعجل الزفاف لئلا يأتي له أن ينصب يده القوية حجاً بينها وبين هذا المفتون ، وليكتسب من القانون حقاً لم يكن له من قبل إذا هو مدّ هذه اليد وعصر في قبضتها تلك الرقبة التي تتطلع إلى امرأته ؛ ورأى الشاب أن هذه الحال لا تعادل به وبخصمه معا ، وكانت الغيرة تأكل من قلبه أكلاً ، وكان يمرض المرأة كلما خرجت بمكثاتها <sup>(٥)</sup> إلى السوق أو بجرتها إلى الماء لأنه حينئذ يكون في الطريق الذي لا يملكه أحد ... فكانت إذا رأتها لم تزد على ما يكون منها

(٥) هو ما يسمى الغلق



إذا هي أبصرت حماراً يد عينه إليها ! فعمد إلى امرأة مقينة تزف العرائس ،  
وهي التي زفت (خضراء) فأكرمها وأتحفها وسألها أن تسعفه ببعض ماتحتال  
به ، وأن تكون سبيله إلى المرأة ؛ وتحمل عليها (إبليس) حتى استوثق منها ،  
فكانت تتحدث عنه أمام (خضراء) ؛ تستجر بذلك أن تلفتها إلى نعمته  
وجماله ، ولكن المرأة أغلظت لها وسببتها وحذرتها أن تعود إلى مثل  
كلامها ، وقالت لها آخر ما قالت : واعلمي أنني لو دفعت إلى طريقين وكان  
لا بد من أحدهما ، ثم كان أحدهما حصاة الدنانير وهو طريق العار ، والآخر  
حصاة الجمر ويفضى إلى الشرف ، إذن لتزهدت أن أدنس نعلي بالذهب ولنثرت  
لحم قدمي على الجمر نثرا

والحب لا يبقى حبا أبداً ، فإما فاز فبرد ورجع سلواً ، وإما خاب فاضطرم  
وتحول إلى حقد ونقمة ؛ وكذلك انفجر الشاب غيظاً ، ووجد على الخيبة  
موجدة شديدة ، وأخذ يدير رأيه ، ففتقت له الحيلة أن يقتل الرجل الشهم  
بشهامته ، والمرأة المفيفة بعفتها ؛ فواطأ إبليس على أن يدفع إلى تلك المقينة  
منديلاً من الحرير عقد طرفه على دينار من الذهب ، تلقيه في صندوق  
(خضراء) وتدسه في طي من أطواء ثيابها ؛ فذهبت المرأة ، وما زالت بخضراء  
تستصالحها وتعتذر إليها حتى استلّت ضغينة قلبها ، ثم سألتها أن تأتيها  
(بالعيش والملح) لتصيب كلتاها منه وتتحرّم بحرمتها ؛ فلما نهضت تأتيها  
أسرعت الخبيثة إلى الصندوق فدست المنديل في أبعد مواضعه وأخفاها ؛ وكان  
مندى بالطرainment على نفسه إذا لم ينم أحدٌ عليه ؛ ثم رجعت بما فعلت إلى  
الشاب ، فأطلق خادمه يهمس لبعض أصدقاء الجمل أنه رأى اليوم في يد  
(خضراء) ديناراً ذهباً على ندرة الذهب وعزته ؛ فجعل هذا الدينار يطير  
من نفس إلى نفس بقوة الذهب الذي فيه ، والحب الذي أعطاه ، والجمال

الذى أخذه؛ ثم انتهى إلى الجمل، فكأما حمله وطار به إلى داره كالجنون وقد حمى دمه الحر، وجاش جأشه العنيف ولم تكن امرأته في الدار، فنثر ما في الصندوق، وما كادت تفغمه رائحة المطر حتى نفخ الشيطان بها نفخة الغضب الكافر، ثم عثر على المنديل، ورأى بصيص الدينار، فدارت به الأرض، وأيقن أن العار قد طرق بابه، وأن الباب قد فُتح له؛ ثم رد نفسه على مكروهاها ورد معها كل شيء إلى موضعه، وتلفف رأيه على جريمتين، وخرج وروحه تصرخ من ضربة بئسديل، وهو الذى كانت تتهاوى عليه الضربات القاتلة تهشم منه ولا يتأوه !

وذكر أن ( حماته ) أثنت من عهد قريب على ابن العمدة ووصفته بالركة والغنى، فوجه إليها أن تأتي فتبیت عند امرأته لأنه على سفر، وكان كالأعمى فى ضلالته : لا يرى الأشياء إلا كما يتخيلها فى نفسه دون ماهى فى نفسها، فسألته زوجته : أين أزمعت وما تبغى من سفرك وكم تلبث عنا ؟ فكأنه سمعها تقول : ارحل إلى مكان بعيد وغب عنا زمنا طويلا، فبينا إلى غيابك حاجة شديدة ! وكاد يبطش بها، ولكنه كاتم صدره اللوعة وذكر اسم جهة بعيدة ومضى والانكسار يعرف فيه !



فزع الناس بعد أيام فى جوف الليل، فإذا بيتُ الجمل يحترق من أرضه وسماؤه، واقتحموه فإذا المرأة وأماها فحمتان؛ وانطلقت أسرار الالسنه، وقبض على الرجل فى بلد أخرى، وتولى ابن العمدة توجيه البينة عليه، وشهد الشهود على الدينار، وشهد الدينار على النار، وأنكر « الجمل » ولم يقصر فى إقامة الحجة ودافع عن امرأته وبالع فى أمانتها وعفتها وشهد أنه لا يعلم عايتها من سوء، وأنها أظهر النساء وأبرهن، ثم كان الحكم أن قضى عليه بالموت شنقا !



فلما كان يوم إنفاذ الحكم سئل الرجل : هل من شيء تريدُه ؟ فطلب دخينة<sup>(٥)</sup> فقدمها له قِيمَ السجن ، فأشعلها ونفخ من دخانها نفخةً . ثم أخذ يتكلم وعمره يفنى مع الدخينة نفساً في نفس ، وعاد هذا الذخان المتطاير كأنه سحب يسبح فيه الوحي بين حدود الدنيا وحدود الآخرة : قال المسكين : لم أتعلم ، ولو تعلمت ماوقفت هنا ؛ ولكن ربما كنت خرجت ندلاً كبعض المتعلمين الذين يعيشون أشرفاً وفيهم أرواح القتلة واللصوص !

لم أقر لأحد بجريمتي خشية أن تُذكر كلمة العار مع اسمي ، وآثرت أن أموت بالشنق على أن أحيأ ويوت اسمي بالعار !

ولكني سأعترف الآن أمامكم وأنتم الساعة على قبري ، فكونوا كالملائكة لا يشهدون بما عرفوا إلا عند الله وحده

أعترف أني قتلت زوجتي وأمها ؛ وقد تقولون إنه ليس من عمل الرجل أن يقتل امرأة فضلاً عن اثنتين ؛ إنني رجل سأشنق ، أما النساء فلا يشنقن وإنما يرسلن الرجال إلى المشنقة ... لم أر أبى ؛ إذ تركني طفلاً ، ولكن يقال إنه كان رجلاً ، فأنا رجل وابن رجل ، ولم يذلني رجل قط ، ولكن لو خالق الله قوة مائة جبار في جسم رجل واحد لأذلتُهُ امرأة !

إنه ليس من شيمة الرجل أن يقتل النساء ، ولكن المرأة تذل الرجل ذلاً يهون عليه قتل نفسه ، فكيف لا يهون عليه قتلها ؟

علموا المتعلمين ليصيروا في الشرف والأمانة والعفة كرجل جاهل مثلي : لا يرى للحياة كلها قيمة إذا كان فيها معنى العار ، ويقدم عنقه للمشنقة حتى لا ينكس رأسه للذل !

(٥) وضعناها للسيجارة ، وهي أليق الالفاظ بها

أصلحوا القانون الذى يحكم بالاموت شنقا ويزهق الأرواح الكبيرة، فى حين تغلبه الأرواح الصغيرة بحيلها الدنيئة !

ومع ذلك سألقى الله وهو يعلم سريرتى إن كنت بريئة أو مجرما !  
قسيم السجن : ستلقاه طاهراً

السجين : أرايتم منى خُلق سوء ؟ أعتقد على ذنبا مدة سجنى ؟

القيم : كلنا راضون عنك

السجين : هذا مثل من أخلاقى ، والحمد لله على أن آخر كلمة أسموها من إنسان

على الأرض - كلمة الرضا

.....

أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله !

\*\*\*

نظرت ريشة من زغب العصفور إلى النجوم فحسبتها ريشا متناثرا، فامتطت العاصفة وقالت : إلى السماء ! ودارت بها العاصفة ماشاء الله أن تدور، ثم رمت بها حيث وقعت لم تبال فى موضع نفع أم ضرر ؛ فأقبلت الريشة تتسخط وتزعم أنها فوضى نائرة لاحكمة فى خاقها، وأن الرياح بعثرة فى نظام العالم... وكان إلى جانبها شجرة تهتز ولا تطير... فلما وعت مقالتها أقبلت عليها فقالت : أيتها الريشة ! إن الرياح لا تكون بعثرة فى نظام العالم إلا إذا كان العالم ريشا كله !

## القلب المسكين<sup>(١)</sup>

أقبل على صاحبي الأديب وقال : أنظر ، هذه هي ، وقد حلت بهـذا البلد  
ومالي عهدٌ بها منذ سنة . ومد إلى يده فنظرتُ إلى صورة امرأة كأحسن  
النساء وجهاً وجسماً ، تتأوّد في غلالة من اللآذ<sup>(٢)</sup>

وكان شعاع الضحى في وجهها ، وكأنها القمر طالماً من غيمة ، ويكاد  
صدرها يتهد وهي صورة ، وتبدو هيئةً فيها كأنها وعدٌ بقبلة ، وفي عينيها  
نظرةٌ كالسكوت بعد الكلمة التي قيلت همساً بينها وبين محبها ...  
فقلت : هذه صورة ما أراها قد رسمها إلا اثنان : المصور وإبليس ؛  
فمن هي ؟

قال : سلها ، أما تراها تكاد تثبُّ من الورقة ؟ إنها إلا تخبرك بشيء  
أخبرك عنها وجهها أنها أجمل النساء وأظرفهن وأحسن من شاهدت وجهاً  
وأعيناً ، وثغراً وجيدا والذي بعد ذلك ...

قلت : ويحك ، لقد شعرت بعدى ، إن هذا شعر موزون :  
وأحسن من شاهدت وجهاً وأعيناً وثغراً وجيدا والذي بعد ذلك ...  
قال : إن شيطان هذه لا يكون إلا شاعراً : ألسنته تراه ناظماً من فنونها على  
الرسم شعراً معجزاً كل شاعر ؟

قلت : وهذا أيضاً شعر موزون :  
ألسنته تراه ناظماً من فنونها على الرسم شعراً معجزاً كل شاعر

---

(١) انظر قصة صاحبة هذا القلب المسكين ص ٢٣٩ ، حياة الراقى ، وهي هي  
صاحبة ، الجمال البائس ،

(٢) اللآذ : الحرير الصيني الرقيق ، والغلالة : مثل القميص الذي نحت الثياب

قال : بلى والله إنه الشيطان ، إنه شيطانها ، يريك لهذا الجسم روحا رشيقة ،  
تلين كلين الجسم بل هى أرشق .

قلت : وهذا أيضا ، والقافية التى بعد هذا البيت : وبها شقوا ...  
فضحك صاحبنا وقال : حرك الصورة فى يدك ، فإنك ستراها وما تشك  
أنها ترقص .

قلت : الآن انقطع شيطالك ، فهذا ليس شعرا ولا يحىء منه وزن .  
وتضاحكنا وضحك الشيطان ، وظهر الوجه الجميل فى الرسم كأنه يضحك .



قال صاحب القلب المسكين : انظر إلى هاتين العينين ، إنهما من العيون  
التي تفتن الرجل وتسحرد متى نظرت إليه ، وتعذبه وتضديه متى غابت عنه ؛  
إن فى شعاهما قُدرة على وضع النور فى القلب السعيد ، كما أن فى سوادهما  
القدرة على وضع الظلمة فى القلب المهجور

وانظر إلى هذا الفم ، إلى هذا الفم الذى تعجز كل حقائق الأرض أن  
تخرج وردة حمراء تشبهه .

وانظر إلى هذا الجيد تحته ذلك الصدر العارى ، فوقه ذلك الوجه  
المشرق ؛ تلك ثلاثة أنواع من الضوء : أما الوجه ففيه روح الشمس ، وأما  
الجيد ففيه روح النجم ، وأما الصدر ففيه روح القمر الضاحى .

انظر إلى هذه المسافة البيضاء من أعلى جبينها إلى أسفل نهدىها . تلك  
منطقة القُبَلات فى جغرافيا هذا الجمال ..

وانظر إلى الصدر يحمل ذينك الشديين الناهدين ؛ إنه المعرض الذى  
اختارته الطبيعة من جسم المرأة الجميلة للإعلان عن ثمار البستان ...

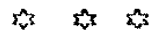
انظر إلى النهدين لم يبرزَا في صدر المرأة إلا إذا كانا يتحدَّيان الصدر  
الآخر ... ١

وانظر لهذا الخصر الدقيق وما فوقه وما تحته ، ألا تراه فتنةً متواضعة  
بين فتنتين متكبرتين ... ؟

انظر إليها كلّها ، انظر إلى كل هذا الجمال ، وهذا السحر ، وهذا الإغراء ؛  
ألا ترى الكنز الذى يحوّل القلب إلى لص ... ؟

هذه مخلوقة مرتين : إحداهما من الله فى العالم ، والأخرى من حى أنا  
فى نفسى أنا : فكلمة « جميلة » التى تصف المرأة التامة ، لا تصفها هى بعض  
الوصف ؛ ورسمها هذا الذى تراه إنما هو حدود لتلك الروح التى فيها قوة  
التسلط ، وهى التى يُظهر من تلك الروح إلا ما يظهر من الجرة المشتعلة رسمُ  
هذه الجرة فى ورقة .

أشهد ما نظرت مرة إلى هذا الرسم ثم نظرت إليها إلا وجدت الفرق  
بينها فى نفسها وبينها فى الصورة ، كأنه اعتذار ناطق من آلة التصوير بأنها  
ليست إلا أداة .



قلت : اللهم غفرا : ثم ماذا يا صديقى المجنون ؟  
فأطرق الأديب مهموما ، وكانت أفكاره تنفجر فى دماغه انفجارا هنا  
وانفجارا هناك ؛ ثم رفع إلى رأسه وقال :  
هذه الغانية قد حبست أفكارى كلها فى فكرة واحدة منها هى ؛ وأغلقت  
أبواب نفسى ومنافذها إلى الدنيا ، وألهمت فى دى جرة من جهنم فيها عذاب  
الإحراق وليس فيها الإحراق نفسه كيلا ينتهى منها العذاب !  
وبيننا حبٌ بغير طريقة الحب ، فإن طبيعتى الروحانية الكاملة تهوى فيها

طبيعتها البشرية الناقصة ، فأنا أُمَازجها بروحي فأتألم لها ، وأتجنّبها بجسمي  
فأتألم بها .

حب عقيم مهما يكن من شيء فيه لا يكن فيه شيء من الواقع ...  
حب عجيب لا تنفني منه آلامه ولا تكون فيه لذاته  
حب معقد لا يزال يلقى المسألة بعد المسألة ، ثم يرفض الحل الذي لا تحل  
المسألة إلا به

حب أحق يعشق المرأة المبدولة للناس ، ولا يراها لنفسه إلا قديسة  
لامطمع فيها  
حب أبله لا يزال في حقائق الدنيا كالمنتظر أن تقع على شفّتيه قبلة من الفم  
الذي في الصورة

حب مجنون كالذي يرى الحسناء أمام مرآتها فيقول لها اذهبي أنت وستبقى  
لى هذه التي في المرأة ...



قلت : اللهم رحمة ؛ ثم ماذا يا صاحبي المسكين ؟  
قال : ثم هذه التي أحبها هي التي لا أريد الاستمتاع بها ولا أطيقه ولا  
أجد في طبيعتي جرأة عليه ، فكأنها الذهب وكأني الفقير الذي لا يريد أن  
يكون لصا ؛ يقول له شيطان المال : تستطيع أن تطمع ؛ ويقول له شيطان  
الحاجة : وتستطيع أن تفعل ؛ ويقول هو لنفسه : لا أستطيع إلا الفضيلة !  
إن عذاب هذا بشيطانين لا بشيطان واحد ، غير أن لذته في انتصاره  
كاذبة من يقهر بطلين كلاهما أقوى منه وأشد



قلت : اللهم عفواً ؛ ثم ماذا يا قاهر الشيطانين ؟



فأطرق ملياً كالذى ينظر فى أمر قد حيرَه لا يتوجه له فى أمره وجه ،  
ثم تنهد وقال : ياطول علة قلبى ! من أين أجىء لأحلامى بغير ماتجىء الأحلامُ  
به ، وإنما هى تحت النوم ووراء العقل وفوق الإرادة ؟ لقد بلغ بى هواها  
أن كل كلمة من كلام الحب فى كتاب أو رواية أو شعر أو حديث - أراها  
موجهة إلى أنا

ثم قال : انطلق بنا فتراها حتى تعلم منها علما ، فهى فى ذلك المسرح ، هى  
فى ذلك الشر ، هى فى تلك الظلمات ، هى كاللؤلؤة لا تتربى لؤلؤة إلا فى  
أعماق بحر

\*\*\*

وذهبنا إلى مسرح يقوم فى حديقة غناء مترامية الجهات بعيدة الأطراف ،  
تظهر تحت الليل من ظلماتها وأنوارها كأنها مُثَقَلَةٌ بمعانى الهجر والعشق .  
وتقدّمنا نسير فى الغَبَش ، فقال صاحبنا المحب : إنى لا أشعر أن الظلام  
هنا حتى كأن فيه غوامض قلب كبير ، فما أرى فرقاً بين أن أجلس فيه وبين  
الجلوس إلى فيلسوف عظيم مهموم بهمّ اللانهاية ، فتعال نبرز إلى ذلك النور  
حول المسرح لنراها وهى مقبلة ، فإن رؤيتها سيدهً غير رؤيتها راقصة ، ولهذه  
جمالٌ فن ولتلك فنٌ جمال .

ولم نلبث إلا يسيراً حتى وافت ، ورأيتها تمشى مشية الحفريات كأنما  
تحترم أفكار الناس ، يزهوها على ذلك إحساسٌ نبيل كإحساس الملكة  
الشاعرة بمحبة شعبها ؛ وانتفض بخونتنا وأغمض عينيه كأنها تمر بين ذراعيه  
لا فى طريقها ، وكأن لذة قربها منه هى الممكن الذى لا يمكن غيره ...

وكان عجباً من العجب أن تحرك الهواء فى الحديقة واضطربت أشجارها ،  
فقال : أنت ترى ؛ فهذا احتجاج من راقصات الطبيعة على دخول هذه الراقصة !

قلت : آه يا صديقي ! إن المرأة لا تكون امرأة بمعانيها إلا إذا وجدت في جو قلب بعشقةها .

ونفذنا إلى المسرح ، وتحري صاحبنا موضعاً يكون فيه منظر العين من صاحبتة ويكون مستخفياً منها ، ثم رفع الستار عنها بين اثنتين يكتنفانها ، وقد لبسن ثلاثين أثواب الريفيات ، وظهرن كهيتتهن حين يجنين القطن . وبرزت ( تلك ) في ثوب من الحرير الأسود ، وهي بيضاء بياض القمر حين يتم ، وقد شدت وسطها بمشدة من الحرير الأحمر ، فتجسست بها وظهرت شيتين : أعلى وأسفل ؛ ثم ألقت على شعرها الذهبي قلنسوة حمراء من ذلك الحرير أمالتها جانباً فخبست شيتامنه وأظهرت سائرته ، وأخذت بيديها صفاقتين<sup>(٥)</sup> وأقبل الثلاث يرقصن ويغنين نشيد الفلاحة .

لم أنظر إلى غيرها ، فقد كانت صاحبتهما دليلين على جمالها لا أكثر ولا أقل ، وما أحسب الحرير الأحمر ، كان معها أحمر ولا الأسود كان عليها أسود ، ولا لون الذهب في معصمها كان لون الذهب ؛ كلاً كلاً ، هذه ألوان فوق الطبيعة ، لأن ذلك الوجه يُشرق عليها بالجمال والحياة ، وذلك الجسم يفيض لها بالخفة والطرب ، وتلك الروح تبعث فيها المرح والنشوة ؛ هذا مزيج من نحر الألوان لا من الألوان نفسها .

وقال مجنوننا : إن أجمل الجمال في المرأة الفاتنة هو ذاك الذي يحمل لكل إنسان نوع شعوره بها ، وأنا أشعر الساعة أن قلبي نصف قلب فقط ، وأن نصفه الآخر في هذه وحدها ؛ فما شعورك أنت ؟

قلت ، يا صديقي ، إن الله رحيم ، ومن رحمته أنه أخفى القلب وأخفى بوائعه

---

(٥) الصفاقات : هي التي يقال لها الساجات ، تكون في أصابع الراقصة ، والكلمة واردة في كتاب الأغاني

ليظل كل إنسان مخبوءاً عن كل إنسان ؛ فدعني مخبوءاً عنك !  
قال : لا بد !

قلت : إن المصباح في الموضع البجس لا يبعث النور نجساً ، وما أشعر  
إلا أن النور الذي في قلبي قد امتزج بالنور الذي في عيديها .  
ثم كأنها أحسّت بأن إنساناً قد امتلأ بها ، فأدارت وجهها وهي رقص ،  
فندمّت صاحبنا ، وجعلت تُقطع الطرف بينها وبينه كأنها تعرفه وتجهله ، ثم  
تبَيَّنَت إلحاح نظره فضحكت لأنها تعرفه ولا تجهله !  
أما هو ، أما المجنون ، أما صاحب القلب المسكين ... !

## القلب المسكين

### ٢

... أما صاحب القلب المسكين فرأى الضحكة التي ألقت بها صاحبه وهي  
ترقص حين عرفته — غير ما رأيته أنا وغير ما رأى الناس : كانت لنا نحن  
ابتساماً عذباً من فم جميل يتم جماله بهذه الصورة ، وكانت له هو لغة من هذا  
الفم الجميل يتم بها حديثاً قديماً كان بينهما ؛ واعترانا منها الطربُ واعتراه منها  
الفكر ، ووصفت لنا نوعاً من الحسن ووصفت له نوعاً من الشوق ، ومرت  
علينا شعاعاً في الضوء ووقعت في يده هو كبطاقة الزيارة عليها اسمٌ  
مكتوب ..

وقوى إحساس الراقصة الجميلة بعد ذلك فانبعث يدلُّ على نفسه ضروباً من  
الدلالة الخفية ، ورجعت بهذا الإحساس كالحقيقة الشعرية الغامضة المملوءة

بفنون الرمز والإيماء، وكأنها زادت بهذا الغموض زيادة ظاهرة؛ والمرأة لحظات تكون فيها بفكرين حينما يكون أحد الفكرين مائلاً أمامها في رجل تهواه؛ ففي هذه الساعة تتحدث المرأة بكلام فيه صمت يشرح ويفسر، وتضطرب بحركة فيها استرخاء يميل ويعتق، وتنظر بالحاذق فيها انعكاساً يأمر ويتوسل؛ وكانت هي في هذه الساعة... فغلبت والله على صاحبها المسكين وتركت نفسه كأنها تتقطع فيه من أسف وحسرة؛ ثم كانت له كالزهرة العبقية: بينه وبينها جمالها وعطرها وهواؤها والحاسة التي فيه

وجعل يستشفها من خلال أعضائها وهي ترقص، ثم قال لي: انظر ويحك! لكان ثيابها تضمها وتلتصق بها ضم ذى الهوى لمن يهوى قلت: ماهى إلا كهاتين اللتين ترقصان معها: امرأة بين امرأتين وإن كانت أحسن الثلاث

قال: كلا، هذه وحدها قصيدة من أروع الشعر، تتحرك بدلاً من أن تُقرأ، وترى بدلاً من أن تُسمع: قصيدة بلا ألفاظ، ولكن من شاء وضع لها ألفاظاً من دمه إذا هو فهمها بحواسه وفكره وشعوره قلت: والأخريتان؟

قال: كلا كلا، هذا فن آخر، فالواحدة من هؤلاء المسكينات إنما ترقص بمعدتها... ترقص للخبز لا غير؛ أما (تلك) فرقصها الطرب مصنوعاً على جسمها ومصنوعاً من جسمها؛ إنها كالطاووس يتبختر في أصباغه، في ريشه، في خيالاته، بخبرة يضاعفها الحسن ثلاث مرات؛ ولو خلق الله جسمين أحدهما من الجواهر أحمرها وأخضرها وأصفرها وأزرقها، والآخر من الأزهار في ألوانها ووشحها، ثم اختال الطاووس بينهما ناشراً ذيله في كبرياء روحه الملونة — لظهر فيه وحده اللون الملك بين ألوان هي رعيته الخاضعة.



وانتهى رقص الحسناء الفاتنة وغابت وراء الستارة بعد أن أرسلت قُبلةً في الهواء... فقال صاحبنا : آه الو أن هذه الحسناء تصدقت بدرهم على فقير ، لجعلته لمسةً يدها درهماً وقُبلة... .

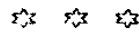
قلت : يا عدو نفسي ! هذه قبلة مُحَرَّرة مسددة وقد رأيتها وقعت هنا... ولكنك دائماً في خصام بين نفسك وبين حقائق الحياة : تعشق القبلة وتخاصم الفم الذي يلقها ، وتبنى العُشَّ وتركه فارغاً من طيره : إن امرأة تحبك لا بد منتهية إلى الجنون ما دامت معك في غير المفهوم وغير المعقول وغير الممكن .

ثم بدأ فصل آخر على المسرح ، وظهر رجال ونساء وقصة : وكان من هؤلاء الرجال شيخ يمثل فقيهاً ، وآخر يمثل شرطياً : فقال صاحبنا الفيلسوف : لقد جاءت هذه الثياب فارغة وكأنها الآن تنطق أن صحة أكثر الأشياء في هذه الحياة صحة الظاهر فقط ، مادام الظاهر يُخلع ويُلبس بهذه السهولة : فكم في هذه الدنيا من شرفاء لو حققت أمرهم وبلوت الباطن منهم - إنما يشرفون الرذائل لأنهم يرتكبونها بشرف ظاهر... وكم من أغنياء ليس بينهم وبين اللصوص إلا أنهم يسرقون بقانون... وكم من فقهاء ليس بينهم وبين الفجرة إلا أنهم يفجرون بمنطق وحجة... ليست الإنسانية بهذه السهولة التي يظنها من يظن ، وإلا فقيم كان تعبُ الأنبياء وشقاء الحكماء وجهادُ أهل النفوس ؟ العقدة السماوية في هذه الأرض أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الإنسان إلا حيواناً مُلَطِّفاً تلطيفاً إنسانياً ، ثم أراه الخيرَ والشر وقال له اجعل نفسك بنفسك إنساناً وجشني

قلت : يا عدو نفسي ! فما تقول في حبك هذه الراقصة وأنت حيوان

ملطف تلطيفاً إنسانياً ؟

قال : ويحك ! وهل العقدةُ إلا هنا ؟ فهذه مبدولةٌ ممكنة ، ثم هي لي كالضرورة القاهرة ، فلا يكون حبها إلا إغراءً بذيلها ، ولا تكون سهولةً نيلها إلا إغراءً لذلك الإغراء ؛ فأنا منها لستُ في امرأةٍ وحب ، ولكني في امتحانٍ شديدٍ عسيرٍ ؛ أغالب ناموساً من نواميس الكون ، وأدافع قانوناً من قوانين الغريزة ، وأظهر قوتي على قوة الضرورة الميسرة بأسبابها ، وهي أشد الضرورات عنفاً وإلحاحاً وقهراً للنفس ، من قبَل أنها ضرورة لازمة ، وأنها مهياة سهلة ؛ فلو أن هذه المرأة المحبوبة كانت بمنّعة بعيدة المنال ، لما كانت لي فضيلة في هذا الحب العنيف ، ولكنها دانيةٌ ميسرة على الشغف والهوى ؛ فهذا هو الامتحان لأصنع أنا بنفسى فضيلةً نفسى !



ومر الفصل الذى مثّلوه وما نشعر منه بتمثيل ، فقد كان كالصورة العقلية المعترضة للعقل وهو يفكر فى غيرها ، وكانت ( الحقيقة ) فى شىء آخر غير هذا ؛ ومتى لم يتعلق الشعور بالفس لم يكن فيه فن ؛ وهذا هو سر كل امرأة محبوبة ، فهى وحدها التى تثير شعورَ الحب فى نفسه فيشعر من حسنّها بحقيقة الحسن المطلق ، ويجرد فى معانيها جواب معانيه ، وتأتيه كأنها صُنعت له وحده ، وتجعل له فى الزمان زمناً قلبياً يحصر وجوده فى وجودها

وليس فن الحب شيئاً إلا استطاعة الحبيب أن يجعل شهوات الحب شاعرة به بمنأى منه متعلقة عليه ، كأن به وحده ظهورَ جسدِيّة هذا الجسد وروحانيّة هذا الروح ؛ وكل ما يترى به المحبوب للمحب ، فإنما هو وسائل من المبالغة لإظهار تلك المعانى التى فيه ، كيما تكبر فيدركها الحب بدقة ، وتثور فيحسها العاشق بعنف ، وتستبد فيخضع لها المسكين بقوة

والشهوات كالطبيعة الواحدة في أعصاب الانسان ، وهي تتبع فكره وخياله ؛ ولا تَفَاوَتْ بينهما إلا بالقوة والضعف ، أو التلبه والخود ، أو الخدة والسكون ؛ غير أنها في الحب تجد لها فـكـرا وخيالا من المحبوب ، فتسكون كأنها قد غيرت طبيعتها بسـر مجهول من أسرار الألوهية ؛ ومن هنا يتألف الحبيب وهو هو لم يزد ولم ينقص ولم يتغير ولم يتبدل ، وتراه في وهم محبه يفرض فروضا وبشرع شريعة من حيث لا قيمة لفروضه وشريعته إلا في الشهوة المؤمنة به وحدها

ومن ثم لا عصمة على الحب إلا إذا وُجد بين إيمانين ، أقواهما الإيمان بالحلال والحرام ؛ وبين خوفين ، أشدهما الخوف من الله ؛ وبين رغبتين ، أعظمهما الرغبة في السموّ

فإن لم يكن العاشق ذا دين وفضيلة فلا عصمة على الحب إلا أن يكون أقوى الايمانين الحرص على مكانة المحبوب في الناس ، وأشد الخوفين الخوف من القانون ... وأعظم الرغبتين الرغبة في نتيجة مشروعة كالزواج فإن لم يكن شيء من هذا أو ذاك فقلما تجد الحب إلا وهو في جراءة كفرين ، وحماقة جنونين ، وانحطاط سفالتين ؛ وبهذا لا يكون في الإنسانين إلا دون ما هو في بهيمتين ١



ثم جاء الفصل الثالث وظهرت هي على المسرح ، ظهرت هذه المرة في ثوب مركيزة أوربية تخاصر عشيقا لها ، فيرقصان في أدب أوربي متمدن ... متمدن بنصف وقاحة ؛ متأذب ... متأذب بنصف تسقل ؛ مشروع ... مشروع بنصف كفر ؛ هو على النصف في كل شيء ، حتى ليجعل العذراء نصف عذراء ، والزوجة نصف زوجة ١٠٠٠

وكان الذى يمثل دور العشيّ فنةً أفرى غلاميةً مجمةً الشعر<sup>(٥)</sup> ممسوخة بين المرأة والرجل ؛ فلما رأها صاحبا قال : هذا أفضل . . . . وهشت الحسناء وتبسمت وأخذت فى رقصها البديع ، فانفصل عى الصديق وأهملنى وأقبل عليها بالنظرة بعد النظرة بعد النظرة ، كأنه يكرر غير المفهوم ليفهمه ؛ ورجع وإياها كأنه فى عالم من غير زمننا تُقدمه عن عالمنا ساعة أو توخره ساعة ؛ وكانت جملةُ حاله كأنها تقول لى : إن الدنيا الآن امرأة ! وكان من السرور كأنما نقله الحب إلى رتبة آدم ، ونقل صاحبته إلى رتبة حواء ، ونقل المسرح إلى رتبة الجنة !

والعجيب أن القمر طلع فى هذه الساعة وأفاض نوراً جديداً على المسرح المكشوف فى الحديقة ، فكانه فعل هذا ليتم الحسن والحب ؛ وأخذ شعاع القمر السماوى يرقص حول هذا القمر الأرضى ، فكانت الصلة تامة وثيقة بين نفس صاحبا وبين الأرض والسماء والقمرين .

ما هذا الوجه لهذه المرأة ؟ إنه بين اللحظة واللحظة يعبر تعبيراً جديداً بقسماته وملاحمه الفتانة ؛ كلّ البياض الخاطف فى نجوم السماء يحول فى أديمه المشرق ، وكل السواد الذى فى عيون المها يجتمع فى عينيه ، وكل الحرة التى فى الورد هى فى حرة هاتين الشفتين .

ما هذا الجسم المتزن المتموجُ المفرغ كأنه يندفق هنا وهنا ؟ إنه جسم كامل الأنوثة ، إنه صارخ صارخ ، إنه عالمُ جمالٍ كما تقول الفلسفة حين تصف العالم : فيه « جهةٌ فوق » و « جهةٌ تحت » ؛ لو امتدت له يد عاشقه

---

(٥) المججمات : هن اللواتى يتخذن شعورهن جمّة (بضم الجيم) أى يقصصنها ، كما يفعل نساء هذه الأيام تشبهاً بالرجال ؛ وقد كان ذلك مما تصنعه نساء العرب ونهى الإسلام عنه كراهة لهذا التشبه ؛ فقص الشعر (على المودة) هو التجميم



لجعل في خمس أصابعها خمس حواس ...  
ما هذا ؟ ما هذا ؟ لقد حُتم الرقصُ بقبلة ألقاها الخليل على شفقي الخليفة ،  
وكانت تركت خصرها في يديه وانفلتت تميل بأعلاها راجعة برأسها إلى خلف ،  
نازلةً به رويداً رويداً إلى الأرض ، هاربة بشفتيها من الفم المطل عليها وكان  
هذا الفم ينزل رويداً رويداً ليدرك الهارب ...  
وقبل أن تقع القبلة التفتت لفتةً إلى ... ثم تلقت القبلة ، أما هو ، أما  
مجنوننا ، أما صاحب القلب المسكين ... ؟

## القلب المسكين

٣

أما صاحب القلب المسكين فرمقها وهي تلتفت إليه التفات الظبية بسواد  
عينها : يجعل سوادهما الجميل في النظرة الواحدة نظرتين لعاشق الجمال ، تقول  
إحداهما : أنت ، وتقول الأخرى : أنا ؛ ثم رآها وقد كسرت أجفانها  
وتفترت في يدي الممثل العشيق وأفصح منظرها ببلاغة ... ببلاغة جسم المرأة  
المحوبة بين ذراعي من تحبه ؛ ثم اختلجت وصوبت وجهها ، وأهدفت  
شفتيها ، وتلقت القبلة .

وكان به منها ما الله عليم به ، فانبعثت من صدره آهةٌ مغولةٌ تن أنيناً ،  
غير أنها كَلَّمته بعينيها أنها تقبله هو ؛ فلا ريب قد حملت إليه إحدى النسمات  
شيئاً جميلاً عن ذلك الفم ، لمست به النفس النفس ، والقبلة هي هي ولكن وقع  
خطأ في طريقة إرسالها ...

وليس تحت الخيال شيء موجود ، ولكن الخيال المتسرح بين الحبيبين

تكون فيه أشياء كثيرة واجبة الوجود ؛ إذ هو بطبيعته مجرى أحلام من فكر إلى فكر ، ومسرح شعور يصدر ويرد بين القلبين في حياة كاملة الإحساس متجاوبة المعاني ؛ وبهذا الخيال يكون مع القلبين المتحايين روحٌ طبيعي كأنه قلب ثالث ينقل للواحد عن الآخر ، ويصل السرَّ بالسر ، ويزيد في الأشياء وينقص منها ، ويدخل في غير الحقيقي فيجعله أكثر من الحقيقي ؛ ومن هنا لم يكن فرح ولا حزن ، ولا أمل ولا يأس ، ولا سعادة ولا شقاء ، إلا وكل ذلك مضاعف للمحب الصادق الحب بقدر قلبين ؛ والذين يعرفون قبلة الشغف والهوى ، يعرفون أن العاشق يقبل بلذة أربع شفاه



وانسدلت بعد هذه القبلة ستارة المسرح ، وغابت الجميلة المعشوقة غيبة التمثيل ؛ فقلت لصاحب القلب المسكين : إن رويكما متزوجتان ... قال : آه ! ومدّها من قلبه كأنه دَنَفٌ سقيم .

قلت : وماذا بعد آه ؟

قال : وماذا كان قبلها ؟ إنه الحب : فيه مثل ما في ( عملية جراحية ) من تهديدات الألم ولذعاته ، غير أنها مفرقة على الأوقات والأسباب ، مبعثرة غير مجموعة . آه ، : هذه هي الكلمة التي لا تفرغ منها القلوب الانسانية ، وهي تقال بلهفة واحدة في المصيبة الداهية ، والألم البالغ ، والمرض المدنف ، والحب الشديد ؛ فحينما توشك النفس أن تختنق تنفس ، بآه ، !

قلت : أما رأيته مرة وقد أوشكت نفسها أن تختنق ... ؟

قال : لقد هُجّت لي داءٌ قديماً ؛ إن لهذه الحبيبة ساعات مغروسة في زمني غرس الشجر ، فبين الحين والحين تشمر هذه الساعات مرّها وحلوها في نفسي

كما يشمر الشجر المختلف : ولقد رأيتها ذات مرة في ساعة همها ! ثم ضحك وسكت .

قلت : يا عدو نفسه ! ماذا رأيت منها ؟ وكيف أراك الوجدما رأيت منها ؟

قال : أتصدقني ؟ قلت : نعم .

قال : رأيت الهم على وجه هذه الجميلة كأنه هم مؤنث يعشقه هم مذكر ؛ فله جمال ودلال وفتنة وجاذبية : وكأن وجهها يصنع من حزنها حزينين : أحدهما بمعنى الهم لقلبها ، والآخر بمعنى الثورة لقلبي !

قلت : يا عدو نفسه ! هذا كلام آخر ؛ فهذه امرأة ناعمة بضعة مطوى بعضها على بعضها ، لقاء من جهة هيفاء من جهة ، ثقيلة شيء وخفيفة شيء ، جمعت الحسن والجسم وفناً بارعاً في هذا وفناً مفرداً في ذاك ؛ وهي جميلة كل ما تتأمل منها ، ساحرة كل ما تتخيل فيها ، وهي مزاحة دحداحة (\*) وهي تطالعك وتطمعك ؛ وأنت امرؤ عاشق ورجل قوى الرجولة ؛ فالجميلة والمرأة هما لك في هذا الجسم الواحد ، إن ذهبت تفصلهما في خيالك امتزجتا في دمك ؛ ولو أمسكت آلة التصوير نظراتك إليها لبانت فيها أطراف اللهب الأحمر بما في نفسك منها ؛ ولعمري لو مرت عربة تدرج في الطريق ونظرت إليها نظرتك لهذه المرأة بهذه الغريزة المحتبسة المكفوفة (\*\*) لظننتك ستري العجلة الخلفية عاشقاً مهتاجاً يطارد العجلة الأمامية وهي تفر منه فرار العذراء !

---

(\*) هذه كلمة استعملها بعض المولدين في معنى الظريقة (المدرحة) ، وليس كذلك معناها في اللغة ، ولكن الاستعمال صحيح عندنا واللغة لا تأباه

(\*\*) يستعمل الكتاب في هذا المعنى لفظ (المكبوتة) ، وهو تعبير ضعيف ،

والأفصح ما ذكرنا هنا



فضحك وقال : لا ، لا ؛ إن نوع التصوير لإسان هو نوع المعرفة لهذا الإنسان ، ومن كل حبيب وحبيبه تجتمع مقدمة ونتيجة بينهما تلازم في المعنى ، والمقدمة عندي أن إبليس هنا في غير إبليسيته ، فلا يمكن أن تكون النتيجة وضعه في إبليسيته ؛ وما أتصور في هذه الجميلة إلا الفن الذي أسبغه الجمال عليها ، فهي في معرفتي وخيالي كالتمثال المبدع إبداعه : لا يستطيع أن يعمل عملاً إلا إظهار شكله الجميل التام حافلاً بمعانيه .

ولست هذه المرأة هي الأولى ولا الثانية ولا الثالثة فيمن أحببت<sup>(١)</sup> ؛ إنها تكرار وإيضاح وتكملة لشيء لا يكمل أبداً ، وهو هذه المعاني النسوية الجميلة التي يزيد الشيطان فيها من عشق كل عاشق ؛ إن بطن المرأة يلد ، ووجه المرأة يلد !

قلت : هذا إن كان وجهها كوجه صاحبك ، ولكن ما بال الدميعة ؟  
قال : لا ، هذا وجه عاقر ...



قلت : ولكن الخطأ في فلسفتك هذه أنك تنظر إلى المرأة نظرة عملية تريد أن تعمل ثم تمنعها أن تعمل ؛ فتأتي فلسفتك بعيدة من الفلسفة ، وكأنك تغذو المعدة الجائعة برائحة الخبز فقط .

قال : نعم هذا خطأ ، ولكنه الخطأ الذي يُخرج الحقائق الخيالية من هذا الجمال ؛ فإذا سخرت من الحقيقة المادية بأسلوب فهذا الأسلوب عينه تُثبت الحقيقة نفسها في شكل آخر قد يكون أجمل من شكلها الأول .

أعلم كيف كانت نظرتي إلى نور القمر على هذه وإلى حسن هذه على

---

(١) انظر فصل « الرافعي العاشق » ، ص ٧٣ - ١١٩ ، حياة الرافعي ،

القمر ؟ إن القمر كان يُدسِّنى بشريَّتها فأراها متممة له كأنه ينظر وجهه في مرآة ، فهي خيال وجهه ؛ وكانت هي تُتسِّنى مادِّية القمر فأراه متمما لها كأنه خيال وجهها .

أتدرى ما نظرةُ الحب ؟ إن في هذا القلب الإنسانى شرارةً كهربائيةً متى انقذتْ زادت في العين الحاظاً كشافةً ، وزادت في الحواس أضواءً مُدركةً ؛ فينفذ العاشق بنظره وحواسه جميعاً في حقائق الأشياء ، فتكون له على الناس زيادةٌ في الرؤية وزيادة في الإدراك يعمل بها عملاً فيما يراه وما يدركه ؛ وهذه الزيادة الجديدة على النفس تكون للدنيا حالةً جديدةً في هذه النفس ؛ ويأتى السرور جديداً ويأتى الحزن جديداً أيضاً ؛ فألفُ قبلة يتناولها ألف عاشق من ألف حبيب ، هي ألف نوع من اللذة ولو كانت كلها في صورة واحدة ؛ ولوبكى ألف عاشق من هجر ألف معشوق لكان في كل دمع نوعٌ من الحزن ليس في الآخر !



قلت : فنوعُ تصوُّرك لهذه الرافضة التى تحبها ، أن إبليس هنا في غير إبليسيته ! قال : هكذا هي عندى ، وبهذا أسخر من الحقيقة الإبليسية

قلت : أو تسخر الحقيقة لإبليسية منك ، وهو الأصح وعليه الفتوى ... فضحك طويلاً وقال : سأحدثك بغريبة : أنت تعرف أن هذه الغادة لا تظهر أبداً إلا في الحرب الأسود ؛ وهى رقيقة البشرة ناصعة اللون ، فيكون لها من سواد الحرير بياض البياض وجمال الجمال ؛ فلقد كنت أمس بعد العشاء في طريقى إلى هذا المكان لأراها ، وكان الليل مظلماً يتدججى ، وقد لبس وتلبس وغلب على مصابيح الطريق فحصر أنوارها حتى بين كل مصباحين ظلمةٌ قائمة كالقريب بين الحبيبين يمنعهما أن يلتقيا ؛ فبينما أقلب عيني في النور والغسق

وأنا في مثل الحالة التي تكون فيها الأفكار المحزنة أشدّ حزناً — إذ رفع لي من بعيد شبحٌ أسود يمشي مشيته متفتّراً قصير الخطو يهتز ويدبخر ؛ فتبصرته في هيئته فما شككت أنها هي ، وفتحت الجنة التي في خيالي وبرزت الحقائق الكثيرة تلمس معانيها من لذة الحب ؛ وكان الطريق خالياً ، فأحسست به لنا وحدنا كالمسافة المحصورة بين ثغرين متعاشقين يدنو أحدهما من الآخر ، وأسرعت إسرَاع القلب إلى الفرصة حين تُمكن ؛ فلما صرت بحيث أتبين ذلك الشبح إذا هو ... إذا هو قسيس .....



فقلت : يا عجباً ! ما أظرف ما داعبك إبليس هذه المرة ! وكأنه يقول لك : إيه يا صاحب الفضيلة ...

وكان الممثلون يتناوبون المسرح ونحن عنهم في شغل ؛ إذ لم تكن نوبتها قد جاءت بعد ؛ وألقى الشيطانُ على لساني فقلت لصاحبنا : ما يمنعك أن تبعث إليها فلاناً يستفتح كلامها ثم يدعوها ، فليس بينك وبينها إلا كلمة « تعالَى » أو تفضلي ؟

قال : كلا ، يجب أن تنفصل عني لأراها في نفسي أشكلاً وأشكلاً ؛ ويجب أن تباعد لئلا لمسها لمسات روحية ؛ ويجب أن أجهل منها أشياء لأحقق فيها علم قلبي ؛ ويجب أن تدع جسمها وأدع جسمي وهناك نلتقي رجلاً وامرأة ولكن على فهم جديد وطبيعة جديدة . بهذا الفهم أنا أكتب ، وبهذه الطبيعة أنا أحب !

ما هو الجزء الذي يفتني منها ؟ هو هذا الكل بجميع أجزائه .

وما هو هذا الكل ؟ هو الذي يفسّر نفسه في قلبي بهذا الحب .

وما هو هذا الحب ؟ هو أنا وهي على هذه الحالة من اليأس .

نعم أنا بائس ، ولكن شعور البؤس هو نوع من الغنى في الفن : لا يكون

هذا الغنى إلا من هذا الشعور المؤلم ، والحبيب الذى لاتناله هو و حده القادرُ  
قدرةَ الجمال والسحر ؛ يجعلك لاتدرى أين يختبئ منه جماله فيدعك تبحث  
عنه بلذة ؛ ولا تدرى أين يُسفر جماله منه فيدعك تراه بلذة أخرى ؛ أنا أنضج  
هذه الحلوى على نار مشبوبة ، على نار مشبوبة فى قلبي !  
قلت : يا صديق المسكين ! هذه مشكلة عرضتُ بها المصادفة وستحلها المصادفة  
أيضاً . وما كان أشد عجبى إذ لم أفرغ من الكلمة حتى رأينا ( المشكلة ) مقبلة علينا .  
أما هو : أما صاحب القلب المسكين ... ؟

## القلب المسكين

### ٤

أما صاحب القلب المسكين فما كاد يرى الحبيبة وهى مقبلة تتيهمنا حتى  
بغته ذلك ، فساوره الفلق ، واعتراه ما يعترى المحبَّ المهجور إذا فاجأه فى  
الطريق هاجره ؛ أرأيت مرة عاشقاً جفاه الحبيب وامتنع عليه دهرأ لا يراه ،  
وصارمه مدة لا يكلمه ، فنزع نومه من إيله ، وراحته من نهاره ، ودنياه من  
يده ، وبلغ به ما بلغ من السقم والضنى ، ثم بينا هو يمشى إذ باغته ذلك الحبيب  
منحدرا فى الطريق ؟

إنك لو أبصرت حينئذ قلب هذا المسكين لرأيتَه على زلزلة من شدة الحفقان ،  
وكأنه فى ضرباته متلعثمٌ يكرر كلمة واحدة : هى هى هى  
ولو نفذت إلى حس هذا البائس لرأيتَه يشعر مثل شعور المحتضر أن هذه  
الدنيا قد نفثته منها !

ولو اطلعت على دمه في عروقه لأبصرته مخذولا يتراجع كأن الدم  
الآخر يطرده

إنها لحظة يرى فيها المهجور بعينه أن كل شهواته في خيبة ، فيرد عليه  
الحب مع كل شهوة نوعاً من الذل ، فيكون بإزاء الحبيب كالمنهزم مائة مرة  
أمام الذى هزمه مائة مرة

لحظة لا يشعر المسكين فيها من البغته والتخاذل والاضطراب والخوف إلا  
أن روحه وثبت إلى رأسه ثم هوت فجأة إلى قدميه !



غير أن صاحبنا نحن لم يكن مهجوراً من صاحبتة ، ولكن من عجائب  
الحب أنه يعمل أحياناً عملاً واحداً بالعاطفتين المختلفتين ، إذ كان دائماً على  
حدود الإسراف مادام حياً ، فيكل شئ فيه قريب من ضده ، والصدق  
فيه من ناحية مهياً دائماً لأن يقابل بتهمة الكذب من الناحية الأخرى ،  
واليقين مُعدّ له الشك بالطبيعة ؛ والحب نفسه قضاء على العدل ، فإنه لا يخضع  
لقانون من القوانين ، والحبيب — مع أنه حبيب — يخافه عاشقه من أجل  
أنه حبيب !

وقد يصفرُ العاشق لمباغثة اللقاء كما يصفر لمباغثة الحجر ، وهذه كانت حال  
صاحبنا عند مارآها مقبلةً عليه ؛ وكان مع ذلك يخشى إلمامتها به ، توقياً على  
نفسه من ظنون الناس ؛ وأكثر ما يحسنه الناس هو أن يسيثوا الظن ؛ وهو  
رجل ذو شأن ضخم ، ومقالة السوء إلى مثله سريعة إذا روى مع مثلها ، وكأنها  
هى أَلَمَّتْ بكل هذا أو طالعها به وجهه المتوقر المتزمت ؛ فعدلت عن طريقها  
إلينا ووقفت على رئيس فرقة الموسيقى ، وما بيننا وبينها إلا خطوات ؛ ورأيتها  
قد هيأت في عينيها نظرة غاضبتنا بها ، ثم لم تلبث أن صالحتنا بأخرى !



وكانها ألقت لرئيس الموسيقى أمراً ليتأهب أهفته لدورها ، ثم همّت أن ترجع ، ثم عادت إليه فجعات تكلمه وعيناها إليسا : فقال صاحبنا وأعجبه ذلك من فعلها : إنها نبيلة حتى في سقوطها !  
ولا أدري ماذا كانت تقول لرئيس الموسيقى : ولكن هذا الرجل لم يظهر لي وقتئذ إلا كأنه تليفون معلق !



كانت عيناها إلى صاحبها لا تنزلان عنه ولا تتحولان إلى غيره ، ولا تسارقه النظر بل تغلبه عليه مغالبة ؛ ورأيته كذلك قد ثبتت عيناها عليها فخل إلى أن هذا الوجود قد انحصر جماله بين أربعة أعين عاشقة ؛ وكانت تطارحه ويطارحها كلاماً مخبوءاً تحت هذه النظرات ، وقد نسيا ما حولهما ، وشعرا بما يشعر به كل حبيبين إذا التقيا في بعض لحظات الروح السامية : أن هذا العالم العظيم لا يعمل إلا لاثنتين فقط : هو وهى  
وكان فمها الجميل لا يزال يساقط ألفاظه لرئيس الموسيقى ، وكأنها تسرّد له حكاية مروية ، أو تعارض بحافظته كلاماً تحفظه من كلام التمثيل أو الغناء ؛ فهي تتحدث وعيناها مفكّرتان شاخصتان ، فلم ينكر الرجل هيئتها هذه ؛ ولكن كيف كانت عيناها ؟

لقد أرادت في البدء أن تجعل قوة نظراتها كلاماً ، حتى لحسبت أن هذه النظرات الأولى تهتف من بعيد : أنت يا أنت !

ثم بدا في عينيها فتور الظمأ ، ظمأ الحب المتكبر المتمرد ، لأنه حب المرأة المعشوقة ، ولأن له لذتين ، إحداهما في أن يبقى ظمأ إلى حين ...  
ثم أرسلت اللاحاظ التي تتوهج أحياناً فوق كلام المرأة الجميلة في بعض

حالاتها النفسية ، فتُضرم في كلامها شرارة من الروح تُظهر الكلام كأنه يُحرق ويحترق ...

ثم توجعت النظرات لأنها تصلها بالرجل الذى لا يشبه الرجال ، فلا يستوهب خضوعها ولا يشتريه ؛ والرجل كل الرجل عند مثل هذه المرأة هو الذى لا يشبه الباقين ممن تعرفهم ، فإذا أحبها فكأنما أحبها عذراء خفيرة لم تُمس ، وكأنه من ذلك يصلها بماضيها وطهارتها وحياتها وما لا يمكن أن تتمثله إلا فى مثل حبه

ثم ذبلت عينها الجميلتان ، وما هو ذبول عيني امرأة تنظر إلى محبها ؛ إنه هو استسلام فكرها لفكره ، أو عناد معنى فيها لمعنى فيه ، أو تأكيد خاطرة تحتاج إلى التوكيد ؛ ومرة هو كقولها : لماذا ؟ وتارة هو كقولها : أفهمت ؟ وأحياناً ، وأحياناً هو انتهاء مقاومة



وتمت الحكاية المروية التى كانت تلقىها للتليفون ... : فكرت راجعة إلى المسرح بعد أن صاحت نظراتها مرة أخرى كما بدأت : أنت يا أنت ...  
فقلت لصاحبنا : ويحك يا عدو نفسه ! لو اختار الشيطان عينين ساحرتين ينظر بهما إليك نظر الفتنة ، لما اختار إلا عينيها ، فى وجهها ، فى هيئتها ، فى موقفها ؛ وأراك مع هذا كنتظر مالا يوجد ولا يمكن أن يوجد ؛ وأراها معك فى حبها كالحوان الاليف إذا طمع فى المستحيل

قال : وما هو المستحيل الذى يطمع فيه الحيوان الاليف ؟

قلت : ذلك حين يطمع فى أن تكون له حقوق على صاحبه فوق الألفة

والمنفعة .

قال : لقد أغضت فى العبارة فين لي شيئاً من البيان

قلت : هب كلبَةً تألف صاحبها وتحبه فهي له ذليلة مطواع ، ثم يبلغ بها الحب أن تطمع في أن يكون لها تمام الشرف ، فلا يقول صاحبها عنها : هذه كلبتي ، بل يقول : هذه زوجتي ...

قال : وى منك ! وى منك !<sup>(\*)</sup> لقد ضربت على رأس المسمار كما يقولون . هذا هو المستحيل الذى بينى وبينها ، هذا هو المثل . يا لفظ الحلوى ! يا لفظ الحلوى ! لو كررتك بلسانى ألف مرة فهل تضع فى لسانى طعامها ... ؟

قلت : خففْ عليك يا صاحب القلب المسكين ، فلست أكثر من عاشق قال : بل أنا مع هذه أكثر من عاشق ؛ لأن فى العاشق راغبا وفى أنا راهب ، وفيه الجرىء وفى المنكش ، ويغترف الغرفة من الشلال المتحدّر فيحسوها فيرتوى ، وأغترف أنا الغرفة بيدي ، وأبقيها فى يدي ، وأطمع أن تهْدِرَ فى يدي كالشلال ... أنا أكثر من عاشق ؛ فإنه يعشق لينتهى من ألم الجمال ، وأعشتُ أنا لاستمر فى هذا الألم !

هذه هذه : العجيب يا صديقي أن خيال الإنسان يلتقط صوراً كثيرة من صور الجمال تجيء كما يتفق ، ولكنه يلتقط صورة واحدة بإتقان عجيب ، هى صورة الحب : فهذه هذه

ألم أقل لك إن إبليس هنا فى غير حقيقته الإبلية ولم تفهم عني<sup>(\*\*)</sup> ؟ فافهم الآن أننا إن كنا لا نرى الملائكة فإنه ليخيل إلينا أننا نراها فيمن نحبهم ؛ وما دام سر الحب يبدل الزمن والنفس ويأتى بأشياء من خارج الحياة ، فكل حقائق هذا الحب فى غير حقيقتها

هذه هذه ؛ لا أطلب فى غيرها امرأة أجمل منها ، فهذا كالمستحيل ،

---

(\*) أى عجب ، يتعجب من فطنته

(\*\*) مر هذا المعنى فى المقالة الثالثة

ولكنى ألتس فيها هى امرأةٍ أظهر منها ، وهذا كالمستحيل أيضا ؛ إنها  
أجل جسم ، ولكن وأسفاه ! إنها أجل جسم للمعانى التى يجب أن  
أبتعد عنها !



وسكت صاحبنا ، إذ رفعت ستارة المسرح وظهرت هى مرة أخرى ، ظهرت  
فى زينة لا غاية بعدها ، تمثل العروس ليلة جلوتها ؛ ألا ما أمرها سخرية منك أيتها  
المسكينة ! عروس ولكن لمن ؟

كانت تهرق على المسرح كأنها كوكب درى نوره نورٌ وجمال وعواطف شعر  
وأقبلت تتمايل بجسم رخص لين مسترسل الأعطاف يتدفق الجمال والشباب  
فيه من أعلاه إلى أسفله

وأظهر وجهها حسنا وأبدى جسمها حسناً آخر ، فتم الحسن بالحسن  
واقفة كالنائمة ، فالجؤ جؤ الأحلام ، وكان الحب يحلم ، وكان السرور يحلم !  
مهتزة كال موج فى الموج . هل خلقت روح البحر فى جسمها المنرجرج فشئ  
يعلو وشئ يهبط وشئ يثور ويضطرب ؟

ثم دقت الموسيقى بألحانها المتكلمة ، ودقت أعضاء هذا الجسم بألحانها  
المتحركة ، وأحسنا كأن روح الحديقة جالسة بيننا تنظر إليها وتتعجب .  
تتعجب من قوامها للغصن الحى ، ومن بدننها للزهر الحى ، ومن عطرها  
للسيم الحى

أما صاحب القلب المسكين ... ؟

## القلب المسكين<sup>(٥)</sup>

٥

أما صاحب القلب المسكين فتزعزعت كبده مما رأى ؛ وجعل ينظر إلى هذه الفتانة تمثّل زفاف العروس وقد أشرق فيها رونقها وسطعت ولمعت ، فبدت له مُفسرةً في هذه الغلائل ، غلائل العُرس ؛ وما غلائل العرس ؟ إنها تلك الثيابُ التي تكسو لابستَها إلى ساعة فقط ... ثيابٌ أجملُ ما فيها أنها تقدمُ الجمال إلى الحب ؛ فأزهى ألوانها اللونُ المشرق من روح لابستَها ، وأسطعُ الأنوار عليها النورُ المنبعث من فرح قلبين تلك الثيابُ التي تكون سكباً من خالص الحرير ورفيع الخرز ، وحين تلبسها مثلُ هذه الفاتنة تكاد تنطق أنها ليست من الحرير ، إذ تعلم أن الحرير ماتحتها ...

ثم تنهد المسكين وقال : أفهمت ؟

قلت : فهمتُ ماذا ؟

قال . هذا هو انتقامُها

قلت : يا عجبا ! أتريدها في ثيابِ راهبة مُكبّكة فيها كما ألقيت البضاعة

---

(٥) نرجح أن يكون القراء قد أدركوا الغرض من كتابة هذه المقالات على هذا السرد الذي وصفته لنا إحدى الأدبيات بأن « فيه أشياء مادية » ؛ فنحن نرمي إلى تصوير الغريزة ثائرة محتاجة بكل أسباب الثورة والاهتياج ، ولكنهما مكفوحة بأسباب أخرى من الدين والشرف والمروءة وفلسفة العقل ...

فى غرارة ، بين سوادِ هو شعارُ الحداد على الانوثة الهالكة ، وياضِ هو شعار الكفن لهذه الانوثة ؟

قال : أنت لا تعرفها : إن الرواية التى تمثّل فيها بين الروح والجسم ، هى التى احتاجت إلى هذا الفصل يقوى به المعنى ؛ وكل عاشقة فعشقها هو الرواية التى تمثّل فيها ، يؤلفها هذا المؤلف الذى اسمه الحب ، ولا تدرى هى ماذا يصنع وماذا يؤلف ، غير أنه لا يفتأ يؤلف ويصنع وينقح كما تنزل به الحال بعد الحال ، وكما تعرض به المصادفة بعد المصادفة ؛ وعليها هى أن تمثّل ...

قلت : فهذا ؛ ولكن كيف يكون هذا انتقاما ؟

قال : إن الأفكار أشياء حقيقية ، ولو كُشف لك الجو هذه الساعة لرأيتَه مسطوراً عباراتٍ عباراتٍ كأنه مقالة جريدة  
هذا الفصل حوارٌ طويل فى الهموم والآلام ورقة الشوق وتهالك الصبوة ، لو كُتب له عنوان لكان عنوانه هكذا : ما أشهاها وما أحظاها ! إن الهواء بين كل عاشقين متقابلين يأخذ ويعطى ...

قلت : يا عدو ! نفسه ما أعجب ما تُدقق ! لقد أدركتُ الآن أن المرأة تتسلّح بما شاءت ، لا من أجل أن تدافع ، ولكن لتزيد أسلحتها فى سلاح من تحبه ، فتزيده قوةً على قهرها وإخضاعها ...



أما هذه (العروس) فكانت أفكارها لا تجد ألفاظاً تحبها فهى تظهر كيفما اتفق ، رسالةً إرسالاً فى اللغّة والحركة والهيئة والقومة والقعدة ؛ وهى من علمت : امرأةٌ تعيش للحقائق ، وبين الحقائق ، ككل ذى صنعة فى صنعته فكانت فى تمادىها خطراً أى خطر على صاحب القلب المسكين ، تمثّل شيئاً

لا أدري أهو ظاهر بخفائه أم هو خاف بظهوره ؛ وقد وقع صاحبنا منها فيما لم يدخل في حسابه ، فكانت الحبيثة الماجنة كأنها تُسكره بمسكر حقيقى ، غير أنه من جسمها لا من زجاجة خمر

وكانت لذهنه المتخيل كالسحابة الممتلئة بالبرق ؛ توَمِضُ كلَّ لحظة بأنوار بعد أنوار ، وبين الفترة والفترة ترمى الصاعقة

وظهرت كأنها امرأة مخلوقة من دم ولهب ؛ فلقد أيقنتُ حينئذٍ أن الحب إن هو إلا الغريزة البهيمية بعينها محاولة أن تكون شيئاً له وجود فنى إلى وجوده الطبيعى ، فهو مصيبتان فى واحدة ، وكل عمله أن يحمل اللذة ألدَّ ، والألم أشدَّ ، والقلة كثرة ، والكثرة أكثر ، وما هو نهاية كأنه لانهاية ... هذه (العروس) كانت قبل الآن واقفة على حدود صاحبها ، أما الآن فإنها تقتحم الحدود وتغزو غزوها وتمتلك ...

يا سحر الحب من سحر ! كل ما فى الطبيعة من جمال تظهره الطبيعة لعاشقها فى إحدى صور الفهم ، أما الحبيب الجميل فهو وحده الذى يظهر لعاشقه فى كل صور الفهم ، وبهذا يكون الوقت معه أوقاناً مختلفة متناقضة ، فى ساعة يكون العقل ، وفى ساعة يكون الجنون

يا سحر الحب ! لقد أرادت هذه المرأة أن تذهب بعقل صاحبها ، وأن تنقله إلى وحشية الإنسان الأول الكامن فيه ، وأن تقذف به إلى بعيد بعيد وراء فضائله وعصمته ؛ فسَنَحَتْ له كما يسنح الصيد للصائد يحمل فى جسمه لحمه الشهى ... وتركت شعوره جائعاً إلى محاسنها بمثل جوع المعدة ... وبرزت له صريحة كما هى ، ولمّا هى ؛ ومن حيث أنها هى ، وكل ذلك حين ألبست جسمها ثياب الحقيقة المؤنثة

آه من (هى) إذا امتلأت الهاء والياء من قلب رجل يحب ! وآه من (هى) ( ١٠ ج ٣ روى القلم )

إذا خرجت هذه الكلمة من لغة الناس إلى لغة رجل واحد  
إن في كل امرأة ... امرأة يقال لها (هى) <sup>(١)</sup> باعتبار الضمير للتأنيث فقط ،  
كما يعتبر في الدابة والحشرة والأداة ونحوها من هذه المؤنثات التى يرجع  
عليها هذا الضمير ؛ ولكن (هى) المفردة فى الكون كله لا توجد فى النساء  
إلا حين يوجد لها (هو) .....  
\* \* \*

أنا أنا الذى يقص للقراء هذه القصة ، قد كابدت من شدة الحب وإفراط  
الوجد ما يُفعم قلوبين مسكينين لا قلباً واحداً ؛ وكانت لى (هى) من الهَيَاتِ عانيت  
فيها الحبَّ والألم دهرًا طويلًا ؛ وقد ذهبتُ بى فى هواها كل مذهب إلا  
مذهباً يُحلّ حراما ، أو مذهباً يُخلّ بمروءة ؛ ولقد علمت أن الشيء السامى  
فى الحب هو ألا يخرج من العاشق مجرم

فالشأن كل الشأن أن يستطيع الرجلُ الفصلَ بين الحب من أجل جمال  
الأنثى يظهر عليها ، وبين الحب من أجل الأنثى تظهر فى جمالها ؛ فهو فى الأولى  
يشهد الإلهية فى إبداعها السامى الجميل ، وفى الأخرى لا يرى غير البشرية فى  
حيوانيتها المتجملة ...

وفد أدركت من فلسفة الحب أن الحقيقة الكبرى لهذا الجمال الأزلّى  
الذى يملأ العالم — قد جعلت حنين العشق فى قلب الإنسان هو أول أمثلتها  
العملية فى تعليمه الحنين إليها إن شاء أن يتعلم ، فكما يحب إنسان بروح الشهوة  
يحب إنسانٌ آخر بروح العبادة ؛ وهذا هو الذى يسميه الفلاسفة : ( تلطيف  
السر ) أى جعله مستعدا للتوجه إلى النور والحق والخير ، وقد عُدوا فيما

---

(١) قلت : هنا رسالة إلى « فلانة » من تلك الرسائل التى كانت بينهما بعد  
القطيعة .... وانظر ص ٨٣ « حياة الرافعى »



يعين عليه ، الفكر الدقيق والعشق العنيف

وكذلك تبينَتْ مما علمنى الحب أن طرد آدم وحواء من الفردوس ، كان معناه ثقلَ معانى الفردوس وعرضها لكل آدم وحواء يمثلان الرواية ... فإذا « قطفا الثمرة » طردا من معانى الجنة <sup>(\*)</sup> ، وهبطا بعد ذلك من أخيلة السماء إلى حقائق الأرض .

نعم هو الحب شيء واحد فى كل عاشق لكل جميل ، غير أن الفرق بين أهله يكون فى جمال العمل أو قبح العمل : وهذه النفوس مصانع مختلفة لهذه المادة الواحدة ؛ فالحب فى بعضها يكون قوة وفى بعضها يكون ضعفا ؛ وفى نفس يكون الهوى حيوانيا يُراكم الظلمة على الظلمة فى الحياة ، وفى أخرى يكون روحانياً يكشف الظلام عن الحياة .

والمعجزة فى هذا الإنسان الضعيف أن له مع طبيعة كل شيء طبيعة الإحساس به ، فهو مستطيع أن يجد لذة نفسه فى الألم ، قادر على أن يأخذ هبة من معانى الحرمان ؛ وبهذه الطبيعة يسمو من يسمو ، وهى على أتمها وأقواها فى عظماء النفوس ، حتى لكان الأشياء تأتى هؤلاء العظماء سائلة : ماذا يريدون منها ؟

فمن أراد أن يسمو بالحب فليضعه فى نفسه بين شيئين : الخلق الرفيع ، والحكمة الناضجة ؛ فإن لم يستطع فلا أقل من شيئين : الحلال ، والحرام <sup>(\*\*)</sup>

\*\*\*

أنا الذى يقص للقراء هذه القصة ، أعرف هذا كله ، وهذا كله فهمت قول صاحب القاب المسكين : إن ظهور صاحبه فى فصل العرس هو

---

(\*) أى طردا كالطرد من الجنة

(\*\*) بـطـنا هذا المعنى فى المقالة الثانية من هذه المقالات على وجه آخر

انتقامها ، حاصرتُ عيناها عينه ، وزحفت معانيها على معانيه ، وقاتلت قتال  
جسم المرأة المحبوبة في معركة حبها ، وبكلمة واحدة : كأنما لبست هذه الثياب  
لتظهر له بلا ثياب ...

وأردت أن أعيبها بما صنعتُ نفسُها له ، وأن أعيبه هو بدخوله فيما  
لا يشبهه ، وقلت في غير طائل ولا جدوى ، فما كنت إلا كالذى يعيب الورد  
بقوله : ياعطر الشذى ، ويا أحر الخدين !

وقد أمسك عن جوابي ، وكانت محاسنها تجعل كلماتي شوهاء ، وكان  
وضوحها يجعل معاني غامضة ، وكانت حلاوتها تجعل أقوالى مرة ، وكانت  
ثياب العروس وهى تزف تزيه ألفاظى فى ثياب العجوز المطلقة ؛ وكلما غاضبته  
مع نفسه أوقدتُ هى الصلح بينه وبين نفسه

والعجيبُ العجيبُ فى هذا الحب أن فتح العينين على الجميل المحبوب هو  
نوع من تغميضهما للنوم ورؤيا الأحلام : ليس إلا هذا ، ولا يكون أبداً  
إلا هذا ؛ فهما أعطيت من جدل فإقناعك المحب المستهام كإقناعك النائم  
المستثقل ؛ وكيف وله ألفاظ من عقله لا من عقلك ، وبينك وبينه نسيانه  
إياك ، وقد تركك على ظاهر الدنيا وغاص هو فى دنيا باطنه لا يملك فيها  
أخذاً ولا رداً إلا ما تعطى وما تمنع



ثم ... ثم غابت (العروس) بعد أن نظرت له وضحكت  
ضحكت بحزنٍ حُزن الذى يسخر من حقيقة لأنه يتألم من حقيقة غيرها ؛  
وكان منظرها الجميل المنكسر فلسفة تامة مصورة للخير الذى اعتدى عليه  
الشر فأحاله ، والإرادة التى أكرهها القدر فأخضعها ، والعفة المسكينة التى  
أذلتها ضرورة الحياة ، والفضيلة المغلوبة التى حيل بينها وبين أن تكون فضيلة !

وياما كان أجمالها ناظرة بمعاني البكاء ضاحكة بغير معاني الضحك ؛ تنهد  
ملاح وجهها وفمها يتسم !  
كان منظرها ناطقاً بأن قلبها الحزين يسأل سؤالاً أبداً على وجهها بلطف  
ورقة ؛ كان يسأل إنساناً : ألا تحل هذه العقدة ... ؟  
وانقضى التمثيل وتناهى الناس  
أما صاحب القلب المسكين ... ؟

## القلب المسكين

٦

أما صاحب القلب المسكين فقام ليخرج وقد تفارطته الهدوم وتسابقت  
إليه فانكسر وتفتت ؛ وكأنما هو قد فارق صاحبه باكياً وباكية من حيث  
لا يرى بكاءه غيرها ولا يرى بكاءها غيره !  
ورأيته ينظر إلى ماحوله كأنما تَغَشَى الدنيا لونُ نفسه الحزينة ؛ إذ كانت  
نفسه أَلْقَتْ ظِلَّهَا على كل شيء يراه ؛ وجعل يدلف ولا يمشى كأنه مثقلٌ  
بحمل يحمله على قلبه

إنه ليس أخف وزناً من الدمع ؛ ولكن النفوس المتألمة لا تحمل أثقل  
منه ، حتى لينتثر على النفس أحياناً وكأنه وكأنها بناء قائم يتهدم على جسم ؛  
وبعض التنهدات على رقتها وخفتها ، قد تشعر بها النفس في بعض همها  
كأنها جبل من الأحزان أخذته الرِّجفة فادت به ، فتقلقل ، فهو يتفلق  
وبتهاوى عليها

آه حين يتغير القلبُ فيتغير كل شيء في رأى العين ! لقد كان صاحبنا منذ قليل وكأن كل سرور في الدنيا يقول له : أنا لك ! فعاد الآن وما يقول له « أنا لك ، إلا الهم ؛ والتقى هو والظلام والعالم الصامت !  
جعل يداف ولا يعيش كأنه مشغل بحمل يحمله على قلبه ؛ ومتى وقع الطائر من الجو مكسورَ الجناح ، انقلبت النواويس كلها معطلة فيه ؛ وظهر الجو نفسه مكسوراً في عين الطائر المسكين ؛ وتنفصل روحه عن السماء وأنوارها ، حتى لو غمره النور وهو ملقى في التراب لأحسَّه على التراب وحده لا على جسمه ...

ثم خرجنا ، فانتبه صاحبنا عما كان فيه ؛ وبهذه الانتباهة المؤلمة أدرك ما كان فيه على وجه آخر ، فتعذَّب به عذابين : أما واحد فلأنه كان ولم يدُمْ ، وأما الآخر فلأنه زال ولم يُعَدْ ؛ والسرورُ في الحب شيء غير السرور الذى يعرفه الناس ؛ إذ هو في الأول روحٌ تتضاعف به الروح ؛ فكل ماسرك وانتهى شعرت أنه انتهى ؛ ولكن ما ينتهى من سرور العاشق المستهام يُشعره أنه مات ، فله في نفسه حزن الموت وهم الشكل ، وله في نفسه هم الشكل وحزن الموت !



وينظر صاحبُ القاب المسكين فإذا الأنوار قد انطفأت في الحديقة ، وإذا القمر أيضاً كأنما كان فيه مسرح وأخذوا يطفئون أنواره .  
كان وجهُ القمر في مثل حزن وجه العاشق المبتعد عن حبيبته إلى أطراف الدنيا ، فكان أبيض أصفر مُكدداً ، تتخايلُ فيه معانى الدموع التى يُمسكها التجلدُ أن تتساقط .  
كان في وجه القمر وفي وجه صاحبنا معاً مظهرُ تأثير القدر المفاجئ بالنكبة .

وبدت لنا الحياةُ تحت الظلمة مقفرة خاوية على أطلالها ، فارغة كفراغ  
نصف الليل من كل ما كان مُشرقاً في نصف النهار ؛ يالك من ساحر أثيرها  
الحُب ؛ إذ تجعل في ليل العاشق ونهاره ظلاماً وضوءاً ليسا في الأيام والليالي !  
أما الحديقةُ فلبسها معنى الفراق ؛ وما أسرع ما ظهرت كأنما يبست  
كلها لتوها وساعتها ، وأنكرها النسيم فهرب منها فهي ساكنة ، وتحوّلت  
روحها خشبيّة جافة ، فلا نضرة فيها على النفس ؛ وبدت أشجارها في الظلام  
قائمة في سوادها كالناتحات يلطمن ويُولولن ، وتذكرُ فيها مشهدُ الطبيعة كما يقع  
دائماً حين تنبت الصلة بين المكان ونفس الكائن .  
ماذا حدث ؟

لا شيء إلا ما حدث في النفس ، فقد تغيرت طريقة الفهم ، وكان  
للحديقة معنى من نفسه فُسلب المعنى ، وكان لها فيض من قلبه فأنحبس عنها  
الفيض ؛ وبهذا وهذا بدت في السلب والعدم والتذكر ، فلم يبق إبداعٌ في  
شيء مُبدع ، ولا جمال في منظر جميل .  
أكذا يفعل الحب حين يضع في النفس العاشقة معنى ضئيلاً من معاني  
الفناء كهذا الفراق ؟

أكذا يترك الروح إذا فقدت شيئاً محبوباً ، تتوهم كأنها ماتت بمقدار  
هذا الشيء ؟

مسكين أنت أيها القلب العاشق ! مسكين أنت !



ومضينا فلما إلى ندىٍ نجلس فيه ، وأردتُ معايشة صاحبنا المتألم بالحب  
والمتألم بأنه متألم ، فقلت له : ما أراك إلا كأنك تزوجتها وطلقتها فتبعتهما  
نفسك !

قال : آه ! مَنْ أنا الآن ؟ وما بالُ ذلك الخيال الذى نَسَّق لى الدنيا فى أجمل أشكالها قد عاد فبعثرها ؟ أتدرى أن العالم كان فىَّ ثم أخذ منى فأنا الآن فضاء فضاء .

قلت : أعرف أن كل حبيب هو العالم الشخصى لمحبه .

قال : ولذلك يعيش المحب المهجور ، أو المفارق ، أو المنتظر ، وكأنه فى أيام خلّت ، وتراه كأنما يحىء إلى الدنيا كل يوم ويرجع .  
قلت : إن من بعض ما يكون به الجمال جمالاً أنه ظالم قاهر عنيف ، كالملك يستبدّ ليتحقق من نفاذ أمره ؛ وكأن الجبل لا يتم جماله إلا إذا كان أحيانا غير جميل فى المعاملة !

قال : ولكن الأمر مع هذه الحبيبة بالخلاف ؛ فهى تطلبنى وأتسكبها ، وهى مقبلة لكنها مقبلة على امتناعى ؛ وكأنها طالب يعدو وراء مطلوب يفرّ ، فلا هذا يقف ولا ذلك يدرك .

قلت : فإن هذه هى المشكلة ، ومتى كانت الحبيبة مثلها ، وكان المحب مثلك ، فقد جاءت العقدة بينهما معقودة من تلقاء نفسها فلا حل لها .

قال : كذلك هو ، فهل تعرف فى البؤس والهم كبؤس العاشق الذى لا يتدبر كيف يأخذ حبيبته ، ولكن كيف يتركها ؟ ما هى المسافة بينى وبينها ؟ خطوة ، خطوتان ؟ كلا ، كلا ؛ بل فضائل وفضائل تملأ الدنيا كلها ، إن مسافة ما بين الحلال والحرام متراخية ممتدة ذاهبة إلى غير نهاية ؛ وإذا كان الحب الفاسد لا يقبل من الحبيب إلا ( نعم ) بلا شرط ولا قيد لأنه فاسد ، فالحب الطاهر يقبل ( لا ) لأنه طاهر ؛ ثم هو لا يرضى ( نعم ) إلا بشرطها وقيدها من الأدب والشرعية وكرامة الإنسانية فى المرأة والرجل .  
وإذا لم ينته الحب بالإثم والرديلة ، فقد أثبت أنه حب ؛ وشرفه حينئذ

هو سر قوته وعنصر دوامه .

أُتعرِف أن بعض عشاق العرب تمنى لو كان جملاً وكانت حبيبته ناقة ...  
إنه بهذا يؤدّ ألا يكون بينهما العقل والقانون وهذا الحرمان الذى يسمى  
الشرف ، وألا يكون بينهما إلا قيد غريزتها الذى ينحلّ من تلقاء نفسه فى  
لحظةٍ ما ، وأن يُترك لقوته وتترك هى لضعفها ؛ والقوة والضعف فى قانون  
الطبيعة هما ملك وتمليك واغتصاب وتسليم  
قلت : وهذا ما يفعله كل عاشق لمثل هذه الراقصة إذا لم يكن فيه إلا الحيوان ؛  
فإن بينهما قوة وضعفاً من نوع آخر ، فمعه الثمن وبها الحاجة ، وهما فى قانون  
الضرورة ملك وتمليك .

قال : وهذا مما يقطع فى قلبي ؛ فلو أن الأمة ديناً رشحاً لما بقى  
موضع الزوجة فارغاً من رجل ، وإن هذه وأمثالها إنما ينزلان فى تلك  
المواضع الخالية أول ما ينزلان ، فكل بغى هى فى المعنى دينٌ متروك وشرف  
مبتذل فى الأمة



قلت : فحدثنى عنك ما هذا الوجدُ بها وما هذا الاحتراق فيها ، وأنت قد  
كنت بين يديها خيالاً محضاً كأنما جمعتها فى حواسك فأخذتها وتركتها فى  
وقتٍ معاً ، وحواسك هذه لا تزال كما هى ، بل هى قد زادت حدة ، فكما صنعتُ  
لك من قرب تصنع لك من بُعد

قال : أنا فى محضرها أحبها كما رأيت بالقدر الذى تقول هى فيه إنك  
لا تحبى ، إذ كان بيننا آخر اسمه الخلق ؛ ولكنى فى غيابها أفقد هذا الميزان  
الذى يزن المقدار ويحدده ، وإذا كنت لم تعلم كيف يصنع العاشق فى غيبة  
المعشوق ، فاعلم أن كبرياءه حينئذ لا ترى بإزائها ما تقاومه ، فتتخلى عنه وتخذله ؛

وفضيلته لا تجد ماتستعلن فيه ، فتتوارى وتدعه ؛ وشخصيته لا تجد ماتبرز له ، فتختفى وتهمله ؛ فما يكون من كل ذلك إلا أن يظهر المسكين وحده بكل ما فيه من الوهن والنقص وحدة الشوق ؛ وهنا يلتقم الحب بما زورت عليه الكبرياء والفضيلة والشخصية ، فيضرب بحقائقه ضربات مؤلمة لا تقوم لها القوة ، ويجعل غياب الحبيب كأنه حضوره مستخفيا لرؤية الحقيقة التي كتبت عنه ؛ وكم من عاشقة متكبرة على من تهواد تصدّه وتباعده ، وهى فى خلوتها ساجدة على أقدام خياله تمرغ وجهها هنا وهنا على هذه القدم وعلى هذه القدم !

ألا إنه لا بد فى الحب من تمثيل رواية الامتناع أو الصد أو التهاون أو أى الروايات من مثلها ؛ ولكن ثياب المسرح هى دائما ثياب استعارة مادام لا بسها فى دوره من القصة



ثم وضع المسكين يده على قلبه وقال : آه ! إن هذا القلب يغاضب الحياة كلها متى أراد أن يشعر صاحبه أنه غضبان

مَنْ مِنَ الناس لا يعرف أحزانه ؟ ولكن مَنْ مِنْ منهم الذى يعرف أسرار أحزانه وحكمته ؟ أما إنه لو كشف السر لرأينا الأفراح والأحزان عملا فى النفس من أعمال تنازع البقاء ؛ فهذا الناموس يعمل فى إيجاد الأصالح والآقوى ، ثم يعمل كذلك لإيجاد الأفضل والأرقى ، ومن ثم كانت آلام الحب قوية قوية حتى لكانها فى الرجل والمرأة تهيج أحد القلبين ليستحق القلب الآخر .

آه من هذه اللواعج ! إنها ما تكاد تضطرم حتى ترجع النفس وكأنها موقد يشتعل بالجر ، وبذلك يُصهر المعدن الإنسانى ويُصنع صنعة جديدة ؛ وإلى



أن ينصهر ويتصفى ويصنع ، ماذا يكون الإنسان في كل شيء من حبيبته ؟  
يكون له في كل شيء روحه الناري

\*\*\*

قلت : بَخِ بَخِ<sup>(٥)</sup> ! هكذا فليكن الحب ؛ إنها حين تهيج في نفسك الحنين  
إليها تعطيك ما هو أجمل من جمالها وما هو أبداع من جسمها ، إذ تعطيك أقوى  
الشعر وأحسن الحكمة .

قال : وأقوى الألم وأشدّ اللوعة ! يا عجباً ! كأن الحياة لا تقدم في عشق  
المحبوب إلا عشقها هي ؛ فإذا وقعت الجفوة ، أو حُمَّ البينُ ، أو اعترى اليأس -  
قدّم الموت نفسه فكل ذلك شبه الموت

إن الحزن الذي يجيء من قبل العدو يجيء معه بقوة تحمله وتتجلد له  
وتكابر فيه ؛ ولكن أين ذلك في حزن مبعثه الحبيب ؟ ومن أين القوة إذا  
ضعف القلب ؟

\*\*\*

قلت : لا يصنع الله بك إلا خيراً ؛ فإذا كان غدٌ وانساخ النهار من الليل  
جئنا إليها فرأيناها في المسرح ، ولعل الأمر يصدر مصدرًا آخر ، قال :  
أرجو ...

ولم يكذب ينطق بهذه الرجية حتى مر بنا سبعة رجال يقهقهون ، ثم تلاقينا  
وجئنا ؛ ويا ويلتنا على المسكين حين علم أنها رحلت ؛ لقد أدرك أن الشيطان كان  
يضحك بسبعة أفواه ... من قوله : أرجو

ولماذا رحلت ؟ لماذا . ؟

وأما هو ... ؟

---

(٥) كلمة الإعجاب يقال عند الرضى والمدح ، ومثلها ( زه ) وهذه فارسية

# القلب المسكين

٧

وأما صاحبُ القلب المسكين فما علم أنها قد رحلت عن ليلته حتى أظلم الظلامُ عليه ، كأنها إذا كانت حاضرةً أضاء شيء لا يرى ، فإذا غابت انطفأ هذا الضوء ؛ ورأيتُه واجماً كاسفَ البال يَتَنَازَعُهُ في نفسه ما لا أدري ، كأن غيابها وقع في نفسه إنذارَ حرب

لماذا كان الشعراء ينوحون على الأطلال ويلتأعون بها ويرتمضون منها وهي أحجارٌ وآثارٌ وبقايا ؟ وما الذي يتأقاهم به المكان بعد رحيل الأحبة ؟ يتأقاهم بالفراغ القلبي الذي لا يماؤه من الوجود كله إلا وجودُ شخص واحد ؛ وعند هذا الفراغ تقف الدنيا ملياً كأنها انتهت إلى نهاية في النفس العاشقة ، فتبطل حينئذ المبادلةُ بين معاني الحياة وبين شعور الحى ؛ ويكرن العاشق موجوداً في موضعه ولا تجده المعانى التى تمرُّ به ، فترجع منه كالحقائق 'تلم' بالفراغ العقلى من وعى سكران

يا أثر الحبيب حين يفارق الحبيب ! ما الذى يجعل فيك تلك القدرة الساحرة ؟ أهو فصلك بين زمن وزمن ، أم جمعك الماضى في لحظة ؛ أم تحوياك الحياة إلى فكرة ، أم تكبيرك الحقيقة إلى أضعاف حقيقتها ، أم تصويرك روحية الدنيا فى المثال الذى تحسه الروح ، أم إشعارك النفس كالموت أن الحياة مبنيةٌ على الانقلاب ، أم قدرتك على زيادة حالة جديدة للهم والحزن ، أم رجوعك باللذة تُرى ولا تمكن ، أم أنت كل ذلك لأن

القلب يفرغ ساعةً من الدنيا ويمتلئ بك وحدك ؟  
يا أثر الحبيب حين يفارق الحبيب ! ما هذه القوة السحرية فيك  
تجتذبُ بها الصدرَ ليضمك ، وتستهوئ بها الفم ليقبلك ، وتستدعى الدمعَ  
لينفَرَّ لك ، وتحتاج الحنين لينبعث فيك ؟ أكل ذلك لأنك أثر الحبيب ،  
أم لأن القلب يفرغ ساعة من الدنيا ولا يجد ما يخفق عليه سواك ؟



ووقف صاحبنا المسكين محزوناً كأن شيئاً يصله بكل هموم العالم ؛  
وتلك هي طبيعة الألم الذي يفاجئ الإنسان من مكن لذته وموضع سروره ،  
فيسلبه نوعاً من الحياة بطريقة سلب الحياة نفسها ، ويأخذ من قلبه شيئاً  
مات فيدفنه في قبر الماضي ، يكون ألماً لأن فيه الماض ، وكآبةً لأن  
فيه الحيبة ، وذهولاً لأن فيه الحسرة ؛ وتم هذه الثلاثة الهموم بالضيق  
الشديد في النفس ، لاجتماع ثلاثتها على النفس ؛ فإذا المسكين مبعوث  
مبعوث كأن الآلام أطبقت عليه من الجهات الأربع ، فقلبه منها صُدوع  
صُدوع ...

وجعلتُ أعذلُ صاحبنا فلا يعتدل ، وكلما حاولت أن أثبت له وجود  
الصبر كنت كأما أثبت له أنه غير موجود ؛ ثم تنفس وهو يكاد ينشقُّ  
غيظاً وقال : لماذا رحلتُ ؟ لماذا ؟

قلت : أنت أذلت جلالها بهذا الأسلوب الذي ترى أنك تُعزُّ جلالها  
به ، وقد اشتدَّت عليها وعلى نفسك ، وتعنَّتْ على قلبك وقلبها ؛ كانت  
ظريفة المذهب في عشقها وكنت خشناً في حبك ، وسوغتك حقاً فرددته  
عليها ، وتهالككت وانقبضت أنت ، ورفعتُ قدرك عن نفسها تحببها  
وتودُّداً فخفضت قدرها عن نفسك من أطراح وجفاء ، واستفزعتُ

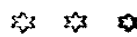
وسعها في رضاك فتغاضبت ، وانضت عن محاسنها شيئاً شيئاً تسأل بكل شيء  
سؤالا فلم تكن أنت من جوابها في شيء ...

ومن طبع المرأة أنها إذا أحبت امتنعت أن تكون البادئة ، فالتوت  
على صاحبها وهي عاشقة ، وجاحدت وهي مُقرّة ؛ إذ تريد في الأولى  
أن تتحقق أنها محبوبة ، وفي الثانية أن يُقدّم لها البرهان على أنها تستحق  
المهاجمة ، وفي الثالثة هي تريد ألا تأخذها إلا قوة قوية فتمتحن هذه  
القوة ، ومع هذه الثلاث تأتي طبيعة السرور فيها والاستمتاع بها إلا أن  
يكون لهذا السرور وهذا الإمتاع شأن وقيمة ، فتدقيق صاحبها المرّ قبل  
الحلو ليكبر هذا بهذا

غير أنها إذا غلبها الوجد وأكرهها الحب على أن تبتدئ صاحبها ، ثم  
ابتدأت ولم تجد الجواب منه ، أو لم يأت الأمر فيما بينها وبينه على ماتحب ،  
فإن الابتداء حينئذ يكون هو النهاية ، وينقلب الحب عدو الحب ؛ وأنا أعرف  
امرأة وضعتها كبرياؤها في مثل هذه الحالة وقالت لصاحبها : سأتألم ولكن  
لن أغلب ، فكان الذي وقع وأسفاه — أنها تألمت حتى جنت ، ولكن  
لم تغلب ... (١)

قال : فما بال هذه ؟ أما تراها تبتدئ كل يوم رجلا ؟

قلت : إنها تبتدئ متكسبةً لعاشقة ، فإذا أحبت الحب الصحيح أرادت  
قيمتها فيما هو قيمتها ؛ وأنا أحسبها تحب فيك هذا العنف وهذه القسوة وهذه  
الروحية الجبارة ؛ فإنها لذات جديدة للمرأة التي لا تجد من يُخضعها ؛ وفي طبيعة كل  
امرأة شيء لا يجد تمامه إلا في عنف الرجل ، غير أنه العنف الذي أوله  
رقة وآخره رقة !



---

(١) انظر قصة هذه الحبيبة التي تألمت حتى جنت ص ٧٣ - ١٠١ ، حياة الرافي ،

أما والله إن عجائب الحب أكثر من أن تكون عجيبة ؛ والشئ الغريب يسمى غريباً فيكفى ذلك بياناً في تعريفه ، غير أنه إذا وقع في الحب سُمي غريباً فلا تكفيه التسمية ، فيوصف مع التسمية بأنه غريب فلا يبلغ فيه الوصف ، فيقع التعجب مع الوصف والتسمية من أنه شئ غريب ، ثم تبقى وراء ذلك منزلة للإغراق في التعجب بين العاشق وبين نفسه ؛ وهكذا يشعرون

فكل أسرار الحب من أسرار الروح ومن عالم الغيب ؛ وكأن النبوة نبوتان : كبيرة وصغيرة ، وعامة وخاصة . فأحدهما بالنفس العظيمة في الأنبياء ، والآخرى بالقلب الرقيق في العشاق ؛ وفي هذه من هذه شبهة ، لوجود العظمة الروحية في كليهما غالباً على المادة ، مجردة من إنسان الطين إنساناً من النور ، محركاً هذه الطبيعة الآدمية حركةً جديدة في السموات ، ذاهبة بالمعرفة الإنسانية إلى ما هو الأحسن والأجمل ، واضعة مبدأ التجديد في كل شئ يمر بالنفس ، منبعثةً بالأفراح من مصدرها العلوى السماوى بيد أن في العشق أنبياء كذبة ؛ فإذا تسفل الحب في جلال ، واستعلنت البهيمية في عظمة ، وتجرد من إنسان الطين إنساناً الحجر ، وتحركت الطبيعة الآدمية حركة جديدة في السقوط ، وذهبت المعرفة الإنسانية إلى ما هو الأفبح والأسوأ ، وتجدد لكل شئ في النفس معنى فاسد ، وانبعثت الأفراح من مصدرها السفلى — إذا وقع كل هذا من الحب فما عساه يكون ؟ لا يكون إلا أن الشيطان يقلد النبوة الصغيرة في بعض العشاق ، كما يقلد النبوة الكبيرة في بعض الدجالين



هكذا قال صاحب القلب المسكين وقد تكلم عن الحب ونحن جالسان

فى الحديقة؁ وكنا دخلناها ليجدد عهداً بمجلسه فلعله يسكن بعض مابه ؛  
واستفاض كلامنا فى وصف تلك العبرة (١) الفتاة التى أحلته هذا المحل  
وبلغت به ما بلغت؁ وكان فى رقة لارقة بعدها؁ وفى حب لانهاية وراءه لمحـب ؛  
وخيل إلى أنه يرى الحديث عنها كأنه إحضارها بصورة ما

وأنتفع ما فى حديث العاشق عن حبه وأمله أن الكلام يخرجـه من  
حالة الفكر؁ ويؤنس قلبه بالألفاظ؁ ويخفف من حركة نفسه بحركة  
لسانه؁ ويوجه حواسه إلى الظاهر المتحرك ؛ فتسلبه ألفاظه أكثر معانيه  
الوهمية؁ وتأتيه بالحقائق على قدرها فى اللغة لافى النفس ؛ وفى كل ذلك  
حيلة على المسيان؁ وتعمل إلى ساعة ؛ وهو تدبير من الرحمة بالعاشقين فى هذا  
البلاء الذى يسمى الفراق أو الهجر

وكان من أعجب ما عـجبت له أن صديقاً مرّ بنا فدعاه صاحبنا وقال وهو  
يومئذ إلى : أنا وفلان هذا مختلفان منذ اليوم : لاهو يقيم عذراً ولا أنا أقيم حجة؁  
وأحسب أن عندك رأياً فافض بيننا

ويسأله الصديق : ما القضية ؟ فيقول وهو يشير إلى :

إن هذا قد تخرق قلبه من الحب فلا يدرى من أين يحىء لقلبه برقة ...  
وأنه يعشق فلانة الراقصة التى كانت فى هذا المسرح؁ ويزعم لى ... أنها  
أجمل وأفن وأحلى من طلعت عليه الشمس؁ وأنه ليس بين وجهها وبين  
القمر وجه امرأة أخرى فى كل ما يضىء القمر عليه؁ وأن عينيها مما لا ينسى  
أبداً أبداً أبداً ... لأن الحاظها تذوب فى الدم وتجرى فيه؁ وأن الشيطان  
لو أراد مناجزة العفة والزهد فى حرب حاسمة بينه وبين أزهد العباد لترك كل

---

(\*) هى التى جمعت الحسن والجسم والامتلاء وجمال الحلقة من كل ناحية؁ كهذه  
التي نحن فى وصفها منذ شهرين ...

حِيلَهُ وَأَسَالِيْبِهِ وَقَدَّمَ جَسَمَهَا وَفَنَهَا . . .

فيقول له المستول : وما رأيك أنت ؟

فيجيبه : لو كان عنها صاحباً لقد صحا : إن المشكلة في الحب أن كل عاشق له قلبه الذى هو قلبه ، وحسبها أن مثل هذا هو يصفها : وما يدرينا من تصارييف القَدَر بهذه المسكينة ما عليها لها ، فلعلها الجمالُ حُكْم عليه أن يُعَذَّب بقبح الناس ، ولعلها السرورُ قضى عليه أن يسجن في أحزان !

\*\*\*

وقلت له : يا صديق المسكين ! أو كلُّ هذا لها في قلبك ؟ فما هذا القلب

الذى تحمله وتتعذب به ؟

قال : إنه والله قلب طفل ، وما حُبُّه إلا التماسه الحنان الثانى من الحبيبة ، بعد ذلك الحنان الأول من الأم : وكل كلامى فى الحب إنما هو إملاء هذا القلب على فكره كأنه يخلق به خلق تفكيره

آه يا صديق ! إن من السخرية بهذه الدنيا وما فيها أن القلب لا يستمر طفلاً بعد زمن الطفولة إلا فى اثنين : من كان فيلسوفا عظيماً ، ومن كان مغفلاً عظيماً !

\*\*\*

واقترقنا : ثم أردت أن أتعرف خبره فلقمته من الغد ، وكان لى فى أحلامى تلك الليلة شأن عجيب ، وكان له شأن أعجب : أما أنا فلا يعنى القراء شأنى وقصتى وأما هو . . . ؟

# القلب المسكين

٨

وأما هو فحدثني بهذا الحديث العجيب من لطائف إلهامه وفنه ، قال :  
انصرفت إلى داري وقد عزّ عليّ أن يكون هذا منها وأن يكون هذا مني ، وهي  
إن غابت أو حضرت فإنها لي كالشمس للدنيا : لا تظلم الدنيا في ناحيةٍ إلا من  
أنها تضيء في ناحية ؛ فظلمتها من عمل نورها ؛ وكانت ليلتي فارغة من النوم  
فبُتُ أتملُّ ، وجعل القلب يدقُّ في جنبيّ كأنه آله في سامة لا قلب لإنسان ؛  
وكان في الدنيا من حولي صمت كصمت الذي سكت بعد خطبة طويلة ، وفيّ  
أنا صمت آخر كصمت الذي سكت بعد سؤال لا جواب عليه ؛ وكان الهواء  
راكداً كالسكران الذي انطرح من ثقله السكر بعد أن هذى طويلاً وعزّبد ؛  
والوجود كله يبدو كالمحتق ، لأن معنى الاختناق في قلبي وأفكاري ؛ ونظرتُ نظرةً  
في النجوم فإذا هي تتغورُ نجمًا بعد نجم ، كأن معنى الرحيل انتشر في الأرض  
والسما إذ رحلت الحبيبة ؛ وكأن كل وجهٍ مضى يقول لي كلمة : لا تنتظر !  
فلما عسعس الليلُ رميت بنفسي فتمت والعقل يقظان ، وصنعت الأحلامُ  
ما تصنع ، فرأيتها هي في تلك الشُفوف التي ظهرت فيها عروساً ؛ وما أعجبَ  
كبرياء المرأة المحبوبة ! إنها لتبدول عيني محبها كالعارية وراء ستر رقيق يشفُ  
عنها كالضوء ، ثم تدلُّ بنفسها أن ترفع هذا الستر ، فإن لم يتجرأ هو لم تتجرأ  
هي ؛ وكأنها تقول له : قد رفعته بطريقتي فارفعه أنت بطريقتك ...

وكانت مصوَّرة في الحلمِ تصويراً آخر ؛ فلا ينسكب من جسمها معنى الحسن  
الذي أنامله وأعقله ، ولكن معنى السكر الذي يترك المرء بلا عقل ؛ ولم



تكن غلائلها عليها كالثياب على المرأة ، ولكنها ظهرت لى كاللون على الوردية الزاهية : تظهر فتنةً وتتم فتنة .

أيتها الأحلام ، ماذا تبدعين إلا مخلوقات الدم الإنسانى ، ماذا تبدعين ؟ قلت : يا صديق دع الآن هذه الفلسفة وخذ فى قصّ مارأيت ، ثم ماذا بعد الوردية ولون الوردية ؟

قال : إنه القلبُ المسكينُ دائماً ، إنه القلبُ المسكينُ ؛ لقد ضحكتُ لى وقالت : هأنذى قد جئت ! وأقبلتُ ترائينى بوجهها ، وتتغزل بعينها ، وتقهّد بصدرها ، وألقت يدها فى يدى ، فأحسست اليدين تتعانقان ولا تتصالحان ؛ ثم تركاهما نائمتين إحداهما على الأخرى ، وسكتنا هنيهةً وقد خيل إلينا أننا إذا تكلمنا استيقظت يدانا !

أما صاحبك أمراة تحبها وتحبك ؟ أما أحسست بيدها قد نامت فى يدك ولو لحظة ؟ أما رأيت بعينيك نعاس يدها وهو يفتقل إلى عينيها فإذا هما فارتان ذابلتان ، وتحت أجفانهما حلمٌ قصير ؟

قلت : يا صديق دع الفلسفة ؛ ثم كان ماذا بعد أن نامت يدُ على يد ؟ قال : ثم كانت سخرية من الشيطان أفبح سخرية قط .

قلت : حسبي لكأنك شرحت لى ما بقى ...

فضحك طويلاً وقال : إن الشيطان يسخر الآن منك أيضاً ، وكأنى به يقول لك : وكان ما كان مما لست أذكره ... أفندرى ما الذى كان وما بقية الخبر ؟

لقد كنتُ مولعاً بامتحان قوّتى فى الضغط يداى على أعواد منصوبة من الحديد ، أو على أيدي الرجال الأقوياء إذا سلمت عليهم<sup>(١)</sup> ؛ فلما صاحبتنى لبثت

(١) انظر ص ٢٧٤ - ٢٧٥ ، حياة الرافعى ،

مدة من الزمن ثم شددت على يدها قليلاً قليلاً ، فتذهبت في هذه العادة ،  
فمسخت الحلم وانصرف وهمي إلى أقبح صورة وأشنعها وأبعدها مما أنا فيه  
من الحب ولذات الحب : فإذا يازائي وجهه ، وجهه من ؟ وجهه مصارع ألماني  
كنت أعرفه من عشرين سنة وأضغط على يده ...



قلت : إنما هذه كبرياؤك أو عففتك تذهبت في تلك الشدة من يدك ،  
ولا يزال أمرك عجيباً ؛ فهل معك أنت ملائكة ومع الناس شياطين ؟  
قال : والذي هو أعجب أني رأيت في أضعاف أحلامي كأن قلبي  
المسكين يخاصمني وأخاصمه ؛ وقد خرج من أحناء الضلوع كأنه مخلوق من  
الظل يرى ولا يرى إذ لا شكل له ؛ وسبني وسببته ، وقلت له وقال لي ،  
وتغالطنا كأننا عدوان ؛ فهو يرى أني أنا أمنعه لذته ، وأرى أنه هو يمنعني ،  
وأنه أشنى بي على ما أشنى ؛ وقلت له فيما قلت : لا قراراً على جنايتك ، فاذهب  
عني ولا تقسم باسمي فإنه لا فلان لك (\*) بعد اليوم ؛ ولولا أنك مخذول  
في الحب لعلمت أن لمسة يد الرجل ليد المرأة الجميلة نوع مخفف من التقبيل ،  
فإذا هي تركته يرتفع في الدم انتهى يوماً إلى تقبيل فمه لفمها ؛ ولولا أنك  
مخذول في الحب لعلمت أن هذا الضم بين اليدين نوع مخفف من العناق ، فإذا  
هي تركته يشتد في الدم انتهى يوماً إلى ضم الصدر للصدر ؛ ولكذك مخذول  
في الحب ، ولكذك مخذول !

وقال لي فيما قال : وأنت أيها الخائب ؟ أما علمت أن أناملها الرخصة  
هي أناملها ، لا أعوادك من الحديد ؟ فكيف شددت عليها ويحك تلك الشدة  
التي أخرجت لك وجه المصارع ؟ ولكذك خائب في الحب ، ولكذك خائب !

---

(\*) ذكر اسمه ، كما تقول مثلاً : لا محمد لك .

قلت : فهذه قضيةٌ بيني وبينك أيها القلب العدو ؛ لقد تركتني من المهموم كالشجرة المنخرجة قد بليت وصارت فيها التخاريب ؛ فلا حياتها بالحياة ولا موتها بالموت ، وكم علقتني بفاتنة بعد فاتنة لا عنها إقصارٌ ينتهي ولا فيها مطمعٌ يبتدئ ؛ ما أنت في إلا وحشٌ أكبر لذته لقطع الدم !



واستدار الحلم فلم ألبث أن رأيتني في محكمة الجنايات ، وكأنني شكوت قلبي إليها فهو جالس في القفص الحديدي بين المجرمين ينتظر ما ينتظرون من الفصل في أمرهم ؛ وقد ارتفع المستشارون الثلاثة إلى منصة الحكم ، وجلس النائب العام في مجاسه يتولى إقامة الدعوى وبين يديه أوراقه ينظر فيها ، ورأيت منها غلافا كتب على ظاهره : قضية القلب المسكين .

وتكلم رئيس المحكمة أول من تكلم فقال : ليس في قضية القلب محام ، فابغوه من يدافع عنه ؛ ثم التفت إليه وقال : من عسى تختار للدفاع عنك ؟ قال القلب : أو هنا موضع للاختيار يا حضرة الرئيس ؟ إنه ليس تحت هذه - وأوماً إلى السماء - ولا فوق هذه - وأوماً إلى الأرض - إلا ... فبدر النائب العام وقال : إلا الحبيبة ؟ أ كذلك ؟ غير أنها أستاذة في الرقص لا في القانون !

- القلب : ولكنني لا أختار غيرها محكوماً لي أو محكوماً علي ؛ أنا أريد أن أنظر فيها وأنظروا أنتم في القضية ...

- الرئيس : فليكن ؛ فهذه جريمة عواطف إيذن لها أيها الآذن .

فنادى المحضر ( ) : الأستاذة ! الأستاذة !

وجاءت مبادرة ، ودخلت تمشي مشيتها وقد افترّ ثغرها عن النور الذي

يسطع في النفس ؛ وأَوَحَّضَتْ بوجهها يميناً وشمالاً ، فصرفت الناس جميعاً أبصارهم إليها وقد نظروا إلى فتنة من الفتن ؛ وثارَت في كل قلب نزعة ، وغلبت الحقيقة البشرية فانتقضت طباع الموجودين في قاعة الجلسة ، وأبطل قانون جمالها قانون المحكمة ، فوقعت الضجة وعلت الأصوات واختلطت ؛ وترددت بين جدران المكان صدى في صدى كأن الجدران تتكلم مع المتكلمين ؛ أصوات أصوات ؛ سبحان الله ! سبحان الله ! تبارك الله ! تبارك الله ! آه آه ! آه آه ! وسمع صوت يقول : إِيَّاهُمُونِي أَنَا أَيْضاً ... فَتَفَرَّتِ الْكَلِمَاتُ : وأنا ، وأنا ، وأنا ! واختفت المحكمة وانبعث المسرح بدخول فائزته الرافضة ؛ وكان المستشارون والنائب العام في أعين الناس كأنهم صور معلقة على الحائط : لا يخشاهما أحداً أن تنظر إلى ما يصنع !

فصاح الرئيس : هنا المحكمة ! هنا المحكمة ! سبحان الله ... المحكمة المحكمة ! - النائب العام : هذا بدءٌ لا ترضاه النيابة ولا تقبل أن تمسحب عليه ، نعم إن هذا الوجه الجميل أبرعُ محام في هذه القضية ، ونعم إن جسمها ... آه ماذا ؟ إنكم تأتون بالشهوة الغالبة القاهرة لتدافع عن المشتبهى ... عن المتهم ، هذا وضع كوضع العذر إلى جانب الذنب ، وكأنكم يا حضرات المستشارين ... فَبَدَرَتِ المحامية تقول في نغمة دلال وفتور : وكأنكم يا حضرات المستشارين قد نسيتُم أن النائب العام له قلب أيضاً ...

واشتدَّ ذلك على النائب ، وتبين الغضب في وجهه ؛ فقال : يا حضرة الرئيس ...

— الرئيس مبتسماً : واحدة بواحدة ، وأرجو ألا تكون لها ثانية ، ومعنى هذا كما هو ظاهر ألا تكون لها ثالثة ... (ضحك)

قال صاحب القلب المسكين : وكنتُ بلا قلب ... فلم ألتفت للجمال ، بل راعى ذكاء المحامية ونفاذها وحسن اهتدائها إلى الحجة في أول ضرباتها ، وتعجبت من ذلك أشد التعجب ، وأيقنت أن النائب العام سيقع في لسانها ، لا كما يقع مثله في لسان المحامى القدير ، ولكن كما يقع زوْج في لسان زوجة معشوقة متدلة تجادله بحجج كثيرة بعضُها الكلام ... وقلت في نفسى : يارحمة الله لا تجعلى من النساء الجميلات الفاتئات محاميات في هذه المحاكم ، فلو ألبسوهن لحى مستعارة لكان الصوت الرخيم وحده من تلك الأفواه الجميلة العذبة ، نداءً قانونياً للقبلات ...

ونفضت المحامية العجيبة فسلطت عيניה الساحرتين على النائب ، ثم قالت تخاطب المحكمة : قبل النظر فى هذه القضية قضية الحب والجمال ، قضية قلبى المسكين ... أريد أن أتعرف الرأى القانونى فى اعتبار الجريمة أهى شخصية ، فتقصر على صاحبها ؛ أو خاصة ، فتضر غير جانبيها ؛ أو عامة ، فيتناولها العموم المحدود لمن تجمعهم جامعة الحب ؛ أو هى أعم ، فيتناولها العموم المطلق للهئية الاجتماعية ؛ ماهى جريمة قلبى ... ؟

— الرئيس : مارأى النيابة ؟

النائب ضاحكا : ( غزالتها رايقة ) كما يقول الراقصات والممثلات ... أرى أنها جريمة آتية من ضرب الخاص فى العام . . ( ضحك )

المحامية : جواب بجواب القائل : حب أبى بكر : كان ذلك الرجل يحب زوجته الجميلة ويخافها ، وكانت تقسو عليه قسوة عظيمة وتغاظ له الكلام ، وهو يفرق منها ولا يخالفها : فرآها يوما وقد طابت نفسها ، فأراد أن يلتزم الفرصة ويشكو قسوتها ؛ فقال : يافلانة قد والله أحرق قلبى ... ولم تدعه يتم الكلمة ، فحددت نظرها إليه وقطبت وجهها وقالت : أحرق قلبك ماذا ؟ تخاف

ولم يقدر أن يقول لها سوء أخلاقك . فقال : حب أبى بكر الصديق رضى الله عنه : . ( ضحك ) ورنى ضحكة المحامية فاضطربت لها القلوب ، ووقعت فى كل دم ، وفى دم النائب أيضاً ؛ فأنخزل ولم يزد على أن يقول : أحتج من كل قلبى ...

الرئيس : لندخل فى الموضوع ولتكن المرافعة مطلقة ؛ فإن الحدود فى جرائم القلب تُسدل وتُرفع كهذه الستائر فى مسرح التمثيل . وعشرون ستارة قد تكون كلها لرواية واحدة

\*\*\*

— النائب العام : يا حضرات المستشارين ، لا يطول اتهامى ؛ فإن هذا القلب هو نفسه تمة متكلمة

المحامية : ولكنه قاب

النائب : وأنا يا سيدتى لم أحرف الكلمة ولم أقل إنه كلب . ( ضحك ) وتضرج وجه المحامية وخجبات (\*)

— الرئيس : الموضوع الموضوع

النائب : يا حضرات المستشارين ، إن ألم هذه الجريمة إما أن يكون فى شخص الجانى أو ماله ، أو صفته كأن يكون زوجاً مثلاً ، أو صيته الأدبى ؛ فأما الشخص فهذا ظاهر ، وأما المال فنعم إن القلب المسكين قرر لنفسه وإصاحبه ألا يبتاع أبداً تذكرة دخول إلى جهنم ... ( ضحك )

(\*) إذا كان كلباً فهو يتبع كلبة ... وهذه هى غمرة النائب المحامية ، ولا ينس القراء أن المحكمة فى الرؤيا ؛ وفى الرؤيا علمنا أن هذا النائب كأكثر شبان العصر فى هذه المدنية الفاسدة ، لا يتزوجون لأن المدنية جعلتهم بين الفتيان و أنصاف متزوجين ، على وزن و أنصاف عذارى ، بين الفتيات ... وفى الرؤيا علمنا أنه يخادن راقصة ، ويقال بمثلة - بينها وبين صاحب القلب المسكين منافسة ...

- المحامية : أستمع النائب عذراً إذا أنا ... إذا أنا فهمت من هذا التعبير أن حضرته يعرف على الأقل أين تباع هذه « التذاكر » ... ( ضحك ) وتفرج وجهُ النائب العام وخجل .

- الرئيس : كنت رجوت ألا تكون الأولى ثانية ، وقلت : إن معنى هذا كما هو ظاهر ألا يكون لها ثالثة ؛ فهل أنا محتاج إلى القول بأن المعنى المنطقي ألا يكون للثالثة رابعة ... ؟

- النائب : يا حضرات المستشارين ، وأما الصفة ، فهذا القلب المسكين قلبُ رجل متزوج ؛ ولا تغرنكم صوفيّةُ هذا القلب ، ولا يخدعنكم تأله وزعمه السمو . إنه على كل حال يعشق راقصة ، وهذا اعتداء في ضمنه اعتداء ، على الزواج وعلى الشرف ؛ وهبوه متصوفاً متألهاً ولم يتصل بالراقصة ، فهو على كل حال قد أخذها واتخذها ~~وا~~كن بأسلوبه الخاص ... وبهذا اقترف الجريمة ؛ آه ! إن هذه القضية ناقصة ؛ وذلك نقص فيها أخشى أن يكون نقصاً في الحكم أيضاً ، فأتموه أنتم . يا حضرات المستشارين ، إن النقص فيها أنها لا شهود فيها ؛ ولكن هذا عمل إلهي لا يظهر إلا يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون

- المحامية : هذا تعبير أكبر من قدرة قائله ومن منزلته ووظيفته ، هذا تعبير جسور ! يا حضرة النائب ، من الذي لا يحمل شهوداً في لسانه ويديه ورجليه ، بل ألف شاهد على ليلة واحدة ... يجب أن يكون مفهوماً بيننا يا حضرة النائب أن النون والباء في لفظة ( نائب ) غدير النون والباء في لفظة ( نبي )

- النائب : يا حضرات المستشارين . لا أرى مما يُخرجني في الاتهام أن أصرح لكم أن مما حيرني في هذه الجريمة أن ليس فيها من أوصاف الجرائم

إلا ثلم الكرامة ، فلا قذف ولا سب ولا هتك عرض ولا فجور ، ولا أصغر من ذلك ، ولا كأس خمر للاقصة ...

— المحامية : لأرى أمام حضرة النائب كأس ماء ، وسيجف حلقه في هذه القضية ؛ فلعل المحكمة تأمر لى بكأس ... ( ضحك )

— النائب : يا حضرات المستشارين ، يعشق راقصة ؛ اسم فاعل من رقص يرقص ؛ امرأة لا تلبس ثياباً ، بل عُرِيّاً في شكل ثياب ... امرأة لا كالنساء ، كذبها هو صدق من شفيتها ، لماذا ؟ لأنهما حراوان رقيقتان عذبتان محبوبتان مطلوبتان ...

المحامية : تضحك ...

— النائب بعد أن تتعنع : امرأة لا كالنساء ، جعلتها الحرفة امرأة في العمل ، ورجلا في الكسب ...

— المحامية : وليكنك لا تدري تحت أى حمل سقطت (\*) المسكينة ، وقد يكون في الرذائل رذائل كبعض أصحاب الألقاب : ذاتُ عظمة ...

— النائب : يحب راقصة ، أى يضنها في عقله الباطن ويشتهيها ؛ نعم يشتهيها ، فن عقله الباطن ، وبتعبير اللغة ، من واعيته - تخرج الجريمة أو على الأقل ، فكرة الجريمة

والصيت الأدبي يا حضرات المستشارين ؟ هل من كرامة لمن يعشق راقصة ؟ لا بل هل من كرامة في الحب ؟ ألم يقولوا إن كرامة الرجل تكون تحت قدمى المرأة المعشوقة كاللمسحة الخشنة تمسح فيها نعلها !

الحب ؟ ما هو الحب ؟ إنه ليس فكرة ، بل هو شيطان بتأبس لجسم العاشق ليعمل أعماله بأداة حية ، وهذا التركيب الحيوانى للإنسان هو الذى



يهي من الحب مداخل ومخارج للشياطين في جسمه ؛ وهل رضى صاحب القلب المسكين بجناية قلبه عليه ، وعظيم ما انتهك من أخلاقه السامية ؟ هل رضى بعشقه راقصة ؟ إنه لم يرض الرضى الصحيح ، أَوْ رَضِيَ بقدر ما ؛ فعلى كليهما يقوم في نفسه مانع ؛ والمانع من الرضى هو الموجب للعقوبة

— المحامية : ولكن قدراً من الرضى ينزل بالجناية فيردها إلى جنحة كما في القانون الانجليزي ، وقد قرر الشراح أنه ما دام الرضى غير مستلب بكله ، فالجريمة غير واقعة بكلها

— النائب : جنحة كل قلب هي جناية من هذا القلب بخصوصه ، على طريقة « حسنات الأبرار سيئات المقرّبين » ؛ والعبرة هنا بالواقع لا بالصفة القانونية ، وقد قرر الشراح أن الواقع قد يكون أحياناً سبباً في تشديد العقوبة ، فلا بد من تشديد العقوبة في هذه القضية . لا أطلب الحكم بالمادة ٢٣٠ عقوبات بل بالمواد من ٢٣٠ إلى ٢٤١ ضربة واحدة

— المحامية : قد نسيت أن هذا قلب وعقوبته عقوبة لصاحبه البريء

— النائب : إذن أطلب عقابه بحرمانه الجمال ؛ وهذا أشق عليه من العقاب

بائنتي عشرة مادة وبعشرين وثلاثين

الرئيس : وما هي الطريقة لتنفيذ الحكم بهذا الحرمان ؟

النائب : تأمر المحكمة بالمراقص كلها فتغلق ، وبالمسارح كلها فتقفّل ،

وبالسينما فنبطل إلا ما لا جمال فيه منها ولا غزل ولا حب ، ويحرم السفور على النساء إلا العجائز والدميمات ، ويمنع نشر صور الجمال في الصحف والكتب ، و ...

المحامية : قل في كلمة واحدة : يجب إصلاح العالم كله لإصلاح القاب الإنساني !



وجلس النائب ، فالتفت الرئيس إلى المحامية وقال لها : وأما هو ؟

# القلب المسكين

## تتمة

قال صاحب القلب المسكين : ووقفت المحاميةُ وكأنها بين الحراس تزدحم عليها من كل ناحية ، وقد ظهرت للوجودين ظهور الجبال للحب ، ونقلتهم في الزمن إلى مثل الساعة المصوّرة التي ينظر فيها الأطفالُ سماع القصة العجيبة ؛ ساعة فيها كلُّ صور اللذة للقلب .

وكانت تدافع بكلامها ووجهها يدافع عن كلامها ، فلو نطقت غيا أو رشداً فلهذا صوابٌ ولهذا صوابٌ ، لأن أحد الصوابين منظور بالآعين .  
كان صوتُ النائب العام كلاماً يُسمَعُ ويُفهم ؛ أما صوت المحامية الجميلة فكان يُسمع ويُفهم ويُحس ويُذاق ، تُلقيه هي من ناحية ما يُدرك ، وتلقاه النفس من ناحية ما يُعشق ؛ فهو متصل بحقيقتين من معناه ومعناها ، وهو كله حلاة لأنه من فمها الحلو .



وبدأت فتناولت من أشياءها مرآة صغيرة فنظرت فيها .

- النائب العام : ما هذا يا أستاذة ؟

- المحامية : إنكم تزعمون أن هذه الجريمة تأليف عيني ، فأنا أسأل عيني

قبل أن أتكلم !

- النائب : نعم يا سيدتي ؛ ولكني أرجو ألا تُدخل القضية في سر المرأة

وأخواتها... إن النيابة تخشى على اتهامها إذا تكلمت لغة الدفاع !

فضحكت المحامية ضحكة كانت أول البلاغة المؤثرة...

- النائب : من الوقار القانوني أن تكون المحامية الفتاة غير فتاة ولا جذابة أمام المحكمة .

- المحامية : تريد أن تجعلها عجوزاً بأمر النيابة ... ؟ (ضحك) .

- النائب : جمال حسناء ، في ظرف غانية ، في شمائل رافصة ، في حماسة

عاشقة ، في ذكاء محامية ، في قدرة حب - هذا كثير !

- المحامية : يا حضرات المستشارين ، لم تكن المرأة هفوة من طبيعة المرأة ،

ولكنها الكلمة الأولى في الدفاع ، كلمة كان الجواب عنها من النائب العام

أنه أفر بتأثير الجمال وخطره ، حتى لقد خشى على اتهامه إذا تكلمت له لغتي

- القضاة يتبسمون

- النائب : لم أزد على أن طلبت الوقار القانوني ، الوقار ، نعم الوقار ؛ فإن

المحامية أمام المحكمة ، هي متكلم لا متكلمة

- المحامية : متكلم بلحية مقدرة منع من ظهورها التعذر (ضحك)

كلا يا حضرة النائب : إن لهذه القضية قانوناً آخر تُنتزع منه شواهد

وأدلة : قانون سحر المرأة للرجل ، فلو اقتضاني الدفاع أن أرقص لرقصت ،

أو أغني لغنيت ، أو أثبت سحر الجمال لأثبتته أول شيء في النائب العام ...

- الرئيس : يا أستاذة !

- المحامية : لم أجاوز القانون ، فالنائب في جريمتنا هو خصم القضية ،

وهو أيضاً خصم الطبيعة النسوية

- النائب : لو حدث من هذا شيء لكان إيجاءً لعواطف المحكمة ...

فأنا أحتج !

- المحامية : أحتج ماشئت ، ففي قضايا الحب يكون العدل عدلين ؛ إذ كان

الاضطرار قد حكم بقانونه قبل أن تحكم أنت بقانونك

— النائب : هذه العقدة ليست عقدة في منديل ياسيدتى ، بل هى عقدة فى القانون

— المحامية : وهذه القضية ليست قضية إخلاء دار ياسيدى ، بل هى قضية إخلاء قلب !

— الرئيس : الموضوع ، الموضوع !

— المحامية : يا حضرات المستشارين ، إذا اتفق القصد الجنائى وجبت البراءة .

هذا مبدأ لاخلاف عليه ؛ فما هو الفعل الوجودى فى جريمة قلى المسكين ؟

— النائب : أوله حب راقصة

— المحامية : آه ! دائماً هذا الوصف ؟ هبوها فى معناها غير حذيرة بأن يعرفها

لأنه رجلٌ تقى ، أفليست فى حسنها جذيرة بأن يحبها لأنه رجلٌ شاعر ؟

احكموا يا حضرات القضاة ؛ هذه راقصة ترتزق وترتفق ، ومعنى ذلك أنها

رهنٌ بأسبابها ، ومعنى هذا أنها خاضعة للكلمة التى تدفع ... فلماذا لم ينلها

وهى متعرضة له ، وكلاهما من صاحبه على النهاية . وفى آخر أوصاف الشوق ؟

أليس هذا حقيقةً بإعجابكم القانونى كما هو جدير بإعجاب الدين والعقل ؟ وإن لم

يكن هذا الحب شهوةً فكر ، فما الذى يحول دونها وما يمنع أن يتزوجها ... ؟

— القضاة يتبسمون

— النائب : نسيّت المحامية أنها محامية وانتقلت إلى شخصيتها الواقعة على

النهاية وفى آخر أوصاف الشوق ... فأرجو أن ترجع إلى الموضوع ،

موضوع الراقصة

— المحامية : آه ! دائماً الراقصة ، من هى هذه المسكينة الأسيرة فى أيدي

الجوع والحاجة والاضطرار ؟ أليست مجموعة فضائل مقهورة ؟ أليست هى

الجامعة التى لاتجد من الماجرين إلا لحم الميتة ؟ نعم إنها زلت ، إنها سقطت ،

ولكن بماذا؟ بالفقر لا غير ، فقر الضمير والذمة في رجل فاسد خدعها وتركها ، وفقر العدل والرحمة في اجتماع فاسد خذلها وأهملها ! يا للرحمة لليتيمة من الأهل ، وأهلها موجودون ! والمنقطعة من الناس ، والناس حولها ! تقولون : يجب ولا يجب ، ثم تدعون الحياة الظلمة تعكس ماشاءت فتجعل مالا ينبغى هو الذى ينبغى ، وتقلب مايجب إلى مالا يجب ، فإذا ضاع من يضيع في هذا الاختلاط ، قائم له : شأنك بنفسك ، ونفستم أيديكم منه فأضعتموه مرة أخرى ، ويحكم يا قوم ! غيروا اتجاه الأسباب في هذا الاجتماع الفاسد ، تخرج لكم مستبآت أخرى غير فاسدة

تأتى المرأة من أعمال الرجل لامن أعمال نفسها ، فهى تابعة وتظهر كأنها متبوعة ؛ وذلك هو ظلم الطبيعة للمسكينة ؛ ومن كونها تظهر كأنها متبوعة ، يظلمها الاجتماع ظلماً آخر فيأخذها وحدها بالجريمة ، ويقال سافلة ، وساقطة ؛ وما جاءت إلا من سافل وساقط !

لماذا أوجبت الشريعة الرجم بالحجارة على الفاسق المُحصَن ؟ أهى تريد القتل والتعذيب والمثلة ؟ كلا ؛ فإن القتل ممكن بغير هذا وبأشد من هذا ، ولكنها الحكمة السامية العجيبة : إن هذا الفاسق هَدَمَ بيتاً فهو يُرجم بحجارته !

ما أجلك وأسماك يا شريعة الطبيعة ! كل الأحجار يجب أن تفتقم لحجر دار الأسرة إذا انهدم

تستسقطون المسكينة ، ولو ذكرتم آلامها لوجدتم في ألسنتكم كلمات الإصلاح والرحمة لا كلمات الذم والعار ؛ إنها تسعى برذيلتها إلى الرزق ؛ فهل معنى هذا إلا أنها تسعى إلى الرزق بأقوى قوتها ؟ نعم إن ذلك معنى الفجور ، ولكن أليس هو نفسه معنى القوت أيها الناس ؟

- الرئيس وهو يسمح عينيه : الموضوع الموضوع !

- المحامية : ما هو الفعل الوجودى فى جريمة قتل المسكين ؟ ما هو الواقع من جريمة يضرب صاحبها المثل بنفسه للشباب فى تسامى غريزته عن معناها إلى أظهر وأجمل من معناها ؟ لبئس القانون إن كان القانون يعاقب على أمر قد صار إلى عمل ديني من أعمال الفضيلة !

- النائب : ألا يخجل من شعوره بأنه يحب راقصة ؟

- المحامية : ومم يخجل ؟ أمن جمال شعوره أم من فن شعوره ؟ أيخجل من عظمة فى سمو فى كمال ؟ أيخجل البطل من أعمال الحرب وهى نفسها أعمال النصر والمجد ؟

أتأذنون يا حضرات المستشارين أن أصف لكم جمال صاحبه وأن أظهر شيئاً من سرقتها الذى هو سر البيان فى فنه ؟

- النائب : إنها تتماجن علينا يا حضرات المستشارين ، فالذى يحاكم على السكر لا يدخل المحكمة ومعه الزجاجة ...

- الرئيس : لا حاجة إلى هذا النوع من ترجمة الكلام إلى أعمال يا حضرة الأستاذة .

- المحامية : كثيراً ما تكون الألفاظ مترجمة خطأ بدييات المتكلمين بها أو المصغين إليها ؛ فكلمة الحب مثلاً قد تنتهى إلى فكر من الأفكار حاملة معنى الفجور ، وهى بعينها تبلغ إلى فكر آخر حاملة إلى سموه من سموها ؛ وعلى نحو من هذا يختلف معنى كلمة الحجاب عند الشرقيين والأوربيين ؛ فالأصل فى مدنية هؤلاء إباحة المعانى الخفيفة من العفة ... وإكرام المرأة إكرام مغازلة ... يقولون إن رقم الواحد غير رقم العشرة ، فيضعونه فى حياة المرأة ، فما أسرع ما يحىء « الصفر » فإذا هو العشرة بعينها !

أما الشرقيون فالأصل في مدنيّتهم التزام العفة وإقرار المرأة في حقيقتها ،  
لا جَرَم كان الحجاب هنا وهناك بالمعنيين المتناقضين : الاستبداد والعدل ،  
والقسوة والرحمة ، و ...

- النائب : وامرأة البيت وامرأة الشارع ...

- المحامية : وبصر القانون وعي القانون ...

— الرئيس : وحسن الأدب وسوء الأدب .... الموضوع الموضوع

— المحامية : لا والذي شرفكم بشرف الحكم يا حضرات المستشارين ؛

ما يرى القلب المسكين في حبيته إلا تعبير الجمال ، فهو يفهمها فهم التعبير ككل  
موضوعات الفن ، وما بينه وبينها إلا أن حقيقة الجمال تعرفت إليه فيها ، أن  
أحس الشاعر سرّاً من أسرار الطبيعة في منظر من مناظرها ، قلم أجرم  
وأثم ؟ ...

هذا قلبٌ ذو أفكار ، وسيله أن يعان على ما يتحقق به من هذا الفن .  
قد تقولون : إن في الطبيعة جمالا غير جمال المرأة فليأخذ من الطبيعة وليعط  
منها ؛ ولكن ما الذي يحيي الطبيعة إلا أخذها من القلب ؟ وما هي طريقة  
أخذها من القلب إلا بالحب ؟ وقد تقولون : إنه يتألم ويتعذب ؛ ولكن  
سلوه : أهو يتألم بإدراكه الألم في الحب ، أو بإدراكه قسوة الحقيقة وأسرار  
التعقيد في الخير والشر ؟ ...

إن شعراء القلوب لا يكونون دائماً إلا في أحد الطرفين : هم أكبر من  
الهم ، وفرح أكثر من الفرح ؛ فإذا عشقوا تجاوزوا موضع الوسط الذي  
لا يكون الحب المعتدل إلا فيه ؛ ومن هذا فليس لهم آلام معتدلة ولا  
أفراح معتدلة

هذا قلب مختار من القدرة الموحية إليه ، فالتى يحبها لا تكون إلا مختارة

من هذه القدرة اختيار ملك الوحي ، وهما بهذا قوتان في يد الجمال لإبداع أثر عظيم ملء قدرتين كلتاها عظيمة...

فإن قلتم إن حب هذا القلب جريمة على نفسه ، قالت الحقيقة الفنية : بل امتناع هذه الجريمة جريمة

إن خمسين وخمسين تأتي منهما مائة ؛ فهذا بديهي ؛ ولكنه ليس أبين ولا أظهر ولا أوضح من قولنا : إن هذا العاشق وهذه المعشوقة يأتي منهما فن



قال صاحب القلب المسكين : وانصرف القضاة إلى غرفتهم ليتداولوا الرأي فيما يحكمون به ، وأومأت لي المحامية الجميلة تدعوني إليها ، فنهضت أقوم فإذا أنا جالس وقد انتبهت من النوم



جائزة : (١) لمن يحسن كتابة الحكم في هذه القضية خمس نسخ من كتاب ( وحي القلم ) ، وترسل المقالات ( باسمنا إلى ططا ) ، والموعد ( إلى آخر شهر يناير هذا ) والشرط رضى المحكمين ، ومنهم صاحب القلب المسكين وصاحبه ...

---

(١) قلت : وردت إلى المؤلف مئات الرسائل بحكم أصحابها في قضية ( القلب المسكين ) ، ولكن مسابقة الحكم في هذه القضية لم يفصل فيها ، لأن قاضيهما الأول ومتهما الأول قد غاله الموت قبل أن يرى رأيه ويحكم حكمه !



## انتصار الحب<sup>(٥)</sup>

كل ما يكتب عن حبيبين لا يفهم منه بعض ما يفهم من رؤية وجه أحدهما  
ينظر إلى وجه الآخر

وما تعرفه العين من العين لا تعرفه بالفاظ ، ولكن بأسرار ...  
والغليل المتسعر في دم العاشق كجنون المجنون : يختص برأسه وحده  
وضمة الحب لحبيبه إحساس لا يستعار من صدر آخر ، كما لا يستعار  
المولود لبطن لم يحمله

وكلمة القبلية التي معناها وضع الفم ، لن ينتقل إليها ما تذوقه الشفتان !

\*\*\*

ويوم الحب يوم ممدود ، لا ينتهي في الزمن إلا إذا بدأ يوم السلو  
في الزمن ...

فهل يستطيع الخلق أن يصنعوا حداً يفصل بين وقتين لينتهى  
أحدهما ... ؟

ومبهم صنعوا السلوان من مادة النصيحة والمنفعة ، ومن ألف  
برهان وبرهان ، فكيف لهم بالمستحيل ، وكيف لهم بوضع السلوان في  
القلب العاشق ؟

---

(٥) شغلنا مقالات ( القلب المسكين ) عن الكتابة في حادثة ( القلب المسكين  
الاعظم ) ، قلب الملك إدوارد عندما وقعت الحادثة  
قلت : وحادثة تخلى الملك إدوارد عن عرش الامبراطورية البريطانية في سنة ١٩٣٦  
من أجل امرأة - ذاتة مشهورة

وإذا سألت النفس من رقة الحب ، فبأى مادة تُصنع فيها صلابةُ  
الحجر ؟ ...

\*\*\*

وما هو الحب إلا إظهارُ الجسم الجميل حاملا للجسم الآخر كلَّ أسرار ،  
يفهمها وحده فيه وحده ؟

وما هو الحب إلا تعلق النفس بالنفس التي لا يملؤها غيرها بالإحساس ؟  
وما هو الحب إلا إشراق النور الذي فيه قوة الحياة ، كنور الشمس من  
الشمس وحدها ؟

وهل في ذهب الدنيا وملك الدنيا ما يشتري الأسرار ، والإحساس ، وذلك  
النور الحى ؟ ...

فما هو الحب إلا أنه هو الحب ؟

\*\*\*

ما هو هذا السرُّ في الجمال المعشوق ، إلا أن عاشقه يدركه كأنه  
عقلٌ للعقل ؟

وما هو هذا الإدراكُ إلا احصار الشعور في جمال متساطٍ كأنه  
قلبٌ للقلب ؟ .

وما هو الجمالُ المتسلطُ بإنسان على إنسان ، إلا ظهور المحبوب كأنه  
روحٌ للروح ؟

ولكن ما هو السرُّ في حب المحبوب دون سواه ؟ ... هنا تقف المسألة  
وينقطع الجواب .

هنا سرٌّ خفي كسر الوحدة ، لأنها وحدانية (أنا رأنت )

\*\*\*

ناقشوا الحب ؛ فقالوا أصبحت الدنيا دنيا المادة ، والروحانية اليوم  
كالعظام الهريئة لا تسكتسى اللحم العاشق  
وقال الحب : لا بل المادة لا قيمة لها في الروح ؛ وهذا القلب ان يتحول  
إلى يد ولا إلى رجل  
ناقشوا الحب ؛ فقالوا إن العصر عصر الآلات ، والعمل الروحي لا وجود  
له في الآلة ولا مع الآلة  
قال الحب : لا ، يصنع الإنسان ماشاء ، ويبقى القلب دائماً كما  
صنعه الخالق ...  
وقالوا : الضعيفان : الحب والدين ، والقويان : المال والجاء ؛ فبماذا  
رد الحب ؟ ...



جاء باؤاوة روحانية في ( مسز سمبسون ) ؛ ووضع إليها في ميزان المال  
والجاء أعظم تاج في العالم : تاج إدوارد الثامن « ملك بريطانيا العظمى  
وإرلندا والممتلكات البريطانية فيما وراء البحار وملك - إمبراطور الهند »  
وتنافست الروحانية والمادية ، فرجع التاج وما فيه إلا أضعف المعنيين  
من القلب  
وأعلن الحب عن نفسه بأحدث اختراع في الإعلان ، فhez العالم كله  
هزة صحافية :

الحب . الحب . الحب



( مسز سمبسون ) ، تلك الجميلة بنصف جمال ، المطلقة مرتين . هذا هو  
اختيار الحب !

ولكنها المعشوقة ؛ وكل معشوقة هي عذراءٌ لحبيبها ولو تزوجت مرتين ؛  
هذا هو سحر الحب !

ولكنها الفاتنة كلَّ الفتنة ، والظريفة كلَّ الظرف ، والمرأة كل المرأة ؛  
هذا هو فعل الحب !

ولكنها العقل للأعصاب المجنونة ، والآنس للقلب المستوحش ، والنور في  
ظلمة الكآبة ؛ هذا هو حكم الحب !

ومن أجلها يقول ملك إنجلترا للعالم : « لا أستطيع أن أعيش بدون المرأة التي  
أحبها » ؛ فهذا هو إعلان الحب ...

\*\*\*

إذا أخذوها عنه أخذوها من دمه ، فذلك معنى من الذبح .

وإذا انتزعوها انتزعوها من نفسه ، فذلك معنى من القتل

وهل في غيرها هي روحُ اللهفة التي في قلبه ، فيكون المذهب إلى غيرها ؟

لكأنهم يسألونه أن يموت موتاً فيه حياة

وكأنهم يريدون منه أن يُجنَّ جنوناً بعقل ... هذا هو جبروت الحب !

\*\*\*

وللسياسة حجج ، وعند (مسز سمبسون) حجج ، وعند الهوى ...

التاج ، الملكية ، امرأة مطلقة ، امرأة من الشعب ؛ فهذا ما تقوله السياسة

ولكنها امرأة قلبه ، تزوجت مرتين ليكون له فيها إمتاع ثلاث زوجات ؛

وهذا ما يقوله الحب !

واللحظة الناعسة ، والابتسامة النائمة ، والاشارة الحاملة ، وكلمة (سيدى) (\*) ؛

---

(\*) لا تخاطب (مسز سمبسون) إدوارد إلا بكلمة (سيدى) ، ولا تتحدث عنه ولا تسميه إلا قالت ( سيدى ) . وإن يأمر الحب أمره بأبلغ ولا أرق من كلمة العبودية =

هذا ما يقوله الجمال

وانتصر الحب على السياسة ، وأبى الملك أن يكون كالأم الأرملة في ملك  
أولادها الكبار ...

\*\*\*

العرش يقبل رجلاً خلفاً من رجل ، فيكون الثاني كالأول  
والحب لا يقبل امرأة خلفاً من امرأة ، فلن تكون الثانية كالأولى  
وطارت في العالم هذه الرسالة : « أنا إدوارد الثامن ... أتخلي عن العرش  
وذريتي من بعدى » !  
« وأعلن الحب عن نفسه بأحدث اختراع في الإعلان : فhez العالم كله  
هزة صحافية . »

الحب . الحب . الحب

---

== اللطيفة هذه حين تنطق بها المرأة في صوت قلبها وغريزتها : وقد كان هذا أدب نساء  
الشرق مع أزواجهن ، أما اليوم ...

## قنبلة بالبارود

لا بالماء المقطر<sup>(٥)</sup>...

حياكم الله يا شباب الجامعة المصرية ؛ لقد كتبتكم الكلمات التي تصرخ منها الشياطين...

كلمات لو انتسبن لانتسبت كل واحدة منهن إلى آية مما نزل به الوحي في كتاب الله .

فطلبُ تعليم الدين لشباب الجامعة ينتمى إلى هذه الآية : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس » .

وطلبُ الفصل بين الشبان والفتيات يرجع إلى هذه الآية : « ذلك أظهر لقلوبكم وقلوبهن »

وطلب إيجاد المثل الأخلاقي لهذه الأمة من شبابها المتعلم هو معنى الآية : « هذا بصائر للناس وهدى ورحمة »

---

(٥) رفع طلبة الكليات في الجامعة المصرية إلى مديرها وعمدائها وأساتذتها - طلبا ينامسون فيه - لإدخال التعليم الديني في الجامعة والفصل بين الشبان والفتيات ، إذ « لا إصلاح إلا بعد إصلاح روح الشباب الناهض ، حتى يكون له من قوة روحه وسمو أخلاقه سلاح يحارب به الرذيلة وينصر به الفضيلة » . قالوا : « ولا شك أن الأمة بأسرها قد أحست بنقص الناحية الدينية في المجتمع المصري ، ونقص أخلاق الفرد ووطنيته تباعا ،

قلت : وكان ذلك في مارس سنة ١٩٣٧

— قوة الأخلاق يا شباب ، قوة الأخلاق ، إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا

\*\*\*

حياكم الله يا شباب الجامعة ؛ لقد كتبتم الكلمات التي يصفق لها العالم الإسلامي كله

كلمات ليس فيها شيء جديد على الإسلام ، ولكن كل جديد على المسلمين لا يوجد إلا فيها

كلمات القوة الروحية التي تريد أن تقود التاريخ مرة أخرى بقوى النصر لا بعوامل الهزيمة

كلمات الشباب الطاهر الذي هو حركة الرقي في الأمة كلها، فسيكون منها المحرك للأمة كلها

كلمات ليست قوانين ، ولكنها ستكون هي السبب في إصلاح القوانين  
قوة الأخلاق يا شباب ، قوة الأخلاق ؛ إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا ...

\*\*\*

يريد الشباب مع حقيقة العلم حقيقة الدين ، فإن العلم لا يعلم الصبر ولا الصدق ولا الذمة

يريدون قوة النفس مع قوة العقل ، فإن القانون الأدبي في الشعب لا يضعه العقل وحده ولا ينفذه وحده

يريدون قوة العقيدة ، حتى إذا لم ينفعهم في بعض شدائد الحياة ما تعلموه نفعهم ما اعتقدوه

يريدون السمو الديني ، لأن فكرة إدراك الشهوات بمعناها هي فكرة إدراك الواجبات بغير معناها

يريدون الشباب السامى الطاهر من الجفسين ، كى تولد الامة الجديد  
سامية طاهرة

قوة الاخلاق يا شباب ، قوة الاخلاق ؛ إن الخطوة المتقدمة تبدأ  
من هنا ...

\*\*\*

أحس الشباب أنهم يفقدون من قوة المناعة الروحية بقدر ما أهملوا  
من الدين

وماهى الفضائل إلا قوة المناعة من أضرارها ؟ فالصدق مناعة من الكذب  
والشرف مناعة من الخسة

والشبابُ المثلث بفروض القوة هو القوة نفسها ؛ وهل الدين إلا فروضُ  
القوة على النفس ؟

وشبابُ الشهوات شباب مفلس من رأس ماله الاجتماعى ، ينفق دائماً ولا  
يكسب أبداً !

والمدارس تخرج شبانها إلى الحياة ، فتسألهم الحياة : ماذا تعودتم  
لأماذا تعلمتم !

قوة الاخلاق يا شباب ، قوة الاخلاق ؛ إن الخطوة المتقدمة تبدأ  
من هنا .

\*\*\*

وأحسَّ الشبابُ معنى كثرة الفتيات فى الجامعة ، وأدركوا معنى هذه الرقة  
التي خلقتها الحكمة الخالقة

والمرأة أداة استمالة بالطبيعة ، تعمل بغير إرادة ما تعمله بالإرادة ، لأن  
رؤيتها أول عملها



نعم إن المغناطيس لا يتحرك حين يجذب ، ولكن الحديد يتحرك له  
حين يجذب !

ومتى فهم أحدَ الجُنسَيْنِ الجنس الآخر ، فهمه بإدراكين لا بإدراك واحد !  
وجمالُ المرأة إذا انتهى إلى قلب الرجل ، وجمالُ الرجل إذا استقر في  
قلب المرأة ...

... هما حينئذ معنيان . ولكنهما على رغم أنف العلم معنيان متزوجان ...



لا ، لا ؛ يا رجال الجامعة ، إن كان هناك شيء اسمه حرية الفكر فليس  
هناك شيء اسمه حرية الأخلاق

وتقولون : أوربا وتقليد أوربا ! ونحن نريد الشباب الذين يعملون  
لإستقلالنا لا لخضوعنا لأوربا

وتقولون : إن الجامعات ليست محل الدين ، ومن الذى يجهل أنها بهذا  
صارت محلا لفوضى الأخلاق

وتزعمون أن الشباب تعلموا ما يكفي من الدين فى المدارس الابتدائية  
والثانوية فلا حاجة اليه فى الجامعة ،

أَقْرُون الإسلام دروساً ابتدائية وثانوية فقط ؛ أم تريدونه شجرة تُغرس  
هناك لتُقلع عندهم ...

لا ، لا ؛ يا رجال الجامعة ، إن قنبلة الشباب المجاهد مُملأ بالبارود  
لا بالماء المقطر

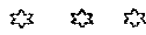


إن الشباب مخلوقون لغير زمنكم ، فلا تفسدوا عليهم الحاسة الاجتماعية  
التي يحسُّون بها زمنهم

لا تجعلوهم عبيد آرائكم وهم شبابُ الاستقلال ؛ إنهم تلاميذك ولاكنهم أيضاً  
أساتذة الأمة

لقد تكلم بأساتكم هذا البناء الصغير الذى يسمى الجامعة ، وتكلم بأساتكم  
هذا البناء الكبير الذى يسمى الوطن  
أما بناؤكم فمحدود بالآراء والأحلام والأفكار ، وأما الوطن فمحدود بالمطامع  
والحوادث والحقائق

لا ، لا ؛ إن المسلمين الذين هَدَّوا العالم ، قد هَدَّوه بالروح الدينية التى  
كانوا يعملون بها لا بأحلام الفلاسفة  
لا ، لا ؛ إن الفضيلة فطرة لا علم ، وطبيعة لا قانون ، وعقيدة لا فكرة ؛  
وأساسها أخلاق الدين لا آراء الكتب



مَنْ هذا المتكلم يقول للأمة : « الجامعيون لن يقبلوا أن يدخل أحد في  
شئونهم مهما يكن أمره » ؟

أهـذا صوتُ جرس المدرسة لأطفال المدرسة رِرن رِرن ...  
فيجتمعون وينصاعون ؟

كلا يارجل ! ليس في الجامعة قالب يُصب فيه المسلمون على قياسك  
الذى تريد .

إن التعليم في الجامعة بغير دين يعصم الشخصية ، هو تعليم الرذيلة  
تعليمها العالى ...

« ويستنبئونك أحق هو ؟ قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين »  
قوة الأخلاق يا شباب ، قوة الأخلاق ... ؛ إن الخطوة المتقدمة تبدأ  
من هنا .

## شيطان وشيطانة...<sup>(١)</sup>

شَغَلَنِي مَا شَغَلَ النَّاسَ مِنْ حَدِيثِ الْجَامِعَةِ الْمِصْرِيَّةِ وَمَا أَرَادَهُ طَلِبَتُهَا مِنْ وَرَعٍ يَحْجِزُهُمْ عَنْ مُحَارِمِ اللَّهِ ، وَدِينٍ يَخْلُصُ بِهِ الْإِيمَانُ إِلَى قُلُوبِهِمْ ، فَلَا يَكُونُ لَفْظُ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ كَأَنَّهُ مَكْتُوبٌ عَلَى وَرَقَةٍ ؛ نَمَّ مَا ابْتَغَوْهُ مِنَ الْفَصْلِ بَيْنَ الشَّبَابِ وَالْفَتَيَاتِ ، تَطْهِيرًا لِلطَّبَاعِ وَنَوَازِعِ النَّفْسِ ، وَاتَّقَاءً لِسُوءِ الْمُخَالَطَةِ ، وَبُعْدًا عَنْ مَظِيَّةِ الْإِثْمِ ، وَتَوْفِيرًا لِأَسْبَابِ الرِّجُولَةِ عَلَى الرَّجُلِ وَلِصِفَاتِ الْأُنُوَّةِ عَلَى الْأُنْثَى

وَقَرَأْتُ كُلَّ مَا نَشَرَتْهُ الصَّحُفُ ، وَاسْتَقْصَيْتُ وَبَالَغْتُ ، وَنَظَرْتُ فِي الْأَلْفَاظِ وَمَعَانِيهَا وَمَعَانِي مَعَانِيهَا ؛ وَكُنْتُ قَبْلَ ذَلِكَ أَتَقَبَّعُ بِأَب « فُلَانٌ وَفُلَانَةٌ » فِي الْمَجَلَّاتِ الْأَسْبُوعِيَّةِ الَّتِي تَكْتُبُ عَنْ حَوَادِثِ الْإِخْتِلَاطِ فِي الْجَامِعَةِ وَتَسْمِي الْأَسْمَاءِ وَتَصِفُ الْأَوْصَافِ وَتَذَكُرُ النُّوَادِرَ ؛ فَمَلَأْتُ كُلَّ ذَلِكَ صَدْرِي وَاجْتَمَعَ الْكَلَامُ يَتَرَجَّمُ نَفْسَهُ إِلَى فِي رُؤْيَا رَأْيَيْهَا وَهَذَا أَقْصَاهَا :

رَأَيْتُنِي عِنْدَ بَابِ الْجَامِعَةِ وَكَأَنِّي ذَاهِبٌ لِأَقْطَعُ بِالْيَقِينِ عَلَى الظَّنِّ ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الظَّنَّ يَقُومُ فِي حِكْمَةِ التَّشْرِيعِ مَقَامَ الْحَقِيقَةِ ، لِحَفَائِثِهَا وَكَثْرَةِ وُجُودِهَا ؛ فَإِنْ كَانَ فِي إِخْتِلَاطِ الْجَنَسَيْنِ مَا يُخْشَى أَنْ يَقَعَ فَهُوَ كَالْوَاقِعِ ...

---

(١) لما كتب المؤلف ( رحمه الله ) مقاله السابق في تحية شباب الجامعة ، راح يتتبع ما تنشر الصحف من حديث ( فلان وفلانة ) في مناهضة دعوة الطلاب ؛ فوقع له من حديثهما ما أوحى إليه موضوع هذا المقال ، فكتبه يعرض بفلان وفلانة ويروي من خبرهما ويردده عليهما ، وبعث به إلى الرسالة ، ولكن صاحب الرسالة أبى عليه نشره ، حفاظاً على ما بينه وبين فلان من صلات الود ، وبقي المقال في مكتب المؤلف حتى غالته ميتته !

... ثم رأيت شيطانة قد خرجت من الجامعة ومضت تتبع أنفها تتشمم الهواء وتستروحه كأن فيه شيئاً ، حتى مالت إلى خمر هناك (\*) من ذلك الشجر الملتف عن يمين الطريق ، فوقفت عنده تنفّس وتنهّد ؛ ثم تبصّرت فإذا شيطانٌ مقبل إلى الجامعة إقبال المغير في غارته ، فأومأت له ، فعدل إليها وحيّاها بتحية الشياطين ، ثم قال لها : ماوقوك هنا أيتها الخبيثة ؟ وكيف تركتِ صاحبك التي أنتِ موكّلة بها ؟ وما عسى أن يعمل الشيطان بين الجنسيتين إذالم توازره الشيطانة ؟

قالت : إنما اجتذبتني إلى هنا رائحة عاشقين كانا في هذا الظلّ يواريهما عن الأعين ، وما أراك إلا مزكوما ، أفكنت في الأزهر ... ؟

فجعل الشيطان يتضحك وقال : أنا مرسلٌ من مستشفى المجانين مدداً لشياطين الجامعة ؛ فقد احتاجوا إلى النجدة ... ولكن أنتِ كيف تركتِ صاحبك من أجل رائحة قُبلة على خمسمائة متر ؟ ما أحسبها الآن إلا جالسة تكتب في منع اختلاط الجنسيتين ووجوب إدخال التعليم الديني في الجامعة !

قالت الشيطانة : إن صاحبتى لأبرع مني في البراعة ، وأدق في الحيلة ، وأهدى للمعاذير ، وأنفذ إلى الغرض ، ومثلها قليلٌ هنا ، ولكن قليل الشر ليس قليلاً ، فإنه وُصّلةٌ وطريق كما تعلم ؛ وما تجد الفتاة خيراً من هذا المكان ينفي عنها الريبة وهو يُدنيها منها بهذا الاختلاط مع الفتیان ، ويهيئ لعقلها أسباباً تكون فيها أسبابٌ قلبها ؛ وقد كنت أنتِ في أوروبا ، أفأ رأيت هناك شاباً وشابة حول كتاب علم وكأنهما على زجاجة خمر ؟

إن هذا العلم شيء ومخالطة الشبان شيء آخر ؛ فذلك يطاق فكراً يتجاوز الحدرد ، والاختلاط يجعل فكراً يحصرها في حدود إحساسها ؛ وأحدهما

---

(\*) الخمر (بفتح الميم) : ماواراك من شجر وغيره

يرهف ذهنها لإدراك الأشياء ، والآخر يرهف عواطفها لإدراك الرجل ؛ وقد فرغ الله من خلقة الأثني فلما تُخْلَقُ هنا مرة أخرى على غير الطبيعة المفطورة على الحب في صورة من صورهِ الممكنة ، والصورة هي الشابُّ هنا مادام الشاب هنا ؛ وأنا الشيطانة قد تعلمتُ في الجامعة أن قاعدة : « لآحياء في العلم » ، هي التي تقرر في بعض الأحيان قاعدة : « لآحياء في الحب »

قال الشيطان : أنت أدري بسلطان الطبيعة في المرأة ، ولكن الذي أعرفه أنا أن مفاسد أوربا تدخل إلى الشرق في أشياء كثيرة ، منها الخمر والنساء والعادات والقوانين والكتب ونظام المدارس

قالت الشيطانة : وإن سلطان الطبيعة في المرأة يبحث دائماً عن رعيته مالم يُكَبَّح ويُرَدَّ عن البحث : إذ هو لا يتحقق أنه سلطان إلا بنفاذ حكمه وجواز أمره ؛ ومن رعيته نظراتُ الإعجاب ، وكلماتُ الثناء ، وعبارات الإغراء ، وعواطف الميل ، ومعاني الخضوع ؛ ورُبَّ كلمة من الرجل للمرأة لا يكون فيها شيء ويكون الرجلُ كُلُّهُ فيها ذاهباً إلى قلبها متدسِّساً إلى خيالها ؛ وكم من أُمٍّ ترى ابنتها راجعةً إلى الدار وتحسُّ بالغريزة النسوية أن مع ابنتها خيالاً من الجنس الآخر

وممَّ يذبعث الحبُّ إلا من الألفة والمخالطة والمجازبة والمنازعة التي يسمونها هنا منافسةً بين الجنسَيْن ويعُدُّونها حسنةً من حسنات الاختلاط ؟ نعم إنها مَسْحَذَةٌ للأذهان وداعيةٌ إلى بلوغ الغاية من الاجتهاد ، وبها يرقُّ اللسان وتنحل عقده ، ويصبح الشاب كما يقولون : « ابن نكتة ويفهم الطاير .. » وتعود الفتاة وهي تجتهد أن تكون حلاوةً تَذُوقُها الروح ؛ ولكن الأعمال بالنيات والأمور بخواتيمها ؛ والطبيعة نفسها توازن العقل العليَّ بالجهل الخلق ، ولعل أكثر الناس فنوناً في فسقه وفجوره لا يكون إلا علماء من

أهل الفن أو زنديقاً من أهل العلم ، ولا يصحح هذه الموازنة إلا الدين ، فهو الذى يقرر القواعد الثابتة فى كلنا الناحيتين ، وهذا ما يطلبه المجانين من شبان هذه الجامعة ويوشك أن يظفروا به ، لولا أن هذه الأمة مبتلاة فى كل حادثة من دينها بإجالة رأى حتى يضيع الرأى

اسمع ويحك هذا الفتى الذى يقرأ ... ما لقى الشيطانُ سمعه فإذا طالب يقرأ على جماعة كلاماً فى صحيفة لإحدى خريجات الجامعة تقول فيه : « ولهذا أصرّح أن تجربة اشتراك الجاسين فى الجامعة نجحت إلى أبعد غاية ؛ ولم يحدث خلالها قط ما يدعو إلى قلق القلقين والمناداة بالفصل ؛ بل بالعكس حدث ما يدعو إلى تشجيع الأخذ بالتجربة أكثر مما هى عليه اليوم »

فقهقه الشيطان وقال : « قلق القلقين » ... ما رأيتُ كلاماً أغاظ ولا أجنى من هذا ؛ إنها لو دافعت عن الشيطان بهذه القافات لخسر القضية ... ثم إنه لهز الشيطانة لهزة وقال لها : كذبتِ على أيتها الخبيثة ، فما لك عمل فى الجامعة وأنت تخرجين لرائحة قبلة بين عاشقين على مسافة خمسمائة متر ؛ إن هذه القافات لهى الدليل أقوى الدليل على أن الفتاة هنا تُنظر فتاة حين تُرى ، ولكنها تُسمع رجلاً حين تتكلم !

قالت الشيطانة : ولكن ألم تسمع قولها : « تشجيع التجربة أكثر مما هى عليه اليوم » ... ؟ ألا يرضيك هذا الذى لا بد أن يدعو « إلى قلق القلقين » ؟ ثم إنى أنا فلانة الشيطانة قد كنت السبب فى حادثة وقعت وطردها فيها طالب من الجامعة ، أفلا يرضيك الإغراء والكذب فى بضع كلمات ؟

قال الشيطان : كل الرضى ، فهذا فن آخر ؛ والعلم الذى ينسكرك حادثة وقعت من تلميذه ولا يقر بأنها وقعت ، لا يكون إنكاره إلا إجازة لوقوع مثله !

قالت الشيطانة : وَهَبِ الحادثة لم تقع ، فكيف تعرف الجامعة ما يحدث في القلوب ؟ وَمَنْ هَذَا الذى يستطيع أن يقرأ قصة توافها أربع أعين في وجهين ؟ وكيف تُتكشف الحقيقةُ التى أولُ وجودها كتمانُ الكلام عنها ، وأولُ الكلام عنها الهمسُ بين اثنين دون غيرهما ؟ وَمَنْ ذا الذى فى طاقته أن يمدَّ يده إلى قلبين أصبحا فى تلقى الرسائل كصندوقى البريد ... ؟  
اسمع اسمع هذا الآخر ... فاسترقَّ الشيطانُ السمعَ فإذا طالبٌ يقرأ فى صحيفة أخرى على جماعته :

« والذين يزعمون أن الاتصال بين الطالبات والطلبة خطر ، إنما يسيثون إلى أخلاقكم ... والحق أيها الأصدقاء أن الذى حملنى على أن أغضب وأثور إنما هو الدفاع عن الكرامة الجامعية ،

قال الشيطان : كلَّ الرضا كل الرضا ... هَذَا كلام داهية أريب ، فلقد أحسن قائله الله ! إنها عبارات جامعية محكمة السبك تقوم على أصولها من فن السياسة الخطائية ؛ وكل من أظنَّوه بتهمة فلا يستطيع أن يُمخِّرقَ على الناس بأحسن من هذا ولا بمثل هذا .

وليس لنا أقوى من هذا الطبع القوى الذى يشعر بالمقص فلا همَّ له إلا إثبات ذاته فى كل ما يجادل فيه دون إثبات الصواب ولو كان الناس جميعاً فى هذا الجانب وكان هو وحده فى جانب الخطأ .

ولكن أفأما ماذا صنع هذا القائل ؟ وأين التهمة التى لا تبدل اسمها فى اللغة ؟ وأين الذنب الذى يَرْضَى أن توضع اليدُ عليه ؟ وهل إنكار المذنب إلا احتجاج من كرامته الزائفة وإظهار الغضب فى بعض ألفاظ ... ؟

إن هذا كغيره من الضعفاء حين يُمارون : ألا ما أكذب الكذب هنا ! فإن الفساد ليقع من اختلاط الجنسيتين فى الجامعات الأوروبية ثم لا يعد ذلك ( ١٣ ح ٣ وحى القلم )

عندهم إساءة إلى الأخلاق ، ولا غضا من الكرامة الجامعية ؛ وفي فرنسا يجتمع الشبان والفتيات من طلبة الجامعة ويحتسون الخمر ويتراقصون ويتواعدون ثم لا تقول لهم الأخلاق : أين أنتم ... ؟ وهناك في الأندية الخاصة بالطلبة ينتخبون ملكة الجمال من بين الطالبات كل سنة ، ثم ينزعون بأيديهم ثيابها التي تسمى ثيابا ، ويطوفون بها غرف النادي كعروس واحدة مجلوة على مائة زوج في المعنى ، « وبلُسوار » أيتها الكرامة الجامعية ...

والاختلاط هناك يقرب أن يكون ضربا من المذاهب الاشتراكية ، وكل ما بقي عندهم من لغة الحياء هو أن يتلطفوا فيقولوا : إن هذه الطالبة صديقة فلان الطالب ؛ يعبرون بلفظ الصداقة عن أول المعنى ويدعون سائر أحواله ؛ إذ لا يبالي أمرهما أحدا من الطلبة ولا من الاستاذين ... وهناك يُعْتَذَر للشباب في مثل هذا بأنه شاب ، فتقوم كلمة الشباب في العرف بمعنى كلمة الضرورة في الشرع !

وهم قد عرفوا أن الجامعة لحرية الفكر ، ومن حرية الفكر حرية النزعة ، ومن هذه حرية الميل الشخصي ، ومن حرية الميل حرية الحب ؛ وهل يعرف الحب في الجامعة أنه في الجامعة فيستحي ويكون شيئا آخر غير ما هو في كل مكان ؟ أو ليس في لغة الزواج عندهم عبارة « نسيان ماضى الفتاة » ... ولكن اسمي اسمي ...

فأصاحت الشيطانة : فإذا طالب من الأزهر يقرأ لطالب من كلية الحقوق في صحيفة من دفاع أحد خريجي الجامعة :

« وما بال إخواننا الأزهريين يسخطون على الجامعة واختلاط الجذسين فيها ، وفي مصر نواح أخرى هي أحق بحربهم وأولى باهتمامهم ؟ لعالمهم قد



نسوا حالاً في الصيف على شواطئ البحر، والناس يمشون هناك شهوراً عرايا أو كالعرايا،

فقلت الشيطانة : ماله ولهذا ؟ لقد أخزى نفسه وأخزى الجامعة ، وهل صنع شيئاً إلا أنه يقول للأزهريين : إن أهون الفساد من هذا الاختلاط في الجامعة ، وأكثره في شواطئ البحر : فما بالكم تدعون أشدّه وتأخذون على أهونه ؟

قال الشيطان : ويحه ! وهل يأخذون على أهونه في الجامعة إلا لأنه في الجامعة لا في مكان آخر ؟ ولكن اسمعي ، ما هذا ؟ ...  
فأرعى الصوت سمعهما ، فإذا طاب يقرأ في مجلة : « ظهرت الآنسة فلانة وهي تلبس فستاناً أحمر شفتشى بمبي كربي مشجّر بيني وفيونسكة أحمر على أبيض ، ... »

قالت الشيطانة : هذا هذا ، فهل هي إلا ألوان أفكار تحت ألوان ثياب ؟ وهل يظهر سلطان الطبيعة في المرأة باحثاً عن رعيته إلا في ألوان جميلة هي أسئلة للعيون ؟ لقد مثل سربٌ من الطالبات في هذه الجامعة فعلاً في بعض الحفلات سموه « عرض الأزياء » والعتاة تعرض الثوب ، والثوب يعرض الجسم ، والجسم والثوب معاً يعرضان الفتاة ! وعرض الأزياء في الجامعة هو أمر من الجامعة بإهمال هذه الآية : « ولا يُبدن زيلتهن » !

قال الشيطان : خبريني عن صاحبك التي أنت موكلة بها ، أترينها كانت تأتي إلى هذه الجامعة لو ألبسوهن مثل ثوب الراهبة وخمروهن بالخمر وأضاعوا مساحة الجسم في مساحة الثوب وأجلسوهن في آخر الصفوف كأنهن في المسجد ؟ لقد فعلوا مثل هذا في بعض جامعات أوربا ، فخرموا صنبغ الشفاه على الفتيات ، ومنعوهن إبداء الزينة ؛ فامتنعت الزينة والمتزينة معاً ، وهجرن

الجامعة ، وقلن فيما قلن : إن المرأة والأحر والأبيض ونحوها هي الحقائق في علم المرأة ، وهي من أساليب بحث كل فتاة عن رُجلها المخبوء بين الرجال في الجامعة أو غير الجامعة ، والعلم وسيلة عيش ، والرجل وسيلة مثلها ، غير أنه هو أجدى الوسيلتين على المرأة وأحقهما بالعناية ، إذ هي لا تتزوج الكيمياء ولا الطبيعة ولا القانون ، ومعنى هذا بغير اللغة التي هنا في الجامعة المصرية أن وجود الفتاة مع الشبان للتعليم ، هو كذلك وجودها بينهم للاستمالة والمكر النسوى الجذاب .

اسمعي اسمعي : ما هذا الصوت المنكر الجافى الخشن ؟  
فتسمعت ، فإذا الطالب الأزهرى يقول لصاحبه وهو يحاوره : قالوا : ويحرم على المرأة أن ترى شيئاً من الرجل ولو بلا مئيل ولا خوف الفتنة ، وإذا هي اضطرت إلى مداواة أو أداء شهادة أو تعليم أو بيع أو نحو ذلك - جاز نظرها بقدر الضرورة .

فقات الشيطانة : هذا كلامٌ رَحِمَهُ اللهُ ... لقد كان ذلك سائغاً لو أن الشبان يتعلمون في الجامعة ليحملوا معهم الحق كما يحملون معهم العلم ؛ وكيف لهم بهذا ومعاني الدين قد أصبحت منهم كأسماء البلاد البعيدة في كتب الجغرافيا : لاهم رأوها ولاهم حققوها ؟ إنهم يريدون تعليم الدين هنا ، فيقول لهم رؤساؤهم : ألم تعرفوا الصلاة وأنها الصلاة ، والصيام وأنه الصيام ، والزكاة وأنها الزكاة ، والحج وأنه الحج ؟ وهذا كلام يشبه درس دواع البلاد على الخريطة ، فباريس كلمة ، ولندن كلمة ، لا غير ؛ أما الحقيقة العظيمة الهائلة فشيء غير هذا الكلام الجغرافي التعليمي ؛ إذ ما هي كل فرض الدين إلا أعمال دقيقة ثابتة يجب فرضها على الجميع لتحقيق النفسية الواحدة في الجميع ، وهي سر القوة والعظمة والنجاح ؛ فتعليم الدين في الجامعة هو إقناع النفس بحمل

فروضه من قوانينها الثابتة ، لا بأداء هذه الفروض فقط ؛ وذلك لا يستقيم إلا بدرسه كما تُدرس فلسفة القوانين والاقتصاد والتربية ، أى باعتبار علم فلسفة الروح العملية للأمة ، ثم يجعل المدرسين أول العاملين به ، ليتحقق معنى الإقناع ، فلا ينقلب الدرس هزأً وسخرية ؛ وبذلك يخرج الشاب من الجامعة وفي روحه قوة ثابتة تعمل به العمل الصالح ، وتوجهه إلى الخير . وتحفظه بين أهواء الحياة وشذائدها ، وتجعله دائماً يشعر أنه فى موضعه السامى من الإنسانية وإن كان فى أقل مراتب المال والجاه ، ومن ثم يرجع الشبان فى الأمة آلات قوة منظمة عاملة ، وأيسر ماتعمله هذه الآلات ، إزالة المنكرات ، وصنع الشعب صنعة جديدة للسلم والحرب ، و ، و ، و ، و ...

قال الشيطان : وماذا أيتها الخبيثة ؟ لقد هوّلتِ على !

قالت : وطَرَدْنَا نحن الشياطينَ من الجامعة !

قال : اسكتى ويحك ! فما أرسلتُ من مستشفى المجانين إلا لهذا ؛ فلن يقع الفصل بين الجفسين ، ولن يدخل التعليم الدينى فى الجامعة ، وسيدافعون بأن هذا كله ضرب من الجنون ... ..

---

## نهضة الأقطار العربية<sup>(١)</sup>

لا ريب في أن النهضة واقعة في الأقطار العربية ، مستطيرة في أرجائها استطارة الشرر يضرر في كل جهة ناراً حامية ، ويستمد من كل ما يتصل به لعنصره الملتب ؛ ولا ريب في أن الشرق قد تفلّت من أوهام السياسة وخرافاتها ، وقد اختلف على الغرب بعد أن طابقه زمناً ، وتابعه مدة ، وعرفه بمقدار ما بلّاه ، وكذبه بقدر ما صدقه ، ونفر منه بقدر ما اطمأن إليه ؛ ولا ريب في أن العقل الشرقي قد تطور وأدرك معنى نكث العهد ونقض الشرط في السياسة الغربية . وعلم أن ذلك هو بعينه العهد والشرط في هذه السياسة ما دامت المفاوضة والتعاقد بين الذئب والشاة ... ولا ريب أن الشرق يجاذب الآن مقاليدته التي ألفاها ، ويضرب على سلاسله التي تقيد بها ، وبكابد الصعود والهبوط في نهضته هذه ؛ وقد كان بلغ من إغضائه على الذل وقراره على الضيم ، وجهله وتجاهله - أن أوروبا ربطت أنظاره كلها في بضعة

---

(١) كتب هذا المقال جواباً للاستفتاء الآتي الذي وجهته إليه إحدى المجلات العربية :

- أ - هل نعتقدون أن نهضة الأقطار العربية قائمة على أساس وطيد ينمّن لها البقاء ، أم هي فوران وقى لا يلبث أن يخمد ؟
- ب - هل نعتقدون بإمكان تضامن هذه الأقطار وتآلفها ؟ ومتى ؟ وبأي العوامل ؟ وما شأن اللغة في ذلك ؟
- ج - هل ينبغي لأهل الأقطار العربية اقتباس عناصر المدنية الغربية ؟ وبأي قدر ؟ وعند أي حد يجب أن يقف هذا الاقتباس ، في النظم السياسية الحديثة ، وفي الأدب والشعر ، وفي العادات الاجتماعية ، وفي التربية والتعليم ؟

أساطيل تجذبها جذب الكواكب للأرض

غير أنى مع هذا كله لا أسمى هذه النهضة نهضة إلا من باب المجاز والتوسع في العبارة ، والدلالة بما كان على ما يكون ؛ فإن أسباب النهضة الصحيحة التى تطرد أطراد الزمن ، وتنمو نمو الشباب ، وتندفع اندفاع العمر إلى أجل بعينه - لا يزال بيننا وبينها مثل هذا الموت الذى يفصل بيننا وبين سلفنا وأوليتنا ؛ وإلا فأين الأخلاق الشرقية ، وأين المزاج العقلى الصحيح لأمم الشرق ، وما هذا الذى نحن فيه من روح لا شرقية ولا غربية ؟ ثم أين المصلحون الذين لا يساومون بملك ولا إمارة ، ولا يطلبون بالإصلاح غرضاً من أغراض الدنيا أو باطلا من زخرفها ؟ ثم أين أولئك الذين تجعلهم مبادئهم العالية القوية أول ضحاياها ، وتروى منهم عرق الثرى الذى يغذى من بقايا الأجداد لينبت منه الأحفاد ؟

إن الجواب على نهضة أمة نهضة ثابتة لا يكون من الكلام وفنونه ، بل من مبدأ ثابت مستمر يعمل عمله فى نفوس أهلها ؛ وإن يكون هذا المبدأ كذلك إلا إذا كان قائماً على أربعة أركان : إرادة قوية ، وخلق عزيز ، واستهانة بالحياة ، وصبغة خاصة بالأمة

فأما الإرادة القوية فلا تنقص الشرقيين ، وإنما الفضل فيها لساسة الغرب الذين بَصَّرونا بأنفسنا ، إذ وضعونا مع الأمم الأخرى أمام مرآة واحدة وجعلوا يقولون مع ذلك إننا غير هؤلاء ، وإن هذا الإنسان الذى فى المرأة غير هذا القرد الذى فيها ... ولكن أين الخلق وأين العزة القومية وأين العصية الشرقية ؛ وهذه مفاصد أوربا كلها تنصب فى أخلاق الشرقيين كما تنصب أقدار مدينة كبيرة فى نهر صغير عذب ؛ فلا الدين بقى فينا أخلاقاً ، ولا الأخلاق بقيت فينا ديناً ، وأصبحت الميزقة الشرقية فاسدة من كل

وجوهها في الروح والذوق ، ولم يعد لنا شيء يمكن أن يسمى المدنية الشرقية ، وأخذ الحق والضعفاء منا يحاولون في إصلاحهم أن يوافقوا الأمة على خاق جديد ينتزعونه من المدنية الغربية ، ولا يعلمون أن الخلق الطارئ لا يرسخ بمقدار ما يفسد من الأخلاق الراسخة ، وهم يغتبطون إذا قيل لهم مثلاً : إن مصر قطعة من أوروبا ؛ ولا يعلمون ما تحت هذه الكلمة من تطيل المدنية الشرقية ، والذهاب بها ، وإفسادها ، وتعريضها للدم ، وتسليط البلاء عليها ، مما لا حاجة بنا إلى التبسط في شرحه

لست أقول إن نهضة الشرق العربي لا أساس لها ؛ فإن لها أساساً من حماية الشباب ، وعلم المتعلمين ؛ ومن جهل أوروبا الذي كشفته الحرب ؛ ولكن هذا كله على قوته وكفايته في بعض الأحيان لإقامة الأحداث الكبرى واهتياج العواصف السياسية - لا يحمل ثقل الزمن الممتد ، ولا يكفي لأن يكون أساساً وطيداً يقوم عليه بناء عدة قرون من الحضارة الشرقية العالية ، بل ماأسرعه إلى الهدم والنقض لو صدمته الأساليب اللينة من الدهاء الأوربي على اختلافها ... إذا قُدر لأوروبا أن تفوز بأسلوبها الجديد ، أسلوب استعباد الشرق بالصدقة ... على طريقة ادعاء الشعب للدجاج أنه قد حج وتاب وجاء ليصلي بها ...

والذي أراه أن نهضة هذا الشرق العربي لا تعتبر قائمة على أساس وطيد إلا إذا نهض بها الركنان الخالدان : الدين الإسلامي ، واللغة العربية ؛ وما عداها فمسي أن لا تكون له قيمة في حكم الزمن الذي لا يقطع بحكمه على شيء إلا بشاهدين من المبدأ والنهاية

وظاهر أن أغلبية الشرق العربي ومادته العظمى هي التي تدين بالإسلام ، وما الإسلام في حقيقته إلا مجموعة أخلاق قوية ترمي إلى شد المجتمع من

كل جهة ، واعمرى إني لأحسب عظماء أمريكا كأنهم مساو التاريخ الحديث في معظم أخلاقهم ، لولا شيء من الفرق هو الذى لا يمنعهم أن ينحطوا إذا هم بلغوا القمة ؛ فإن من عجائب الدنيا أن قمة الحضارة الرفيعة هى بعينها مبدأ سقوط الأمم ، وهذا عندنا هو السر فى أن الدين الإسلامى يكره لأهله أنواع الترف والزينة والاسترخاء ، ولا يرى النحت والتصوير والموسيقى والمغالاة فيها وفى الشعر إلا من المكروهات ، بل قد يكون فيها ما يحرم إن وجد سبب لتحريره ، إذ كانت هذه الفنون فى الغالب وفى الطبيعة الإنسانية هى التى تؤدى فى نهايتها إلى سقوط أخلاق الأمة ؛ بما تستتبعه من أساليب الرفاهية والضعف المتفنن ، وما تحدثه للنفس من فنون اللذات والإغراق فيها والاستهتار بها ؛ وما سقطت الدولة الرومانية ولا الدولة العربية إلا إلا بكأس وامرأة ووتر ، وخيال شعرى يفتن فى هذه الثلاثة ويزينها

وإذا كان لابد للأمة فى نهضتها من أن تتغير ، فإن رجوعنا إلى الأخلاق الإسلامية الكريمة أعظم ما يصلح لنا من التغير وما يصلح به منه ؛ فلقد بعد ما بيننا وبين بعضها ، وانقطع ما بيننا وبين البعض الآخر ؛ وإذا نحن نبذنا الخمر ، والفجور ، والقمار ، والكذب ، والرياء ؛ وإذا أنفنا من التخنث ، والتبرج ، والاستهتار بالمنكرات ، والمبالغة فى المجون ، والسخف ، والرقاعة ؛ وإذا أخذنا فى أسباب القوة ، واصطنعنا الأخلاق المتينة ؛ من الإرادة ، والإقدام ، والحمية ؛ وإذا جعلنا لنا صبغة خاصة نميزنا من سوانا ، وتدل على أننا أهل روح وخلق - إذا كان ذلك كله فاعمرى أى ضير فى ذلك كله ، وهل تلك إلا الأخلاق الإسلامية الصحيحة ، وهل فى الأرض نهضة ثابتة تقوم على غيرها ؟

إن من خصائص هذا الدين الأخلاقى أنه صلب فيما لابد للنفس الإنسانية

منه إذا أرادت الكمال الإنساني ، ولكنه مرّن فيما لا بد منه لأحوال الأزمنة المختلفة مما لا يأتي على أصول الأخلاق الكريمة . وليس يخفى أنه لا يغنى غناء الدين شيء في نهضة الأمم الشرقية خاصة ، فهو وحده الأصل الراسخ في الدماء والأعصاب . ومتى نهض المسلمون وهم مادة الشرق ، نهض إخوانهم في الوطن والمنفعة والعادة من أهل الملال الأخرى ، واضطروا أن يجانسوهم في أغلب أخلاقهم الاجتماعية ، ولا حجر على حريتهم في ذلك إلا كبعض الحجر على حرية المريض إذا أوجرته الدواء المر

ولما كان المسلمون إخوة بنص دينهم ، وكانت مبادئهم واحدة ، ومنافعهم واحدة ، وكتائبهم واحدا ؛ فلا جرم كان من السهل - لورجعوا إلى أخلاق دينهم وانتبهوا ما يصددهم عنها - أن يوافقوا من الشرق كله دولا متحدة يحسب لها الغرب حساباً ذا أرقام لا تنتهى ...

إن هذا الشرق في حاجة إلى المبادئ والأخلاق ، وهى مع ذلك كامنة فيه ، ومستقبله كامن فيها ؛ غير أنها لا تصلح في الكتب ولا في الفنون ، بل في الرجال القائمين عليها . فالقلوب والأدمغة هى أساس النهضة الصحيحة الثابتة ، وإذا نحن تأملنا هذه النهضة الراهنة وجدنا أساسها خرباً من جهات كثيرة ، ووجدنا المكان الذى لا يماؤه إلا القلب الكبير ليس فيه إلا خيال كاتب من الكتاب ، والموضع الذى لا يسده إلا الرأس العظيم قد سدّته قطعة من صحيفة ...

ولقد تنبأ نبيُّ هذا الدين صلى الله عليه وسلم بهذه الحالة التى انتهى إليها الشرق العربى بإزاء الغرب ، فقال لأصحابه يوماً : كيف بكم إذا اجتمع عليكم بنو الأصفر<sup>(٥)</sup> اجتماع الأكلة على القصاع ؟ فقال عمر رضى الله عنه : أمن

---

(٥) بنو الأصفر : هم الروم ومن إليهم من الأوربيين



قلة نحن يومئذ يارسول الله أم من كثرة ؟ قال : بل من كثرة ، ولكنكم غثاء<sup>(\*)</sup> كغثاء السيل<sup>(\*)</sup> قد أوهن قلوبكم حب الدنيا  
فوهن القلوب بحب الدنيا — على ما ينطوى في هذه العبارة من المعاني  
المختلفة — هو علة الشرق ، ولا دواء لهذه العلة غير الأخلاق ، ولا أخلاق  
بغير الدين الذى هو عمادها . ألا وإن أساس النهضة قد وُضع ، ولكن  
بقيت الصخرة الكبرى وستوضع يوماً ، وهذا ما أعتقد ؛ لأن الغرب يدفع  
معنا هذه الصخرة ليقرها في موضعها من الأساس وهو يحسب أنه يدفعنا  
نحن إلى الحفرة ليدفننا فيها ... وهذا عمى في السياسة لا يكون إلا بخذلان  
من الله لأمير قدره وقضاه



ولمى أرى أنه لا ينبغي لأهل الأقطار العربية أن يقتبسوا من عناصر  
المدينة الغربية اقتباس التقليد ، بل اقتباس التحقيق ، بعد أن يعطوا كل شيء  
حقه من التمحيص ، ويقلبوه على حالتيه الشرقية والغربية ؛ فإن التقليد لا يكون  
طبيعة إلا في الطبقات المنحطة ، وصناعة التقليد وصناعة المسوخ فرعان من  
أصل واحد ، وما قلد المقلد بلا بحث ولا روية إلا أتى على شيء في نفسه من  
ملكة الابتكار وذهب ببعض خاصيته العقلية ؛ على أننا لا نريد من ذلك أن  
لا نأخذ من القوم شيئاً ؛ فإن الفرق بعيد بين الأخذ في المخترعات والعلوم ،  
وبين الأخذ من زخرف المدنية وأهواء النفس وفنون الخيال ورواق  
الخبث والطيب ؛ إذ الفكر الإنسانى إنما ينتج الإنسانية كلها ، فليس هو  
ما كلاً لامة دون أخرى ؛ وما العقل القوى إلا جزء من قوة الطبيعة

---

(\*) الغثاء : ما يحمله السيل من الحشيم ونحوه مما تحطم وتعفن ولا قيمة له ولا

قوة فيه .

فإن نحن أخذنا من النظمات السياسية فلنأخذ ما يتفق مع الأصل الراسخ في آدابنا من الشورى والحرية الاجتماعية عند الحد الذى لا يجوز على أخلاق الأمة ولا يفسد مزاجها ولا يضعف قوتها

وإذا نقلنا من الأدب والشعر فليدع خرافات القوم وسخافات الروائية إلى لب الفكر ورائع الخيال وصميم الحكمة، ولنتبع طريقهم في الاستقصاء والتحقيق، وأسلوبهم في النقد والجدل، وتأثيرهم إلى النفس الإنسانية بتلك الأساليب البيانية الجميلة التى هى الحكمة بعينها

وأما في العادات الاجتماعية فلنذكر أن الشرق شرق والغرب غرب - وما أرى هذه الكلمة تصدق إلا في هذا المعنى وحده - والقوم في نصف الأرض ونحن في نصفها الآخر، ولهم مزاج وإقليم وطبيعة وميراث من كل ذلك ولنا ما يتفق وما يختلف؛ وإن أول الأدلة على استقلالنا أن نساخ من عادات القوم، فإن هذا يؤدي بلا ريب إلى إبطال صفة التقليد فينا، ويحملنا على أن نتخذ لأنفسنا ما يلائم طبائعنا وينمى أذواقنا الخاصة بنا، ويطلق لنا الحرية في الاستقلال الشخصي؛ ولقد كنا سادة الدنيا قبل أن كانت هذه العادات الغربية التى رأينا منها ومن أثرها فينا ما أفسد رجولة رجالنا وأنوثة نساتنا على السواء؛ وما هؤلاء الشبان المساكين الذين يدعون إلى بعض هذه العادات ويعملون على بثها في طبقات الأمة إلا كالذى يحسب أن أوربا يمكن أن تدخل تحت طربوشه...؛ ولقد غفلنا عن أننا ندعو الأوربيين إلى أنفسنا وإلى القسطنطينية على بلادنا بانتحالنا عاداتهم الاجتماعية؛ لأنها نوع من المشاكلة بيننا وبينهم، ووجه من التقريب بين جنسين يعين على اندماج أضعفهما في أقواهما ويضيق دائرة الخلاف بينهما، ثم هو من أين اعتبرته وجدته في فائده الأوربيين أشبه بتلين اللقمة الصلبة تحت الأسنان القاطعة؛ وهل

نسى الشرقيون أن لا حجة للغرب في استعبادهم إلا أنه يريد تمدينهم ؟  
وحيثما قلنا « الدين الإسلامى » فإنما نريد الأخلاق التى قام بها ،  
والقانون الذى يسيطر من هذه الأخلاق على النفس الشرقية ؛ وهذا فى رأينا  
هو كل شىء لانه الأول والآخر <sup>(١)</sup>

## لا تجنى الصحافة على الأدب <sup>(٢)</sup>

ولكن على فنيتـه

قالوا إن الأصمعى كان ينكر أن يقال فى لغة العرب ( مالح ) ، ويقول  
إنما هو بلح ، وإن ( مالح ) هذه عامية ؛ فلما أنشدوه فى ذلك شعراً لذى الرمة  
يحتجون به عليه قال : إن ذا الرمة قد بات فى حوانيت البقالين بالبصرة  
زمانا ...

يريد شيخنا هذا : أن ( المالح ) فى الأكثر الأعم يكون مما يبيعه البقالون ،  
ولغتهم عامية مُزالة عن سَلَنها الفصح ، مصروفة إلى وجهها التجارى ؛ ولكن  
كيف بات ذو الرمة فى حوانيت البقالين زماناً حتى علقت الكلمة بمنطقه  
وجذبه إليها الطبع العامى ، ولم يخالط عربيته غيرُ هذه الكلمة وحدها ؟ لم  
يقل الأصمعى شيئاً ، ولكن روايته تخبر أن ذا الرمة انحدر من البادية إلى  
البصرة يلتمس ما يلتمسه الشعراء ، فلما كان بها استضاق فلم يُصب لجوفه

---

(١) حذفنا من هذا المقال بعض عبارات حذفها المؤلف بقلمه فى الأصل الذى  
تحت أيدينا .

(٢) بهذا المقال بدأ المؤلف عمله فى الرسالة : وانظر ص ١٩١ « حياة الراعى » ،

فإن نحن أخذنا من النظمات السياسية فلنأخذ ما يتفق مع الأصل الراسخ في آدابنا من الشورى والحرية الاجتماعية عند الحد الذى لا يجوز على أخلاق الأمة ولا يفسد مزاجها ولا يضعف قوتها

وإذا نقلنا من الأدب والشعر فلندع خرافات القوم وسخافاتهم الروائية إلى لب الفكر ورائع الخيال وصميم الحكمة، ولنتقمع طريقتهم فى الاستقصاء والتحقيق، وأسلوبهم فى النقد والجدل، وتأثيرهم إلى النفس الإنسانية بتلك الأساليب البيانية الجميلة التى هى الحكمة بعينها

وأما فى العادات الاجتماعية فلنذكر أن الشرق شرق والغرب غرب - وما أرى هذه الكلمة تصدق إلا فى هذا المعنى وحده - والقوم فى نصف الأرض ونحن فى نصفها الآخر، ولهم مزاج وإقليم وطبيعة وميراث من كل ذلك ولنا ما يتفق وما يختلف؛ وإن أول الأدلة على استقلالنا أن نساخ من عادات القوم، فإن هذا يؤدى بلا ريب إلى إبطال صفة التقليد فىنا، ويحملنا على أن نتخذ لأنفسنا ما يلائم طبائعنا وينمى أذواقنا الخاصة بنا، ويطلق لنا الحرية فى الاستقلال الشخصى؛ ولقد كنا سادة الدنيا قبل أن كانت هذه العادات الغربية التى رأينا منها ومن أثرها فىنا ما أفسد رجولة رجالنا وأنوثة نساتنا على السواء؛ وما هؤلاء الشبان المساكين الذين يدعون إلى بعض هذه العادات ويعملون على بثها فى طبقات الأمة إلا كالذى يحسب أن أوربا يمكن أن تدخل تحت طربوشه...؛ ولقد غفلنا عن أننا ندعو الأوربيين إلى أنفسنا وإلى القسطنطينية على بلادنا بانتحالنا عاداتهم الاجتماعية؛ لأنها نوع من المشاكلة بيننا وبينهم، ووجه من التقريب بين جنسين يعين على اندماج أضعفهما فى أقواهما ويضيق دائرة الخلاف بينهما، ثم هو من أين اعتبرته وجدته فى فائدته الأوربيين أشبهه بتليين اللقمة الصلبة تحت الأسنان القاطعة؛ وهل

نفسى الشرقيون أن لا حجة للغرب فى استعبادهم إلا أنه يريد تمدينهم ؟  
وحيثما قلنا « الدين الإسلامى » فإنما نريد الأخلاق التى قام بها ،  
والقانون الذى يسيطر من هذه الأخلاق على النفس الشرقية ؛ وهذا فى رأينا  
هو كل شىء لأنه الأول والآخر <sup>(١)</sup>

## لا تجنى الصحافة على الأدب <sup>(٢)</sup>

ولكن على فنيتـه

قالوا إن الأصمعى كان ينكر أن يقال فى لغة العرب ( مالح ) ، ويقول  
إنما هو يملح ، وإن ( مالح ) هذه عامية ؛ فلما أنشدوه فى ذلك شعراً لذى الرمة  
يحتجون به عليه قال : إن ذا الرمة قد بات فى حوانيت البقالين بالبصرة  
زمانا ...

يريد شيخنا هذا : أن ( المالح ) فى الأكثر الأعم يكون مما يبيعه البقالون ،  
ولغتهم عامية مُزالة عن سَدَنها الفصحى ، مصروفة إلى وجهها التجارى ؛ ولكن  
كيف بات ذو الرمة فى حوانيت البقالين زماناً حتى علقت الكلمة بمنطقه  
وجذبه إليها الطبع العامى ، ولم يخالط عربيته غيرُ هذه الكلمة وحدها ؟ لم  
يقُل الأصمعى شيئاً ، ولكن روايته تخبر أن ذا الرمة انحدر من البادية إلى  
البصرة يلتمس ما يلتمسه الشعراء ، فلما كان بها استضاع فلم يُصب لجوفه

---

(١) حذفنا من هذا المقال بعض عبارات حذفها المؤلف بقلبه فى الأصل الذى  
نحت أيدينا .

(٢) بهذا المقال بدأ المؤلف عمله فى الرسالة ؛ وانظر ص ١٩١ « حياة الرافعى » ،

غير الحبز ، ولم يجد للخبز غير (المالح) يُسيغه به ليجد المسلك في حلّقه ، قالوا :  
فيأتي البقالين فيبتاع منهم السمكة (المالحة) والبقلة (المالحة) ، ويعرفونه مُضيّقاً  
إلى فرج ، فيُنسِثون له في الثمن إلى أجل حتى يمتدح وينال الجائزة ؛ قالوا :  
ثم يطره الممدوح ويلوى به ولا يرى في تلفيق العيش رُخصاً إلا في (المالح) ،  
فيتابع في الشراء ويمضون في إسلافه إبقاءً عليه وحسنَ نظرٍ منهم لمنزلته  
وشعره ، ويرى هو أن لاضمان الوفاء بما عليه إلا نفسه ، فما بُدّ أن يترأى  
لهم بين الساعة والساعة ، فيخالطهم فيحدثهم فيسمع منهم ، وهم على طبعهم  
وهو على سجيته ؛ ثم لا يقتضونه ثمناً ، ولا يزالون يمدون له ، فلا يزال (المالح)  
أيسر منالاً عليه ، كما هو إلى نفسه أشهى ، وفي جوفه أمراً ، لمكان أعرابيته  
وخشونة عيشه ؛ فيصيب عندهم مرتعة من هذا (المالح) . قالوا : ثم يرى  
البقالون أن لاضمان لما اجتمع عليه إلا أن يكون الشاعر معهم ، فيلزمونه  
الحوانيت بياض يومه ، ويخلقونها عليه سواد ليلته ، فهم يسكرونه بالنهار  
وتمسكه الحيطان والأبواب بالليل !

فلما عظم الدّين وبلغ الجملة التي فاتت حساب الأيام إلى حساب الأهلّة  
أحضر الشاعرُ كربّه وهمّه ، ولم يعد (المالح) ينجع فيه ، ولا يجد به غذاء بل  
حريقاً في الدم ، ورأى أنه قد امتحن بهذا (المالح) الخبيث وأشرط نفسه  
فيه وارتنها به ؛ فلا يزال من (المالح) همٌّ في نفسه ، ومغص في جوفه ، ولفظ  
على لسانه ، ودين على ذمته ؛ ولا يزال مهموماً به ؛ إذ كان على طريق من  
طريقين : إما الوفاء ولا قدرة عليه من مفلس ، وإما الحبس ولا طاقة به  
لشاعر ؛ وحُبس ذى الرمة في ثمن (المالح) هو حبس عند الشرطة ، ولكنه  
قتلٌ أو شرٌّ من القتل عند صاحبه (مئة) إذا تراى إليها الخبر ؛ والأعرابي  
الجلف الذى يُحبس في ثمن (المالح) عند الوالى بعد أن بات زماناً رهناً به في

حوانيت البقالين لا يصلح عاشقاً لىّ وهى مَنْ هى ، لها بشر مثل الحرير  
ومنطق رخم الحواشى... » فلا (المالح) من غذائها ، ولا لفظ (المالح) من الكلام  
الذى يكون فى فمها العذب ، وأبعد الله جاريته الزنجية إن لم تأنف لنفسها  
ومكانها من عشق هذا الأعرابى الغليظ الحشن الذى ألحقه (المالح) بالصوص  
والغارمين ، وأخزاها الله إن لم يكن عشق هذا الأعرابى لها سواداً على  
سوادها فى الناس ، فكيف بىّ وهى أصفى من المرأة النقية ، وأبيض من  
الزهرة البيضاء ؟

قالوا : ويصنع الله لغيلان المسكين ، فيمدح وينافى ويحتال ، ويعده  
المدوح بالجائزة إذا غدا عليه ، ويكون ذلك والشمس نازلة إلى خدرها ،  
فينكفى الشاعر إلى حوانيت غرمائه من البقالين يبيت فيها أخرى لياليه ،  
ويخلقون عليه وقد سئموه آكلاً وماطلاً ، وهان عليهم فلا يعتدونه إلا فأراً  
من فئران حوانيتهم غير أنه يأكل فيستوفى ، ولم يعد اسمه عندهم ذا الرمة ،  
بل ذا الغمة ... فلم يعطوه لعشائه هذه المرة إلا ما فسد وخبث من عتيق  
(المالح) ، فهونتن يسمّى طعاماً ، وداء يباع بثمان ، وهلاك يحمل عليه الاضطراب  
كما يحمل على أكل الجيفة ؛ وكانوا قد وضعوه فى آنية قدرة متآجئة طال عهداها  
بالغسل والنظافة وفيها بقية من عنق قديم ، فلصق بها مالصق وتراكب  
عليها ما تراكب ، ووقع فيها ما وقع .

ثم يتهى الشاعر لصلاة العشاء يرجو أن تناله بركتها ، فيستجيب الله له  
 ويفرج عنه ، وقد كان لديه قدح من الماء لوضوئه ، ولكن (المالح) الذى  
تغدى به كان قد أحرق جوفه وأضرم على أحشائه وهو فى صيف فائظ ،  
فما زال يطفئه بالشربة بعد الشربة ، والمصة بعد المصة ، حتى اشتف القدح  
وأنى عليه ، فيكسل عن الصلاة ويلعن (المالح) وما جرّ عليه ؛ ثم يعرضه الجوع

فيكسر خبزته وبسْمى ويغمس اللقمة ثم يرفعها فيجد لها رائحة منكرة ،  
فينظر في الآنية وقد نفذ إليه الضوء من قنديل الحارس ، فإذا في (المالح) خنفساء  
قد انفجرت شبعاً ، ويدقق النظرة فإذا دويبة أخرى قد تفسخت وهرأها  
(المالح) وفعل بها وفعل ! قالوا : وتثب نفسه إلى حلقه ، ولا يرى الطاعون والبلاء  
الأصفر والأحمر إلا هذا (المالح) ، فيتحول إلى كوة الحانوت يتنسم الهواء منها  
ويتطعم الروح وهي مضببة بالحديد ، ولا يزال يراعى منها الليل ويقدره منزلة  
منزلة بحساب البادية ، وهو بين ذلك يلعن (المالح) عدد ما يسبح العابد القائم  
في جوف الليل ، ويطول ذلك عليه ، حتى إذا كاد ينشق لمع الفجر لعينه ، فلا يراه  
الشاعر إلا كالغدير يتفجر بالماء الصافي ويود لو انصب هذا الضوء في جوفه  
ليغسله من (المالح) وأوضار (المالح) : ثم يأتي الله بالفرج وبصاحب الحانوت  
يفتح له ، ويغدو وذو الرمة على الممدوح فيقبض الجائزة ، وينقلب إلى حوانيت  
البقالين فيوفي أصحابها ما عليه ؛ ولا يبقى معه إلا دراهم معدودة ، فيخرج من  
البصرة على حمار أكثره وقد فُتحت له آفاق الدنيا ، وكأنما فرّ من موت  
غير الموت ، ليس اسمه البوار ولا الهلاك ولا القتل ، ولكن اسمه (المالح) !  
قالوا : ويحرك الحمار للشعر كما كانت تحرك الناقة ، فيقول : أخزأك الله  
من حمار بصرى ، إن أنت في المراكب إلا (كالمالح) في الأطمعة ! ثم يغلبه  
الطبع وينزو به الطرب وتمزه الحياة ، فيحتاج للشعر ويذكر شوقه وحبسه  
ودار محي ، وفي (عقله الباطن) حوانيت وحوانيت من (المالح) ، فيأتي هذا  
(المالح) في شعره ويدخل في لغته ، فيقول الشعر الذي أهمل الأصمthy روايته  
لأن فيه (المالح) ؛ وما أدري أنا ما هو ، ولكن لعله مثل قول الآخر :  
ولو تفلت في البحر والبحر (مالح) لأصبح ماء البحر من ريقها عذبا  
أو مثل قول القائل :



بصرية تزوجت بصريا يطعمها (المالح) والطريا

\*\*\*

هذه هي الرواية التمثيلية التي تفسر كلام الأصمى ، ولا مذهب عنها في التعليل ؛ إذ صار ( المالح ) كلمة نفسية في لغة ذى الرمة ، على رغم أنف الآخر والأسود والأصمى وأبى عبيدة ؛ فالرجل من الحجج في العربية إلا في كلمة (المالح) ، فإنه هنا عامى يقال حوانيتى نزل بطبعه على حكم العيش ، وغلبه ما لا بد أن يغلب من تسلط (واعيته الباطنة) (\*)

والحكمة التي تخرج من هذه الرواية أن أبلغ الناس ينحرف بعمله كيف شاءت الحرفة ، ولا بد أن تقع المشابهة بين نفسه وعمله ، فربما أراد بكلامه وجهاً وجاء به الهاجس على وجه آخر ؛ وإذا كان في النفس موضع من مواضعها أفسده العمل - ظهر فساد في الذوق والإدراك فطمس على مواضع أخرى ؛ فلا تنتظر من صحافي قد ارتهن نفسه بحرفة الكلام ألا يكون له في الأدب والبلاغة ( مالح ) كمال ذى الرمة ، وإن كان أبلغ الناس لا أبلغ كتاب الصحف وخدمهم .

و ( المالح ) الذي رأيناه لكاتب بليغ من أصحابنا (١) أنه كتب في إحدى الصحف عن ديوانٍ هو في شعر هذه الأيام كالبعث بعد موت شوقي وحافظ رحمهما الله ، فيأتى بالمجاز بعد الاستعارة بعد الكناية مما قاله الشاعر ثم يقول : هذا عجيب تصوُّره . لا أعرف ماذا يريد . البلى للشعاع غير مقبول ؛ ولا يزال يُدسحب على هذه الطريقة من النقد ثم يعقب على ذلك بقوله : « والأصل

(\*) وضعنا هذه الكلمة لما يسمى ( العقل الباطن ) ، وهي أدق في التعبير تستوفي كل معاني الكلمة ، ولا معنى لأن يكون هناك عقل ، ثم يكون باطناً غافلاً ؛ فإن هذا لا يسوغه الاشتقاق

(١) يعنى المازنى ، وكان له نقد لديوان « الملاح التائه »

فى الـكتابة أنها للإفهام ، أى نقل الخاطر أو الإحساس من ذهن إلى ذهن ومن نفس إلى نفس ؛ ولا سبيل إلى ذلك إذا كانت العبارة يتعاورها الضعف والابهام والركاكة وقلة العناية بدقة الأداء ، وإذا كنت تستعمل اللفظ فى غير موضعه ولغير ما أريد به ، فكيف تتوقع منى أن أفهم منك ؟ .

لا ، لا ، هذا (مالح) من مالح الأدب ، فإذا كان الضعف والابهام والركاكة وسوء الإفهام وضعف الأداء - آتية فى رأى الكاتب من استعمال اللفظ فى غير موضعه ولغير ما أريد له - فإن محاسن البيان من التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية ليس لها مأثى كذلك إلا استعمال اللفظ فى غير موضعه ولغير ما أريد له .

وعلى طريقة الكاتب كيف يصنع فى قوله تعالى : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً » ؟

أترأه يقول : كيف قدم الله ، وهل كان غائباً أو مسافراً ، وكيف قدم إلى عمل ، وهل العمل بيت أو مدينة ؟

ثم كيف يصنع فى هذه الآية : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك » ، أيسأل : وهل للأرض خلق تحركه عضلاته للبلع ، وإذا كان لها خلق أفلا يجوز أن تُرمى فيه فتحتاج إلى غرغرة وعلاج وطب ؟

وماذا يقول فى حديث البخارى : « إني لأسمع صوتاً كأنه صوت الدم ، أو صوتاً يقطر منه الدم - كما فى الأغاني - » أيوجه الاعتراض على الصوت وجرحه ودمه ، ويسأل : بماذا جرح ، وما لون هذا الدم ، وهل للصوت عروق فيجرى الدم فيها ؟

إن الإفهام ونقل الخاطر والإحساس ليست هى البلاغة وإن كانت منها ، وإلا فكتابة الصحف كلها آيات بينات فى الأدب ، إذ هى من هذه الناحية

لا يُقَدَح فيها ولا يُغَض منها ، وما قصرت قط في نقل خاطر ولا استغلقت  
دون إفهام

ههنا خواتم في مطعم كطعم (الحاتى) مثلاً عليه الشواء والمالح والفلفل  
والسكواميخ أصنافاً مصنَّفة ، وآخر في وليمة عرس في قصر وعليه ألوانه  
وأزهاره ومن فوقه الأشعة ومن حوله الأشعة الأخرى من كل مضيئة في  
القلب بنور وجهها الجميل ، أفترى السهولة كل السهولة إلا في الأول ؟ وهل  
التعقيد كل التعقيد إلا في الثانى ؟ وليكن أى تعقيد هو ؟ إنه تعقيد فنى ليس  
إلا ، به ينضاف الجمال إلى المنفعة ، فتجتمع الفائدة والاستمتاع وتزين المائدة  
والنفس معاً ؛ وهو كذلك تعقيد فنى لاعم بين إبداع الطبيعة وإبداع العكر ،  
وجاء بروح الموسيقى التى يقوم عليها الكون الجميل فبها في هذه الأشياء التى  
تقوم بها المائدة الجميلة ، واستنزل سر الجاذبية فجعل للمائدة بما عليها شعوراً  
متصلاً بالقلوب من حيث جعل للقلوب شعوراً متصلاً بالمائدة .

وهذا التعقيد الذى صور في الجماد دقة فى العاطفة ، هو بعينه فنية السهولة  
وروحيتها ؛ وتلك السداجة التى فى المائدة الأخرى هى السهولة المادية بغير  
فن ولا روح ، وفرق بينهما أن إحداهما تحمل قصيدة رائدة من الطعام وما  
يتصل به ، والأخرى تحمل من الطعام وما يتصل به مقالة كمقالات الصحف !  
والوجه فى الشوواء وفى الجميلة واحد : لا يختلف بأعضائه ولا منافعه ، ولا  
فى تأديته معانى الحياة على أتمها وأكملها ؛ بيد أن انسجام الجميل يأتى من إعجاز  
تركيبه وتقدير قسامته وتدقيق تناسبه ، وجعله بكل ذلك يُظهر فنه النفسى  
بسهولة منسجمة هى فنّيته وروحيته ؛ أما الآخر فلا يقبل هذا الفن ولا يُظهر  
منه شيئاً ؛ إذ كان قد فقد التدقيق الهندسى الذى هو تعقيد فى التناسب ، وجاء  
على المقاييس السهلة من طويل إلى قصير ، إلى ما يستدير وما يعرض ، إلى ما يبدأ

من هنا وينخسف من هناك ، كالوجنة البارزة ، والشدق الغائر ؛ فهذه السهولة المطلقة في الوضع كما يتفق ، هي بعينها التعقيد المطلق عند الفن الذي لا محل فيه للفضة ( كما يتفق )

والطريقة التي يكون بها الجمال جميلا هي بعينها الطريقة التي يكون بها البيان بليغاً ، فالمرجع في اثنينهما إلى تأثيرهما في النفس ، وأنت فقل : إن هذا مفهوم وهذا غير مفهوم ، وذاك سهل والآخر معقد ، وواضح ومغلق ، ومستقيم على طريقته ومحول عن طريقته ؛ إنك في ذلك لا تدل على شيء تعيبه أو تمدحه في الجمال أو البلاغ أكثر مما تدل على ما يمدح أو يُعاب في نفسك وذوقها وإدراكها

ومعاني الاختلاف لا تكون في الشيء المختلف فيه ، بل في الأتس المختلفة عليه ؛ فإن محالا أن تكون الجميلة ، وحةً مذمومةً لجمالها في وقت معاً ، وإلا كانت قبيحة ؛ بما هي به حسنة ، وهذا أشد بعداً في الاستحالة ، وحكمك على شيء هو عقلك أنت في هذا الشيء

ومتى اتفق الناس على معنى يستحسنونه وجدت دواعي الاستحسان في أنفسهم مختلفة ، وكذلك هم في دواعي الذم إذا عابوا ؛ ولكن متى تعينت الوجوه التي بها يكون الحكم ، ورجع إليها المختلفون ، والتزوا الأصول التي رسمتها وتقررت بها الطريقة عندهم في الذوق والمهم . فذلك ينفي أسباب الاختلاف لما يكون من معاني التكافؤ وخاصة المناسبة ، ولهذا كان الشرط في نقد البيان أن يكون من كاتب مبدع في بيانه لم تفسده نزعة أخرى ، وفي نقد الشعر أن يكون من شاعر عات مرتبته وطالت ممارسته لهذا الفن وليس له نزعة أخرى تفسده

وما المجازات والاستعارات والكنايات ونحوها من أساليب البلاغ إلا

أسلوب طبيعي لا مذهب عنه للنفس الفنية ؛ إذ هي بطبيعتها تريد دائماً ما هو أعظم ، وما هو أجمل ، وما هو أدق ؛ وربما ظهر ذلك لغير هذه النفس تكلفاً وتعسفاً ووضعاً للأشياء في غير مواضعها ، ويخرج من هذا أنه عمل فارغ وإساءة في التأدية وتمحل لاعترة به ، ولكن فنية النفس الشاعرة تأبى إلا زيادة معانيها ، فتصنع ألفاظها صناعة توليها من القوة ما ينفذ إلى النفس ويضاعف إحساسها ؛ فمن ثم لا تكون الزيادة في صور الكلام وتقليب ألفاظه وإدارة معانيه إلا تهية لهذه الزيادة في شعور النفس ؛ ومن ذلك يأتي الشعر دائماً زائداً بالصناعة البيانية ، لتخرجه هذه الصناعة من أن يكون طبيعياً في الطبيعة إلى أن يكون روحانياً في الإنسانية ، والشعور المهتاج المتفزز غير الساكن المتبدل ، والبيان في صناعة اللغة يقابل هذا النحو ، فتجد من التعبير ما هو حي متحرك ، وما هو جامد مستلق كالنائم أو كالميت ؛ وبهذا لا تكون حقيقة المحسنات البيانية شيئاً أكثر من أنها صناعة فنية لا بد منها لأحداث الالتهياج في ألفاظ اللغة الحساسة كي تعطى الكلمات ما ليس في طاقة الكلمات أن تعطيه

لقد تكلموا أخيراً في جنابة الصحافة على الأدب ، والصحافة عندي لا تجنى على الأدب ، ولكن على فنيته ؛ فلها من الأثر على سلبية البليغ وطبعه قريب مما كان لحوانيت البقالين في البصرة على طبع ذى الرمة وسليقته ، وكلما قرب الصحفي من الصناعة وحقها على الجمهور ، بعدد عن الفن وجماله وحقه على النفس ، وهذا واضح بلا كبير تأمل . بل هو واضح بغير تأمل ...

## صعاليك الصحافة ...

لما ظهر كتابي (وحي القلم) <sup>(١)</sup> حثت منه إلى فضلاء كتابنا في دور الصحف والمجلات أهديه إليهم ليقرؤوه ويكتبوا عنه ، وأنا رجل ليس في أكثر مما في ، كالنجم يستحيل أن يكون فيه مستنقع ؛ فلما أعلم في طبعتي موضعاً للانفاق تحول فيه البصلة إلى تفاحة ، ولا مكاناً من الخوف تنقلب فيه التفاحة إلى بصلة ، واست أهدي من كتبي إلا إحدى هديتين : فيما النحية لمن أثق بأدبهم وكفايتهم وسلامة قلوبهم ، وإما إنذار حرب لغير هؤلاء !

والقرآن نفسه قد أثبت الله فيه أقوال من عابوه ، ليدل بذلك على أن الحقيقة محتاجة إلى من ينكرها ويردها ، كحاجتها إلى من يقربها ويقبها ؛ فهي بأحدهما تثبت وجودها ، وبالأخر تثبت قدرتها على الوجود والاستمرار والشعور بالحق لا يخرس أبداً ، فإذا كانت النفس قوية صريحة مرّ من باطنها إلى ظاهرها في الكلمة الخالصة ، فإن قال لا أو نعم صدق فيهما ؛ وإذا كانت النفس ملتوية اعترضته الأغراض والدخائل ، فرّ من باطن إلى باطن حتى يخلص إلى الظاهر في الكلمة المقلوبة ؛ إذ يكون شعوراً بالحق يغطيه غرض آخر كالحسد ونحوه ، فإن قال لا أو نعم كذب فيهما جميعاً



وكنت في طوافي على دور الصحف والمجلات أحس في كل منها سؤالا يسألني به المكان : لماذا لم تجي ؟ فإني في ابتداء أمرى كنت نزعت إلى العمل في الصحافة ، وأنا يومئذ متعلم ريّض ومتأدب ناشئ ، واسكن أي رحمة

---

(١) يعني الجزءين الأول والثاني في طبعتهما الأولى

الله ردني عن ذلك ووجهني في سبيل هذه والحمد لله ، فلو أنني نشأت صحافياً  
لكنت الآن كبعض الحروف المكسورة في الطبع ...

وللصحافة العربية شأن عجيب ، فهي كلما تمت نقصت ، وكلما نقصت تمت ؛  
إذ كان مدار الأمر فيها على اعتبار أكثر من يقرؤها أنصاف قراء أو  
أنصاف أميين ؛ وهي بهذا كالطريقة لتعليم القراءة الاجتماعية أو السياسية أو  
الأدبية ؛ فتمامها بمراعاة قواعد النقص في القارئ ... وما بدأ أن تتقيد بأوهام  
الجمهور أكثر عما تتقيد بحقيقة نفسها ؛ فهي معه كالزوجة التي لم تلد بعد لها  
من رُجلها من يأمرها ويجعلها في حكمه وهواه ، وليس لها من أبنائها من تأمرهم  
وتجعلهم في طاعتها ورأيها وأدبها ؛ ثم هي عمل الساعة واليوم ، فما أبعداها من  
حقيقة الأدب الصحيح ، إذ ينظر فيه إلى الوقت الدائم لا إلى الوقت الغابر ،  
ويراد به معنى الخلود لا معنى النسيان

ولا يقتل النبوغ شيء كالعمل في هذه الصحافة بطريقتها ؛ فإن أساس النبوغ  
( ما يجب كما يجب ) ؛ ودأبه العمق والتغلغل في أسرار الأشياء وإخراج الثمرة  
الصغيرة من مثل الشجرة الكبيرة بعمل طويل دقيق ؛ أما هي فأساسها ( ما يمكن  
كما يمكن ) ودأبها السرعة والتصفح والإلمام وصناعة كصناعة العنوان لا غير  
فليس يحسن بالأديب أن يعمل في هذه الصحافة اليومية إلا إذا  
نضج وتم وأصبح كالدولة على « الخريطة » ، لا كالمدينة في الدولة في الخريطة ؛  
فهو حينئذ لا يسهل محوه ولا تبديله ... ثم هو يمدّها بالقوة ولا يستمد القوة  
منها ، ويكون تاجاً من تيجانها لا خرزة من خرزاتها ، ويقوم فيها كالمنارة  
العظيمة تُلقى أشعتها من أعلى الجو إلى مدى بعيد من الآفاق ، لا كمصباح من  
مصاييح الشارع !

وحالة الجمهور عندنا تجعل الصحافة مكاناً طبيعياً لرجل السياسة قبل غيره ؛

إذ كان الرجل السياسى هو صوت الحوادث سائلا ومجيباً ، ثم يليه الرجل شبيه العالم ، ثم الرجل شبه الممثل الهزلى ... والأديب العظيم فوق هؤلاء جميعاً ، غير أنه عندنا فى الصحافة وراء هؤلاء جميعاً !



ولما فرغت من طوافى على دور الصحف جاءت هى تطوف بى فى نومى ، فأيتنى ذات ليلة أدخل إحداها لأهدى (وحى القلم) إلى الأديب المتخصص فيها للكتابة الأدبية ، ودلونى عليه فإذا رجل مربوع مشوه الخلق صغير الرأس دقيق العنق جاحظ العينين ، تدوران فى محجريهما دورة وحشية كأنما رعبته الحياة مذ كان جنينا فى بطن أمه ، لأنه خلق للإحساس والوصف ، أو كأنما ركب فيه هذا النظر الساخر ليرى أكثر مما يرى غيره من أسرار السخرية فيذغ فى فنونها ، أو هو قد خلق بهاتين العينين الجاحظتين دلالة عليه من القدرة الإلهية بأنه رجل فذ أرسل لتدقيق النظر.

وقال الذى عرفنى به : حضرته عمرو افندى الجاحظ ... وهو أديب

الجريدة

قلت : شيخنا أبو عثمان عمرو بن بحر ؟

فضحك الجاحظ وقال : وأديب الجريدة ، أى شحاذ الجريدة ، يكتب لها

كما يقرأ القارئ على ضريح : بالرغيف والجبن والبيض والقرش ...

قلت : إنا لله ! فكيف انتهيت يا أبا عثمان إلى هذه النهاية وكنت من

أعاجيب الدنيا ؟ وكيف خبئت فى الصحافة وكنت رأساً فى الكلام ؟

قال : نجت أخلاقى نخابت آمالى ، ولو جاء الوضع بالعكس لكان

الامر بالعكس : والمصيبة فى هذه الصحف أن رجلاً واحداً هو قانون

كل رجل هنا



قلت : وذلك الرجل الواحد ما قانونه ؟

قال : له ثلاثة قوانين : الجهات العالية وما يستوحيه منها ، والجهات النازلة وما يوحيه إليها ، وقانون الصلة بين الجهتين وهو ...

قلت : وهو ماذا ؟

فخماق في وقال : ماهذه البلاد ؟ وهو الذي « هو » ... أما ترى الصحيفة ككل شيء يباع ؟ وأنت تخبرني - ولك الدولة والصولة عند القراء - ألم تر بعينيك أنك لو جئت تدفع ثمانمائة قرش ، لكنت في نفوسهم أعظم مما أنت وقد جئت تهدي ثمانمائة صفحة من البيان والأدب ؟

قلت : يا أبا عثمان ، فإذا تكتب هنا ؟

قال : إن الكتابة في هذه الصحافة صرة من الروية ، فماذا ترى أنت في ... وفي ... وفي ... ؟ لقد كنا نروى في الحديث ، « يكون قومٌ يأكلون الدنيا بالسنتهم كما تاحس الأرض البقرةُ بلسانها » ؛ فلعلّ من هذه اللسانة الطويلة لسان صياح الجريدة ...

قلت : ولستك يا شيخنا قد نسيت القراء وحكمهم على الصحيفة

قال : القراء ما القراء ، وما أدراك ما القراء ! وهل أساس أكثرهم إلا بلاد المدارس ، وسخافة الحياة ، وضعف الأخلاق ، وكذب السياسة ؟ إن الإبداع كل الإبداع في أكثر ماتكتب هذه الصحف ، أن تجعل الكذب يكذب بطريقة جديدة ... وما دام المبدأ هو الكذب فالظاهر هو الهزل ؛ والناس في حياة قد ماتت فيها المعاني الشديدة القوية السامية ، فهم يريدون الصحافة الرخيصة ، واللغة الرخيصة والقراءة الرخيصة ؛ وبهذا أصبح الجاحظ وأمثاله (صعاليك الصحافة) .

ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير ، فنهض إليه ثم رجع بعينين لا يقال فيه ما جاحظتان ، بل خارجتان ... وقال : أف ! « وحيط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » .

« كلاً والذي حرّم التزديد على العلماء ، وقبّح التكلف عند الحكماء ، وبهرج الكذابين عند الفقهاء ، لا يظن هذا إلا من ضل سعيه » . (٥)

قلت : ماذا دهاك يا أبا عثمان ؟

قال : ويحها صحافة ! قل في عمك ما قال المثل : جَحَظَ إليه عمله . (٥٥)

قلت : ولكن ما القصة ؟

قال : ويحها صحافة ! وقال الأحنف : أربع من كنّ فيه كان كاملاً ، ومن تعلّق بخصلة منهن كان من صالحى قومه : دين يرشده ، أو عقل يستدده ، أو حسَب يصونه ، أو حياء يقناه . وقال : « المؤمن بين أربع : مؤمن يحسده ، ومنافق يبغضه ، وكافر يجاهده ، وشيطان يفتنه . وأربع ليس أقلّ منهن : اليقين ، والعدل ، ودرهم حلال ، وأخ في الله » . وقال الحسن ابن علي ... (\*\*\*)

قلت : يا شيخنا ، دعنا الآن من الرواية والحفظ والحسن والأحنف ؛ فماذا دهاك عند رئيس التحرير ؟

قال : لم أحسن المهاترة في المقال الذى كتبته اليوم ... ويقول رئيس التحرير : إن نصف التمويه رذيلة ؟ فإن نصفه الآخر يدل على أنه تمويه . ويقول : إن سمو الكتابة انحطاط فصيح ، لأنّ القراء في هذا العهد

---

(٥) هذه الجملة من كلام الجاحظ

(٥٥) يريدون أنه إذا نظر في عمله رأى سوء ما صنع

(٥٥٥) هذه طريقة الجاحظ ، يخاطب الكلام دائماً بالنقل

لا يخرجون من حفظ القرآن والحديث ودراسة كتب العلماء والفصحاء ، بل من الروايات والمجلات الهزلية . وحفظ القرآن والحديث وكلام العلماء يضع في النفس قانون النفس ، ويجعل معانيها مهياة بالطبيعة للاستجابة لتلك المعاني الكبيرة في الدين والفضيلة والجِد والقوة ؛ ولكن ماذا تصنع الروايات والمجلات وصور الممثلات والمغنيات وخبر الطالب فلان والطالبة فلانة والمسارح والملاهي ؟

ويقول رئيس التحرير : إن الكاتب الذي لا يسأل نفسه ما يقال عني في التاريخ ، هو كاتب الصحافة الحقيقي ، لأن القروش هي القروش والتاريخ هو التاريخ ؛ ومطبعة الصحيفة الناجحة هي بنت خالة مطبعة البنك الأهلي ؛ ولا يتحقق نسبُ ما بينهما إلا في إخراج الورق الذي يُصَرَف كله ولا يُرد منه شيء !

إنهم يريدون إظهار المخازي مكتوبة ، كحوادث الفجور والسرقة والقتل والعشق وغيرها ؛ يزعمون أنها أخبار تُروى وتَقص للحكاية أو العبرة ، والحقيقة أنها أخبارهم إلى أعصاب القراء ...



ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير ...

## صعاليك الصحافة ...

٢

وغاب شيخنا أبو عثمان عند رئيس التحرير بعض ساعة ، ثم رجع تدور عيناه في جحاطييهما وقد اكفهر وجهه وعبس كأنما يحرق فيه الدُم الأسود لا الأحمر ، وهو يكاد ينشق من الغيظ ، وبعضه يغلي في بعضه كالماء على النار ؛ فما جالس حتى جاءت ذبابتان فوقعتا على كَنَفِيْ أَنفِهِ تَتِمَّانِ كَأَبَّةَ وَجْهِهِ المشوّه ، فكان منظرهما من عينيهِ السوداءين الجاحظتين منظرَ ذبابتين وُلدتا من ذبابتين ...

وتركهما الرجل لشأنهما وسكت عنهما ؛ فقالت له : يا أبا عثمان ، هاتان ذبابتان ، ويقال إن الذباب يحمل العدوى

فضحك ضحكة المَغِيْظ وقال : إن الذباب هنا يخرج من المطبعة لا من الطبيعة ... فأكثر القول في هذه الجرائد حشرات من الألفاظ : منها ما يُستَقَدَّر ، وما تنقلب له النفس ، وما فيه العدوى ، وما فيه الضرر ؛ وما بدُّ أن يعتاد الكاتب الصحفي من الصبر على بعض القول مثل ما يعتاد الفقير من الصبر على بعض الحشرات في ثيابه ؛ وقد يريد صاحب الجريدة أو رئيس التحرير على أن يكتب كلاماً لو أعفاه منه وأراده على أن يجمع القمل والبراغيث من أهدام الفقراء والصعاليك بقدر ما يملأ مقالة ٠٠٠ كان أخف عليه وأهون ، وكان ذلك أصرح في معنى الطلاب والتكليف (\*) .

---

(\*) هذه طريقة الجاحظ في الإغراق حين يتهم

وكيفما دار الأمر فإن كثيراً من كلام الصحف لومسخه الله شيئاً غير  
الحروف المطبعية : لطارك! ذباباً على وجوه القراء !  
قلت : ولكنك يا أبا عثمان ذهبت مُتَطَلِّقاً إلى رئيس التحرير ورجعت  
متعقداً فما الذى أنكرت منه ؟

قال : « لو كان الأمر على ما يشتهيهِ الغريبُ والجاهلُ بعواقب الأمور ،  
لبطل النظر وما يشحذ عليه وما يدعو إليه ، ولتعطلت الأرواح من  
معانيها والعقول من ثمارها ، ولعدمت الأشياء حظوظها وحقوقها » (٥) .  
هناك رجل من هؤلاء المعنّيين بالسياسة في هذا البلد ... يريد أن يخلق في  
الحوادث غير معانيها ، ويربط بعضها إلى بعض بأسباب غير أسبابها ،  
ويخرج منها نتائج غير نتائجها ، ويلفق لها من المنطق رُقعاً كهذه الرقع في  
الثوب المفتوق : ثم لا يرضى إلا أن تكون بذلك ردّاً على جماعة خصومه  
وهي رد عليه وعلى جماعته ، ولا يرضى مع الرد إلا أن يكون كالأعاصير  
تدفع مثل تيار البحر في المستنقع الراكد

ثم لم يجد لها رئيس التحرير غير عمك أبي عثمان في لطافة حسّه وقوة  
طبعه وحسن بيانه وافتداره على المعنى وضده ، كأن أبا عثمان ليس عنده  
من يحاسبون أنفسهم ، ولا من المميزين في الرأي ، ولا من المستدلّين بالدلائل ،  
ولا من الناظرين بالحجة ؛ وكأن أبا عثمان هذا رجلٌ حُرُوفى ... كحروف المطبعة :  
ترفع من طبقة وتوضع في طبقة وتكون على ماشئت ، وأدنى حالاتها أن تمتد  
إليها اليد فإذا هي في يدك

وأنا اسرؤُ سيدٌ في نفسى ، وأنا رجل صدق ، ولست كهؤلاء الذين  
لا يتأثمون ولا يتذمّون : فإن خضتُ في مثل هذا انتقض طبعى وضعفت

---

(٥) هذه الجملة من كلام الجاحظ

استطاعتي وتبين النقص فيما أكتب ، ونزلتُ في الجهتين ؛ فلا يطرد لي القول على ما يرجو ، ولا يستوى على ما أحب ؛ فذهبت أناقضه وأردّ عليه ؛ فُبهِتَ ينظر إلى ويقلب عينيه في وجهي ، كأن الكاتب عنده خادم رأيه كخادم مطبخه وطعامه ، هذا من هذا !

ثم قال لي : يا أبا عثمان ، إني لأستحي أن أعنفك ؛ وبهذا القول لم يستح أن يعنف أبا عثمان ... ولهممتُ والله أن أنشده قول عباس بن مرداس :  
أكليب ... مالك كل يوم ظالماً والظلم أنكد وجهه ملعون ...  
لولا أن ذكرتُ قول الآخر :

وما بين من لم يُعطِ سمعاً وطاعةً وبين تميمٍ غيرُ حَزِّ الغلاصم -  
وحزُّ الغلاصم « وقطعُ الدراهم » من قافية واحدة ... وقال سعيد بن أبي عروبة : « لأن يكونَ لي نصفُ وجه ونصف لسان على مافيهما من قبح المنظر وعجز المخبر — أحبُّ إليّ من أن أكون ذا وجهين وذا لسانين وذا قولين مختلفين » . وقال أيوب السخيتاني ...  
وهمَّ شيخنا أن يمرَّ في الحفظ والرواية على طريقته ، فقلت : وقال رئيس التحرير ... ؟

فضحك وقال : أما رئيس التحرير فيقول : إن الخلافة والمواربة وتقليب المنطق هي كل البلاغة في الصحافة الحديثة ، ولهي كقلب الأعيان في معجزات الأنبياء صلوات الله عليهم ؛ فكما انقلبت العصا حية تسعى ، وهي عصا وهي من الخشب ، فكذلك تنقلب الحادثة في معجزات الصحافة إذا تعاطاها الكاتب البليغ بالفطنة العجيبة والمنطق الملوّن والمعرفة بأساليب السياسة ؛ فتكون للهويل وهي في ذاتها اطمئنان ، وللهمة وهي في نفسها براءة ، وللجاية وهي في معناها سلامة ؛ ولو نفخ الصحافي الحاذق في قبضة من

التراب لاستطارت منها النار وارتفع لهبها الأحمر في دخانها الأسود . قال :  
وإن هذا المنطق الملوّن في السياسة إنما هو إتقان الحيلة على أن يصدقك  
الناس ؛ فإن العامة وأشباه العامة لا يصدّقون الصدق لنفسه ، ولكن للغرض  
الذى يساق له ، إذ كان مدار الأمر فيهم على الإيمان والتقديس ، فأذقهم  
حلاوة الإيمان بالكذب فلن يعرفوه إلا صدقا وفوق الصدق ، وهم من  
ذات أنفسهم يقيمون البراهين العجيبة ويساعدون بها من يكذب عليهم متى  
أحكم الكذب ، ليحققوا لأنفسهم أنهم بحثوا ونظروا ودققوا ...  
ثم قال أبو عثمان : ومعنى هذا كله أن بعض دُور الصحافة لو كتبت عبارة  
صريحة للإعلان لكنت العبارة هكذا : سياسة للبيع ...



قلت : يا شيخنا ، فإنك هنا عندهم لتكتب كما يكتبون ، ومقالات السياسة  
الكاذبة كرسائل الحب المكاذب : تُقرأ فيها معانٍ لاتكتب ، ويكون في  
عبارتها حياء وفي ضمنها طلب ما يُستحى منه ... والحوادث عندهم على حسب  
الأوقات ، فالأبيض أسود في الليل ، والأسود أبيض في النهار ؛ ألم تر إلى فلان  
كيف يصنع وكيف لا يعجزه برهان وكيف يخرج المعانى ؟  
قال : بلى ، نعم الشاهد هو وأمثاله ! إنهم مصدّقون حتى في تاريخ  
حفر زمزم

قلت : وكيف ذلك ؟

قال : شهد رجل عند بعض القضاة على رجل آخر ، فأراد هذا أن  
يجرح شهادته ، فقال للقاضى : أتقبل منه وهو رجل يملك عشرين ألف  
دينار ولم يحجّ إلى بيت الله ؟ فقال الشاهد : بلى قد حججت . قال الخصم :  
فاسأله أيها القاضى عن زمزم كيف هي ؟ قال الشاهد : لقد حججت قبل أن

تحفر زمزم فلم أرها ...

قال أبو عثمان : فهذه هى طريقة بعضهم فيما يزكى به نفسه : ينزلون إلى مثل هذا المعنى وإن ارتفعوا عن مثل هذا التعبير ؛ إذ كانت الحياة السياسية جدلاً فى الصحف لنفى المنفى وإثبات المثبت ، لأعمالاً يعملونه بالنفى والإثبات ؛ ومتى استقلت هذه الأمة وجب تغيير هذه الصحافة وإكراهها على الصدق ، فلا يكون الشأن حينئذ فى إطلاق الكلمة الصحافية إلا من معناها الواقع .

والحياة المستقلة ذات قواعد وقوانين دقيقة لا يُترخّص فيها مادام أساسها إيجاد القوة وحياطة القوة وأعمال القوة ، وما دامت طبيعتها قائمة على جعل أخلاق الشعب حاكمة لا محكومة ؛ وقد كان العمل السياسى إلى الآن هو إيجاد الضعف وحياطة الضعف وبقاء الضعف ؛ فكانت قواعدنا فى الحياة مغلوطة ؛ ومن ثم كان الخلق القوي الصحيح هو الشاذ البادر يظهر فى الرجل بعد الرجل والفترة بعد الفترة ، وذلك هو السبب فى أن عندنا من الكلام المنافق أكثر من الحر ، ومن الكاذب أكثر من الصادق ، ومن الممارى أكثر من الصريح ؛ فلا جرم ارتفعت الألقاب فوق حقائقها ، وصارت نعوت المناصب وكلمات باشا وبك من الكلام المقدس صحافياً ...

يا لعباد الله ! يأتيهم اسم الأديب العظيم فلا يجدون له موضعاً فى « محليات الجريدة » ؛ ويأتيهم اسم الباشا أو البك أو صاحب المنصب الكبير فيماذا تتشرف « المحليات » إلا به ؟ وهذا طبيعى ، ولكن فى طبيعة النفاق ؛ وهذا واجب ، ولكن حين يكون الخضوع هو الواجب ؛ ولو أن الأديب وزناً فى ميزان الأمة لكان له مثل ذلك فى ميزان الصحافة ؛ فأنت



ترى أن الصحافة هنا هي صورة من عامية الشعب ليس غير ... ومن ذا الذى يصحح معنى الشرف العامل لهذه الأمة وتاريخها وأكثر الألقاب عندها هي أغلاط في معنى الشرف ... ؟

ثم صحك أبو عثمان وقال : زعموا أن ذبابة وقعت في بارجة ( أميرال ) إنجليزى أيام الحرب العظمى ؛ فرأت القائد العظيم وقد نشر بين يديه درجاً من الورق وهو يخطط فيه رسماً من رسوم الحرب ؛ ونظرت فإذا هو يلقى النقطة بعد النقطة من المداد ويقول : هذه مدينة كذا ، وهذا حصن كذا ، وهذا ميدان كذا قالوا فسخرت منه الذبابة وقالت : ما يسر هذا العمل وما أخف وما أهون ! ثم وقعت على صفحة بيضاء وجعلت تاقى وَنِيمَهَا (\*) هنا وهناك وتقول : هذه مدينة ، وهذا حصن ...



والتفت الجاحظ كأنما توهم الجرس يدق ... فلما لم يسمع شيئاً قال : لو أننى أصدرت صحيفة يومية لسميتها ( الأكاذيب ) ، فهما أكذب على الناس فقد صدقت في الاسم ، ومهما أخطئ فإن أخطئ في وضع النفاق تحت عنوانه

قال : ثم أخط تحت اسم الجربدة ثلاثة أسطر بالخط الثلث هذا نصها :

ماهى عزة الأذلاء ؟ هى الكذب الهازل

ماهى قوة الضعفاء ؟ هى الكذب المكابر

ماهى فضيلة الكذابين ؟ هى استمرار الكذب

قال : ثم لايجرر في جريدتى إلا دصعايلك الصحافة ، من أمثال الجاحظ ؛

ثم أكذب على أهل المال فأجد الفقراء العاملين ، وعلى رجال الشرف

(\*) ونيم الذباب : هر ... أى هذه النقط السرد التى يحدثها

فأعظم العمال المساكين ، وعلى أصحاب الألقاب فأقدم الأدباء والمؤلفين ، و ...  
ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير ...

## صعاليك الصحافة

### ٣

ولم يلبث أن رجع أبو عثمان في هذه المرة وكأنه لم يكن عند رئيس التحرير في عملٍ وأدائه ، بل كان عند رئيس الشرطة في جنائية وعقابها ؛ فظهر منقلب السحنة انقلاباً دميماً شره تشويهه وزاد فيه زيادات ... ورأيتُه ممطوط الوجه مطاً شنيعاً بدت فيه عيناه الجاحظتان كأنهما غير مستقرتين في وجهه ، بل معلقتان على جبهته ...

وجعل يضرب إحدى يديه بالأخرى ويقول : هذا باب على حدة في الامتحان والبلوى ، وما فيه إلا المثونة العظيمة والمشقة الشديدة ؛ والعمل في هذه الصحافة إنما هو امتحانك بالصبر على اثنين . على ضميرك ، وعلى رئيس التحرير : « وسأل بعض أصحابنا أبا لقمان الممرور عن الجزء الذي لا يتجزأ ما هو ؟ فقال : الجزء الذي لا يتجزأ على بن أبي طالب عليه السلام ! فقال له أبو العيناء محمد : أفليس في الأرض جزء لا يتجزأ غيره ؟ قال : بلى ، حمزة جزء لا يتجزأ ... قال : فما تقول في أبي بكر وعمر ؟ قال : أبو بكر يتجزأ ... قال : فما تقول في عثمان ؟ قال : يتجزأ مرتين ، والزبير يتجزأ مرتين ... قال : فأى شيء تقول في معاوية ؟ قال : لا يتجزأ . فقد فكرنا في تأويل أبي لقمان حين جعل الأنام أجزاءً لا تتجزأ إلى

أى شيء ذهب ؟ فلم نقع عليه إلا أن يكون أبو لقمان كان إذا سمع المتكلمين يذكرّون الجزء الذى لا يتجزأ ، هاله ذلك وكبر في صدره وتوهم أنه الباب الأكبر من علم الفلسفة ، وأن الشيء إذا عظم خطره سموه بالجزء الذى لا يتجزأ <sup>(٥)</sup>»

قلت : ورجع بنا القول إلى رئيس التحرير ...

فضحك حتى أسفر وجهه ثم قال : إن رئيس التحرير قد تلقى الساعة أمراً بأن الجزء الذى لا يتجزأ اليوم هو فلان ؛ وأن فلانا الآخر يتجزأ مرتين ... وأن المعنى الذى يبنى عليه رأى الصحيفة في هذا النهار هو شأن كذا في عمل كذا ؛ وأن هذا الخبر يجب أن يصوّر في صيغة تلائم جوع الشعب فتجعله كالخبز الذى يطعمه كل الناس ، وتثير له شهوة في النفوس كشهوة الأكل وطبيعة كطبيعة الهضم ... وقد رمى إلى رئيس التحرير بجملة الخبر ، وعلىّ أنا بعد ذلك أن أضرم النار وأن أجعل التراب دقيقاً أبيض يُعجن ويخبز ويؤكل وبسوغ في الحلق وتستمرئه المعدة ويسرى في العروق .

وإذا أنا كتبت في هذا احتجتُ من الترقيع والتويه ، ومن التدليس والتغليط ، ومن الحُب والمكر ، ومن الكذب والبُهتان — إلى مثل ما يحتاج إليه الزنديقُ والدهرىُّ والمعتلُّ في إقامة البرهانات على صحة مذهب عَرَف الناس جميعاً أنه فاسدٌ بالضرورة إذ كان معلوماً من الدين بالضرورة ، أنه فاسد ؛ وأين ترى إلا في تلك النحل وفي هذه الصحافة أن ينكر المتكلم وهو عارف أنه منكر ، وأن يجترئ وهو موقن أنه مجترئ ، ويكابر وهو واثق أنه يكابر ؟ فقد ظهر تقديرٌ من تقدير ، وعملٌ من عمل ، ومذهبٌ من مذهب ؛ والآفة أنهم لا يستعملون في الإقناع والجدل والمغالطة إلا الحقائق المؤكدة ؛ يأخذونها

إذا وُجدت ويصنعونها إن لم توجد ، إذ كان التأثير لا يتم إلا بجعل القارئ كالحالم : يملكه الفكر ولا يملك هو منه شيئاً ، ويُلقَى إليه ولا يمتنع ، ويُعطى ولا يرُد على من أعطاه .

قلت : ولكن ما هو الخبر الذى أرادوك على أن تجعل من ترابه دقيقاً أبيض ؟

قال : هو بعينه ذلك الشأن الذى كتبتُ فيه لهذه الصحيفة نفسها أنقضه وأسفّه وأرد عليه ، وكان يومئذ جزءاً يتجزأ ... فإن صنعتُ اليوم بلاغتي فى تأييده وتزيينه والإشادة به ، ولم يكن هذا كاسراً لى ، ولا حائلاً بينى وبين ذات نفسى - فلا أقل من أن يكون الجاحظ تكذيباً للجاحظ ، آه لو وُضع الرديو فى غرف رؤساء التحرير لسمع الناس ...

قلت : يا أبا عثمان ، هذا كقولك : لو وُضع الرديو فى غرف قواد الجيوش أو رؤساء الحكومات .

قال : ليس هذا من هذا ، فإن للجيش معنى غير الخدق فى تدبير المعاش والتكسب وجمع المال ؛ وفى أسرارهِ أسرارُ قوة الأمة وعمل قوتها ؛ وللحكومة دخائل سياسية لا يحركها أن فلانا ارتفع وأن فلانا انخفض ، ولا تصرفها العشرة أكثر من الخمسة ؛ وفى أسرارها أسرارُ وجود الأمة ونظام وجودها قال أبو عثمان : وإنما نزل بصحافتنا دون منزلتها أنها لا تحب الشعب الفارئ المميز الصحيح القراءة الصحيح التمييز ، ثم هى لا تريد أن تذهب أموالها فى إيجاده وتنشئته ؛ وعمل الصحافة من الشعب عمل التيار من السفن فى تحريكها وتيسير مجراها ، غير أن المضحك أن تيارنا يذهب مع سفينة ويرجع مع سفينة ... ولو أن الصحافة العربية وجدت الشعب قارئاً مدركاً مميزاً معتبراً مستبصراً لما رمت بنفسها على الحكومات والأحزاب عجزاً وضعفاً

وفسولة ، ولا خرجت عن النسق الطبيعي الذي وضعت له ، فإن الشعب تحكمه الحكومة ، وإن الحكومة تحكمها الصحافة ، فهي من ثم لسان الشعب ؛ وإنما يقرؤها القارئ ليرى كلمته مكتوبة ؛ وشعور الفرد أن له حقاً في رقابة الحكومة وأنه جزء من حركة السياسة والاجتماع ، هو الذي يوجب عليه أن يبتاع كل يوم صحيفة اليوم

قال أبو عثمان : فالصحافة لا تقوى إلا حيث يكون كل إنسان قارئاً ، وحيث يكون كل قارئ للصحيفة كأنه محرر فيها ، فهو مشارك في الرأي لأنه واحد من يدور عليهم الرأي ، متتبع للحوادث لأنه هو من مادتها أو هي من مادته ، وهو لذلك يريد من الصحيفة حكاية الوقت وتفسير الوقت ، وأن تكون له كما يكون التفكير الصحيح للفكر ، فيلزمها الصدق ويطلب منها القوة ويلتمس فيها الهداية ، وتأتي إليه في مطلع كل يوم أو مغربه كما يدخل إلى داره أحد أهله الساكنين في داره

وفي قلة القراء عندنا آفتان : أ. واحدة فهي القلة التي لا تغنى شيئاً ؛ وأما الأخرى فهم على قلتهم لا ترى أكبر شأنهم إلا عبادة قوم لقوم ، وزرابة أناس بآخرين ، وتعلق نفاق بنفاق ، وتصديق كذب لكذب ؛ وآفة ثالثة تخرج من اجتماع الاثنين : وهي أن أكثرهم لا يكونون في قراءتهم الصحيفة إلا كالنظارة اجتمعوا ليشهدوا ما يتلوهون به ، أو كالفراغ يلتمسون ما يقطعون به الوقت ؛ فهم يأخذون السياسة مأخذ من لا يشارك فيها ، ويتعاطون الجد تداطي من يلهو به ، ويتلقون الأعمال بروح البطالة ، والعزائم بأسلوب عدم المبالاة ، والمباحثة بفكرة الإهمال ، والمعارضة بطبيعة الهزل والتحقير ؛ وهم كالمصلين في المسجد ؛ فمثل لنفسك نوعاً من المصلين إذا اصطفوا وراء الإمام تركوه يصلي عن نفسه وعنهم وانصرفوا ...

قال أبو عثمان : بهذا ونحمره جاءت الصحف عندنا وأكثرها لاثبات له  
إلا في الموضع الذى تكون فيه بين منافعه ووسائل منافعه ؛ ومن هذا  
ونحوه كان أقوى المسادة عندنا أن تظهر الصحيفة ملووءة بحكومة وسلطة  
وباشوات وبيكوات ... وكان من الطبيعى أن محل الباشا والبك والحوادث  
الحكومية التفهة لا يكون من الجريدة إلا في موضع قلب الحى من الحى .  
ثم استضحك شيخنا وقال : لقد كتبت ذات يوم مقالة أقترح فيها على  
الحكومة تصحيح هذه الألقاب ، وذلك بوضع لقب جديد يكون هو  
المفسر لجميعها ويكون هو اللقب الأكبر فيها ، فإذا أنعم به على إنسان كتبت  
الصحف هكذا : أنعمت الحكومة على فلان بلقب ( ذو مال ) .  
ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير ...

\*\*\*

فلم يلبث إلا يسيراً ثم عاذ متهللاً ضاحكاً وقد طابت نفسه فليس له جحوظ  
العينين إلا بالقدر الطبيعى ، وجلس إلى وهو يقول :  
بيد أن رئيس التحرير لم ينشر ذلك المقال ، ولم ير فيه استطرافاً ولا ابتكاراً  
ولا نكتة ولا حجة صادقة ، بل قال : كأنك يا أبا عثمان تريد أن يأكل عدد  
اليوم عدد الغد ، فإذا نحن زهدنا فى الألقاب وأصغرنا أمرها وتهكنا بها  
وقلنا إنها أفسدت معنى التقدير الإنسانى وتركت من لم ينلها من ذوى الجاه  
والغنى يرى نفسه إلى جانب من نالها كالمرأة المطلقة بجانب المتزوجة ... وقلنا  
لأنها من ذلك تكاد تكون رسالة من وسائل الدفع إلى التلقى والخضوع والنفاق  
لمن ييدهم الأمر ، أروسيه إلى ما هو أحط من ذلك كما كان شأنها فى عهد الدولة  
العثمانية البائدة حين كان الوسام كالرقعة من جلد الدولة يُرقع بها الصدر  
الذى شقوه وانتزعوا ضميره - إذا نحن قلنا هذا وفعلنا هذا ، لم نجد الشعب

الذى يحكم لنا ، ووجدنا ذوى المال والجاه والمناصب الذين يحكمون علينا ؛  
فكنا كمن يتقدم فى التهمة بغير محام إلى قاض ضعيف

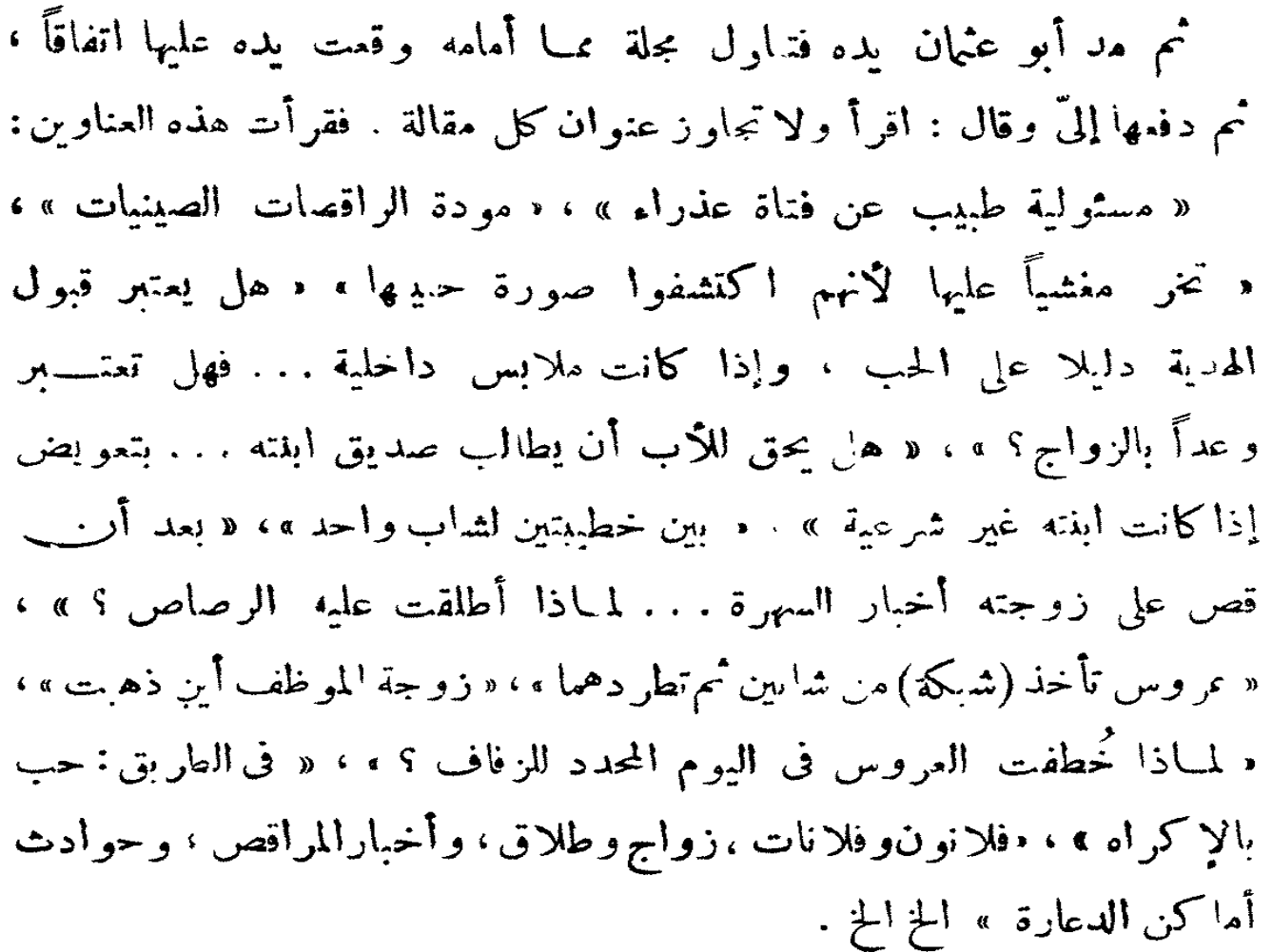
ياأبا عثمان ، إنما هى حياة ثلاثة أشياء : الصحيفة ، ثم الصحيفة ، ثم الحقيقة ...  
فالفكرة الأولى للصحيفة ، والفكرة الثانية هى للصحيفة أيضاً : ومتى جاء  
الشعب الذى يقول : لا ، بل هى الحقيقة ، ثم الحقيقة ، ثم الصحيفة —  
فيومئذ لا يقال فى الصحافة ما قيل لليهود فى كتاب موسى : تجعلونه قراطيس  
تبدونها وتخفون كثيراً ...

قلت : أراك ياأبا عثمان لم تنكر شيئاً من رئيس التحرير فى هذه المرة ، فشق  
عليك ألا تثلبه ، فغمزته بالكلام عن مرة سألته

قال : أما هذه المرة فأنا الرئيس لاهو ، وفى مثل هذا لا يكون عمك  
أبو عثمان من ( صعاليك الصحافة ) : إن الرجل اشتبه فى كلمة : ماوجهها :  
أمر فوعة هى أم منصوبة ؟ وفى لفظة : ماهى : أعربية أم مولدة ؟ وفى  
تعبير أعجمى : ما الذى يؤديه من العربية الصحيحة ؟ وفى جملة : أهى فى نسقها  
أفصح أم يُبدلها ؟

إن المعجم هنا لا يفيدهم شيئاً إلا إذا نطق ...

ولقد ابتليت هذه الأمة فى عهدها الأخير بحب السهولة بما أثر فيها  
الاحتلال وسياسته وتحمله الأعباء عنها واستهدافه درنما للخطر ، فشبه العامية  
فى لغة الصحف وفى أخبارها وفى طرقها إنما هو صورة من سهولة تلك  
الحياة ، وكأنه تثبت للضعف والخور ، وأنت خبير أن كل شىء يتحول بما  
تحدث له طبيعته عالياً أو نازلاً ، فقد تحولت السهولة من شبه العامية إلى  
نصف العامية فى كتابة أكثر المجلات وفى رسائل طلبة المدارس ، حتى لتبدو  
المقالة فى ألفاظها ومعانيها كأنها القنفذ أراد أن يحمل ما كلة صغاره ، فقرض



فقال أبو عثمان : هذه هي حرية النشر ؛ وإن كان هذا طبيعياً في قانون الصحافة إنه لإثم كبير في قانون التربية ؛ فإن الأحداث والضعفاء يجدونه عند أنفسهم كالتخيير بين الأخذ بالواجب وبين تركه ، ولا يفهمون من جواز نشره إلا هذا . وباب آخر من هذا الشكل فبكم أعظم حاجة إلى أن تعرفوه وتقفوا عنده ، وهو ما يصنع الخبر ولا سيما إذا صادف من السامع قلة تجربة ، فإن قرن بين قلة التجربة وقلة التحفظ - دخل ذلك الخبر إلى مستقره من القلب دخولاً سهلاً ، وصادف موضعاً وطيباً وطبيعية



قابلة ونفساً ساكنة ، ومتى صادف القاب كذلك رسوخا لاحتيلة  
في إزالته

ومتى ألقى إلى الفتیان شیء من أمور الفتیات فی رقت الغرارة وعند غلبة  
الطبیعة وشباب الشهوة وقلة التشاغل و... ، (٥)  
ودقی الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئیس التحرير ...

## صعاليك الصحافة<sup>(٥٥)</sup>

### تتمة

وجاء أبو عثمان وفي بُروز عينيه ما يجعلهما في وجهه شيئاً كعلامتي  
تعجب ألقهما الطبيعة في هذا الوجه ، وقد كانوا يلقبونه (الحَدَقِي) فوق  
تلقيبه بالجاحظ ، كأن لقباً واحداً لا يبيّن عن قبح هذا التوء في عينيه، إلا  
بمرادف ومساعد من اللغة ... وما تذكرت اللقبين إلا حين رأيت عينيه  
هذه المرة .

(٥) هذه الجملة من كلام الجاحظ

(٥٥) كتب الدكتور زكي مبارك مقالا في جريدة المصري الغراء زعم فيه أننا قلنا  
« إن الصحافة لا تنجح إلا في أيدي الصعاليك » ، ولا ندرى كيف أحس هذا المعنى ،  
ثم تهددنا ! فقال : « مارأيك إذا وقف لك أحد الصحفيين ( ولعله يعنى نفسه ) في  
معركة فاصلة !! ورماك بحب التكلف والافتعال في عالم الانشاء والتأليف ؟ » « مارأيك  
إذا حملك رجل منهم ( ولعله يعنى نفسه ) على عاتقه وألقى بك في هاوية التاريخ  
لتعيش مع صعصعة بن صوحان ، ؟ - أبلغ خطباء العرب وأنطقهم .  
وجوابنا لصاحبنا هذا : أن وزارة الداخلية اطلعت على مقاله فأمرت جميع المحال  
التي تباع لعب الاطفال ، ألا يبيعوا « معركة فاصلة » ، ولا « هاوية تاريخ » ...

وانحط في مجلسه كأن بعضه يرمى بعضه من سخط وغيظ ، أو كأن من جسمه ما لا يريد أن يكون من هذا الخاق المشوه ، ثم نصب وجهه يتأمل ، فبدت عيناه في خروجهما كأنما تهّمان بالفرار من هذا الوجه الذي تحيا الكتابة فيه كما يحيا الهم في القلب : ثم سكت عن الكلام لأن أفكاره كانت تكلمه .

فقطعتُ عليه الصمت وقلت : يا أبا عثمان ، رجعت من عند رئيس التحرير زائداً شيئاً أو ناقصاً شيئاً : فما هو يرحمك الله ؟

قال : رجعت زائداً أنى ناقص ، وههنا شيء لا أقوله ، ولو أن في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لوقفوا على عمك وأمثال عمك من كتاب الصحف يتعجبون لهذا النوع الجديد من الشهداء !

وقال ابن يحيى النديم : دعاني المتوكل ذات يوم وهو مخمور فقال : أنشدني قول عمارة في أهل بغداد . فأنشدته :

ومن يشتري منى ملوك مُحَرَّم      أبيع حسناً وابنى هشام بدرهم  
وأعطى «رجاء» بعد ذاك زيادة      وأمنح «ديناراً» بغير تنذم  
قال أبو عثمان :

فإن طلبوا منى الزيادة زدتهم      أبادلف والمستطيل بن أكرم  
ويل على هذا الشاعر ! اثنان بدرهم ، واثنان زيادة فوقهما لعظم الدرهم ، واثنان زيادة على الزيادة لجلالة الدرهم : كأنه رئيس تحرير جريدة يرى الدنيا قد ملئت كتاباً ، ولكن ههنا شيئاً لا أقوله .

وزعموا أن كسرى أبرويز كان في منزل امرأته شيرين ، فأتاه صياد بسمكة عظيمة ، فأعجب بها وأمر له بأربعة آلاف درهم ، فقالت له شيرين : أمرت الصياد بأربعة آلاف درهم ، فإن أمرت بها لرجل من الوجوه

قال : إنما أمر لي بمثل ما أمر للصياد ! فقال كسرى : كيف أصنع . وقد أمرت له ؟

قالت : إذا أتاك فقل له : أخبرني عن السمكة ، أذكر هي أم أنثى ؟ فإن قال أنثى ، فقل له : لا تقع عيني عليك حتى تأتيني بقرينها . وإن قال غير ذلك فقل له مثل ذلك .

فلما غدا الصياد على الملك قال له : أخبرني عن السمكة ، أذكر هي أم أنثى ؟ قال : بل أنثى ، قال الملك : فأتني بقرينها . فقال الصياد : عمر الله الملك ، إنها كانت بكرًا لم تتزوج بعد ..

قلت : يا أبا عثمان ، فهل وقعت في مثل هذه المعضلة مع رئيس التحرير ؟ قال : لم ينفع عمك أن سمكته كانت بكرًا ، وإنما يريدون إخراجه من الجريدة ؛ وما بلاغة أبي عثمان الجاحظ بجانب بلاغة التاغراف وبلاغة الخبر وبلاغة الأرقام وبلاغة الأصفر وبلاغة الأبيض ... ولكن ههنا شيئًا لا أريد أن أقوله .

وسمكتي هذه كانت مقالة جودتها وأحکمتها وبلغت بألفاظها ومعانيها أعلى منازل الشرف وأسنى رتب البيان ، وجعلتها في البلاغة طبقة وحدها ، وقبل أن يقول الأوربيون (صاحبة الجلالة الصحافة) قال المأمون : «الكتاب ملوك على الناس» ، فأراد عمك أبو عثمان أن يجعل نفسه ما يكاتبك المقالة فإذا هو بها من (صعاليك الصحافة)

لقد كانت كالعروس في زينتها ليلة الجلوة على محبها ، ما هي إلا الشمس الضاحية ، وما هي إلا أشواق ولذات ، وما هي إلا اكتشاف أسرار الحب ، وما هي إلا هي ؛ فإذا العروس عند رئيس التحرير هي المطلقة ، وإذا المعجب هو المضحك ، ويقول الرجل : أما نظريًا فنعم ، وأما عمليًا فلا ؛ وهذا عصر

خفيف يريد الخفيف، وزمن عامى يريد العامى ، وجهور سهل يريد السهل ؛  
والفصاحة هى إعراب الكلام لا سياسته بقوى البيان والفكر واللغة ، فهى  
اليوم قد خرجت من فترتها واستقرت فى علم النحو  
وحسبك من الفرق بينك وبين القارئ العامى : أنك أنت لا تلحن  
وهو يلحن

قال أبو عثمان : وهذه أكرمك الله منزلة يقل فيها الخاصى ويكثر  
العامى فيوشك ألا يكون بعدها إلا غلبة العامية ، ويرجع الكلام الصحافى  
كله سوقياً بلدياً (حذشياً) ، وينقلب النحو نفسه وما هو إلا التكلم والتوعر  
والتععر كما يرون الآن فى الفصاحة ، والقليل من الواجبات ينتهى إلى الأقل ؛  
والأقل ينتهى إلى العدم ، والانحدار سريع يبدأ بالخطوة الواحدة ثم لا تملك  
بعدها الخطى الكثيرة

لا جرم فسد الذوق وفسد الأدب وفسدت أشياء كثيرة كانت كلها سالحة ،  
وجاءت فنون من الكتابة ماهى إلا طبائع كتابها تعمل فيمن يقرؤها عمل  
الطبائع الحية فيمن يخالطها ، ولو كان فى قانون الدولة تهمة إفساد الأدب  
أو إفساد اللغة ، لقبض على كثيرين لا يكتبون إلا صناعة لهو ومسلاة فراغ  
وفساداً وإفساداً ؛ والمصيبة فى هؤلاء ما يزعمون لك من أنهم يستنشطون  
القراء ويلهونهم ، ونحن إنما نعمل فى هذه النهضة لمعالجة اللهو الذى جعل  
نصف وجودنا السياسى عدما : ثم لملء الفراغ الذى جعل نصف حياتنا  
الاجتماعية بطالة ؛ وهذا أيضاً مما جعل عمك أبا عثمان فى هذه الصحافة من  
(صعاليك الصحافة) ، وتركه فى المقابلة بينه وبين بعض الكتاب كأنه فى أمس  
وكأنهم فى غد

ودق الجرس يدعو أبا عثمان إلى رئيس التحرير ...

فما شككت أنهم سيطردونه ، فإن الله لم يرزقه لساناً مطبوعياً ثنائياً يكون  
كالمتصل من دماغه بصندوق حروف ٠٠٠ ولم يجعله كهؤلاء السياسيين الذين يتم  
بهم النفاق ويتآلون ، ولا كهؤلاء الأدباء الذين يتم بهم التضليل ويتشكل  
ورجع شيخنا كالخنوق أرخى عنه وهو يقول : وبلى على الرجل ! وبلى  
من الكلام الظريف الذى يقال فى الوجه ليدفع فى القفا ... كان يلغى ألا  
يملك هذه الصحافة اليومية إلا بجالس الأمة : فذلك هو إصلاح الأمة  
والصحافة والكتاب جميعاً ؛ أما فى هذه الصحف فالكاتب يخبز عيشه على نار  
تأكل منه قدر ما يأكل من عيشه ؛ ولو أن عمك فى خفض ورفاهية  
وسعة ، لكان فى استغنائه عنهم حاجتهم إليه ؛ ولكن السيف الذى لا يجد  
عملاً للبطل ، تفضله الإبرة التى تعمل للخياط ، وماذا يملك عمك أبو عثمان ؟  
يملك مالا ينزل عنه بدول الملوك ، ولا بالدنيا كلها ، ولا بالشمس والقمر ؛  
إذ يملك عقله وبيانه ، على أنه مستأجر هنا بعقله وبيانه ، يعقل ما شاءوا ويكتب  
ما شاءوا .

لك الله أن أصدفك القول فى هذه الحرفة اليومية : إن الكاتب حين  
يخرج من صحيفة إلى صحيفة ، تخرج كتابته من دين إلى دين ...  
ورأيت شيخنا كأما وضع له رئيس التحرير مثل البارود فى دماغه  
ثم أشعله ، فأردت أن أمازحه وأسرى عنه ، فقلت : اسمع يا أبا عثمان ،  
جاءتنى بالأمس قضية يرفعها صاحبها إلى المحكمة ، وقد كذب فى عرض دعواه  
إن جار بيته غصبه قطعة من أرض فنيائه الذى تركه حول البيت ، وبني فى  
هذه الرقعة داراً ، وفتح لهذه الدار نافذات ، فهو يريد من القاضى أن يحكم برد  
الأرض المغصوبة ، وهدم هذه الدار المبنية فوقها ، و... و... وسد نافذاتها  
المفتوحة ... !

فضحك الجاحظ حتى أمسك بطنه بيده وقال : هذا أديب عظيم كبعض الذين يكتبون الأدب في الصحافة : كثرت ألفاظه ونقص عقله ، « وسئل بعض الحكماء : متى يكون الأدب شراً من عدمه ؟ قال : إذا كثر الأدب ونقصت القريحة . وقد قال بعض الأولين : من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه ، كان حتفه في أغلب خصال الخير عليه ؛ وهذا كله قريب بعضه من بعض ، <sup>(٥)</sup> والأدب وحده هو المتروك في هذه الصحافة لمن يتولاه كيف يتولاه ؛ إذ كان أرخص ما فيها ، وإنما هو أدب لأن الأمم الحية لا بد أن يكون لها أدب ، ثم هو من بعد هذا الاسم العظيم ملء فراغ لا بد أن يملأ ، وصفحة الأدب وحدها هي التي تظهر في الجريدة اليومية كبقعة الصدا على الحديد : تأكل منه ولا تعطيه شيئاً .

ثم يأبى من تُترك له هذه الصفحة إلا أن يجعل نفسه (رئيس تحرير) على الأدباء ، فما يدع صفة من صفات النبوغ ولا نعتاً من نوت العبقرية إلا نحله نفسه ووضعته تحت ثيابه ؛ وما أيسر العظمة وما أسهل منالها إذا كانت لا تكافك إلا الجراءة والدعوى والزعم ، وتلفيق الكلام من أعراض الكتب وحواشي الأخبار .

وقد يكون الرجل في كتابته كالعامية ، فإذا عبته بالركاكة والسخف والابتذال وفراغ ما يكتب ، قال : هذا ما يلائم القراء ، وقد يكون من أكذب الناس فيما يدعى لنفسه وما يهول به لتقوية شأنه وإصغار من عداه ، فإذا كذبه من يعرفه قال : هذا ما يلائمني ، وهو واثق أنه في نوع من القراء ليس عليه إلا أن يملأهم بهذه الدعوى كما تملأ الساعة ، فإذا هم جميعاً يقولون :  
تك تك . . . . . تك تك . . . . .

فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل ، جعل الفصاحة  
واللكنة والخطأ والصواب والإغلاق والإبانة والملاحون والمغرب ، كله سواء  
وكله بياناً (\*) وكان المكي طيب الحجج ، ظريف الحيل ، عجيب العلل ، وكان  
يدّعى كل شيء على غاية الإحكام ولم يحكم شيئاً قط من الجليل ولا من الدقيق ؛  
وإذ قد جرى ذكره فساحدثك ببعض أحاديثه ، قلت له مرة : أعلمت أن  
الشارى حدثني أن المخلوع (أى الأمين) بعث إلى المأمون بجراب فيه سمسم ،  
كأنه مخبره أن عنده من الجند بعدد ذلك ، وأن المأمون بعث له بديك أعور ،  
يريد أن طاهر بن الحسين يقتل هؤلاء كلهم كما يلقط الديك الحب ؟  
قال : فإن هذا الحديث أنا ولدته ، ولكن انظر كيف سار في  
الآفاق ... (\*\*)

ثم قال أبو عثمان : وقد زعم أحد أدبائكم أنه اكتشف في تاريخ الأدب  
اكتشافاً أهمله المتقدمون وغفل عنه المتأخرون ، فنظر عمك في هذا الذى  
ادعاه ، فإذا الرجل على التحقيق كالذى يزعم أنه اكتشف أمريكا في كتاب  
من كتب الجغرافيا ... (١)

وما يزال البلهاء يصدقون الكلام المنشور في الصحف ، لا بأنه صدق ،  
ولكن بأنه « مكتوب في الجريدة » ... فلا عجب أن يظن كاتب صفحة الأدب -  
مضى كان مغروراً - أنه إذا تهدد إنساناً فما هددته بصفحته ، بل بحكومته ...  
نعم أيها الرجل إنها حكومة ودولة ؛ ولكن ويحك : إن ثلاث ذبابات  
ليست ثلاث قطع من أسطول إنجلترا ... !

\*\*\*

وضحك أبو عثمان وضحكت ! فاستيقظت .

(٥) و(٥٥) هذا من كلام الجاحظ

(١) يعنى زكى مبارك في دعوى معرفته أول من اخترع فن المقامات

# أبو حنيفة ولكن بغير فقه<sup>(١)</sup> !

قد انتهينا في الأدب إلى نهاية صحافية عجيبة ، فأصبح كل من يكتب ينشر له ، وكل من ينشر له يعد نفسه أديبا ، وكل من عد نفسه أديبا جاز له أن يكون صاحب مذهب وأن يقول في مذهبه ويرد على مذهب غيره .

فعمدنا اليوم كلمات ضخمة تدور في الصحف بين الأدباء كما تدور أسماء المستعمرات بين السياسيين المتنازعين عليها ، يتعلق بها الطمع وتنبعث لها الفتنة وتكون فيها الخصومة والعداوة ، منها قولهم : أدب الشيوخ وأدب الشباب ؛ ودكتاتورية الأدب وديمقراطية الأدب ، وأدب الألقاظ وأدب الحياة ، والجمود والتحول ، والقديم والجديد ، ثم ماذا وراء ذلك من أصحاب هذه المذاهب ؟

وراء ذلك أن منهم أبا حنيفة ولكن بغير فقه ، والشافعي ولكن بغير اجتهاد ، ومالك ولكن بغير رواية ، وابن حنبل ولكن بغير حديث ؛ أسماء يذنها وبين العمل أنها كذب عليه وأنه رد عليها .

وليس يكون الأدب أدبا إلا إذا ذهب يستحدث ويخترع على ما يصرفه النوابع من أهله حتى يؤرخ بهم فيقال أدب فلان وطريقة فلان ومذهب فلان ، إذ لا يجرى الأمر فيما علا وتوسط. ونزل إلا على إبداع غير تقليد ، وتقليد غير اتباع ، واتباع غير تسليم : فلا بد من الرأي ونبوغ الرأي واستقلال الرأي حتى يكون في الكتابة إنسان جالس هو كاتبها ، كما أن الحى الجالس فى كل حى هو مجموعته العصبى ، فيخرج ضرب من الآداب كأنه نوع من التحول فى الوجود الإنسانى يرجع بالحياة إلى ذات معانيها ، ثم يرسم من هذه المعانى

(١) وهذا فصل من المعركة الأخيرة بينه وبين زكى مبارك .



مثل ما أبدعت ذرّاتُ الخليفة في تركيب من تركيب ، فلا يكون للأديب تعريف إلا أنه المقلّد الإلهي<sup>(٥)</sup>

وإذا اعتبرنا هذا الأصل فهل يبدأ الأدب العربي في عصرنا أو ينتهي ؛ وهل تراه يعلو أو ينزل ؛ وهل يستجمع أو ينفض ، وهل هو من قديمه الصريح بعيد من بعيد أو قريب من قريب أو هو في مكان بينهما ؟ هذه معانٍ لو ذهبتُ أفصلها لاقتحمت تاريخاً طويلاً أمرٌ فيه بعظام مبعثرة في ثيابها لا في قبورها... ولكني موجز مقتصر على معنى هو جمهور هذه الأطراف كلها ، وإليه وحده يرجع مانحن فيه من التعادي بين الأذواق والإسفاف بمنازع الرأي والخلط والاضطراب في كل ذلك ؛ حتى أصبح أمر الأدب على أقبحه وهم يرونه على أحسنه ، وحتى قيل في الأسلوب أسلوبٌ تلغرافي ، وفي الفصاحة فصاحة عامية ، وفي اللغة لغة الجرائد ، وفي الشعر شعر المقالة ؛ ونجحت الناجمة من كل علة ويُزَيَّن لهم أنها القوة قد استحصفت واشتدت ، ونازع الأدب العربي إلى سخرية التقليد وإلى أن يكون لصيقاً دعيّاً في آداب الأمم ، واستهلكه التضييعُ وسوء النظر له على حين يؤتى لهم أن كل ذلك من حفظه وصيانته وحسن الصنيع فيه ومن توفير المادة عليه

أين تصيب العلة إذا التمسها ؟ أفي الأدب من لغته وأساليب لغته ، ومعانيه وأغراض معانيه ؟ أم في القائمين عليه في مذاهبهم ومناحيهم وما يتفق من أسبابهم وجواذبهم ؟

إن تقلّ إنها في اللغة والأساليب والمعاني والأغراض ، فهذه كلها تصير إلى حيث يُراد بها ، وتتقلد البلية من كل من يعمل فيها ؛ وقد استوعبت

---

(٥) استوفينا هذه المعاني في مقالة ، الأدب والأديب ،

واتسعت ومادّت العصور الكثيرة إلى عهدنا فلم توتّ من ضيق ولا جمود ولا ضعف : ثم هي مادة ولا عليها من لا يحسن أن يضع يده منها حيث يملأ كفه أو حيث تقع يده على حاجته

وإن قلت إن العلة في الأدباء ومذاهبهم ومناحيهم ودواعيهم وأسبابهم ، سألتك : ولم قصّروا عن الغاية ، ولم وقعوا بالخلاف ، وكيف ذهبوا عن المصلحة ، وكيف اعتقمت الخواطر وفسدت الأذواق مع قيام الأدب الصحيح في كتبه مقام أمة من أهله أعراباً وفصحاء وكتّاباً وشعراء ، ومع انفساح الأفق العقلي في هذا الدهر واجتماعه من أطرافه لمن شاء ، حتى لتجد عقول نوابغ القارّات الخمس تحتقب في حقيبة من الكتب ، أو تصنّدق<sup>(٥)</sup> في صندوق من الأسفار

كيف ذهب الأدباء في هذه العربية نشراً متبدّدين تعلو بهم الدائرة وتهبط ، فكلُّ أعلى وكل أسفل ؟ هذا فلان شاعر قد أحاط بالشعر عربيّه وغربيّه وهو ينظمه ويفتن في أغراضه ويولد ويسرق ويمسخ ويمسخ ، وهو عند نفسه الشاعر الذي فقدته كل أمة من تاريخها ووقع في تاريخ العربية وحدها ابتلاءً ومحنة ؛ وهو كمثل هؤلاء المغرورين يحسبون أنهم لو كانوا في لغات غير العربية لظهروا نجوماً ، ولكن العربية جعلت كلا منهم حصاة بين الحصى ، وتقرأ شعره فإذا هو شعر تتوهم من قراءته تقطيع ثيابك ، إذ تجاذب نفسك لتفر منه فراراً

وهذا فلان الكاتب الذي والذي ... والذي يرتفع إلى أقصى السموات

على جناحي ذبابة

---

(٥) كلمة وضعناها على قياس تحتقب

وهذا فرعون الأدب الذى يقول : أنا ربكم الأعلى ! وهذا فلان وهذا فلان ...

أين يكون الزمام على هؤلاء وأمثالهم ليعرفوا ما هم فيه كما هم فيه ، وايضبطوا آراءهم وهو أجسدهم ، وليعلموا أن حسابهم عند الناس لا عند أنفسهم فالواحدة منهم واحدة وإن توهموها مائة وتوهموها بعضهم ألفاً أو ألفين ، ومتى قال الناس : غلطوا ، فقد غلطوا ، ومتى قالوا : سخطاء ، فهم سخطاء .

وأين الزمام عليهم وقد انطلقوا كأنهم مستخرون بالجبر على قانون من التدمير والتخريب ، فليس فيهم إلا طبيعة مكابرة لا إقرار منها ، باغية لا إنصاف معها ، نافرة لا مساغ إليها ، متهمة لا ثقة بها ؛ طبيعة يتحول كل شيء فيها إلى أثر منها كما يتحول ماء الشجر في العود الرطب المشتعل إلى دخان أسود !



يرجع هذا الخلط فى رأى إلى سبب واحد : هو خلو العصر من إمام بالمعنى الحقيقى يلتقى عليه الإجماع ويكون ملء الدهر فى حكمته وعقله ورأيه ولسانه ومناقبه وشمائله ؛ فإن مثل هذا الإمام يُخَصُّ دائماً بالإرادة التى ليس لها إلا النصر والغلبة ، والتى تعطى القوة على قتل الصغار والسفاسف ؛ وهو إذا ألقى فى الميزان عند اختلاف الرأى ، وُضع فيه بالجمهور الكبير من أنصاره والمعجبين بآدابه ، وبالسواد الغالب من كل الفاعليات المحيطة به والمنجذبة إليه ؛ ومن ثمَّ تنهياً قوة الترجيح ويتعین اليقين والشك ؛ والميزان اليوم فارغ من هذه القوة فلا يرجح ولا يعين

ومكانة هذا الإمام تحدد الامكنة ، ومقداره يزن المقادير ، فيكون هو

المنطق الإنساني في أكثر الخلاف الإنساني : تقوم به الحجة ، فتلزم وإن أنكرها المنكر ، وتمضى وإن عاند فيها المعاند ، ويؤخذ بها وإن أصر المصّر على غيرها ، لأن بالإجماع على القياس يبين التطرف في الزيادة أو التقصير ؛ والإجماع إذا ضرب ضرب المعصية بالطاعة ، والزيف بالاستقامة ، والعناد بالتسليم ؛ فيخرج من يخرج وعليه وسمه ، ويزيغ من يزيغ وفيه صفته ، ويصرّ المكابر واسمه المكابر ليس غير ، وإن هو تكذب وتأول ، وإن زعم ما هو زاعم .

ولكل القواعد شواذ ولكن القاعدة هي إمام بابها ؛ فما من شاذ يحسب نفسه منطلقاً مخلي ، إلا هو محدود بها مردود إليها ، متصل من أوسع جهاته بأضيق جهاتها ؛ حتى ما يعرف أنه شاذ إلا بما تعرف به أنها قاعدة ، فيكون شأنه في نفسه بما تعين هي له على مكرهته ومحبته .

والإمام يثبت في آداب عصره فكراً ورأياً ، ويزيد فيها قوة وإبداعاً ، ويزين ماضيها بأنه في نهايته ، ومستقبلها بأنه في بدايته ، فيكون كالتعديل بين الأزمنة من جهة ، والانتقال فيها من جهة أخرى ؛ لأن هذا الإمام إنما يختار لإظهار قوة الوجرد الإنساني من بعض وجوهها وإثبات شمولها وإحاطتها كأنه آية من آيات الجنس يأنس الجنس فيها إلى كماله البعيد ، ويتلقى منه حكم التمام على النقص ، وحكم القوة على الضعف ، وحكم المأمول على الواقع ؛ ويجد فيه قومه كما يجدون في الحقيقة التي لا يكابر عندها متنطع بتأويل ، وفي القوة التي لا يخالف عندها مبطل بعناد ، وفي الشريعة التي لا يروغ منها متعسف بحيلة ؛ ولن يضل الناس في حق عرفوا حده ، فإن ما وراء الحد هو التعدي ؛ ولن يخطئوا في حكم أصابوا وجهه ، فإن ما عدا الوجه هو الخلاف والمراء . وقد طبع الناس في باب القدوة على غريزة لا تتحول ، فمن انفرد بالكمال

كان هو القدوة ، زمن غلب كان هو السمّت ؛ ولابد لهم ممن يقتاسون به ويتوازنون فيه حتى يستقيموا على مرادهم ومصالحهم ، فالإمام كأنه ميزان من عقل ، فهو يتساوى في الحكم على الناقص والوافي من كل ما هو بسبيله ، ثم لا خلاف عليه ، إذ كانت فيه أوزان القوى وزناً بعد وزن ، وكانت فيه منازل أحوالها منزلةً بعد منزلة .

هو إنسانٌ تتخير بعض المعاني السامية لتظهر فيه بأسلوب عمل ، فيكون في قومه ضرباً من التربية والتعليم بقاعدة منتزعة من مثالها ، مشروحة بهذا المثال نفسه ، فإليه يُرَدُّ الأمرُ في ذلك ويتلوه يُتلى وعلى سبيله يُنهج ، فما من شيء يتصل بالفن الذي هو إمام فيه ، إلا كان فيه شيء منه ، وهو من ذلك متصل بقوى النفوس كأنه هداية فيها ، لأنه بفنه حكم عليها ، فيكون قوة وتنبهاً ، وتسهيلاً وإيضاحاً ، وإبلاغاً وهداية ؛ ويكون رجلاً وإنه لمعان كثيرة ، ويكون في نفسه وإنه لفي الأنفس كلها ، ويعطى من إجلال الناس ما يكون به اسمه كأنه خالق من الحب طريقه على العقل لا على القلب .

ولعل ذلك من حكمة إقامة الخليفة في الإسلام ووجوب ذلك على المسلمين ؛ فلا بد على هذه الأرض من ضوء في لحم ودم ، وبعض معاني الخليفة في تنصبيه كبعض معاني « الشهيد المجهول » ، في الأمم المحاربة المنتصرة المتمدنة : رمز التقديس ، ومعنى المفاداة ، وصمت يتكلم ، ومكان يوحى ، وقوة تُستمد ، وانفراد بجمع ، وحكم الوطنية على أهلها بأحكام كثيرة في شرف الحياة والموت ؛ بل الحرب مخبوءة في حفرة ، والنصر مغطى بقبر ؛ بل المجهول الذي فيه كل ما ينبغي أن يُعلم :



فعصرنا هذا مضطرب مختل إذ لا إمام فيه يجتمع الناس عليه ، وإذ

كل من يزعم نفسه إماماً هو من بعض جهاته كأنه أبو حنيفة ولكن  
بغير فقه !

ولعمري ما نشأ قولهم « الجديد والقديم » إلا لأن ههنا موضعاً خالياً  
يُظهر خلاؤه مكانَ الفصل بين الناحيتين ويحمل جهة تمازٍ من جهة ، فمنذ مات  
الإمام الكبير الشيخ محمد عبده رحمه الله جرت أحداث ، وتأت رءوس ،  
وزاغت طبائع ، وكأنه لم يمت رجل بل رُفع قرآن

## الأدب والأديب<sup>(١)</sup>

إذا اعتبرت الخيالَ في الذكاء الانساني وأوليته دقة النظر وحسن التمييز ،  
لم تجده في الحقيقة إلا تقليداً من النفس الألوهية بوسائل عاجزة منقطعة ،  
قادرة على التصور والوهم بمقدار عجزها عن الإيجاد والتحقيق .  
وهذه النفس البشرية الآتية من المجهول في أول حياتها ، والراجعة  
إليه آخر حياتها ، والمسددة في طريقه مدة حياتها ، لا يمكن أن يتقرر في  
خيالها أن الشيء الموجود قد انتهى بوجوده ، ولا ترضى طبيعتها بما ينتهي  
فهى لا تتعاطى الموجود فيما بينها وبين خيالها على أنه قد فرغ منه فلا يُبدَأ ،  
وتمَّ فما يُزاد ، وخلد فلا يتحول ؛ بل لا تزال تضرب ظنها وتُصَرِّف  
وهمها في كل ما تراه أو يتأجلاج في خاطرها ، فلا تبرح تتلَّحَّح في كل وجود  
غيباً ، وتكشف من الغامض وتزيد في غموضه ، وتجري دأباً على مجاريها

(١) انظر ص ٢٣٤ . حياة الرافعي ،

الخيالية التي تُوثق صلتها بالمجهول ؛ فمن ثم لا بدّ في أمرها مع الموجود بما لا وجود له ، تتعلّق به وتسكن إليه ؛ وعلى ذلك لا بدّ في كل شيء - مع المعاني التي له في الحق - من المعاني التي له في الخيال ؛ وهما هنا موضع الأدب والبيان في طبيعة النفس الإنسانية ، فكلاهما طبيعيّ فيها كما ترى .

وإذا قيل الأدب ، فاعلم أنه لا بدّ معه من البيان ؛ لأن النفس تخأق فتُصور فتُحسن الصورة ؛ وإنما يكون تمام التركيب في مَعْرَضه وجمال صورته ودقّة لمحاته ؛ بل ينزلُ البيانُ من المعنى الذي يلبّسه منزلةً النضج من الثمرة الحلوة إذا كانت الثمرة وحدها قبل النضج شيئاً مُسمى أو متميزاً بنفسه فان تكون بغير النضج شيئاً تاماً ولا صحيحاً ، وما بُدّ من أن تستوفي كمالَ عمرها الأخضر الذي هو بيانها وبلاغتها .

وهذه مسألة كيفما تناولتها فهي هي حتى تمضيها على هذا الوجه الذي رأيت في الثمرة ونضجها ؛ فإن البيان صناعةُ الجمال في شيء جماله هو من فائدته ، وفائدته من جماله ؛ فإذا خلا من هذه الصناعة التحق بغيره ، وعاد باباً من الاستعمال بعد أن كان باباً من التأثير ؛ وصار الفرقُ بين حاله كالفرق بين الفاكهة إذ هي بابٌ من النبات ، وبين الفاكهة إذ هي بابٌ من الخمر ؛ ولهذا كان الأصلُ في الأدب البيان والأسلوب في جميع لغات الفكر الإنساني ، لأنه كذلك في طبيعة النفس الإنسانية .

فالغرضُ الأول للأدب المبين أن يخلق للنفس دنيا المعاني الملائمة لتلك النزعة الثابتة فيها إلى المجهول وإلى مجاز الحقيقة . وأن يُلقَى الأسرار في الأمور المكشوفة بما يتخيّل فيها ، ويردّ القليل من الحياة كثيراً وافياً بما يُضاعف من معانيه ، ويترك الماضي منها ثابتاً قاراً بما يتخلّد من وصفه ، ويجعل المولم منها لذا سفيفاً بما يثبت فيه من العاطفة ، والمملول منها بما يحلوا بها

يكشف فيه من الجمال والحكمة ؛ ومدار ذلك كله على إيتاء النفس لذة المجهول التي هي في نفسها لذة مجهولة أيضاً ؛ فإن هذه النفس طامعة متقلبة ، لا تبتغي مجهولاً صرفاً ولا معلوماً صرفاً ، كأنها مدركة بفطرتها أن ليس في الكون صريح طاق ولا خفي مطاق ؛ وإنما تبتغي حالة ملائمة بين هذين ، يشور فيها قلق أو يسكن منها قلق .

وأشواق النفس هي مادة الأدب ؛ فليس يكون أدباً إلا إذا وُضع المعنى في الحياة التي ليس لها معنى ، أو كان متصلاً بسر هذه الحياة فيكشف عنه أو يومئ إليه من قريب ، أو غيّر للنفس هذه الحياة تغييراً يحىء طباقاً لغرضها وأشواقها ؛ فإنه كما يرّحل الإنسان من جو إلى جو غيره ، ينقله الأدب من حياته التي لا تختلف إلى حياة أخرى ، فيها شعورها ولذتها وإن لم يكن لها مكان ولا زمان ؛ حياة كملت فيها أشواق النفس ، لأن فيها الذات والآلام بغير ضرورات ولا تكاليف ؛ ولعمري ما جاءت الجنة والنار في الأديان عبثاً ؛ فإن خالق النفس بما ركبها من العجائب ، لا يحكم العقل أنه قد أتم خلقها إلا بخلق الجنة والنار معها ؛ إذ هما صورتان الدائمتان المتكافئتان لأشواقها الخالدة إن هي استقامت مُسددة أو انعكست حائلة .

وقد صحّ عندي أن النفس لا تتحقق من حريتها ولا تنطلق انطلاقها الخالدة فتحس وحدة الشعور ووحدة الكمال الأسمى - إلا في ساعات وفترات تنسل فيها من زمرها وعيشها ونقائضها واضطرابها إلى ( منطقة حياد ) خارجة وراء الزمان والمكان ؛ فإذا هبطتها النفس فكأنما انتقلت إلى الجنة واسترمت تحت الخلد ؛ وهذه المنطقة السحرية لا تكون إلا في أربعة : حبيب فائن معشوق أعطى قوة سحر النفس ، فهي تنسى به ؛ وصديق محبوب وفي أرقى قوة جذب النفس ، فهي تنسى عنده ؛ وقطعة أدبية آخذة ، فهي ساحرة



كالحبيب أو جاذبة كالصديق ؛ ومنظرٍ قنّ رائع ، ففيه . من كل شيء شيء .  
وهذه كلها تُنسى المرء زمنه مدةً تطول وتقصّر ؛ وذلك فيها دليلٌ على  
أن النفس الانسانية تُصيب منها أساليبٌ روحية لا اتصالها هنيئةً بالروح  
الأزليّ في لحظاتٍ من الشعور كأنها ليست من هذه الدنيا وكأنها من الأزلية ؛  
ومن ثم نستطيع أن نقرر أن أساس الفن على الإطلاق هو ثورةُ الخالدِ  
في الانسان على الفاني فيه ؛ وأن تصوير هذه الثورة في أوهامها وحقائقها  
بمثل اختلاجاتها في الشعور والتأثير - هو معنى الأدب وأسلوبه .

ثم إن الاتساق والخير والحق والجمال - وهي التي تجعل للحياة الانسانية  
أسرارها - أمورٌ غير طبيعية في عالم يقوم على الاضطراب والاثرة والنزاع  
والشهوات ؛ فمن ذلك يأتي الشاعرُ والأديب وذو الفن علاجاً من حكمة  
الحياة للحياة ، فيبدعون لتلك الصفات الإنسانية الجميلة عالمها الذي تكون  
طبيعيةً فيه ، وهو عالمٌ أركانُه الاتساق في المعاني التي يجري فيها ،  
والجمال في التعبير الذي يتأدّى به ، والحق في الفكر الذي يقوم عليه ،  
والخير في الغرض الذي يُساق له ؛ ويكون في الأدب من النقص والكمال  
بحسب ما يجتمع له من هذه الأربعة ، ولا معيار أدق منها إن ذهبْتَ تعتبره  
بالنظر والرأى ؛ ففي عمل الأديب تخرج الحقيقة مضافاً إليها الفن ، ويحيى التعبيرُ مزبداً  
فيه الجمال ، وتمثّل الطبيعة الجامدة خارجةً من نفس حية ، ويظهر الكلام وفيه  
رقة حياة القلب وحرارته وشعوره وانتظامها ودفعها الموسيقي ؛ وتلبس الشهواتُ  
الإنسانية شكلها المهذب لتكون بسبب من تقرير المثل الأعلى ، الذي هو السر في ثورة  
الخالدِ من الإنسان على الفاني ، والذي هو الغايةُ الأخيرة من الأدب والفن  
معاً ؛ وبهذا يهَبُّ لك الأدب تلك القوة الغامضة التي تتسع بك حتى تشعرَ  
بالدنيا وأحداثها مارةً من خلال نفسك ، وتحس الأشياء كأنها انتقلت إلى

ذاتك من ذواتها ؛ وذلك سر الأديب العبقري ؛ فإنه لا يرى الرأى بالاعتقاب<sup>(٥)</sup> والاجتهاد كما يراه الناس ، وإنما يحس به ؛ فلا يقع له رأيه بالفكر ، بل يُلهمه إلهاماً ؛ وليس يُؤاتيه الإلهام إلا من كون الأشياء تمر فيه بمعانيها وتعبيره كما تعبر السفن النهر ؛ فيحس أثرها فيه فيُلهم ما يُلهم ، ويحسبه الناس نافذاً بفكره من خلال الكون ، على حين أن حقائق الكون هي النافذة من خلاله ولو أردت أن تعرّف الأديب من هو ، لما وجدت أجمع ولا أدق في معناه من أن تسميه الإنسان الكوني ، وغيره هو الإنسان فقط ؛ ومن ذلك ما يبلغ من عمق تأثيره بجمال الأشياء ومعانيها ، ثم ما يقع من اتصال الموجودات به بآلامها وأفراحها ؛ إذ كانت فيه مع خاصية الإنسان خاصية الكون الشامل ، فالطبيعة تثبت بجمال فنه البديع أنه منها ، وتدل السماء بما في صناعته من الوحي والأسرار أنه كذلك منها ، وترهن الحياة بفلسفته وآرائه أنه هو أيضاً منها ؛ وهذا وذاك وذلك هو الشمول الذي لاحد له ، والاتساع الذي كل آخر فيه لشيء ، أول فيه لشيء .

وهو إنسان يذّله الجمال على نفسه ليدلّ غيره عليه ، وبذلك زيد على معناه معنى ، وأضيف إليه في إحساسه قوّة إنشاء الاحساس في غيره ؛ فأساس عمله دائماً أن يزيد على كل فكرة صورة لها ، ويزيد على كل صورة فكرة فيها ، فهو يُبدع المعاني الأشكال الجامدة فيوجد الحياة فيها ، ويبدع الأشكال للمعاني المجردة فيوجد لها في الحياة ، فكأنه خُلِق ليتلقى الحقيقة ويعطيها للناس ويزيدهم فيها الشعور بجمالها الفنى ؛ وبالأدباء والعلماء تنمو معاني الحياة ، كأنما أوجدتهم الحكمة لتتقل بهم الدنيا من حالة إلى حالة ؛ وكأن هذا الكون العظيم يمر في أدمغتهم ليحقق نفسه

(٥) الاعتقاب : إطالة النظر وكد الفكر

ومشاركة العلماء الأدباء توجب أن يتميز الأديب بالأسلوب البياني ،  
إذ هو كالطابع على العمل الفني ، وكالشهادة من الحياة المعنوية لهذا الإنسان  
الموهوب الذي جاءت من طريقه ، ثم لأن الأسلوب هو تخصيص نوع  
من الذوق وطريقة من الإدراك ، كأن الجمال يقول بالأسلوب : إن هذا هو  
عمل فلان

وفصل ما بين العالم والأديب ، أن العالم فكرة ، ولكن الأديب فكرة  
وأسلوبها ؛ فالعلماء هم أعمال متصلة متشابهة يشار إليهم جملة واحدة ، على  
حين يقال في كل أديب عبقرى : هذا هو ، هذا وحده ؛ وعلم الأديب هو  
النفس الإنسانية بأسرارها المتجهة إلى الطبيعة ، والطبيعة بأسرارها المتجهة  
إلى النفس ؛ ولذلك فوضع الأديب من الحياة موضع فكرة حدودها من كل  
نواحيها الأسرار

وإذا رأى الناس هذه الإنسانية تركيباً تاماً قائماً بحقائقه وأوصافه ،  
فالأديب العبقرى لا يراها إلا أجزاء ، كأنما هو يشهد خلقها وتركيبها . وكأنما  
أمرها في ( معمله ) ، أو كأن الله — سبحانه — دعاه ليرى فيها رأيه ...  
وبذلك يحى النابغ من أدب العباقرة وبضه كالمقترحات لتجميل الدنيا  
وتهذيب الإنسانية ، وبعضه كالموافقة وإقرار الحكمة ؛ وأساسه على كل هذه  
الأحوال النقد ثم النقد ، ولا شيء غير النقد ؛ كأن القوة الأزلية تقول لهذا  
المهم : أنت كلمتى فقل كلمتك ...



وترى الجمال حيث أصبته شيئاً واحداً لا يكبر ولا يصغر ، ولكن  
الحس به يكبر في أناس ويصغر في أناس ؛ وها هنا يتأله الأديب ؛ فهو خالق  
الجمال في الذهن ، والممكن للأسباب المعينة على إدراكه وتبين صفاته ومعانيه ،

وهو الذى يقدر لهذا العالم قيمته الانسانية بإضافة الصور الفكرية الجميلة إليه ، ومحاولته إظهار النظام المجهول فى متناقضات النفس البشرية ، والارتفاع بهذه النفس عن الواقع المنحط المجتمع من غشاوة الفطرة وصولة الغريزة وغرارة الطبع الحيوانى

وإذا كان الأمر فى الأدب على ذلك ، فباضطراب أن تهذب فيه الحياة وتآدب ، وأن يكون تسلطه على بواعث النفس دربة لإصلاحها وإقامتها ، لا لإفسادها والانحراف بها إلى الزيف والضلالة ؛ وباضطراب أن يكون الأديب مكلفاً تصحيح النفس الانسانية ، ونفى التزوير عنها ، وإخلاصها مما يلتبس بها على قتابع الضرورات ؛ ثم تصحيح الفكرة الإنسانية فى الوجود ، ونفى الوثنية عن هذه الفكرة ، والسمو بها إلى فوق ، ثم إلى فوق ، ودائماً إلى فوق !

وإنما يكلف الأديب ذلك لأنه مستبصر من خصائصه التميز وتقدم النظر وتسقط الإلهام ، ولأن الأصل فى عمله الفنى ألا يبحث فى الشيء نفسه ، ولكن فى البديع منه ؛ وألا ينظر إلى وجوده ، بل إلى سره ؛ ولا يعنى بتركيبه ، بل بالجمال فى تركيبه ؛ ولأن مادة عمله أحوال الناس ، وأخلاقهم ، وألوان معاشهم ، وأحلامهم ، ومذاهب أخيلتهم وأفكارهم فى معنى الفن ، وتفاوت إحساسهم به ، وأسباب مغاويرهم ومراشدهم ؛ يسد على كل ذلك رأيه ، ويحيل فيه نظره ، ويخلطه فى نفسه ، وينفذ من حواسه ، كأنما له فى السرائر القبض والبسط ، وكأنه ولى الحكم على الجزء الخفى فى الإنسان يقوم على سياسته وتدبيره ، ويهديه إلى المثل الأعلى ؛ وهل يُخلق العبقرى إلا كالبرهان من الله لعباده على أن فيهم من يقدر على الذى هو أكمل والذى هو أبعد ، حتى لا يياس العقل الإنسانى ولا ينخزل ، فيستمر دائماً فى

طلب الكمال والابداع للذين لانهاية لهما ؟

فالأديب 'يشرف' على هذه الدنيا من بصيرته فإذا وقائع الحياة في حذو واحد من النزاع والتناقض ، وإذا هي دائبة في تحق الشخصية الانسانية ، تاركة كل حي من الناس كأنه شخص قائم من عمله وحوادثه وأسباب عيشه ؛ فإذا تلجج ذلك في نفس الأديب اتجهت هذه النفس العالية إلى أن تحفظ الدنيا حقائق الضمير والانسانية والايمان والفضيلة ، وقامت حارسة على ماضيع الناس ، وسخرت في ذلك تسخييراً لا تملك معه أن تأبى منه ، ولا يستوى لها أن تغمض فيه ؛ ونقلت الانسانية كلها ووضعت على مجاز طريقها أين توجهت ، فتأكد الأمر فيها ، ووصل بها ، وعلمت أنها من خالصة الله ، وأن رسالتها للعالم هي تقرير الحب للمتعادين ، وبسط الرحمة للمتنازعين ، وأن تجمع الكل على الجمال وهو لا يختلف في لذته ، وتصل بينهم بالحقيقة وهي لا تتفرق في موعظتها ، وتُشعرهم بالحكمة وهي لا تتنازع في مناحيها ؛ فالأديب من هذه الناحية يشبه الدين : كلاهما يُعين الانسانية على الاستمرار في عملها ، وكلاهما قريب من قريب ؛ غير أن الدين يعرض للحالات النفسية ليأمر وينهى ، والأديب يعرض لها ليجمع ويقابل ؛ والدين يوجه الانسان إلى ربه ، والأديب يوجهه إلى نفسه ؛ وذلك وحى الله إلى الملك إلى نبي مختار ، وهذا وحى الله إلى البصيرة إلى إنسان مختار

فإن لم يكن للأديب مثل أعلى يجهد في تحقيقه ويعمل في سبيله ، فهو أديب حالة من الحالات ، لا أديب عصر ولا أديب جيل ؛ وبذلك وحده كان أهل المثل الأعلى في كل عصر هم الأرقام الانسانية التي يلقبها العصر في آخر أيامه ليحسب ربحه وخسارته ...

ولا يخذعك عن هذا أن ترى بعض العبقرين لا يُؤتَى في أدبه أو أكثره إلا إلى الرذائل ، يتغلغل فيها ، ويتملأ بها ، ويكون منها على ما ليس عليه أحد إلا السُّفلة والحشوة من طعام الناس ورعاعهم ؛ فإن هذا وأضرابه مستخرون لخدمة الفضيلة وتحقيقها من جهة ما فيها من النهى ، ليكونوا مثلاً وسلفاً وعبرة ؛ وكثيراً ما تكون الموعظة برذائلهم أقوى وأشدَّ تأثيراً مما هي في الفضائل ؛ بل هم عندى كـبعض الأحوال النفسية الدقيقة التي يأمر فيها النهى أقوى مما يأمر الأمر ، على نحو ما يكون من قراءتك موعظة الفضيلة الأدبية التي تأمرك أن تكون عفيفاً طاهراً ؛ ثم ما يكون من رؤيتك الفاجر المبتلى المشوّه المتحطّم الذى ينهك بصورته أن تكون مثله ؛ ولهذا الحقيقة القوية في أثرها — حقيقة الأمر بالنهى — يعمد النوابغ في بعض أدبهم إلى صرف الطبيعة النفسية عن وجهها ، بعكس نتيجة الموقف الذى يصورونه ، أو الاحالة في الحادثة التي يصفونها ؛ فينتهى الراهب التقى في القصة ملحداً فاجراً ، وترتد المرأة البغى قديسة ، ويرجع الابن البر قاتلاً مجنوناً جنون الدم ؛ إلى كثير مما يجرى في هذا النسق ، كما تراه لأننا طول فرانس وشكسبير وغيرهما ، وما كان ذلك عن غفلة منهم ولا شر ، ولكنه أسلوب من الفن ، يقابله أسلوب من الخلق ، ليدع أسلوباً من التأثير ؛ وكل ذلك شاذ معدود ينبغى أن ينحصر ولا يتعدى ، لأنه وصف لأحوال دقيقة طارئة على النفس ، لا تعبير عن حقائق ثابتة مستقرة فيها

والشرط في العبقرى الذى تلك صفته وذلك أدبه ، أن يعلو بالرديلة ... في أسلوبه ومعانيه ، آخذاً بغاية الصنعة ، متناهيّاً في حسن العبارة ؛ حتى يصبح وكأن الرذائل هي اختارت منه مفسرها العبقرى الشاذ الذى يكون في سموه البيانى هو وحده الطرف المقابل لسمو العبارة عن الفضيلة ،

فيصنع الالهام في هذا وفي هذا صنعه الفنى بطريقه بديعة التأثير ، أصلها في أديب الفضيلة ما يريده ويجاهد فيه ، وفي أديب الرذيلة ما يقوده ويندفع إليه . كأن منهما إنسانا صار ملكا يكتب ، وإنسانا عاد حيوانا يكتب ...

وإذا أنت ميّلت بين رذيلة الأديب العبقرى في فنه ، ورذيلة الأديب العسل الذى يتشبه به — فى التأليف والرأى والمتابعة والمذهب — رأيت الواحدة من الأخرى كبكاء الرجل الشاعر من بكاء الرجل الغليظ الجلف : هذا دموعه ألمه ، وذاك دموعه ألمه وشعره ؛ وفى كتابة هذه الطبقة من العبقرين خاصة يتحقق لك أن الأسلوب هو أساس الفن الأدبى ، وأن اللذة به هى علامة الحياة فيه : إذ لا ترى غير قطعة أدبية فنية ، شاهدها من نفسها على أنها بأسلوبها ليست فى الحقيقة إلا نكتة نفسية لاهتياج البواعث فى نفوس قرائها ، وأنها على ذلك هى أيضا مسئلة من مسائل الانسانية مطروحة للنظر والحل ، بما فيها من جمال الفن ودقائق التحليل



واللذة بالأدب غير التلهى به واتخاذِهِ لِلْعَبَثِ والبَطَالَةِ فيجىء موضوعا على ذلك فيخرج إلى أن يكون ملهاة وسُخفا ومَضِيعَة : فإن اللذة به آتية من جمال أسلوبه وبلاغة معانيه وتناولهُ الكَوْن والحياة بالأساليب الشعرية التى فى النفس ، وهى الأصل فى جمال الأسلوب ؛ ثم هو بعد هذه اللذة منفعة كَلْه كسائر ما ركب فى طبيعة الحى ، إذ يحس الذوق لَذَّة الطعام مثلاً على أن يكون من فعلها الطبيعى استمرارُ التغذية لبناء الجسم وحفظ القوة وزيادتها ؛ أما التلهى فيجىء من سَخف الأدب ، وفراغ معانيه ، وموآتاته الشهواتِ الخسيسة ، والتماسه الجوانب الضيقة من الحياة ؛ وذلك حين لا يكون

أدب الشعب ولا الإنسانية ، بل أدب فئة بعينها وأحوالها ؛ فإن أديب صناعته أو أديب جماعته ، غير أديب قومه وأديب عصره ؛ أحدهما إلى حدٍّ محدود من الحياة ، والآخر عملٌ جامعٌ مستمرٌّ متفتنٌ ؛ لأن عمله الأدبي هو وجوده ، وكل شيء في قومه لا يبرح يقول له : اكتب ...

ومن الأصول الاجتماعية التي لا تتخلف ، أنه إذا كانت الدولة للشعب ، كان الأدب أدب الشعب في حياته وأفكاره ومطامحه وألوان عيشه ، وزخر الأدب بذلك وتنوع وافتنَّ وُبني على الحياة الاجتماعية ؛ فإن كانت الدولة لغير الشعب ، كان الأدب أدب الحاكمين وُبني على النفاق والمداهنة والمبالغ في الصناعية والكذب والتدليس ، ونضب الأدب من ذلك وقلَّ وتكرَّر من صورة واحدة ؛ وفي الأولى يتسع الأديب من الاحساس بالحياة وفنونها وأسرارها في كلِّ من حوله ، إلى الاحساس بالكون وبجاليه وأسراره في كل ما حوله ؛ أما الثانية فلا يُحس فيها إلا أحوال نفسه وتخليطه ، فيصبح أدبه أشبه بمسافة محدودة من الكون الواسع لا يزال يذهب فيها ويجيء حتى يملَّ ذهابه ومجيئه

والعجب الذي لم يتنبه له أحدٌ إلى اليوم من كل من درسوا الأدب العربي قديماً وحديثاً ، أنك لا تجد تقرير المعنى الفلسفي الاجتماعي للأدب في أسْمى معانيه إلا في اللغة العربية وحدها ، ولم يغفل عنه مع ذلك إلا أهل هذه اللغة وحدهم !

فإذا أردت الأدب الذي يقرّر الأسلوب شرطاً فيه ، ويأتي بقوة اللغة صورة لقوة الطباع ، وبهظمة الأداء صورة لعظمة الأخلاق ، وبرقة البيان صورة لرقّة النفس ، وبدقّة المتناهية في العمق صورة لدقّة النظرة إلى الحياة ؛ ويريك أن الكلام أمة من الألفاظ عاملة في حياة أمة من



الناس ، ضابطة لها المقاييس التاريخية ، مُحَكِّمة لها الأوضاع الإنسانية  
مشتريطة فيها المثل الأعلى ، حاملة لها النور الإلهي على الأرض ...

... وإذا أردت الأدب الذي يُنشئ الأمة إشياء ساميا ، ويدفعها إلى المعالي  
دفعاً ، ويردّها عن سَفَاسِف الحياء ، ويوجّجها بدقّة الابرة المغناطيسية إلى  
الآفاق الواسعة ، ويسدّدّها في أغراضها التاريخية العالية تسديد القنبلة  
خرجت من مرفعها الضخم المحرّر المحكم ، ويملاً سرائرها يقينا ونفوسها  
حزما وأبصارها نظراً وعقولها حكمة ، وَيَنْقُذُ بها من مظاهر الكون إلى  
أسرار الألوهية ...

... إذا أردت الأدب على كل هذه الوجوه من الاعتبار — وجدت  
القرآن الحكيم قد وَضَعَ الأصلَ الحَيَّ في ذلك كله ، وأعجب ما فيه أنه جعل  
هذا الأصل مقدّساً ، وفَرَضَ هذا البقديس عقيدة ، واعتَبَرَ هذه العقيدة  
ثابتة لن تتغير ؛ ومع ذلك كله لم يقبّله له الأدباء ولم يَحْذُوا بالأدب حذوه ،  
وحسبوه ديناً فقط ، وذهبوا بأدبهم إلى العبث والمجون والنفاق ؛ كأنه ليس  
منهم إلا بقايا تاريخٍ مختَصِرٍ بالعلل القائلة ، ذاهبٍ إلى الفناء الحتم !  
والقرآن بأسلوبه ومعانيه وأغراضه لا يُستخرج منه للأدب إلا تعريفٌ  
واحد هو هذا : إن الأدب هو السموّ بضمير الأمة

ولا يُستخرج منه للأديب إلا تعريفٌ واحد هو هذا : إن الأديب هو  
مَن كان لأُمته وللُغتها في مواهبٍ قلبه لِقَبٍّ من ألقاب التاريخ .

—————

## سر النبوغ في الأدب<sup>(١)</sup>

لو ترجمنا الخاطرة التي تمر في ذهن الحيوان الذكي حين ينقاد في يد رجل ضعيف أبله يُصرِّفه ويديره على أغراضه، فنقلناها من فكر الحيوان إلى لغتنا، وأدناها بمعنى مما بين الإنسان والحيوان - امكننا في العبارة هكذا : ما أنت أيها الأبله فيما بيني وبين الحقيقة المدبرة للكون إلا نبي مرسل صلى الله عليك وسلم ...؛ ذلك أن التركيب الذي يبين به الإنسان من الحيوان قد جعل دماغ هذا الحيوان خاتماً من الله دمع به على خصائصه فأفرغه الله في جلده، ووضع في رأسه ذلك الفقل الإلهي الذي حبسه في باب الاضطرار من غرائزه البهيمية، وأقفل به على الدنيا العقلية المتسعة بينه وبين الإنسان؛ فالكون عنده لغو كله ليس فيه إلا حقائق يسيرة، ثم لا تفسير لهذه الحقائق إلا من طبيعته هو ، فجِلده أدق تفسير فلكي ... للشمس والنور والهواء وما يحى منها، وجوفه أصبح تعبير جغرافي ... للكرة الأرضية وما تحمل، وجوعه وشبعه هما كل فلسفة الشر والخير في العالم !

فأساس الذكاء عالياً ونازلاً هو التركيب الطبيعي لاغيره : لوزادت في الدماغ ذرة أو نقصت لزادت الدنيا صورة أو نقصت؛ فبالضرورة تكون هذه هي القاعدة فيما نرى من تباين حدة الذكاء في أفراد كل نوع من الحيوان، وما نشهد من ذلك في أحوال الناس، من الفطنة إلى الذكاء<sup>(\*)</sup> إلى

---

(١) المقتطف : يناير سنة ١٩٣٣

(\*) عندنا أن الفطنة في اللغة ، دون الذكاء ؛ تقابل ما عند الحيوان من التنبيه ؛ والذكاء :

والتوقد واللهيان

الأمعية إلى الجهبذة إلى النبوغ إلى العبقرية ؛ وهى طبقات من ألفاظ اللغة لا حوال قائمة من هذه المعانى ترجع إلى درجات ثابتة في تركيب الدماغ وما يسجد له العقل الإنسانى سجدة طويلة إذا هو تأمل في حكمة الله ومراً يتصفح من أسرار ما نحن بسبيله من الكلام على النبوغ — أن هذا الوجود الذى يحمل أسرار الألوهية هو كرة متقاذفة في الفضاء الأبدى ، وأن الأرض التى تحمل أسرار الإنسانية ، هى كرة طائرة فيما مُدّها من الوجود ، وأن كل حى فيها يحمل أسرار حياته في كرة خاصة به هى رأسه ، وأن الوجود من كل حى هو بعد ذلك ليس شيئاً في النظر ولا في الحس ولا في الفهم إلا كما يُرى ويحس ويفهم في هذا الرأس بعينه على طريقته وتركيبه ، فيصعد التدرج إلى الكبير إلى الأكبر ، وينزل إلى الصغير إلى الأصغر ؛ ثم لامعنى لما صعد إلا بما نزل ، وبهذا ستكون آخرة جميع العلوم متى نفذ العلماء إلى السر الحقيقى ، أن العقل الإنسانى فهم كل شىء ولم يفهم شيئاً ...

والناس يختلفون بتركيب أدمغتهم على شبيهه من هذا التدرج ؛ فأما واحد فيكون دماغه باعتماده من سائر الناس في الذكاء والعقل كالوجود المحيط ، وأما آخر فكالشمس ، ثم غيرهما كالارض ، ثم الرابع كالانسان ، ثم يكون منهم كالحيوان ومنهم كالحشرة ؛ ولا دالة لكل هذا إلا ماهيات الأقدار بأسبابها الكثيرة « لكل إنسان في تركيب دماغه في نوع المسادة السنجابية من المنخ ، وأحوال التركيب في الملايين من الخلايا العصبية ، وما لا يعد من فروع هذه الخلايا وشُعَبها ؛ ثم ما يكون من قبل العلاقات بين هذه الفروع التى هى لكل رأس كرمّل الكرة الأرضية ، ثم اختلاف مقادير المواد الكيميائية التى تتخلّق في غدد الجسم وتنفثها الغدد في الدم

فقد يكون العمل النابغ المتمرد على العقول آتياً من قطرة في هذه الغدد ،

كما يلعبث العملاق المارد بعظامه الممتدة وألواح المشبوحة من غدته  
النخامية لا غيرها

فالذكي من ذكي مثله إنما هو كالجيش من جيش بإزاته : يقع الاختلاف بينها  
فيما اشتملا عليه من كثرة الجند ، وصفاتهم من القوة والضعف ، وأحوالهم من  
النظام والاختلال ، وقوة آلاتهم ومقدارها ونوع الاختراع فيها ، ثم طبيعة  
موضعهم وحسن توجيههم وفيادتهم ، وما اكتشفهم من صعب أو سهل ، وما  
تظاهر عليهم من الحوادث والأقدار ، ثم التوفيق الذي لا حيلة فيه إن وقع في  
حصاة أحدهما واستقر ، أو وقع هونا وطار للآخر : وبنحو من هذا كله تكون  
المفاضلة إذا وازنت بين اثنين من النوابع في حقيقة نبوغهما

فالبابغة خلقت من خالقه ، يصنع كما ترى بأقدار الله : إذ هو قدّر على قومه وعلى  
عصره ، وهو من الناس كالورقة الرابحة من ورق السحب (اليانصيب) : سلته يد  
جعلتها مالا وترك الباقيات ورثا ، وأحدث بينهما الفرق الذهبي : وبهذا  
لا يستطيع العالم أن يزيد الدنيا نابغة إلا إذا استطاع أن يزيد في السكواكب  
نجما فيصنعه : وهبه صنعه من السكرباء ، فيبقى أن يحمله ، وإذا حمله بقي أن  
يرفعه إلى السموات : وهبه قد رفعه فيبقى كل شيء . . . يبقى عليه أن يُتَّجَمَه في  
النجوم ويرسله فيها يدور ويتفلك

وكما يُخْلَقُ النابغة بتركيبه ، يُخْلَقُ له الأحوال الملائمة لعمله الذي خص به  
في أسرار التقدير عاملا نافعا ، وإن كانت لا تلائمه هو منتفعا : فإنه هو غير مقصود  
إلا من حيث أنه وسيلة أو آلة تمكيد ما تحتمل في أعمالها ، ويؤتي لها لتأخذ  
على طريقة وتعطى على طريقة : وبذلك يرجع التقدير إلى أن يكون العقل  
النابغة دليلا للناس من الناس أنفسهم على الخالق الذي هو وحده أمره الأمر  
وإذا كان الجمال يستعلن في كلام هؤلاء النوابع ، والخيال يظهر في تعبيرهم ،

والحكمة تهبط إلى الدنيا في تفكيرهم ، والمثل الأعلى هم الداعون إليه ، والأشواق النفسية هم موقظوها ، والواطف هم المصورون لها ، وسرور الحياة هم الذين حوّلوه إلى الفن - إذا كان هذا كله فهذا كله إنما هو توكيد لاتصالهم بالقوة الأزلية المدبرة ، وأنهم أدواتها في هذه المعاني ؛ فما هي أعمالهم أكثر مما هي أعمالها ؛ وقد يظن الناس أن النابغة يلمس القوى المحيطة به ليبدع منها ، والحقيقة أنها هي تلمسه لتبدع به

وبعدُ فالنابغة كأنه إنسان من الفلك ، فهو يخزن الأشعة العقلية ويُريقها ، وفي يده الأنوار والظلال والألوان يعمل بها عمل الفجر كلما أظلمت على الناس معاني الحياة ؛ ولا تزال الحكمة تاتي إليه الفكرة الجميلة ليعطيها هو صورة فكرتها ، وتوحى إليه معنى الحق ليؤتيها هو معنى جمال الحق ؛ والطبيعة خلقها الله وحده ، ولكنها ليست معقولة إلا بالعلم ، وليست جميلة إلا بالشعر ، وليست محبوبة إلا بالفن ؛ فالنابغ في هذا كله هم شروح وتفسير حول كلمات الله ، وكلهم يشعر بالوجود فتناً كاملاً ويشعر بنفسه شرحاً لأشياء من هذا الفن ، ويرى معاني الطبيعة كأنما تأتيه تلمس في كتابته وشعره حياة أكبر وأوسع مما هي فيه من حقائقها المحدودة ، وتعرض له أحزان الانسانية تسأله أن يصحح الرأي فيها باستخراج معناها الخيالي الجميل ، فإنها وإن كانت آلاماً وأحزاناً إلا أن معناها الخيالي هو سرور تحمله للناس ؛ إذ كان من طبيعة النفس البشرية أن تسكن إلى وصف آلامها وفلسفة حكمتها حين تبدو بصائرهم حاملة أثرها الإلهي ، كأن المثل ليس هو الألم ، وإنما هو جهل سره

وبالجملة فالكون يختار في كل شيء مفسّره العبقري ليكشف من غموضه ويزيد فيه أيضاً ... ثم ليؤتي الناس المثل الأعلى من المعنى على يد المثل الأعلى من الفكر ؛ ولهذا تصيب الكلام الذي يكتبه النابغة الملهم في أوقات التجلي

عليه كأنه كلام صَوَّرَ نفسه وصاغها، أو كأنه قطعة من الحس قد جَمَدَتْ في أسطر؛ ولا بد أن تُشعرك الجملة أنها قُذِفَتْ وحياء، إذ لا تجدها إلا وكأن في كلماتها روحاً يرتعش؛ ولقد يخطر لي وأنا أنظرُ بعض المعاني الجميلة لذهن من الأذهان الملهمة كشكسبير والمتنبى وغيرهما - حين أتأمل اختراع المعنى وإبداع سياقه وضحى البيان عليه وإشراقه فيه وما أُتيح له من جلال ظاهر في شكل حتى يلوح بسرّه في النفس - يخيّل إلىّ من ذلك أن سر الطبيعة القادر يعمل عمله أحياناً بذهن إنسانى ليخلق تعبيراً عن جلاله في مثل جلاله

وأنت فلو أخذت معنى من هذه المعاني الآتية من الإلهام وأجريتّه في كتابة كاتب أو شعر شاعرٍ من الذين ليس لهم إلا أذهانهم يكثّفونها، وكتبهم يجعلونها أذهانهم أحياناً... لرأيت الفرق بين شيء وشيء في أحسن ما أنت واجده لهم على نحو ما ترى بين زهرة حريرية جاءت من عمل الإنسان بالابرة والخيط، وزهرة أخرى قد انبثقت عطرة ناضرة في غصنها الأخصر من عمل الحية بالسماء والأرض

والعبقري هو أبداً وراء ما لا ينتهى من جمالٍ أوّلُهُ في نفسه وآخره في الجمال الأقدس الذى تَمَسَّح على هذه النفس الجميلة السامية؛ فما دام فيه سر العبقريّة فهو دائم يعمل ممزّجاً حياته في سبحات النور تمزجاً يجتمع منه أدبه، وما أدبه إلا صورة حياته؛ وهو كلما أبدع شيئاً طلب الذى هو أبداع منه، فلا يزال متأملاً إن عمل لأن طبيعته لا تقف عند غاية من عمله، ومتأملاً إن لم يعمل لأن تلك الطبيعة بعينها لا تهدأ إلا في عمل، وهى طبيعة متمردة بذلك الجمال الأقدس تمرّد العشق في حامله؛ إذ هما صورتان لأمر واحد كما سنشير إليه؛ فكلّ ما تجده في نفس العاشق المندلّة مما يترامى به إلى جنونه وهلاكه، تجد شهباً منه في نفس العبقري؛ فكلاهما قانونه من طبيعته وحدها؛ إذ قد اتخذت

حياته شكلها الفنى من ذوقه هو وحده ؛ فليس يتبع طريقة أحد ، بل هو طريقة نفسه (\*) ، وكلاهما مسترسل أبداً إلى جمال مستفيض على روحه يتقلب فيها باللذة والآلم يرجع إليه ويستمد منه ، وكلاهما لا يجد المعنى الجميل فى الطبيعة معنى بل رسولا من الجمال أرسل إليه وحده ، ولا يزال يشعر فى كل وقت أن له رسائل ورؤسا لا هو بعد فى انتظارها ، وكلاهما متى ظفر بشيء من مصدر الجمال انتهى من شدة فرحه إلى الظن أنه ربح من الكون ربحاً لم يكن له من قبل ، وكلاهما متهاك بين قيود الحياة التى فى الحياة والواقع ، وبين حريتها التى فى خياله وأمله ، كأن عليه فى سبيل هذه الحرية أن يقطع الليل والنهار لا قيوداً من قيود الاجتماع أو العيش ؛ وكلاهما متصل بقوة غيبية وراء ما يرى ، وما يحس تجعل نظرتة فى الأشياء خاضعة لقانون النظرة العاشقة فى العينين

(\*) لا وجه عندنا لما استعمله بعض الكتاب فى الأدب من قولهم مدرسة امرئ القيس ومدرسة النابغة ونحو ذلك ، ترجمة حرفية لقول الأوربيين مدرسة فلان ومدرسة فلان ؛ فإن الأدب إن كان تقليداً فهو أدب منحط لا يجعل مدرسة يحتذى عليها ويتخرج بها ، وإن كان إبداعاً فليس الإبداع مدرسة تكون بالتعليم والتلقين ويتخرج بها الواحد والمائة والآلاف على طراز لا يختلف ؛ إنما تطبق هذه الكلمة على المذاهب المستقرة فى الفنون التعليمية ، وفى هذا لا تطلق فى الأدب العربى إلا على فئتين فقط ، هما البصريون والكوفيون ، على أن كلمة مذهب هى المستعملة فى هذا ، وهى أسد منها ؛ إذ يدل المذهب على منحنى اختياره الرأى وذهب إليه ، فكأنه عن تحقيق فى صاحبه وتابعيه ؛ أما تسمية مجموعة الإلهامات التى سرت فى ذهن نابغة من النوابع بالمدرسة ، فتسمية مضحكة باردة ؛ إذ الإلهام بصيرة محضة ، وما هو عما يقلد ، رقلما تشابه ذهنان على الأرض فى عناصر التكوين التى يأتى منها النبوغ ؛ وقد قال علماءنا : طريقة فلان وطريقة فلان فالطريقة هى الكلمة الصحيحة لأن عليها ظاهر العمل وأسلوبه يتوجه بها من يتوجه ، ويقلد فيها من يقلد ، أما سر العمل فهو سر العامل أيضاً ، وهو شيء فى الروح والبصيرة ، وهو فى العبقرى أمر لا يستطيعه إنسان وشذ فى إنسان بخصوصه .

الساحرتين المعشوقتين ، فإذا مدَّ عيديه في شيء جميل فهناك سؤال وجوابه ،  
ووحى وترجته ، ومرور من يقظة إلى حلم ، وانتقال من حقيقة إلى خيال !  
غير أن طبيعة العبقرى تزيد على كل ذلك ألما تنفرد به لا تستقر معه  
على رضا ، ولا يبرح يُسلط الإعائنات عليها ويستغرقها بالهموم السامية ؛ وذلك  
ألم الكمال الفنى الذى لا يدرك العبقرى غايته عند نفسه ، وإن كان عند الناس قد  
أدرك غايات وغايات ؛ فطبيعة كل عبقرى تجهد جهدها فى العمل لتخرج به  
مما يستطيعه الناس ، فإذا تأتى صاحبها لذلك وكابد فيه وأدرك منه وبلغ وأعجز ،  
اندفعت طبيعته إلى الخروج مما يستطيع هو ... كأنه خارج عن الطبيعة  
وداخل فى الطبيعة فى وقت معاً ، وكأنه نفسه وفوق نفسه فى حال ، وهذا سر  
حريته وسموه ، كما أنه سر آله وحيزته

ومن أثر ذلك ماتحشهُ أنت إذا قرأت للأديب البليغ التام صاحب الفكر  
والأسلوب والذهن الملهم ؛ فإنك تقف على المعنى من معانيه يملأ نفسك  
ويتمدّد فيها ويهتزُّ بها طرباً وإعجاباً ، فتقول : لا أحسن من هذا ثم تؤمل مع  
ذلك أن تجد منه هو أحسن من هذا ... كأنه وإن تنهى إلى الغاية لا يزال  
عندك فوق الغاية ؛ وهذا غريب ، ولكن لادليل على العبقرية إلا الغرابة  
دائماً ؛ فهى نظامٌ لا نظام فيه ؛ لأنها طريقة لا طريقة لها ؛ وهذه الغرابة جاءت  
العبقرية كلها أمثلة وليس فيها قواعد يُحتذى عليها ولا هداية فيها إلا من  
الروح ؛ وإذا كان الفنى قدرة متصرفة فى الجمال فالعبقرية قدرة متصرفة فى  
الفن ، والنابعة كالميكيس<sup>(٥)</sup> الذى معه قوى العقل ويريد أن يزداد على قدره  
منها ، ولكن العبقرى كالإلهى الذى معه قوى الروح ويريد أن يزداد الناس  
على قدرهم بها ؛ وذاك مرجعه الفكر الدقيق الباحث ، وهذا مناطه البصيرة

(٥) من الميكيس وهو العقل فيكون عاقلاً ويريد أن يزداد على مقداره



الشَّافَةُ النافذة ، وهى أغرب الغرائب فى الانسان ؛ إذ هى الجهة المطلقه فى هذا المخلوق المقيّد ، وبها تتسع النفس لادراك المطلق الظاهر مرّ خلال الموجودات ، وفيها تتحول الأشياء من نظام الحاسّة إلى نظام الروح ، فيسمعُ المرئى ويُبصر المسموعُ ، وتخالج الأجسام أنعاماً ، وتابس الأصواتُ أشكالاً ، ويبدو عندها كل مخلوق وكأن فيه بقية زائدة على خلقه تُركت ليعمل فيها الكاتب أو الشاعر المحدث<sup>(٥)</sup> عمل فنه الزائدة على الطبيعة بالحاسة الزائدة على ذهنه ، وهى التى نسميها الإلهام .

وهذه الحاسة هى كذلك من بعض الغرابة ، تكون فى صاحبها الموهوب كما تكون حاسة الاتجاه فى الطيور التى تقطعُ فى جو السماء إلى غاياتها البعيدة من قطب الأرض إلى قطبها الآخر بغير دليل تجعله ، ولا رسم تظرفيه ، ولا علم ترجع إليه ؛ وكما تكون حاسة التمييز فى النحل الذى يبنى عسلته على هندسة ليست من كتاب ولا مدرسة ، وحاسة التدبير فى النمل الذى يدبر مملكته بغير علوم الممالك وسياستها ؛ وكثيراً ما يحىء الأديب الملهم من حقائق الفكر وبيانه وأسرار الطبائع وأوصافها بما يغطى على فلسفة الفلاسفة وعلم العلماء ، ومثل هذا العبقري هو عندى فوق العلم . لا أقول بدرجة ، ولكن بحاسة .

وبالإلهام يكون لكل عبقري ذهنه الذى معه وذهنه الذى ليس معه ؛ إذ

---

(٥) هذه هى الكلمة القديمة التى تقابل ما نسميه العبقري بلغة عصرنا ، كأن الأشياء تحدثه بأسرارها ، أو تحدثه بها قوة أعلى من القوى الإنسانية ؛ وإذا كان محدثاً فعنى ذلك أنه ينطق عن سمع من الغيب ؛ ومن ذلك ما زعم العرب من أن لكل شاعر شيطاناً ينفث على لسانه ، وهو وصف دقيق للعبقرية إلا أنه باللغة الجاهلية ، وقد صححه النبي صلى الله عليه وسلم فقال لشاعره حسان : قل وروح القدس معك . وفى كلمة « روح القدس » تنطوى فلسفة العبقريّة كلها

كانت له من وراء خياله قوةٌ غير منظورة ليست فيه ، ومع ذلك تعمل كما تعمل الأعضاء في جسمه ، هيئةً منقادةً كأنها تتصرف على أطراد العادة بلا فكر ولا روية ولا عسر ما دامت تتجلى عليه .

ولست تتصل هذه القوة إلا بتركيب عصبي تكون فيه الخصائص التي تصلح أن تتلقى عنها ، وهي في العبقرين خصائص مَرَضِيَّة في الأعم الأغلب ، بل لعالمها كذلك دائماً ، ليتسر بها العبقرى لحالة خفيفة من الموت ... يحمل بها كدّه وتعبه وما يعانیه من مضض الفكر وثقلته ؛ ثم لتكون هذه الحالة كالتقريب بين عالم الشهادة فيه وبين عالم الغيب منه ؛ فالتركيب العصبي في دماغ العبقرى إنسانٌ على خياله مع إنسان آخر ، أحدهما لما في الطبيعة والثاني لما وراء الطبيعة ؛ ومن ثمَّ كان الرجل من هذه الفئة كالمصباح : يتقد وينطفئ لأنه آلة نور تعرض لها العلل فتذهب بقدرتها عليه ، وتنضب مادة النور منها فكذلك لا تقدر عليه ، وتكون مضيئة فتتطفئ بسبب ليس منها ولا من نورها ، وهي على كل هذه الأحوال لا تملك منها حالة ؛ فبينما العبقرى الذى يملأ الدنيا من آثاره النابغة ، تراه فى حالة من أحواله يدأب لا يأتلى فيجدّ فى العمل ويبذل الوسع فيه ويصبر على مطاولة التعب فى إحكامه ويفيض به فيضاً وكأن فى طبيعته الربيع المتفتح طول أيامه بالجمال - إذا هو فى حالة أخرى يتلصكاً ويتربص لا يعمل شيئاً كأنما دخل فى قريحته الشتاء ، وفى ثالثة يتباطأ ويتلبّث فلا يحشّ له جديد كأنما حبس عنه فسكره أو نبأ طبعه أو هو فى قيظ طبيعته وخمر لها وضجرها ؛ ثم لا تمضى على ذلك إلا توة وساعة فإذا على صيفه هواء نوفمبر وديسمبر ... وإذا هو منبعثٌ ، لى القوة والنشاط ؛ وربما يأخذ فى غرض من الكتابة قد رسم له المعنى وهياً له المادة ، فلا يكاد يمضى لنحو منه حتى تتناسخ فى ذهنه المعانى فإذا هو يكتب ما لا يشبه ما كان

ابتدأ به، ويأتيه غير ما كان قد أراده، كأنما يُلقى عليه فهو يستملي : وقد يتبدى معنى ثم يُقطع عنه بطارئ من عمل أو حديث، ثم يُعاوده فإذا معنى آخر وإذا جهة من الفكر هي جهة الإبداع والاختراع في موضوعه، وإذا هو إنما كان يُجرّ بذلك الصارف عن معناه الأول جرّاً ليدنه إلى الأكل والأصح، وأيقن أنه لو كان استوفى على ما بدأ لأسف وضعف وجاء بما غيره أقدر عليه؛ كأن هذه القوة الخفية التي تلهمه تنقح له أيضاً بأساليبها الغريبة : وقد يكون آخذاً في عمله ماضياً على طبعه مسترسلاً إلى ما ينكشف له من أسرار المعاني ثَقِفاً من هنا لَقِفاً من هناك<sup>(٥)</sup> ثم ينظر فإذا هو قد مسح لوح خياله، ويطلب المعنى فلا يتاح له، ويتمادي فلا يزيد إلا كذا وعسرا كأنما ذهب إلهامه في غمض من غموض الأبدية<sup>(٥\*)</sup> : وكل من ارتاض بصناعة الفكر واستحكمت له عاداتها ومرّت في درجاتها حتى باغ المكانة التي يستشرف منها الإلهام ويتعرض فيها بروحه وبصيرته لتنبّضات الوحي وانكشافات الغيب، يعلم أن كل معنى بديع يأتي به في صناعته إنما يقع له إلهاماً، من ذلك المعنى الحى المتمدد

---

(٥) يقال : «و ثقّف لقف» أى سريع الفهم لما يلقى إليه، ولأننا استعملناه كما ترى فجاء أشد تمسكاً من أصله .

(٥٥) قالوا : كان الفرزدق وهو فحل مضر في زمانه يقول : تمر على الساعة وقلع ضرس من أضراسي أهون على من عمل بيت من الشعر ! وذكروا أنه كان من عمله إذا استصعب الشعر عليه أن يركب ناقته ويطوف وحده حالياً منفرداً في شعاب الجبال وبطون الأودية فينقاد له الكلام ؛ وأخبارهم كثيرة في الطارق التي يستعان بها على الشعر ويحتلب بها نافرده، والحقيقة أنها عمل من النفس تعارض حالة الإلهام إلى أن تزول وتصفو النفس منها، أو أسباب تنفق ولا تلهم شيئاً إلى أن تتغير بأسباب ملهمة .

في الكائنات كلها ، طاهراً في شيء منها ، لصوء ، وفي أشياء بالالوان ، وفي بعضها بالحركة ، وفي بعضها بالانفس ، وفي بعضها بالروعة والفخامة ، وفي غيرها بنصب الهية : وظاهراً في حالات كثيرة بأنه غير ظاهر ؛ ويعرف كذلك أن هذا المعنى الشامل الذي لا يوجد هو الذي يتقل الوجود كله إلى نفوس النوابع<sup>(٥)</sup> متى نبض في هذه النفوس الرقيقة وأشعرها سرّاً ، وإذا هم النابغة أن يتوضحه لا يرى شيئاً ، وإذا أراد حجة عليه لم يستطع الجلاء عن بيانه بكلمة ، وإذا التمس التعريف به لم يجد إلا ما يشهد له إحساسه وقلبه ؛ وهذا الذي ينقدح في أذهان النوابع أفكاراً حين يفيض لكل منهم بسبب من قراءة أو مشاهدة أو حالة أو مراس ، هو هو بعينه الذي ينقدح عشقاً في قلوب المحبين حين يترأى لكل منهم في معنى على وجه جميل ؛ ومن ثم كان النابغة في الأدب لايم تمامه إلا إذا أحب وعشق ، وكان الأدب نفسه في تحصيل حقيقة الفلسفية ليس شيئاً سوى صناعة جمال الفكر ...

وهذا العمل في ذلك الجهاز العصبي الخاص به في بعض الأدمغة هو الذي كان يسميه علماء الأدب العربي بالنوليد ، وقد عرفوا أثره وانكهم لم يتدهوا إلى حقيقة ولا أدركوا من سره شيئاً ؛ وأحسن ما قرأناه فيه قول ابن رشيق في كتاب العمدة : وإنما سمي الشاعر شاعراً لأنه يشعر بما لا يشعر به

---

(٥) هناك فرق على بين ما يسمى نبوغاً وما يسمى عبقرية ، ولكننا في هذا الفصل أطلقنا الكلام وقيدنا في مواضع بخصوصها ، ويكاد الفرق بين النابغة والعبقرى في جماع أمره أن يكون كالفرق بين التلغراف الذي طريقه مادة السلك وبين الآخر الذي طريقه روح الجو ؛ فكلاهما هو الآخر ولكن أحدهما لا بد له من طريق مسلوكة والآخر طريقه كل الطرق ، أي فوق أن يقيد بطريقة

غيره؛ فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه، أو استطراف لفظ وابتداعه، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني، أو نقص عما أطاله سواه من الألفاظ، أو صرف معنى إلى وجه عن وجه آخر - كان اسم الشاعر عليه مجازاً لاحقيقة، ولم يكن له إلا فضل الوزن. « هذا كلام ابن رشيق، وليس لهم أحسن منه، وهو مع ذلك تخليط لا قيمة له<sup>(٥)</sup> وليس فيه من موضوعنا إلا لفظ التوليد.

وعما لا نقضى منه عجباً في تتبع فاسفة هذه اللغة العربية العجيبة، أننا نرى أكثر ألفاظها كالتامة لا ينقصها شيء من دقائق المعنى في أصل وضعها، على حين لا يفهم علماءها من هذه الألفاظ إلا بعض ما تدل عليه، كأنها منزلة<sup>(٦)</sup> تنزيلاً ممن يعلم السر؛ وقد نبهنا إلى هذا في كتابنا (تاريخ آداب العرب) وأفضنا فيه واستوفينا هناك من فلسفته، وجاء القرآن الكريم من هذا بالعجائب التي تفوت العقل، حتى إن أكثر ألفاظه لتكاد تكون مختومة نزلت كذلك لتفرض العلوم والفلسفة خواتمها في عصور آتية لا ريب فيها<sup>(٧)</sup>؛ وكلية التوليد التي لم يفهم منها العلماء إلا أخذ معنى من معنى غيره بطريقة من طرق الأخذ التي أشاروا إليها في كتب الأدب - هي الكلمة التي لا يخرج عنها شيء من أسرار النبوغ ولا تجد ما يسد في ذلك مسدّها أو يحيط إحاطتها، ولا نظن في لغة من اللغات ما يشبهها في هذه الدلالة واستيعابها كل أسرار المعنى؛ إذ هي بلفظها نص<sup>(٨)</sup> على حياة الكون في الذهن الانساني، وأنه يتخذ رسيلاً لإبداع معانيه، كما يتخذ سر الحياة بطن الأم وسيلاً لإبداع موجوداته؛ وأن المعاني تتلاقح فيلد بعضها بعضاً في أسلوب من

(٥) على هذا المعنى وكشف أسرارها في آيات القرآن سيبنى كتابنا الجديد «أسرار الإعجاز،

قلت وانظر ص ٢٨٩ « حياة الرافعي،

الحياة، وأن هذه هي وحدها الطريقة لتطور الفكر وإخراج سُلالاتٍ من المعاني بعضها أجل من بعض، كما يكون مثل ذلك في الدسل بوسائل التلقيح من الدماء المختلفة، وأن النبوغ ليس شيئاً إلا التركيب العصبي الخاص في الذهن، ثم نمو هذا التركيب مع الحياة في طريقةٍ سواءٍ هي وطريقة الولادة المُحيية التي مرجعها كذلك إلى تركيب خاص في أحشاء الأثرى: ينمو ثم يدرك ثم يعمل عمله المعجز؛ وإذا كان من كل شيء في الطبيعة زوجان، فالكلمة نص على أن أذهان الذوابع أذهان مؤنثه في طباعها التي بنيت عليها؛ وهذا صحيح، إذ هي أقوى الأذهان على الأرض في الحسّ بالآلام والمسرات، ومعاني الدموع والابتسام أسرع إليها من غيرها، بل هي طبيعة فيها؛ وهي وحدها المبدعة للجمال والمفشئة للذرق، وعملها في ذلك هو قانون وجودها؛ ثم هي قائمة على الاحتمال والإعطاء والرضا بالحرمان في سبيل ذلك وإدمان الصبر على التعب والدقة والاهتمام بالتفاصيل وأسائها الحب؛ وكل ذلك من طباع الأثرى وهي النابغة فيه بل هي النابغة به

فسر النبوغ في الأدب وفي غيره هو التوليد، وسر التوليد في نضج الذهن المهياً بأدواته العصبية، المنجّه إلى المجهول ومعانيه كما تتجه كل آلات المرصد الفلكي إلى السماء وأجرامها؛ وبذلك العنصر الذهني يزيد النابغة على غيره، كما يزيد المساس على الزجاج، والجوهر على الحجر، والفولاذ على الحديد، والذهب على النحاس؛ فهذه كلها نبغت نبوغها بالتوليد في سر تركيبها؛ ويتفاوت الذوابع أنفسهم في قوة هذه الملكية، فبعضهم فيها أكمل من بعض، وتمدّ لهم في الخلاف أحوالُ أزمانهم ومعايشهم وحوادثهم ونحوها؛ وبهذه المباينة تجتمع لكل منهم شخصية وتنسق له طريقة؛ وبذلك تنوع الأساليب، ويعاد الكلام غير ما كان في نفسه، وتتجدد الدنيا بمعانيها في ذهن كل أديب يفهم

الدنيا وتتخذ الأشياء الجارية في العادة غرابة ليست في العادة ويرجع الحقيقى أكثر من حقيقته

وقد سئل مصوّر مبدع بماذا يمزج ألوانه فتأتى ولها إشراقها وجمالها ونبوغ مبانيها وزهو الحياة بها في الصورة فقال : إنما أمزجها بمخى . وهذا هذا فإن الألوان عند الناس جميعا ولكن مخه عنده وحده وله تركيبه الخاص به وحده ومر الصناعة في توليد هذا الدماغ فسكان ألوانه في صناعته جاءت منه بخصوصه ، وكذلك كل ما يتناولُه العبقرى فإنك لتجد الشعر في وزن خاص به يدل عليه ويتمم الغرض منه ويضيف إلى معانيه أنقا من الجمال وحسنه وإلى صوته نغما من الموسيقى وطربها . فما أشبه الجهاز العصبي في دماغ كل نابغة أن يكون وزنا شعرياً لهذا النابغة بخاصته ألا ترى أنك لا تقرأ الأديب الحق إلا وجدت كل ما يكتبه يحىء في وزن خاص به حتى لا يخرج عنه مرة ، أو تزيد أنت فيه وتنقص إلا ظهر لك أنه مكسور ... ؟

والذهن العبقرى لا يتخذ المعانى موضوع بحث ونظر وتعقب يستخرج منها أو يتعلق عليها فهذا عمل الذهن الذكى وحده وهو عاية الغايات فيه يبحث وينظر ويتصفح ويجمع من هنا ويأخذ من ثم ويعترض ويصحح ويأتيك بالمقالة يحسب فيها كل شىء وما فيها إلا أشياءوه هو وأمثاله . أما الذهن العبقرى فليس له من المعانى إلا مادة عمل فلا تمكاد تلابسه حتى تتحول فيه وتنمو وتنوع وتتساقط له أشكالا وصورا في مثل خطرات البرق ، وربما غمر بالمعنى الواحد في جماله وسموه وقوة تأثيره مقالات عدة لأولئك الأذكىاء فتنسخها نسخا وجعلها منه كالشموع الموقدة بإزاء الشمس . فإذا ذهبت توازن بين مثل هذا المعنى ومثل هذه المقالات في الروعة والجلال ورأيت عربة المقالة وغرورها لم تستطع

إلا أن تقول لها : يا حصة الميزان في إحدى كفتيه ألا يكفيك الجبل في الكفة الأخرى ؟...

وقد عرف الأدباء جميعاً أن كاتب فرنسا العظيم أناتول فرانس كان يكتب الجملة ثم ينقحها ثم يهذبها ثم يعيدها ثم يرجع فيها، وهكذا خمس مرات إلى ثمان ويقدم ويؤخر من موضع إلى موضع ويحتسبون هذا تحكيكا وتهذيبا وما هو منها في شيء ولا أحسب الأوربيين أنفسهم تذهبوا إلى سر هذه الطريقة وإنما مرها من جهاز النوليد في رأس ذلك الكاتب العظيم فإذا قرأ كتابة حولها فكره وأبدع له منها من غير أن يعمل في ذلك أو يتكلف له إلا ما يتكلف من يهز إليه الجذع الشجرة لتساقط عليه ثمراً ناضجاً حلواً جنيئاً . فكلما قرأ ولد ذهنه فيثبت ما يأتيه فلا تزال صورة تخرج من صورة حتى يحنى المعنى في النهاية وإنه لأغرب الغرائب لا يكاد العقل يهتدى إلى طريقته وسياق الفكر فيه إذ كان لم يأت إلا محولا عن وجهه مرات لأمرة واحدة

جهاز النوليد متى استمر واستحكم في إنسان أصبح له بمقام ملك الوحي من النبي . وهو عندنا دليل من أقوى الأدلة على صحة النبوة وحدث الوحي وإمكانه إذ لا تتصرف به إلا قوة غيبية لا عمل الإنسان فيها بل هي تبذل إبداعها وتلقى عليه إلقاء . وليس كل من تعرض لها أدرك منها ولا كل من أدرك منها بلغ بها بل لا بد لها من الجهاز العصبي المحكم كجهاز اللاسلكي الدقيق المصنوع لتلقى أبعد الأمواج الكهربائية وأقواها . وهذه القوة إن أرادت معاني الجمال أخرجت الشاعر وإن أرادت كشف السر عن الأشياء أخرجت الأديب وإن أرادت حقائق الوجود أخرجت الحكيم . فإن كان الأمر أكبر من هذا كله وكان أمر تغيير الحياة وصب أزمان جديدة



للإنسانية والثوب بهذه الدنيا درجة أودرجات في الرقي - فهنا تكون الوسيلة أكبر من البصيرة ، فليس لها من قوة الغيب إلا الوحي ، ويكون الغرض أكبر من الشاعر والأديب والحكيم ، فلا يختار إلا النبي ، ثم لا يوحى إليه إلا وهو في حين ساعة الوحي وحدها ، وهي ساعة ليست من الزمن بل من الروح المنصرف عن الزمن وما فيه ليتلقى عن روح الخلد ؛ وقريباً من ذلك خلوة النابغة بنفسه في ساعة التوليد ؛ فسر النبوغ من سر الوحي ، لا ريب في ذلك ، وما أسهل سر الوحي وأيسر أمره ، ولكن في الأنبياء وحدهم ، وهنا كل الصعوبة ... «أن نكون أولاً نكون ؛ هذه هي المسألة»

## (١) نقد الشعر وفلسفته

الشاعر في رأينا هو ذاك الذي يرى الطبيعة كلها بعينين لهما عشق خاص وفيهما غزل على حدة ، وقد خلقتا مهيتين بمجموعة النفس العvisية لرؤية السحر الذي لا يرى إلا بهما ، بل الذي لا وجود له في الطبيعة الحية لولا عينا الشاعر ، كما لا وجود له في الجمال الحي لولا عينا العاشق .

فإذا كان الشاعر العظيم أعمى كهو ميروس وملتون وبشار والمعرى وأضرابهم ، انبعث البصر الشعري من وراء كل حاسة فيه ، وأبصر من خواطره المنبثة في كل معنى ، فأدى بالنفس في الوجود المظلم أكثر ما كان يؤديه بهذه النفس في الوجود المضيء ، وقصر عن المبصرين في معان وأربى عليهم في معان أخرى ، فيجتمع للشعر من هؤلاء وأولئك مد النفس الملهمة بما بين أطراف

النور إلى أغوار الظلمة .

والشعر في أسرار الأشياء لافى الأشياء ذاتها ، ولهذا تمتاز قريحته الشاعر بقدرتها على خلق الألوان النفسية التي تصبغ كل شيء وتلوّنه لإظهار حقائقه ودقائقه حتى يجرى مجراه في النفس ويجوز بجازه فيها ؛ فكل شيء تعاورة الناس من أشياء هذه الدنيا فهو إنما يُعطيهام مادته في هيئته الصامتة ، حتى إذا انتهى إلى الشاعر أعطاه هذه المادة في صورتها المتكلمة ، فأبانت عن نفسها في شعره الجميل بخصائص ودقائق لم يكن يراها الناس كأنها ليست فيها .

فبالشعر تتكلم الطبيعة في النفس وتتكلم النفس للحقيقة وتأتى الحقيقة في أطراف أشكالها وأجمل معارضها ، أى في البيان الذي تصنعه هذه النفس الملهمة حين تتأقّى النور من كل ماحولها وتعكسه في صناعةٍ نورانية متموجةٍ بالألوان في المعاني والكلمات والأنغام

والإنسان من الناس يعيش في عمر واحد ، ولكن الشاعر يبدو كأنه في أعمار كثيرة من عواطفه ، وكأنما ينطوى على نفوس مختلفة تجمع الإنسانية من أطرافها ، وبذلك خاق ليفيض من هذه الحياة على الدنيا ، كأنما هو نبع إنسانى الإحساس يغترف الناس منه ليزيد كل إنسان معاني وجوده المحدود مادام هذا الوجود لا يزيد في مدته ، ثم ليرهف الإنسان بذلك أعصابه فتدرك شيئاً مما فوق المحسوس ، وتكنته طرفاً من أطراف الحقيقة الخالدة التي تتسع بالنفس وتخرجها من حدود الضرورات الضيقة التي تعيش فيها لتصلها بلذات المعاني الحرة الجميلة الكاملة ؛ وكأن الشعر لم يحجى في أوزان إلا ليحمل فيها نفس قارئه إلى تلك اللذات على اهتزازات النغم ؛ وما يُطرب الشعر إلا إذا أحسسته كأنما أخذ النفس لحظة وردّها .

والشاعرُ الحقيقُ بهذا الاسم - أى الذى يَغلبُ على الشعر ويفتح معانيه ويهتدى إلى أسرارهِ ويأخذ بغاية الصنعة فيه - تراه يضع نفسه فى مكان ما يعانىهِ من الأشياء وما يتعاطى وصفه منها ، ثم يفكر بعقله على أنه عقلُ هذا الشيء مضافاً إليه الإنسانيةُ العالية ، وبهذا تنطوى نفسه على الوجود فتخرج الأشياء فى خلقة جميلة من معانيها ، وتصبح هذه النفسُ خليفةً أخرى لكل معنى داخلها أو اتصل بها ؛ ومن ثم فلا ريب أن نفس الشاعر العظيم تكاد تكون حاسة من حواس الكون .

ولو سُئِلَتْ أزمانُ الدنيا كيف فهم أهلها معانى الحياة السامية وكيف رأوها فى آثار الألوهية عليها ، لَقَدَّمَ كل جيل فى الجواب على ذلك معانى الدين ومعانى الشعر .

وليسَت الفكرةُ شعراً إذا جاءت كما هى فى العلم والمعرفة ، فهى فى ذلك علم وفلسفة ، وإنما الشعر فى تصوير خصائص الجمال الكامنة فى هذه الفكرة على دقة ولطافة كما تتحول فى ذهن الشاعر الذى يلونها بعمل نفسه فيها ويتناولها من ناحية أسرارها

فالأفكار بما تُعانيهِ الأذهانُ كلها ويتواطأ فيه قلبُ كل إنسان ولسانه ، بَيِّدَ أن فنَّ الشاعر هو فنُّ خصائصها الجميلة المؤثرة ، وكأن الخيال الشعريَّ نحلة من النحل تُلمُّ بالأشياء لتُبَدِّعَ فيها المادة الحلوة للذوق والشعور ، والأشياء باقية بعد كما هى لم يغيرها الخيال ، وجاء منها بما لا تحسبه منها ؛ وهذه القوة وحدها هى الشعرية .

فالشاعر العظيم لا يُرسل الفكرة لإيجاد العلم فى نفس قارئها حَسْبُ ، وإنما هو يصنعها ويَحْدِثُ الكلام فيها بعرضه على بعض ، ويتصرف بها ذلك التصرف ليوجد بها العلم والذوق معاً ؛ وعبقريَّةُ الأدب لا تكون فى تقرير

الأفكار تقريراً علمياً بحتاً، ولكن في إرسائها على وجه من التسديد لا يكون بينه وبين أن يُقَرَّها في مكانها من النفس الإنسانية حائلٌ . وكثيراً ما تكون الأفكار الأدبية العالية التي يُلْهَمُهَا أفذاذ الشعراء والكتاب هي أفكار عقل التاريخ الإنساني ، فلا تَفْصِلُ عنهم الفكرة في أسلوبها البياني الجميل حتى تتخذ وضْعَهَا التاريخي في الدنيا ، وتقوم على أساسها في أعمال الناس ، فتتحقق في الوجود ويعمل بها ؛ وهذا طَرَفٌ مما بين الأدب العالي وبين الأديان من المشابهة .

ومتى نُزِلَتْ الحقائق في الشعر وجب أن تكون موزونة في شكلها كوزنه ، فلا تأتي على سَرْدِها ولا تؤخذ هَوْنًا كالكلام بلا عمل ولا صناعة ، فإنها إن لم يجعل لها الشاعرُ جمالاً ونسقاً من البيان يكون لها شبيهاً بالوزن ، ويضع فيها روحاً موسيقية بحيث يحىء الشعر بها وله وزن في شكله وروحه . فتلك حقائق مكسورة تلوح في الذوق كالنظم الذي دخلته العلل فجاء مختلفاً قد زاغ أو فسد .

والخيال هو الوزن الشعري للحقيقة المرسلة ، وتخيل الشاعر إنما هو إلقاء النور في طبيعة المعنى ليُشَفَّ به ، فهو بهذا يرفع الطبيعة درجة إنسانية ، ويرفع الإنسانية درجة سماوية ؛ وكل بدائع العلماء والمخترعين هي منه بهذا المعنى ، فهو في أصله ذكاء العلم ، ثم يسمو فيكون هو بصيرة الفلسفة ، ثم يزيد سموه فيكون روح الشعر ؛ وإذا قلبت هذا اللسق فأنحدرت به نازلاً كما صعدت به ، حصل معك أن الخيال روح الشعر ، ثم ينحط شيئاً فيكون بصيرة الفلسفة ، ثم يزيد انحطاطاً فيكون ذكاء العلم ؛ فالشاعر كما ترى هو الأول إن ارتقت الدنيا ، وهو الأول إن انحطت الدنيا ؛ وكأنما إنسانية الإنسان تبدأ منه .



إذا قررنا للشعر هذا المعنى وعرفنا أنه فُتْ النفس الكبيرة الحساسة الملهمة حين تناول الوجودَ من فوق وجوده في لطف روحاني ظاهرٍ في المعنى واللغة والآداء - وجب أن نعتبر نقد الشعر باعتبارٍ مما قررناه، وأن نقيمه على هذه الأصول ؛ فإن النقد الأدبي في أيامنا هذه - وخاصةً نقد الشعر - أصبح أكثره مما لا قيمة له، وساء التصرف به، ووقع الخلطُ فيه، وتناولوه أكثر أهلَه بعلم ناقص، وطبع ضعيف، وذوق فاسد، وطمع فيه من لا يحصلُ مذهباً صحيحاً، ولا يتَّجهُ لرأى جيد، حتى جاء كلامهم وإنَّ في اللغو والتخليط ما هو خير منه وأخفَّ محلاً، فإنك من هذين في حقيقة مكشوفة تعرفها تخليطاً ولغواً، ولكنك من نقد أولئك في أدب مُزَوَّر ودعوى فارغة وزوائد من الفضول والتعسف يتزيّدون بها للنفخ والصَّولة وإيهام الناس أن الكاتب لا يرى أحداً إلا هو تحت قدرته ... على أن جهد عمله إذا فقشته واعتبرت عليه ما يخالط فيه، أنه يكتب حيث يريد النقد أن يحقق، ويملاً فراغاً من الورق حيث يقتضيه البحث أن يملأ فراغاً من المعرفة .

وقد قلنا في كتابنا ( تحت راية القرآن ) : إن أستاذ الآداب يجب أن يجمع إلى الإحاطة بتاريخها وتقصى موادها - ذوقاً فنياً مهذباً مصقولاً، وليس يمكن أن يأتي له هذا الذوق إلا من إبداع في صناعتي الشعر والنثر، ثم يجمع إلى هذين ( أى الإحاطة والذوق ) تلك الموهبة الغريبة التي تلف بين العلم والفكر والمخيلة فتبدع من المؤرخ الفيلسوف الشاعر العالم شخصاً من هؤلاء جميعاً هو الذى نسميه الناقد الأدبي .

هذه هي صفات الناقد في رأينا : فانظر أين تجده بين هؤلاء الأساتذة

المختصرين ... في أدبهم ، المطولين ... في ألقابهم ، وإنهم ليتعاطون النقد وليس لهم وسائله إلا ما كان ضعفة وقلة وإدباراً ، وقد فاتهم ما لا تحمله أقدارهم ولا تبلغه قوهم ، وجهلوا أن الناقد الأدبي إنما يلقي درساً عالياً لا يدل فيه على العيوب الفنية إلا بإظهار المحاسن التي تقابلها في أسمى ما انتهى إليه الفن من آثار تاريخه ، فيكون النقد تهدياً وتخايصاً لفنون الأدب كلها ؛ وهو به — هذه الطريقة يحلوها على الناس — يُبدع فيها ويزيد في مادتها ويسهلها على القراء ويحصلها لهم تحصيلًا لا يبالغونه بأنفسهم ، ويعطيهم من كل ضعيف ما هو قوى ، ومن كل قوى ما هو أقوى .

ورأياهم في نقد الشعر لا يزيدون على أن يعلقوا على كلام الشاعر ، فيجىء عملهم في الجملة كأنه تصيفٌ من هذا الشعر وشرحٌ له وتصفُّحٌ على بعض معانيه ؛ وبهذا يرجع الشاعر وإنه هو المتصرف في ناقدته يُديره كيف شاء ، ويجىء هذا الناقد زائداً متطفلاً ، فأتى كتابته وإنها لَضَرْبٌ من سخرية المنقود بناقده ، ويصبح وضعُ الكلام على العكس ، فالشاعر المنقود لم يتكلم ولكنه أبان قصور الناقد وجهله ، فهو الناقد وإن سكت ، وذاك هو المنقود وإن تكلم . وهذا المتعلق على أخبار الشاعر وشعره كتعلق النخيص على أصله المطول والشرح على متنه الموجز ، إنما هو كاتب يجد من ذلك مادة إنشائية فيتصرف بها ليكتب ؛ ولا يراد من النقد أن يكون الشاعر وشعره مادة إنشاء ، بل مادة حساب مقدر بحقائق معينة لا بد منها ؛ فنقد الشعر هو في الحقيقة علم حساب الشعر ، وقواعده الأربع التي تقابل الجمع والطرح والضرب والقسمة ؛ هي الاطلاع والذوق والخيال والقريحة الملهمة .

بِئْسَ ضَرْبٌ آخِرٌ مِنْ تَعَلُّقِ الضعفاء ، يتناولُ الشاعرَ باعتباره رجلاً له

موضعه من الناس ومنزله من الحياة، ثم لا يعدو ذلك<sup>(\*)</sup> وهو تزوير للمؤرخ  
بجعلِه ناقداً، وتزوير للناقد برده مؤرخاً؛ على أن هذا لا بد منه في النقد الصحيح  
ولكنه لا يقوم بنفسه ولا تنفذ به بصيرة النقد، إذ الشاعر لم يكن شاعراً  
بأنه رجلٌ من الناس وحى في الأحياء وعمرٌ من الحوادث المؤرخة، ولكن  
بموضوعه من أسرار الحياة وصلة نفسه بها وقدرة هذه النفس على أن تنفذ إلى  
حقائق الطبيعة في كائناتها عامة وفي إنسانها خاصة، ثم بقدرة مثل هذه في  
النفاز إلى أسرار اللغة الشعرية التي هي الوجود المعنوي لكل ذلك، والتصرف  
بها على طبقات معانيه حتى لا تقصر عن الغاية ولا تقع دون القصد. فإن  
الشعر إن هو إلا ظهور عظمة النفس الشاعرة بمظهرها اللغوي، وأن كان  
في نقد الشعر تاريخ لا يتم النقد إلا به، فهو تاريخ الشعر في نفس قائله، ثم  
تاريخ هذه النفس في معاني الشعر من عصرها، ثم أدب هذا الشاعر من  
الوجود الأدبي للغة التي نظم بها؛ وذلك لا بد أن يقع فيه تاريخ الشاعر نفسه  
محصلاً من نواحيه في جهات الحياة، متعمقاً فيه بالاستقصاء، متغلغلاً إليه  
بالنقد ...



وإن لنا رأياً بسطناه مراراً، وهو أنه لا ينبغي أن يعرض لنقد الشاعر والكلام  
عنه إلا شاعر كبير يكون ذا طبيعة في النقد، أو كاتب عظيم يكون ذا طبيعة في الشعر؛  
أي لا بد من الأدب والشعر معاً لنقد الشعر وحده، فيأتي الكلام فيه من العلم والذوق  
والإحساس والإلهام جميعاً، فيتمين الناقد وجوه النقص الفني، ويعرف بمقصود

---

(\*) لم نذكر في هذه المقالة أمثلة ولم نعين أسماء حتى لا يمتد الكلام فتخرج المقالة  
إلى أن تكون كتاباً، ولكنك إذا قرأت الشعر وما يكتب في نقده، والمحاضرات التي  
تلقى عن الشعراء فقد وجدت الأمثلة والأسماء ...

وماذا كان ينبغي لها وما وجه تمامها ، ثم يعرف من الكمال الفنى مثل ذلك ، ويُحس على الحالتين بالمعاني التى أحسها الشاعر حين انتزع شعرة منها ، وما كان يتخالفه وقتئذ من الفكر ويتمثل له من الصور المعنوية التى ألهمته إلهامها ؛ فإن المعانى المكتوبة هى شعر الشاعر ، ولكن تلك المعانى المحسوسة هى شعر الشعر ، وإنما يوقف عليها بالنوهم والاسترسال إلى ما وراء الشعر من بواعثه ، وما تموجت به روح الشاعر عند عمله ، وما عرّضت لها به طبائع المعانى ؛ وهذا كله لا يحسه الناقد إن لم يكن شاعرا فى قوة من ينقذه أو أقوى منه طبيعة شعر

والنقد إنما هو إعطاء الكلام لسانا يتكلم به عن نفسه كلام متهم فى حكمة ليقيم حجة أو يزيج شبهة أو يقرر حقيقة أو يبسط معنى أو يوجه علة أو يكشف خافيا أو يثبت نقيضة أو يظهر إحسانا ؛ وبالجملة فهو تفض السیئة والحسنة ، ووقوع أدلة العلم والفن والذوق ومواقفها ، وتكلم الكلام بذات نفسه ما تنكر منه وما تستجيد ؛ والشاعر والناقد يلتقيان جميعا فى القارئ فوجب من ثم أن يكون الناقد قوة تكشف قوة مثلها أو دونها ليصحح فننا مثله أو يقره أو يزيد عليه فضل بيان ومزية فكر ؛ وبهذا يصبح القارئ كالسائح الذى معه الدليل وأمامه المنظر ، أى معه التاريخ الناطق وبإزائه التاريخ الصامت . وإذا كان الشاعر وشعره إنما هما النفس الممتازة وحوادثها وإلهامها ومعانى الحياة فيها ، فليس يتجه أن يكون الناقد تاما إلا بنفس من نوعها فى دقة الحس ولطف النظر والاستشفاف وقرة التأثير بمعانى الحياة وسمو الإلهام والعبقرية ؛ وبذلك يحىء النقد الصحيح بياناً خالصا منغولا كأنه شرح نفس لنفس مثلها

وليس الأنف هو الذى ينقد الوردة العطرة الفيحة ، وإنما تنقدها



الحاسة التي في الأنف ، وناقد الشعر إن لم يكن شاعراً فهو أنفٌ صحيح التركيب ، ولكن بالجلاد والعظم دون تلك الحاسة التي هي روح العصب المنبث في هذا التركيب والمتصل بما وراءه من أعصاب الدماغ ، فهذا الأنف ... يستطيع أن يتناول الوردية ولكن بحس غليظ تحقته الآفة كما يتناول حجراً أو حديداً أو خشباً أيها كان ، فالوردية عنده شيء من الأشياء يمتاز باللين ويختص بالنعومة ويسطح بالرونق ويزهو باللون ، ويذهب يتكلم في هذا كله ، وهذا كله في الوردية ولكنه ليس الوردية

ومتى كان البحث هو البحث في السماء وأفلاكها وأجرامها فلا يستقل به إلا الناظر المركب أي الذي معه عينه وتلسكوبه وعلمه جميعاً ، إن نقص من ذلك فبقدر نقصانه يكون ضعفه ، وإن تم فبقدر تمامه يكون وفاؤه ؛ ولو أمكن أن ينفصل الشاعر من شعره فيقطع ما بينه وبين المعاني من نسب نفسه ، ويبتعد عن الشعر ليراه جديداً عليه ويميزه من كل جهاته - لكان هو الناقد ؛ فناقد الشعر هو الشاعر نفسه ولكن في وضع أتم وأوفى ، وحالة أبين وأبصر ، أي كأنه الشاعر نفسه منقحاً تاماً بغير ضعف ولا نقص .

ومن أجل ذلك ترى من آية النقد البديع المحكم إذا قرأته ما يخيّل إليك أن الشعر يعرض نفسه عليك عرضاً ويحصل لك أمره ويبين حالته في ذهن شاعره ، وكيف توافي وانتلف ، وكيف انتزع الشاعر من الحياة ، وما وقع فيه من أثر الإلهام ، وما أصابه من تأثير الإنسان وما اتفق له من حظ الطبيعة والأشياء ؛ وبالجملية يُورد النقد عليك ما ترى معه كأن حركة الدم والأعصاب قد عادت مرة أخرى إلى الشعر



ألا وإن شعرنا العربيّ الجميل قد أصبح اليوم في أشد الحاجة إلى من يعلم

القارئ كيف يذوقه ويتبينه ويخلص إلى سر التأثير فيه ، ويخرجه مخرجا سريّا في أنغامه وألحانه ، وبأتى به من نفس شاعره ومن نفسه جميعا ؛ ففوة التمييز في هذا كله على تسديد وصواب هي التي يعطيها الناقد لقرائه ؛ والشعر فكر وقراءته فكر آخر ، فإن قصر هذا عن أن يبلغ ذاك ليتصل به ويتغلغل فيه ، فلا بد للفكرين من صلة فكرية هي كتابة الناقد الذي هو من ناحية كمال للطبيعة الناقصة ، ومن ناحية أخرى شرح للطبيعة الكاملة ، ومن ناحية ثالثة هو بذوقه وفنه قانون الانتظام الدقيق الذي يبين به ما استقام في الكلام وما اعوج .

وطريقتنا نحن في نقد الشعر تقوم على ركنين : البحث في موهبة الشاعر ، وهذا يتناول نفسه وإلهامه وحوادثه ؛ والبحث في فنه البياني ، وهو يتناول ألفاظه وسبكه وطريقته ، وسنقول فيهما معاً :

فأما الكلام في فن الشعر ، فالمراد بالشعر — أى نظم الكلام — هو في رأينا التأثير في النفس لا غير ، والفن كله إنما هو هذا التأثير ، والاحتياج على رجة النفس له واهتزازها بألفاظ الشعر ووزنه وإدارة معانيه وطريقة تأديتها إلى النفس ، وتأليف مادة الشعور من كل ذلك تأليفاً متلائماً مستوياً في نسجه لا يقع فيه تفاوت ولا اختلال ، ولا يُحمَلُ عليه تعسف ولا استكراه ؛ فيأتى الشعر من دقته وتركيبه الحى ونسقه الطبيعي كأنما يُقرع به على القلب الإنسان ليفتح لمعانيه إلى الروح ؛ والشعر العربي إذا تمت له في صناعته وسائل التأثير وأحكم من كل جهاته ، كان أسمى شعر إنسانى ؛ فتراه يطرد بألفاظه الجميلة السائغة وكأنه لا يحمل فيها معانى ، بل يحمل حركات عصبية ليس بينها وبين أن تنساب في الدم حائل ، فما يكون إلا أن يغمرك بالطرب وهزك من أعماق النفس ويورد عليك من نفحة الروح ما إن تدبرته في

نفسك وأفصحته عنه شعورك رأيت في حقيقته وجهها من نسيان الحياة الأرضية والانتقال إلى حياة أخرى من السرور والاهتياج والالم والشجو يحياها الدم الثائر وحده غير مشارك فيها إلا من القلب

والذين يجهلون ذلك من أمر الشعر العربي في مزاجه الخاص - فلا يعتبرونه حيا ذا طابع وخصائص لا بد من مراعاتها والنزول على حكمها وتلقيها بما يوافقها كما لا بد من أشباه ذلك لامرأة جميلة - تراهم يُخِلُّون بقوانين صناعته البيانية وينزلون ألفاظه دون منازلها ويرسلون معانيه على غير طريقها الشعرية ويبتلون بفضول كثيرة هي كآفات والأمراض، فيأتون بنظم تقرأه إذا قرأته وأنت تتلوى كأنما يقرع على قلبك بقبضة يد أو يدق عليه بحجر... وقد فشا هذا النوع من الشعر في هذه الأيام وأصبح مظهراً لما فسد من ذوق الأدب وما التاث من أمر اللغة وما اعوجج من طرق الفلسفة وما عمت به البلوى من التقليد الأوربي، وكثيراً ما رأيت القصيدة من هذا الشعر كامرأة سُلبت وجهها ووضعت لها جلدة وجه ميت... والناظم من هؤلاء لا يُصَرِّف الشعر على حدوده النفسية ولا يحكمه فيها، بل تصرفه الألفاظ كيف اتفقت له على وجوهها الملتوية، وتسوسه المعاني سياسة عمياء فقدت باصرتها معاً، ويحسبون كلامهم من النور العقلي ولسكنه النور في قطعه ثمانين ألف ميل في الثانية، فلا يكاد يقال في هذا العالم، حتى يخرج منه ويلسى ويلحق بالانهاية...

وهذا الضرب من الصناعة الفاسدة هو بعينه ذلك النوع الصناعي الذي أفسد الشعر منذ القرن الخامس، غير أن القديم كان فساداً في الألفاظ يجعلها كلها أو أكثرها نحالاً من الصنعة، والحديث جاء فساداً في المعاني يجعلها كلها أو أكثرها نحالاً من البيان.

ويزعم أصحابُ هذا الشعر أنهم فلاسفة ، ولكنهم كذلك في سرقة الفلاسفة لا غير ... ولو علموا لعدوا أن ألفاظ الشعر هي ألفاظ من الكلام يضع الشعر فيها الكلامَ والموسيقى معاً ، فتخرج بذلك من طبيعة اللغة العامة القائمة على تأدية المعنى بالدلالة وحدها إلى طبيعة لغة خاصة أرقى منها تؤدي المعنى بالدلالة والنغم والذوق ، فكل كلمة في الشعر تُجْتَلَبُ لمعناها من تركيبه ، ثم لموضعها من نسقه ، ثم لجُزْمِها في ألقانها ؛ وذلك كله هو الذي يجعل للكلمة لونها المعنوي في جملة التصوير بالشعر ؛ وما يمرُّ الشاعر العظيم بلفظة من اللغة إلا وهي كأنها تكلمه تقول : دعني أؤخذني .

وكما أنه لا بد للأزهار من جر الأشعة ، كذلك لا بد للمعاني الشعرية من جو اللغة البيانية ، فالبيان إنما هو أشعة معاني القصيدة ؛ وقد يحسبون أن الصناعة البيانية صناعة متكلفة لا شأن لها في جمال الشعر ودقة التعبير ، وما ننكر أن من البيان الجميل أشياء متكلفة ، ولكنها تنزل من أساليب البلاغة العالية منزلة كنزلة الظرف والدل والخلاعة في الحبيبة الجميلة .

إن هذه الفنون ليست من جمال الحلقة والتركيب في المرأة ، ولكنها متى ظهرت في الجمال الفاتن أصبح بدونها — وهو جميل دائماً — كأنه غير جميل أحياناً .

هنا صناعة هي روح الحسن في الحياة ، وصناعة مثلها هي روح الحسن أحياناً في البلاغة <sup>(٥)</sup> ، وما التراكيب البيانية في مواضعها من الشعر الحى إلا كالملاحم والتقاسيم في مواضعها من الجمال الحى ؛ وكثيراً ما يخيّل إلى حين تأمل بلاغة اللفظ الرشيق إلى جانب لفظ جميل في شعر محكم السبك ، أن هذه

---

(٥) لينا كلام طويل في فلسفة الأسلوب البياني سندكره إن شاء الله في كتابنا الجديد ( أسرار الإعجاز )

[قلت : وأقرأ حديثنا عن ( أسرار الإعجاز ) في كتاب ( حياة الرافعي ) ص ٢٨٩ ]

الكلمة من هذه الكلمة كحب رجل متأق يتقرب من حب امرأة جميلة ،  
وعطف أهومة على طفولة ، وحنين عاطفة لعاطفة ، إلى أشباه ونظائر من هذا  
الذوق الرقيق الحساس ؛ فإذا قرأت في شعر أصحابنا أولئك رأيت من لفظ  
كالشرطى أخذ بتلايب لفظ كالمجرم ... إلى كلمتين هما معاً كالضارب  
والمضروب ... إلى همج ورعاع وهرج ومرج وهيج وفتنة ؛ أما القافية فكثيراً  
ما تكون في شعرهم لفظاً ملاكاً ... ليس أمامه إلا رأس القارئ .

وكما يهتمون اختيار اللفظ والقافية يتسهلون في اختيار الوزن الملائم  
لموسيقية الموضوع فإن من الأوزان ما يستمر في غرض من المعاني ولا يستمر  
في غيره ؛ كما أن من القوافي ما يطرد في موضوع ولا يطرد في سواه ، وإنما الوزن  
من الكلام كزيادة اللحن على الصوت : يراد منه إضافة صناعة من طرب النفس  
إلى صناعة من طرب الفكر ، فالذين يهتمون كل ذلك لا يدركون شيئاً من  
فلسفة الشعر ولا يعلمون أنهم إنما يفسدون أقوى الطبيعتين في صناعته ؛ إذ  
المعنى قد يأتي نثراً فلا ينقصه ذلك عن الشعر من حيث هو معنى ، بل ربما زاده  
النثر إحكاماً وتفصيلاً وقوة بما يتهيأ فيه من البسط والشرح والتسلسل ،  
ولكنه في الشعر يأتي غناء ، وهذا ما لا يستطيعه النثر بحال من الأحوال .

فإذا لم يستطع الشاعر أن يأتي في نظمه بالروى الموثق والدسج المتلائم  
والحبك المستوى والمعاني الجيدة التي تخلص إلى النفس خلوص طبيعة إلى  
طبيعة تمازجها ، ورأيته يأتي بالشعر الجافى الغليظ والألفاظ المستوخمة الرديئة  
والقافية القلقة النافرة والمجازات المتفاوتة المضطربة والاستعارات البعيدة  
الممسوخة - فاعلم أنه رجل قد باعده الله من الشعر وابتلاه مع ذلك بزيف  
الطبيعة وسرف التقليد ، فما يحىء الشعر على لسانه في بيت إلا بعد أن يحىء اللغو  
على لسانه في مائة بيت أو أكثر أو أقل .

ذلك قولنا في فن الشاعر ، أما الكلام في موهبته التي بها صار شاعراً وعلى مقدارها يكون مقداره واتصال أسبابه أو انقطاعها من الشعر ، فذلك باب لا يمكن بسط المعنى فيه ولا تحصيل دقائقه إلا إذا صوّرت روح الشاعر في تركيبها الدقيق المعجز ووزنت في ميزانها الإلهي وعُرف نقصها إن نقصت وتمامها إن تمت ، وأمكن تتبّع مواقعها من أسرار الأشياء ومساقتها من منازل الإلهام ؛ وهذا ما لا سبيل إليه إلا بالتوهم النفساني ، فإن الأرواح القوية يلح بعضها بعضاً ، وقد تكون لمحة الروح الشاعرة لروح مثلها هي تدبّرهما ووزنها وإدراك ما تنطوي عليه كما ترى من وضع النور بإزاء النور ، فإن هذا الوضع هو نفسه وزن لـكليهما في ميزان البصر دون أن يكون ثمة موازنة إلا في التآلق والشعاع ؛ فهما في هذه الحالة نوران يضيئان ولكنهما أيضاً كلمتان يبينان عما فيهما من الأكثر والأقل .

لهذا قلنا إن الشاعر لا يتسع لنقده ولا يحيط به إلا من كانت له روح شعرية تكافئه في وزنها أو تربى على مقداره ؛ فإن هناك قوى روحية لإدراك الجمال وخلقه في الأشياء خلقاً هو روح الشعر وروح فنه ، وقوى أخرى لصلة العواطف بالفكر صلة هي سر الشعر وسر فنه ، وقوى غير هذه وتلك لتحويل ما يخالج النفس الشاعرة تحويل المبالغة التي هي قوة الشعر وقوة فنه ؛ وبمجموع هذه القوى كلها تمتاز روح الشاعر من غير الشاعر ؛ أما ما تمتاز به هذه الروح من روح شاعرة مثلها فهو ما يكون من تفاوت المقادير التي يهبها الله وحده ، فيخص شاعراً بالزيادة وآخر بالنقص ، ويهب أسبابها التي تكون عنها فيوسع لواحد ويضيق على الآخر ؛ وإذا تمت تلك القوى واستحكمت تهيأ منها للشاعر جهاز عصبي خالص هو جهاز التوليد لا يمر به معنى إلا تجسّد فيه بصورة غير صورته .

وقد استوفينا الكلام على ذلك في مقالنا «سر النبوغ في الأدب»، وهو لاغيره  
سر العبقرية .

فأمثلُ الطرق في نقد موهبة الشاعر إدراكها بالروح الشعرية القوية من  
ناحية إحساسها والنفاذ إلى بصيرتها، واكتناه مقادير الإلهام فيها، وتأمل آثارها  
في الجمال، وتدبر طبيعتها الموسيقية في الحس والفهم والتعبير، وتبين قدرتها  
على الفرح والحزن بأشجي وأرق ماتحتاج في النفس الحساسة، ومعرفة قوة  
التحويل في عواطفها للمعانى الإنسانية والطبيعية تحويلا يجعل القوة أقوى مما  
تبلغ، والحقيقة أكبر مما تظهر، وتأتي بكل شيء ومعه شيء؛ وليس ينتهي الناقد  
إلى ذلك إلا بالبحث في الأغراض أى «المواضيع» التى نظم فيها الشاعر وما  
يصله بها من أمور عيشه وأحوال زمنه وكيف تناولها من ناحيته ومن ناحيتها  
وماذا أبدع، ثم فى أى المنازل يقع شعره من شعر غيره فى تاريخ لغته وآدابها،  
ثم نظرته الفلسفية إلى الحياة ومسائلها واتساعه لأفراحها وآلامها وقوة  
أمواجه الروحية فى هذا البحر الإنسانى الرجاف المتضرب الذى يبلغ فى نفوس  
بعض الشعراء أن يكون كالأقيانوس وفى بعضها أن يكون كالمستنقع ... ثم دقة  
فهمه عن وحى الطبيعة والإشراف على جاية معناها بالهمسة واللمسة، وتسقط  
إلهام الغيب منها بالإيماء واللحظة؛ وهذا كله لا يستوسق للناقد العظيم إلا إذا  
كان مع روحه الشعرية التى اختص بها محيطا بآثار الشعراء فى لغته، بصيرا بما أخذها،  
مُحْكِمًا لأسباب الموازنة بينها، متصرفا مع ذلك بأداة قوية من صناعة اللغة والبيان  
وفنون الأدب .

وإذا كان من نقد الشعر علمٌ فهو علم تشريح الأفكار، وإذا كان منه فن  
فهو فن درس العاطفة، وإذا كان منه صناعة فهى صناعة إظهار الجمال البيانى  
فى اللغة ...

## فيلسوف وفلاسفة . . . (١)

أتأمل الآن هذا القلم في يدي — وأنا أفكر فيما سأكتبه للزهراء — فأرى نصاب القلم أضلعا أحمرًا في لون المرجان ، تلسرُح قليلا ، ثم تستديرُ ، ثم تستدقُ ، ثم تخرج منها قادمةٌ سوداء كأنها قصبةٌ ريشة من جناح ، وقد خُيِّل إلى أن هذا اللون الأحمر المزهُو يقول للأسود : إنما أنت غلطة الذي صنعتي ، فكيف ألهم في هذا الإلهام فوسمتني بهذا الميسم من حُسن ولون وتركيب ، ثم اعترضته الغفلة فيك فأخطأ ، وأدركه العجز فلم يميز ، ودخل على رأيه الوَهَنُ فإذا هو يصلك بي كالسيئة بعد الحسنة ، وينزلك مني منزلة القبيح من الجمال ! فأين كانت صحة رأيه التي بلغ بها في أحسن ما وفق إليه حين بلغ فيك أسوأ ما يمكن أن يصنع ؟ فيقول الأسود : إنما فيك أنت غلطة الصانع وبك أخطأ جهة الفن ، فلم يزنْ منك ما كان وزن مني ، ولا قدَّر لك مثل ما قدَّر لي ، وجئت غليظا غير مقدود ، وكنت إلى العرض ولم تسكن إلى الطول ، وكنت أحمر ولم تكن أسود ؛ وما أراك إلا فاسد الحس ، متغير الذوق ، وما أراك صنعك هذا الرجل إلا في ساعة همٍّ قاربت بين نفسه ورأيه ، فما زجت بين رأيه وعمله ، فجمعت بين عمله وغلطه

ذلك منطق اللونين فيما أدركتُ منهما ، وكلاهما مخطئ في جهة ما هو مستدل به أو متنظر فيه ؛ والحقيقة من ورأيهما ، إذ الحكمة ليست في أحدهما لجرة أو سواد ، بل هي في اثنيهما جميعاً لا تتلافهما جميعاً ، فلا تنقسم



عليهما قسمة ما : لأنها آتية منهما بالمقابلة بين اثنيهما ، وما لا يخرج أبدا إلا من اثنين فهو أبدا واحد لا نصف له : كالطفل من أبويه : لن تعرف شطره من أمه لأنك لن تعرف شطره من أبيه

أفى الأرض كلها من يستطيع أن يقسم طفلا واحدا فيجعله طفلين تعتدل بهما الحياة وتمثلهما بروحين من روح واحدة ؟ إنك لن تجد هذا الخالق الأرضى ... إلا فى طائفتين : الأولى قوم من ذاهبي العقول يخلقون كل شيء لأنهم لا يخلقون شيئا ؛ والثانية قوم من جبابرة العقول ... عندنا تعرف لهم من الخلط وسخف الرأي ما يريدون أن يعلوا به على الناس ، إذ كان الناس لا يجاوزون الحقائق ، فظن هؤلاء أنهم إن جاوزوها وعدوا عليها خرجوا إلى طبقة فوق العقل الإنسانى . وللجنون طرفان : أحدهما ألا يعقل المجنون عن الناس ، والآخر ألا يعقل الناس عن العاقل ؛ فذلك ذلك وهذا هذا ؛ وكأن فى رأس كل منهما ضمرة من قوة الخلق تنطوى على محجوبة إلهية ، فكل منهما يزيد فى الخلق ما يشاء ، وكل منهما فوق الطبيعة لأنه من ذوى الأسرار المجهولة التى لا نستبين عندنا من خفائها ، ثم لا تخفى عندهم من استبانتها ..

يضحكنى من جبابرة العقول هؤلاء أنهم يرون الدين مرة عادة ، وتارة اختراعا ، وحينما خرافة ، وطورا استعبادا ؛ وكل ذلك لهم رأى ، وكل ذلك كانوا يعقدونه بالحجة ويشدونه بالدليل ؛ فلما جاء تاغور الشاعر الهندى المتصوف إلى مصر ، وجلسوا إليه وسمعوه ، خرجوا يتكلمون كأنما كانوا فى معبد ، وكأنما تنزلت عليهم حقيقة الإلهية ، وكأنما اتضعت هذه الدنيا عن المكان الذى جلس فيه الرجل ، فلا يعرفونه من الأرض ، ولا من هذا العالم ؛ بل كانوا فى غشية قد فروا لها وسكنوا إليها ، وما أراهم صُرفوا ( ١٩ ج ٣ روى القلم )

عن عقولهم ولا صرفت عقولهم عنهم ؛ ولكن تاغور شاعر فيلسوف ، وهم يعرفون أنفسهم من لصوص كُتبه وآرائه ، ويقعون منه موقع السفسطة الفارغة من البرهان القائم ، وإذا قيسوا إليه كانوا كالذباب تزعم أنفسهم نصور المزابيل ، ولكنها لا تكابر في أن من الهزوبها قياسها بنصور الجوّ

لقد ضربهم تاغور ، لا بأنه لمسه ، بل بأنهم لمسوه ... وفضحهم فضيحة اللواؤة للزجاج المدعى أنه لواق ، وأظهر لنا تجملهم العقلي كهذه الأصباغ في وجه الشوهاء : تذهب تتصنع ولا تدري أنه إن كان في أذهانها وأصباغها روح النقاش ففي وجهها هي معنى الحائط !

لقد قرأتُ كلَّ ما كتبوا عن تاغور ألقى فيه هذه الحقيقة لأرى كيف يكون جبايرة العقول حين تنكشف عنهم المعاذير وتنزاح العلال وتنتكز الاستار ، فإذا هم في كل ما كتبوه لا يحسون إلا هذه الحقيقة ، ولا يصفون إلا هذا الحس ، فلم يُخزهم عندنا إلا هذا الوصف ؛ لا جرم فكل ما أثنوا به على الشاعر الفيلسوف قرأناه ذمّا لهم ، وعرفناه قدحا فيهم ، وأخذناه تهمة عليهم ، وكل ما أعظموا من أمره صغّر من أمرهم ، ولقد جعلوه إنسانا كأنما تنتهى قمة هذه الدنيا عند قدمه ، وتبدأ قدمه من قمة الدنيا ، فما عرفنا من ذلك قياساً لسموّ تاغور وارتفاع نفسه ، بل قياساً لانحطاط أنفسهم وهوان أمرهم وقلة خطرهم ؛ فإن الرجل المقلد المخدوع لا يزال يطول في تقليده ، ولا يزال يتوَعّر في الرأى الذى يراه ويعتسف طرق العلم اعتسافاً ؛ حتى يرميه الله بأصل من هذه الأصول الإنسانية التى يقلدها ؛ فإذا هو مُفحّم يتقاصر من طول ، ويتسهّل من وعر ، ويهتدى من تعسف . وينحط إلى الوهدة بعد أن كان على الجبل ، ويسلم في نفسه ، ويُذعن برأيه ، وينقاد من حيث يأبى ومن حيث لا يأبى ، ويصبح وقد غمرته تلك النفس أشبه بالظل مما يرميه

ويبقى به ، فهو مسخ في تمثيله الصورة ، وهو كذب عليها بما يطول ويقصر ، وهو على كل أحواله إبهام سخيف مظلم لحقيقة شريفة نيرة

وأنت أفلا ترى هذا من جبايرة العقول كتلك الشيعة في أخلاق العامة ، إذ لا يصلحون أبداً إلا أن يكونوا تبعاً ، ولا علم لهم إلا ما يربط في صدورهم من فلان وفلان ، ثم يعلمون بلا تحقيق ، ويحملون بلا تمييز ، ثم لا تكون نهمته أنفسهم مع الرجل العالم - إذا اجتمعوا به - إلا في التسليم له ، واتقاء حقائقه ، والنزول عن آرائهم إلى رأيه ، والخروج من أنفسهم إلى نفسه !

لقد قلنا من قبل إن جبايرة العقول هؤلاء الذين يأبون إلا أن يكونوا علماءنا وساداتنا ليصرفوا عقولنا ويغيروا عقائدنا ويصلحوا آدابنا ويدخلونا في مساخط الله ويهجموا بنا على محارمه ويركبونا معاصيه - إنهم في أنفسهم إلا عامة وجهلة وحمقى إذا وزنوا بعلماء الأمم وقيسوا إلى حكماء الدنيا ، وما يكتبون للأمة في نصيحتها وتعليمها إلا ما يتحوّل من كلمات وجمل في الصحف والكتب إلى أن يصيروا في الواقع فساقاً وفجرة وملحدين وساخرين ومفسدين ؛ فالمصيبة فيهم من ناحية العلم الناقص في وزن المصيبة بهم من ناحية الخلق الفاسد ، وهاتان معاً في وزن المصيبة الكبرى التي يحنون بها على الأمة لتهديمها فيما يعملون ، وتجديدها فيما يزعمون ...

لم أنخدع قط في هؤلاء من فلاسفة أو دكاترة أو جبايرة ، ولست أضع أمرهم إلا على حقه ، فإنني لأعرف أن الهرم من قبيلة الأسد ، ولكن أسديته على الفأرية وحدها ... ولعلماء غيبة الجهل خير للأمة من عواقب علمهم وتخبطهم وحقاقتهم ؛ فإنهم قوم مقلدون ، ولهم طباع معتلة زائغة ، وعقول لا يساك لها من دين أو ضمير ؛ فما يحنحون إلا إلى بدعة سيئة ، أو آفة مخدورة ، أو فكرة متهمّة ؛ ولا يعملون إلا ما يشبه الظن بهم ، والرأى فيهم ؛ من تمدين الأخلاق

السافلة وإلحاقها بالعلم أو الفلسفة ، مع بقاء العقل ناضجاً صحيحاً يحكم على هذا الخبيث كما كان يحكم على ذلك الطيب ؛ وليس من سبيل إلى هذا إلا من جهة تحويل الأخلاق ، فإن هي استمسكت ولم تتحول فها هنا موضع النزاع ومحل الخلاف ، ولا بد من حرب منا كحرب الاستقلال ، ثم حرب منهم كحرب الاستعمار ...

فالذى بيننا وبينهم ليس القديم والجديد ، ولا التأخر والتقدم ، ولا الجمود والتحول ؛ ولكن أخلاقنا وتجردهم منها ، وديننا وإلحادهم فيه ، وكالتنا ونقصهم ، وتوثقنا وانحلالهم ، واعتصامنا بما يمكننا وتراخيهم تراخي الحبل لا يجد ما يشده

والآن أنظرُ إلى قلبي فأرى شطره الأسود ما جعل كذلك إلا ليزيد في جمال حمرته وبريقها ، ويكسيها لمعة لا تأتيها إلا من السواد خاصة ؛ والشر خير إذا بقي محصوراً في موضعه ولم يتجاوزَه ؛ فإذا تذهبت الأمة لجيايرة العقول هؤلاء ، قلنا لا بأس بالسواد المظلم إذا كانت حكمته حمراء .....

## شيطاني وشيطان طاغور<sup>(١)</sup>...

طاغور هذا شاعر الهند، مر بمصر مرور شمس الشتاء باليوم المطير : لا يقع نورها إلا في القلوب مما تستخف وتستهوى، وبما تمتنع وتنبأى، وبما ترق وتلطف ؛ وتنقذ بين السحب الهامية فإذا لها من الجمال والسحر والعجب ما يكون لجرة تخرجها السماء معجزة للناس فيرونها ترسل الشعاع مرة وتمطر الماء مرة

لم ألق طاغور ولكنى أنفذت إليه شيطاني وقلت أوصيه قبل أن يخرج لوجهه : قد علمت أن هذا الرجل هندي، ولكنه إنسان، فما أرض أولى به من أرض : وأنه شاعر، ولكنه مخلوق، فما طبيعة أغلب عليه من طبيعة : وأنه حكيم، ولكنه تركيب ماجبلت له طينة غير الطينة : وأنه سماوي، غير أنه سماوي كعلماء الفلك : سماؤه في منظار وكتاب وقلم وحبر... فاذهب إليه فداخل شيطانه، فإنك واجد له من ذلك ما لكل الشعراء، وربما عرفت شيطانه من ذوى قرابتك أو خالصة أهلك، ثم انتنى بكلامه على جهة ما هو مفكر فيه، لا على جهة ما هو متكلم به ؛ وخذ ما يهيج على قلبه، ودع ما يجرى في لسانه ؛ فإن هذا سيأتي به إخوانك من « مندوبي الصحف » ... واعلم أن كل حكم مهيئ لمسائل من حوله كلاماً ، غير أن معاني من حوله مهيئة له مسائل أخرى يفكر في كل جواب عليها ولا ينطق بجواب عليها



فحدثني شيطاني بعد رجوعه قال : حدثني شيطان طاغور قال : لما هبط  
طاغور هذا الوادي نظر نظرة في الشمس ثم قال : أنت هنا وأنت هناك ،  
تقربين بأثر وتبعدين بأثر ، وتطلعين بجو وتغربين بجو ، فلا تختلفين وتختلف  
بك الأقاليم ، ثم تتغير بالأقاليم الأمم ، ثم تتغير بالأمم الأفكار والمنازع ، ثم  
تتغير بالأفكار والمنازع أغراضها ومصالحها ، ثم تتغير بمصالحها وأغراضها  
الحقائق الانسانية ؛ وإنما الباطل والحق فيما تستقبل هذه الحقائق أو تستدبر ،  
وقد غلبت السياسة على كل شيء حتى أصبحت هذه الحقائق الانسانية جغرافية ،  
لها شعوب ولها مستعمرات ، فالإخاء في الغرب سيادة في الشرق ، والمساواة  
هناك امتياز هنا ، والحرية في مملكة استعباد لمملكة ، والتحية في موضع صفة  
في موضع ، والضيافة في مكان استئصال في مكان ؛ ولا يزالون مختلفين إلا  
مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ولذلك خلقهم » ، فإن يتصل الناس بالروح الأعلى إلا من  
الجهة الواحدة التي لم تتغير ولن تتغير فيهم ، جهة الدموع التي لا تختلف  
في أسود ولا أحمر ، والتي لا تلبعث إلا من الرقة والوجد والاحزان والآلام ،  
وهي بذلك نسب كل قلب إلى كل قلب ، فلو غمر العالم كله بلاء واحد لا تحرز  
منه أرض أهلها ولا تتحاجز الأمم فيه ، لاستلب مطامع الناس بعضهم في  
بعض ، وأرجع الإنسانية الزائغة إلى مستقرها ، فتجردوا من الدنيا وهم في  
الدنيا ، فاتصلوا باللانهاية وهم في النهاية ؛ فإن لم يكن بلاء عام ففكر عام في بلاء  
يميت الشهوات المتطلعة ويكون كالداء تلبس بالجنس الانساني كالذي تصفه  
الآديان من جهنم والمصير إليها والحساب عندها والجزاء على التهربها ، حتى  
لاتبني نفس إلا وهي في وثاق من حلالها وحرامها ، ولا يبقى شر يتخيل أو  
يشتهى إلا وهو كالمنازع النفيس بين أربعة جدران تتساقط وتحترق لا يجد

فى كل اللصوص لصا؁ فإن لم يكن هذا ولا ذاك فالحب العام حتى لا يبقى جيش ولا سلاح ولا سياسة ولا دول؁ ولا تكون الممالك إلا بيوتا إنسانية بين الواحدة والكل من الشابكة واللحمة ما بين الكل والواحدة؁ وحتى تقول مصر لانجلترا يا بنت عمى ... فإن استحال كل هذا فالحرية العامة على أن تكون محدودة من كل جهاتها بالشعر؁ وعلى أن يكون الشعر محدودا بالطبيعة؁ والطبيعة محدودة بالله؁ فينتزع النوم من الأرض لتتصل اليقظة بالحلم ... من طريق غير النوم

قال شيطان طاغور: ثم ابتأس طاغور وقال: كل ذلك مستحيل أو كالمستحيل؁ ولكنه فى الأمل ممكن أو كالممكن: وللفظ معنيان: أحدهما ما يكون؁ والثانى ما يحسن أن يكون: ذلك لا بد له منا لأنه جانب النظام الإلهى؁ وهذا لا بد لنا منه لأنه جانب الخيال الإنسانى: ذلك من الطبيعة التى تعمل ولا تتكلم؁ وهذا من الشعر الذى يتكلم ولا يعمل. آه آه! إنما السلام العام أن يكون الوجود شركة إلهية إنسانية برضا واتفاق بين الطرفين ... ولعمري إن كل المستحيلات ممكنة بالإضافة إلى هذا المستحيل. ثم تبسم طاغور إذ خطر له أنه شاعر عليه أن يصف الوردة ويقول فيها ما يجعلها بيت شعر فى كتاب الطبيعة له وزن ونغم؁ ولكن على الطبيعة قبل ذلك أن تلبثها ناضرة عطارة جميلة تتميز من غيرها برائحة ولون وشكل.

قال شيطانه: ولما انتهى من تأمله إلى هذه الخاطرة قدمت له سيدة هندية عقود الزهر؁ وبينما هى تقلده إياها قال فى نفسه: إن هذه الأزهار من معانى الماء العذب: فإذا انطلقنا فى أوهامنا وراء الحب العام والسلام العام فلن تكون معانى الماء المالح وهو ثلاثة أرباع الأرض ومن أزهاره الأسطول الإنجليزي ...



حدثني شيطاني قال : حدثني شيطان طاغور قال : ولما استقر طاغور في قصر شوقي بك ورآه في مثل حسن الدينار ونقشه ونفاسته ، قال : لاجرم هذه أمة أغنت شاعرها ، فما أخطئ التقدير ، وإن أخطأته فلا أبعد عن المقاربة إذا حسبت أن هذا الشاعر يطبع لهذه الأمة نصف مليون نسخة من كل ديوان شعر أو دفتر حكمة أو كتاب قصة ، وليتني أعرف العربية لأعرف كيف يبدع هذا الشعب فلسفته في أغانيه المتصلة بغيوم السماء المتكلم بأحسن وأطهر ما يمكن أن يكون ترجمة للحقيقة الخالدة التي يتوارثها شعب خالد .

الشعر فكرة الوجود في الإنسان ، وفكرة الإنسان في الوجود ، ولا يكفى أن يخلق هذا الإنسان مرة واحدة من لحم ودم ، بل لا بد أن يخلق مرة أخرى من معان وألفاظ ، وإلا خرج حيوانا أعجم ؛ فالشاعر يبدع أمة كاملة ، إن لم يخلقها فإنه يخلق أفكارها الجميلة وحكمتها الخالدة وآدابها العالية وسياستها الموفقة ، وما أحسب النهضة المصرية إلا بالأغاني والأناشيد ، فتأتى من انجلترا جنود وتخرج لها من دور الغناء والتثيل جنود أخرى ؛ لقد كنت ملهماً حين قلت مرة « إن الله يخاطب الناس عن طريق الموسيقى » (٥) .

نعم عن طريق الموسيقى ، فكل شيء هو موسيقى في نفسه حتى حين يتطاحن الناس ويذبح بعضهم بعضاً ، فإن صلاصلة الأسلحة ودوى القنابل وأزيز الرصاص وتصايح الجند - كل ذلك لحسن أعداء الله جلّت قدرته « وموسيقاه » ... لجنازات الأمم .



---

(٥) هذه العبارة من كلام طاغور في محاضراته مما ترجمته جريدة السياسة ،



حدثني شيطاني قال : حدثني شيطان طاغور قال : ولما رأى طاغور الأستاذ الفاضل مدير الجامعة المصرية - وهي التي دعتة إلى إلقاء محاضرته - قال : نعم وحباً وكرامة ، إنه لا يستقيم في العقل أن تدعو هذه الجامعة شاعراً روحانياً مثلي إلا وهي فلك نير يعده الله من نجومه ، وما أحسب أستاذ آدابها العربية إلا تلك الذرة اللوآوية التي كانت تجاورني في طينة الخلق الأزلية ، فلو أن الذرات الثمان التي كانت حولنا خلقت في عصرنا هذا وتوزعت على الأمم الفلسفية لكنا وإياها كوصايا الله العشر في هذا العصر المادى ... ولما كنا طياتها إيماناً بالله ، ولصار لله تعالى في أرضه عشر آلات سماوية لا سلكية بينه وبين الخلق ، تباهى الجامعة المصرية بأن فيها إحداها ... لقد نغص على هذه الشيخوخة أنى لم أتعلم العربية ، وكيف لي بأن أرتل أناشيد أستاذ الآداب في الجامعة المصرية وأستمتع بألحانه السماوية في شعره وأغانيه ، وأسمع الملائكة من هذه المئذنة الإنسانية في الجامعة تهتف بكلمة الإسلام الرهيبة صارخة بحقيقة الوجود في الوجود : الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ...

قال شيطاني : وكان شيطان الدكتور طه حسين أستاذ الجامعة حاضراً معنا ، فلما ألم بما في نفس طاغور قال لي : حقاً إن من الخير أن لا يعرف هذا الهندي اللغة العربية ، لأنه لو عرف اللغة العربية لما أرضته اللغة العربية ولا آداب اللغة العربية ولا أستاذ آداب اللغة العربية ! فقلت : اسكت ويحك ودع الرجل في أحلامه ، ولا تكن غيمة سمائه المشرقة ؛ أما تراه يحلم ، أما سمعته يقول : « والحقيقة من حيث هي جمال ليس يعدله جمال ؛ ألسنت ترى إلى صورة هذه المرأة العجوز أبدعها فنان ماهر ، إنك تنظر إلى الصورة فتقر بجمالها ، ولكن المرأة العجوز التي فيها ليست على شيء من الجمال ؛ لكننا

جمال الصورة أنها تمثل هذه المرأة العجوز على حقيقتها « (\*) فهذه كلمات في سبحات النور ، وهى من لغة السماء ذات الكواكب لامن لغة النفس ذات العواطف ؛ وإلا فهل يصح فى العقل أن تصوير العجوز التى اضطرب ميزان الخلق فيها حتى لا يزن منها إلا بقايا الخلقة وأنقاض العمر وخرائب المرأة ... يكون بما يظهر من شوهتها وتدمها وتشنن جلدها وموت ظاهرها - جمالا فى الصورة لأنه قبيح فى الأصل ؟ أفليس لو كان ذلك صحيحاً لملئت المتاحف والقصور بالواخ العجائز ، ولما بقيت على الأرض عجوز إلا ذهبت لأحد المصورين تقول له اخلقنى ... !



حدثنى شيطانى قال : حدثنى شيطان طاغور قال : وكان طاغور رطب اللسان فى محاضراته كأن غابة من غابات الهند أمدته بكل ما اعتصرتة الشمس فيها ماءً وحياة ونضرة ، فهو فى كلامه ومعانيه ورق وزهر ونسيم وظل وحفيف وتغريد ، يسحر الناظر إليه إذ لا يرى الناظر شكله الانسانى فيه بل يراه شيئاً من خياله كأنما انفصل منه فتمثل بشراسويا ؛ ولو أنك اطلعت يوماً فى المرأة فإذا خيالك فيها يكلمك ويستأنسك ويلطف لك ، لما أدهشك من ذلك ولا أطربك ولا استخرج من عجبك وذهالك إلا كالذى يعترى نفسك حين يكلمك طاغور ؛ وتراه يستخلص آراءه المتصرفه بكلامه من روح الواميس الإلهية المدبرة للكون ، فتحسه يضيف إليك زيادة ليست فيك ؛ فما كبرت به

---

(\*) هذه العبارة مما ترجمه السياح من نغصرة طاغور ، وإذا قيل إن الصبابة فى نقل الصورة تحكمة فليس معنى ذلك أن الصورة جميلة ، والمعنى الذى يرمى إليه الشاعر معروف وقد كتبناه فى ( السحاب الأحمر ) ولكنه أخطأ فى العبارة عنه أو أخطأت الترجمة

تصغر نفسك عندك بين يديه ؛ ثم هو يتصل بروحك مرة في جلال حب الأب لطفله ، ومرة في رقة فرح الطفل بأبيه ؛ فإذا أنت منه بموقف عجيب من معجزة إنسانية تروءك بطفل شيخ قد اجتمع فيه طرفا العمر وجاء كأنه مظهر روحه التي لا عمر لها .

إنسان كهربائي يحاول أن يزيد في تركيب الناس عظمة من حديد أو عصباً من سلك ، لتصل بهم جميعاً تلك الشعلة الطائفة ، فاذا هم خلق آخر كأهل الجنة يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ؛ ولكنه بصر وهو خارج من المسرح بإعلان السيماء التي تجاوره وما عليه من التصاوير والتهاويل ، فقال في نفسه : بعد قليل تجيء إلى هنا لندن وباريس ونيويورك وغيرها من أرض الله بناسها وحيوانها ونباتها ، يراها الجالسون رأى العين ويتصلون بها اتصالاً بعيداً لا يجعلهم فيها ولكنه لا يخليهم منها ؛ ويجب لعمران هذه الأرض أن يبقى أهل مصر في مصر فلا يدعوها جميعاً ليتصلوا جميعاً بما تشتهقه أنفسهم من باريس أو غير باريس من حقائق العالم الكبرى ، ولا يحسن هذا الاتصال إلا إذا خص ولم يعم ، فيقوم به الواحد والاثنان والجماعة وتبقى الأمة بما هي وكما هي لأنها بذلك وحده أمة ، كما أن الناس بطبائعهم ناس ، والكون باختلافه كون ، فهيات هيات الحب العام والسلام العام والاتصال العام بالحقيقة الروحية العليا . ثم تبسم وقال : ما أشبهني بهذه السيماء ، غير أن شريطي لا يرى فيه الناس رواية من لندن وباريس ، بل رواية وقعت حوادثها في جنة الخلد ...

# فلسفة القصة

ولماذا لا أكتب فيها...؟ (\*)

لم أكتب في القصة إلا قليلا ، إذا أنت أردت الطريقة الكتابية المصطلح على تسميتها بهذا الاسم ، ولكنى مع ذلك لا أرانى وضعت كل كتي ومقالاتى إلا فى قصة بعينها ، هى قصة هذا العقل الذى فى رأسى ، وهذا القلب الذى بين جنبي .....

أنا لأعياً بالمظاهر والأغراض التى يأتى بها يوم وينسخها يوم آخر ، والقبلة التى أنجه إليها فى الأدب إنما هى النفس الشرقية فى دينها وفنائها ، فلا أكتب إلا ما يبعثها حية ويزيد فى حياتها وسمو غايتها ، ويمكن لفنائها وخصائصها فى الحياة ؛ ولذا لا أمس من الآداب كلها إلا نواحيها العليا ؛ ثم إنه يخيل إلى دائماً أنى رسول لغوى بعثت للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه ، فأنا أبدأ فى موقف الجيش (تحت السلاح) : له ما يعانى به وما يكلفه وما يحاوله وينبى به ، وما يتحماه ويتحفظ فيه ، وتاريخ نصره وهزيمته فى أعماله دون سواها ؛ وكيف اعترضت الجيش رأيتة فنّ نفسه ، لا فك أنت ولا فن سواك ؛ إذ هو لطريقته وغايته وما يتأدى به للحياة والتاريخ

ألا ترى أن تلك الروايات توضع قصصاً ، ثم تقرأ فتبقى قصصاً ؟ وإن هى صنعت ، شيئاً فى قرائها لم تزد على ما تفعل المخدرات : تكون مسكنات

---

(\*) وجه إلينا سؤال : لماذا لا تكتب فى القصة ؟ وكان هذا قبل أن نكتب مقالاتنا فى مجلة الرسالة ، فرددنا بهذا الرد  
[ قلت : وانظر ص ١٨٩ من « حياه الرافى » ، ]

عصبية إلى حين ، ثم تنقلب هى بنفسها بعد قليل إلى مهيجات عصبية ؟  
وأنا لا أنكر أن فى القصة أدباً عالياً ، ولكن هذا الأدب العالى فى  
رأى لا يكون إلا بأخذ الحوادث وتربيتها فى الرواية كما يربى الأطفال على  
أسلوب سوادٍ فى العلم والفضيلة ؛ فالقصة من هذه الناحية مدرسة لها قانون  
مسنون ، وطريقة محددة ، وغاية معينة ؛ ولا ينبغى أن يتناولها غير الأفاض  
من فلاسفة الفكر الذين تنصبهم مواهبهم لإلقاء الكلمة الحاسمة فى المشكلة  
التي تثير الحياة أو تثيرها الحياة ؛ والأعلام من فلاسفة البيان الذين رزقوا  
من أدبهم قوة الترجمة عما بين النفس الإنسانية والحياة ، وما بين الحياة  
وموادها النفسية فى هؤلاء وهؤلاء ، تتخيل الحياة فتبدع أجمل شعرها ، وتتأمل  
فتخرج أسمى حكمتها ، وتشعر فتضع أصح قوانينها .

وأما من عداهم من يحترفون كتابة القصص ، فهم فى الأدب رعاى وهمج ،  
كان من أثر قصصهم ما يتخبط فيه العالم اليوم من فوضى الغرائز ، هذه الفوضى  
الممقوتة التي لوحقتها فى النفوس لما رأيتها إلا عامية روحانية منحطة تنسجم  
فيها النفس مشردة فى طرق رذائلها

إذا قرأت الرواية الزائفة أحسست فى نفسك بأشياء بدأت تسفل ،  
وإذا قرأت الرواية الصحيحة أدركت من نفسك أشياء بدأت تعلو ؛ تنتهى  
الأولى فىك بأثرها السيئ ، وتبدأ الثانية منك بأثرها الطيب ؛ وهذا عندى هو  
فرق ما بين فن القصة ، وفن التلفيق القصصى !!

## شعر صبرى (\*)

فى الحادى والعشرين من شهر مارس من سنتنا<sup>(١)</sup> هذه نزع الشعر العربى عن رأسه عمامة المشيخة ونشرها للوت ، فكانت السكفن الذى طوى فيه بقية شيوخ الأدب . المرحوم اسماعيل باشا صبرى

كان رحمه الله من الرجال الذين نشئوا فى تاريخ لا يُفشى رجلا ، وجاءوا فى غير زمنهم ليحيى بهم زمنهم بعد ؛ وهؤلاء إن لم يكن فيهم قوة أكبر من القوة ، فهم أقدار وأحداث تولد وتلشأ وتنمو فى أسلوب إنسانى ليتم بها شىء كان نقصا ، ويحسن شيئا كان هجنة ، ويوجد أمرا كان عدما ؛ ثم ليكون للزمن منها حدود يبدأ عند الواحد منها فيتغير فيه ويتحول به ويخرج معه فى بعض معانيه زمنا جديدا فى رجل جديد

كذلك كان صبرى فى منحنى من مناحى الشعر ، وكان البارودى - رحمهما الله - فى منحنى آخر ؛ فهما طرفا المحور الذى استدار عليه هذا الفلك ليبدأ بعد تاريخه الميت تاريخا حيا ، وليخرج من الجور القاتم فى أعراض الأرض إلى الفضاء المشرق بمعانى السماء ، ثم لينفض عنه فى مهب الرياح العلوية مالمصق به من طباع أهله وأخلاقهم ، ويُغلق بها مافتح الزمن عليهم من أبواب هذه الحرفة ، فكان الشعر فى حاجة إلى رجل كالملك ، فأصاب رجلين ؛ وعلم الله ما رأيت فى كل من رأيتهم من الشعراء نفسا تعهدُ معهما ، ولا خُلُقًا يجرى فى أخلاقهما ، ولا ظرفا ولا رقة ولا أدبا ولا شيئا يصلح أن يكون شرحا منهما أو توكيدا لشيء فيهما أو تقوية لمعنى من معانيهما ، كأنما وجدا ليكون أحدهما مبدأ

(٥) هو اسماعيل باشا صبرى ، توفى رحمه الله فى شهر مارس سنة ١٩٢٣ م

(١) المقتطف : مايو سنة ١٩٢٣

والآخر نهاية، ولينفردا انفراد الطرفين من المسافة بالغّة ما بلغت  
كان الشعر لعهدهما بقية رثّة في معرض خَلْقٍ بما كان يسميه أدباءُ  
الاندلس بالأغراض المشرقية وطريقة المشاركة، وهم يعنون بذلك الصناعة  
والتكلف للبديع والانصراف إلى اللفظ واستكراهه على الوجه الذى أرادوا،  
إلى ما يتشعب من ذلك ويخرج أو يدخل في بابه ؛ وقد كان هذا ومثله مما  
يُساغ ويحتمل في القرن الثامن وأكثر التاسع للهجرة، ثم في أيام بعد ذلك ؛ غير  
أنه بلى وتهتك في مصر خاصة ولم يبق منه إلى منتصف القرن الثالث عشر إلا  
رَقْعٌ وخيوط في قصائد ومقاطيع

ثم كان أكثر الشعراء يومئذ إنما يحترفون فن الأدب صناعة كسائر  
المهن والصناعات التى بها قوام العيش لهؤلاء المستأكلين والمتكسبين من  
السوقة والمرتزة



ظهر البارودى ونبغ في شعره قبل أن يقول صبرى الشعر بسنوات ،  
ولكن الأدب الفارسى والجزالة العربية هما اللذان تحولوا فيه ؛ ثم نبغ  
صبرى بعد ذلك بزمن ، فتحول فيه الأدب الأفرنجى والرقعة العربية ؛ وهذا  
موضع التفاوت في شعر الرجلين اللذين اقتنصا الخيال الشعرى من طرفى  
الأرض ، وكلاهما يذهب مذهبا ويرجع إلى طبع ويروض شعره على وجه ؛  
فالبارودى يستجزل ويجمع إلى سبكه الجيد قوة الفخامة وشدة الجزالة ، ثم  
يعترض الخيال من حيث يهبط على النفس في أمر الوحي ؛ وصبرى يسترق  
ويضيف إلى صفاء لفظه جمال التخيير وحلاوة الرقة ، ويعارض الفكر من  
حيث يتصل بالقلب ؛ والبارودى لا يرى إلا ميزان اللسان يقيم عليه حروفه  
وكلماته ، وصبرى لا يرى إلا ميزان الذوق الذى هو من وراء اللسان ؛ وقد

يسرت لكليهما أسباب ناحيته في أحسن ما يتصرف فيه ؛ فجاء البارودي حافظاً كأنه مجموعة من دواوين العرب والمولدين ، وجاء صبرى مفكراً كأنه مجموعة أذواق وأفكار ؛ وهما يشتركان معاً في التلوُّث على صنعة الشعر والتأني في عمله وتقليبه على وجوه من التصفح ، وتمحيصه بالنقد والابتلاء لفظاً وجملة جملة ، ثم مطاولة معانيه ومصابرتها كأنما ينتزعان محاسنها من أيدي الملائكة ؛ وأنا أعرف ذلك فيهما ؛ وقال لى صبرى باشا مرة وقد جاريتة في بعض هذا المعنى : أنه يعلم هذا من البارودي ومن نفسه . قلت : أفيلغ به ذلك أن يحجو بياض اليوم في سواد بيت واحد ؟ قال : وفي سواد شطرة أحياناً ! وليس ينقصهما هذا الأمر شيئاً ، فإن خبر زهير في حوارياته معروف ، وقد عمل سبع قصائد في سبع سنين : يحوك القصيدة منها في سنة .

ونقلوا عن مروان بن أبي حفصة أنه قال : كنت أعمل القصيدة في أربعة أشهر ، وأحككها في أربعة أشهر ، وأعرضها في أربعة أشهر ، ثم أخرج بها إلى الناس ؛ فقليل هذا هو الحول المنقح

كان مرجع البارودي إلى الحفظ ، فنبغ في وثبات قليلة ؛ أما صبرى فاحتاج إلى زمن حتى استحكمت ناحيته وآتته أسبابه على الإجادة ، لأن مرجعه إلى الذوق ، وهذا يكتسب بالمران وينضج عند نضوج الفكر ولا يأتي بالماء والرونق حتى تأتى له أسباب كثيرة ؛ وأنت تعرف ذلك في الرجلين من أوائل شعرهما ، فقد رثى البارودي أباه في سن العشرين بأبياته الدالية الشهيرة التي مطلعها :

لا فارس اليوم يحمى السرح بالوادي طاح الردى بشهاب الحى والنادى  
وهى ثمانية عشر بيتاً ، وجيدها جيد ، وكأنها خرجت من لسان أعرابي ؛ وإنما جاءت من صنعة الحفظ ، كالذى اتفق للشريف الرضى في أبياته الخائية



التي كتب بها إلى أبيه وعمره أربع عشرة سنة، وكان أبوه معتقلا بقلعة  
شيراز ومطلعها

أبلغا عنى الحسين ألوكا إن ذا الطود بعد بعدك ساخا  
والشهاب الذى اصطليت لظاه عكست ضوءه الخطوب فباخا  
هذا على أن البداية كما يقال مزلّة؛ وقد وفقنا إلى الوقوف على أول  
ما نشر من شعر صبرى باشا، وذلك قصيدتان نشرتا في مجلة روضة المدارس  
في مدح اسماعيل باشا، فنشرت الأولى في العدد الصادر في غاية شوال سنة ١٢٨٧  
للهجرة - ١٨٧٠ للميلاد؛ ونشرت الثانية في عدد شهر ربيع الآخر من سنة ١٢٨٨ هـ  
- ١٨٧١ م؛ ويذهما خمسة أشهر، كانت وثبته فيها ضعيفة متقاصرة، مما يدل على  
بطء فضجه بطبيعة الأسباب التي تسبب بها إلى الشعر؛ وكانت الروضة يومئذ  
تشرطائف من خول دهرهم: كالسيد صالح مجدى، ورفاعة بك رافع، ومحمد افندى  
قدري «ونايلة الزمان محمد افندى رضوان»، وغيرهم. وكانت تستقبل قصائدهم  
بسمجات داوية مفرقة، هي لذلك العهد أشبه الأشياء بطلقات مدافع التحية  
للكوك والامراء؛ فلما نشرت لصبرى قالت في القصيدة الأولى «تهنئة بالعيد  
الأكبر للخديوى الأعظم بقلم اسماعيل صبرى افندى». وقالت في الثانية  
«قصيدة رائية في مدح الحضرة الخديوية من نظم الشاب النجيب اسماعيل  
صبرى افندى من تلامذة مدرسة الإدارة». ومطلع القصيدة الأولى:

سفرت فلاح لنا هلال سعاد ونما الغرام بقلبي المعمود

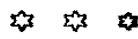
ولا شيء فيها أكثر من حروف المطبعة... ومطلع الثانية

أغرّتك الغراء أم طلعة البدر وقامتك الهيفاء أم عادل السمر

وفي هذه القصيدة بيت وقفت عنده أرى صبرى باشا في صبرى افندى

كأنه خيال مولود يستهل، وذلك قوله:

فطوّل من الهجران علّ وقوفنا يطول معاً - يافاتلى - ساعة الحشر  
ويكاد هذا البيت يكون أول انقلابٍ للفكرة فيه : وهو غريب ، والتأمل  
فيه أغرب ، ولكنه يدل على خيال سيّث يوماً على أقطار السموات  
وفي ذلك الزمن عينه كان البارودى شهاباً يتلهب ، وكان قد بلغ مبلغه  
واستجمع أسباب نهايته ، بل هو نظم قبل ذلك بست سنوات قصيدته الشهيرة :  
أخذ الكرى بمعاقد الأجفان وهفا الشرى بأعنة الفرسان  
فلم يكن ليذهب وجه الشعر عن صبرى ، ولم يكن ليغضى عن احتذاء  
هذه الصنعة الباردة ويأخذ فى غيرها لولا أن فيه طبعاً مستقلاً يذهب إلى  
كأله فى أسلوب آخر كأسلوب كل زهرة فى غصنها ؛ وأخص أحوال صبرى  
أنه لم يرد أن يكون شاعراً فجاء أكبر من شار ، وكان السبب الذى صرفه  
من ناحية هو نفسه الذى جاء به من ناحية أخرى



ينبغ الشاعر بأربعة أشياء لا بد منها : طريقة الدرس التى عالج بها الشعر ،  
وكتب هذه الطريقة ، والرجال الذين هم أمثلتها فى نفسه . ثم ... ويا لله من  
ثم هذه ، فهى اللوحة السماوية التى تشرق على فؤاد الشاعر من وجه جميل ،  
والثلاث الأولى تنشئ نبوغاً معروفاً فى نوعه ومقداره ، ولكن الأخيرة هى  
طريق القدر التى لا يعرف آخرها ؛ وإذا تجددت فى حياة الشاعر أو اتصلت  
تجدد بها نبوغه أو اتصل ، فعلى قدر ما يحب تحبوه السماء من أسرار الجمال ،  
وهى نفسها أجمل أسباب الشعر وأجمل معانيه وأجمل غاياته ، فهى هى المادة  
التي تؤلف بين نفس الشاعر وبين معنى الجمال الشعري فى هذا الكون كله ؛  
وإذا أنت نزعْتَ النظرة والابتسامة - وهما عنصرا تلك المادة - من حياة  
الشاعر ، نزعْتَ الحياة نفسها من شعره فما يبقى منه إلا أنه مقبرة للألفاظ

والمعاني، وتسمع شعره فلا تجزيه به أحسن من قولك: يرحمك الله... وصبرى لم يدرس الشعر فى الكتب أكثر مما درسه فى الوجوه والعيون، وقد عالج هذا الشعر فى بدايته ليتأتى إليه من طرقه البعيدة؛ أما الرجال الذين كانوا أمثله فكانوا رجال الظرف والرقه والنكته المصرية الشهيرة التى انفرد بها الطبع المصرى ونص عليها علماء البلاغة، كالسكاكى وغيره؛ بل كان عصره كله عصر هذه النكته، فتحولت فى طبعه الرقيق المبتكر تحولا رقيقا مبتكرا أرجعها إلى الظرف المحض الذى اجتمعت فيه كل طباعه كما يجتمع السحاب من الماء.

ولقد كان فى شعره أحق الناس بقول ابن سعيد المغربى :  
أُسكان مصر جاور النيل أرضكم      فأكسبكم تلك الحلاوة فى الشَّعر  
وكان بتلك الأرض سحر فما بقى      سوى أثر يبدو على النظم والنثر  
وإنى أعلم أنه كان دائم الحب: يمزج ذكرى ماضيه بحاضره فيخرج منهما حباً جديداً؛ وكان الرجل كأنه مجروح القلب، فلا يزال يئن حتى فى بعض أنفاسه، إذ يرسل النفس الطويل بين هنيهة وأخرى كأنه يريد أن يطمئن أن نفسه فيه، أو أن شيئاً باقياً فى نفسه؛ وتلك هممة لا تكون فى شاعر من الشعراء بغير معنى

كانت النظرة والابتسامة تتمثل له حيث شاء وتعرضه حيث أراد أن يراها، فيجد فى كل شيء روحاً من الشعر، ويقرأ لمحاتها متى التفت، وكان يعيش فى ذات نفسه كأنه معنى فى قصيدة هو أمير أياتها

فشاعرنا هذا أخرجه اثنان: الظرف والجمال؛ وهذا سر إباطه أن يُعدَّ من الشعراء لأنه أرفع من أن يدخل بينهم فى هذه المحنة والبلوى التى ابتلوا بها...

ولقد همَّ صبرى فى أواخر عمره بمحو شعره لو أنه كان فى منال يده ، على أنه محامنه ياهماله أكثر مما أثبت ؛ وعلمت منه أنه لم يدون شيئاً ، وأنه ينسى ما يقوله ، فكأنه يوجد بسبب واحد ويمحق بسببين ؛ وقد لما كان كبار العلماء متى انتهوا إلى التحقيق رأوا عمرهم كله بداية ورأوا ما فعلوا باطلاً فغسلوا كتبهم أو أحرقوها ، ولكننا لم نعرف هذه الطبيعة فى شاعر بعد عصر الكتابة والتدوين ، وإن كان بعضهم يأنف لنفسه أن يعد من الشعراء وهو مع ذلك يجمع يده على شعره ، كالشريف الرضى الذى يقول :

... مالك ترضى أن تعد شاعراً بعداً لها من عدد الفضائل

ويقول فى مدح أبيه :

إني لأرضى أن أراك ممدحاً وعلاك لا ترضى بأنى شاعر

ومثله أبو طالب المأمونى وآخرون يدعون ذلك دعوى وفى ألسنتهم

مالس فى قلوبهم

ولإفراط صبرى فى الظرف والجمال وقيام شعره على هذين الركنين ، جاء مقلداً من أصحاب القصار ، وزاد إقلاله فى قيمة شعره ، فخرجت مقاطيعه مخرج الشيء الطريف الذى يتعجب منه فى وجوده أكثر مما يتعجب منه لقلته وجوده ؛ وبذلك ربح تعب المكثرين والمطيلين ، إذ كان لا يقول إلا فيما تواتيه السجية وينزع له الطبع ، فيدنو ما خذه ويكثر بقليله ويرمى منه بمثل الحجة والبرهان ، فيطمس بهما على كلام طويل وجدل عريض

ولا يعيب المقل أنه مقل إذا كثرت حسناته ، بل ذلك أعون له على القلوب والنفوس إذا أصابت فى شعره ما يغريها بطالب المزيد منه ؛ وقد عثوا بين المقامين فى الجاهلية : طرفة بن العبد ، وعبيد بن الأبرص ، وعلقمة الفحل ، وعديّا ابن زيد ، وسلامة بن جندل ، وحصينا بن الحمام ، والمثلث ، والحارث بن حلزة ،

وابن كلثوم ، وغيرهم أتينا على أسمائهم في الجزء الثالث من (تاريخ آداب العرب) ؛  
ومن أولئك من يعرف بالقصيدة الواحدة : كطرفة ، ومنهم من يعرف بثلاث  
قصائد : كعاقمة ، أو بأربع : كعدى بن زيد ؛ ومنهم من يعرف بالأبيات المتفرقة ،  
ولا عبرة بما ينسب إليهم عند غير المصححين وأهل التحقيق ، فإن الحمل على  
شعراء الجاهلية كثير ؛ وقد يعرفون الشعراء بالبيت الفرد ، لأن العرب إنما  
يعتبرون الشعر بمقدار ما يحرك من ميزانه الطبيعي الذي هو القلب ، لا بالطول  
ولا بالقصر ، وقد قالوا في بيت النابغة :

ولست بمستبقٍ أخا لاتلَّهُ على شعث ، أى الرجال المهذب ؟

إنه لا نظيره في كلام العرب ؛ وما ذلك إلا على الاعتبار الذى أشرنا إليه .  
وكانوا يسمون البيت الواحد : بيتاً ، فإذا بلغ البيتين والثلاثة فهي نبتة ، وإلى العشرة  
تسمى قطعة ، وإذا بلغ العشرين أستحق أن يسمى قصيداً

وكان من الشعراء من يعتمد أن لا يحىء في شعره الجيد بغير البيتين  
والثلاثة إلى القطع الصغيرة ، كشاعرنا صبرى باشا ؛ ومنهم عقيل بن علفة : كان  
يقصر هجاءه ويقول : يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق . ومنهم أبوالمهوس ،  
وكان يحتاج لذلك بأنه لم يجد المثل النادر إلا بيتاً واحداً ، ولم يجد الشعر السائر  
إلا بيتاً واحداً ؛ ومنهم الجواز : قال له بعضهم وقد أنشده بيتين : ما تزد على البيت  
والبيتين ؟ فقال : أردت أن أنشدك مُذارعة ؟ ؟ ؟ وابن لنسكك المصرى ، وابن  
فارس ، ومنصور الفقيه الذى كان يقال فيه : إذا ربح بزوجه قتل . ولانستقصى  
في هذا فلندعه فإن له موضعاً

غير أن صبرى كان له مع جودة المقاطيع جودة القصيد إذا قصد ، كقوم  
عرفوا بذلك في التاريخ ، منهم العباس بن الأحنف وسواه ؛ وكان من أسباب  
إقلاقه ما أعلمنى به من أن طريقته في أكثر ما ينظم معارضة معنى يقف عليه ، أو

تضمنين حكمة ، أو ضرب مثل على طريقة النظر والملاحظة ، أو تدوين خطرة عرضت له ، أو لمحة أوحيت إليه ؛ وهو ينزل في ذلك على النصفة والمعدلة فلا يفتحل شيئاً ليس له ، بل يدلك بنفسه على الأصل الذى منه أخذ أو المثال الذى عليه احتذى

قال لى مرة إن البستانى عقد حكمة فارسية فى قوله :

قضيت إلهى بالعذاب فيأتري بأى مكان بالعذاب أتدين  
وليس عذابٌ حيثما أنت كائن وأى مكان لست فيه تكون ؟

ثم قال : فأخذت من هذا المعنى وقلت :

ياربّ أين ترى تقام جهنم للظالمين غداً والأشرار  
لم يُبق عفوك فى السموات العلى والأرض شبراً خالياً للنار  
ياربّ أهلى لفضلك وآكفى شطط العقول وفتنة الأفكار  
ومرّ الوجود يشفّ عنك لكى أرى غضب اللطيف ورحمة الجبار  
يا عالم الأسرار حسبي محنة عيسى بأنك عالم الأسرار

والفرق بين الشعيرين أن البستانى جاء بكلامه على طريقة المتصوفة التى يسمونها طريقة أهل التحقيق ، كابن العربى والششتري ؛ وأما صبرى فأنظر كيف استوفى وكيف لاءم وكيف امتلات أعطاف شعره

وقد يأخذ المأخذ الدقيق الذى لا ينتبه له إلا المطلع الحاذق بصناعة الكلام ، كقوله :

إذا ما صديق عقى بعداوة وفوقت يوماً فى مقاتله سهمى  
تعرض طيف الودّ بينى وبينه فكسر سهمى فانشيت ولم أرم

فهذا ينظر إلى قول الحارث بن وعله :

قوى هم قتلوا أميم أخى فإذا رميت يصيبني سهمى

ولكنه ليس بذلك ؛ فإن أساس المعنى قوله : « تعرض طيف الود بيني وبينه » وهو من قول العباس بن الاحنف :

وإذا مامددت طرفي إلى غيـ ر ك مُثَلَّتْ دونه فأراكا  
فتأمل كيف أبدع في انتزاع المعنى وكيف جعل له معرضاً جديداً وكيف  
أداهُ أحسن تأدية في اللفظ وجه كأنه شيء مخترع

ومن شعره السائر قوله في العناق وتلازم الحبيبين :

ولما التقينا قرب الشوق جهدهُ شجيتين فاضا لوعةً وعتابا  
كأن صديقاً في خلال صديقه تسرب أثناء العناق وغابا  
وهذا المعنى على إبداعه فيه متداول ، وأصله لبشار — أظن — في قوله <sup>(١)</sup> :  
وبتنا جميعاً لو تراق زجاجة من الخمر فيما بيننا لم تسرب  
فأبدع صبرى في أخذه وجعل من هذه الزجاجة المنصدعة جوهرة  
تتألق ؛ على أنى لأستحسن قوله « كأن صديقاً ... » فما هذا بعناق الأصدقاء ،  
ولو كان الصديق راجعاً من سفر الآخرة ؛ وإذا غاب واحد في الآخر  
فالآخر حامل به ... وقد أخذت أنا هذا المعنى منه ، ولولاه ما اهتديت إليه ،  
فقلت في ذلك :

ولما التقينا ضمنا الحب ضمة بها كل مافي مهجتينا من الحب

(١) البيت لعل بن الجهم ، وقبلة :

ألا ربَّ ليل ضمنا بعد هجمة وأذنى فؤادا من فؤادٍ معذبٍ  
أخذه من قول بشار :

ومُرَّجَّةِ الأعطافِ مهضومة الحشا تمورُ بسحر عينها وتدور  
إذا نظرت صبت عليك صباة وكادت قلوبُ العاشقين تطير  
خلوتُ بها لا يخلصُ الماء بيننا إلى الصبح دوني حاجبٌ وسُتورُ

وشدَّ الهوى صدرًا لصدرٍ كأنما يريدُ الهوى إنفاذ قلب إلى قلب

\*\*\*

وأحسن ما تجد شعر صبرى فى الغزل والنسيب والوصف والحكمة ، فهى عناصر قلبه وذوقه ، ولا يتصرف معه أقوى ما يتصرف إلا فى هذه الأغراض ، ولعله إن جاوزها قصر معه شيئاً ما وضعفت أداته ضعفاً ، لأنه يكون شاعر الصنعة وهو يأبأها ويكره أن يكون شاعراً من أجلها ؛ وقلما يجارىه أحد فى تلك الأغراض ، وهو الذى فتح أبوابها ؛ وحسبك أنه المثال الذى احتذى عليه شوقى بك ؛ وقد ينقسم المعنى الواحد فى رجلين حين يقدر ، فإذا لم يوجد أحدهما لم يوجد الآخر ، وأنا أرى وأعلم أنه لولا صبرى لما نبغ شوقى ، وكان هذا يختلف إليه يعرض عليه شعره ويرجع بآثار ذوقه فيه ، وكذلك كان يفعل خليفة البارودى حافظ بك إبراهيم ؛ واسترشد شوقى من صبرى باشا هذا البيت السائر :

صونى جمالك عنا إننا بشرٌ من التراب وهذا الحسن روحانى

فهو لصبرى باشا ، والمرافدة سنة معروفة من قديم ، وهى غير الانتحال وغير السرقة وما يسمى إغارةً وغصباً ؛ وقد استرشد النابغة زهيراً فأمر ابنه كعباً فرفده ، والحكاية فى ذلك مشهورة عنه وعن سواه

ولم يكن فى مصر من يحسن ذوق البيان وتميز أقدار الألفاظ بعضها من بعض وألوان دلالاتها كالبارودى وصبرى وإبراهيم المويلحى والشيخ محمد عبده ، رحمهم الله جميعاً ؛ والبارودى يذوق بالسليقة ، وصبرى بالعاطفة ، والمويلحى بالظرف ، والشيخ بالبصيرة النفاذة ؛ وذلك شئ رغبه الله فى طبيعة صبرى لم يحصله بالدرس أكثر مما حصله بالحس ، ومن أجله كان يفضل البحترى على غيره ، وهو بلا نزاع بحترى مصر ، كما لقبوا ابن زيدون



بَحْتَرَى الْمَغْرِبَ ؛ وَإِنَّكَ لَتَجِدُ بَعْضَ الْأَلْفَاظِ فِي شَعْرِ الرَّجُلِ كَأَنَّهَا شَعْرٌ مَعَ الشَّعْرِ ، فَتَقِفُ عَلَى الْعِبَارَةِ مِنْهَا وَقَلْبُكَ يَتَنَفَّسُ عَلَيْهَا كَأَنَّهَا إِنَّمَا وُضِعَتْ لِقَلْبِكَ خَاصَّةً ، فَهِيَ تَغْمِزُ عَلَيْهِ غَمَزاً وَكَأَنَّهَا نَفْثَةُ مَلِكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ جَاءَتْكَ فِي نَفْسٍ مِنْ أَنْفَاسِ الْجَنَّةِ

وَيَمْتَنِزُ نَسِيبُهُ بِأَنَّهُ يَكَادُ يَكُونُ فِي طَهَارَتِهِ وَعِفَّتِهِ ضَوْءاً مِنْ جَمَالِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، وَهُوَ عِنْدِي أَنْسَبُ مِنَ الْعَبَّاسِ بْنِ الْأَحْنَفِ الَّذِي صَرَفَ كُلَّ شَعْرِهِ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى ؛ وَلَوْ أَنَّ عَصْرَهُ كَانَ عَصْرَ أَدَبٍ صَحِيحٍ لَأَخْمَلَ كُلَّ شَعْرَاءِ هَذَا الْبَابِ ، مِنْ ابْنِ أَبِي رَبِيعَةَ إِلَى طَبَقَةِ عَشَاقِ الْعَرَبِ إِلَى أُمَّةِ الطَّرِيقَةِ الْغَرَامِيَةِ لَأَخْرَجَ الْقُرْنُ السَّابِعَ

وَمِنْ غَزَلِهِ الْبَدِيعُ قَوْلُهُ :

|                                                 |                                                |
|-------------------------------------------------|------------------------------------------------|
| يَا مَنْ أَقَامَ فَوَادِي إِذْ تَمَلَّكَهُ      | مَا بَيْنَ نَارَيْنِ مِنْ شَوْقٍ وَمِنْ شَجْنٍ |
| تَفْدِيكَ أَعْيُنَ قَوْمٍ حَوْلَكَ أَزْدَحَمَتْ | عَطَشِي إِلَى نَهْلَةٍ مِنْ وَجْهِكَ الْحَسَنِ |
| جَرَدَتْ كُلِّ مَلِيحٍ مِنْ مَلَا حَتِّهِ       | لَمْ تَتَّقِ اللَّهَ فِي ظَهْرِي وَلَا عُصْنِ  |

وَقَوْلُهُ :

|                                                |                                                |
|------------------------------------------------|------------------------------------------------|
| أَفْصَرَ فَوَادِي فَمَا الذِّكْرَى بِنَافَعَةٍ | وَلَا بِشَافَعَةٍ فِي رَدِّ مَا كَانَا         |
| سَلَا الْفَوَادِ الَّذِي شَاطَرَتْهُ زَمَنًا   | خَفَقَ الصَّبَابَةُ فَاخْفَقَ وَحْدَكَ الْآنَا |

وَيَارْحِمُهُ اللَّهُ لِلْقَلْبِ الَّذِي يَفْهَمُ هَذَا الْبَيْتَ ، فَإِنَّهُ لَيَجْنُ بِهِ مَنْ يَكُونُ فِيهِ اسْتِعْدَادٌ

لِهَذَا النَّوْعِ مِنَ الْجَنُونِ

وَمِنْ قَلَائِدِهِ الْغَرَامِيَةُ قَوْلُهُ :

|                                               |                                              |
|-----------------------------------------------|----------------------------------------------|
| يَا آيِي الْحَيَّ هَلْ قَتَّشْتَ فِي كَبْدِي  | وَهَلْ تَبَيَّنْتَ دَاءً فِي زَوَايَاهَا     |
| أَوَاهُ مِنْ حَرِّ أَوْدَتِ بِمَعْظَمِهَا     | وَلَمْ تَزَلْ تَتَمَشَّى فِي بَقَايَاهَا     |
| يَا شَوْقَ رَفَقًا بِأَضْلَاعٍ عَصَفَتْ بِهَا | فَالْقَلْبُ يَخْفَقُ ذَعْرًا فِي حَنَايَاهَا |

وله قصيدة (تمثال جمال) وقد نظمها لتتنقل إلى الفرنسية، ومن عيونها قوله :

وابسعى، مَنْ كان هذا ثغرُهُ      يملأُ الدنيا ابتساماً وازدهاءً  
لاتخافى شططاً من أنفـس      تعثر الصبوة فيها بالحياء  
راضت النخوة من أخلاقنا      وارتضى آدابنا حسن الولاء  
فلو امتدَّت أمانينا إلى      ملك ما كدرت ذاك الصفاء

والشعراء من أول تاريخ الأدب إلى اليوم يقولون في معنى قوله «لاتخافى شططاً» الأبيات، وما منهم من وفق إلى مثل هذا البيت الأخير، وإن كان بعضهم بلغ الغاية، كابن نباتة السعدي والسري الرفاء وغيرهما

ومن أبدع ما اتفق له في الوصف أبيات في الدواة تخلص في آخرها إلى مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وهو تخلص ليس في الشعر العربي كله مثله في الإبداع وحسن الاختراع، يقول فيها :

|                              |                            |
|------------------------------|----------------------------|
| أكرمى العلم وامنحى خادميه    | ماءك الغالى النفيس الثمين  |
| وابذلى الصافى المطهر منه     | لهداة السرائر المرشدين     |
| وإذا الظلم والظلام استعانا   | يوم نحس بأجهل الجاهلينا    |
| واستعدنا من الشرور مداداً    | فاجعليه من قسمة الظالمينا  |
| واقذفى النقطة التى بات فيها  | غضبُ القاهر المذل كميناً   |
| ليراع امرئ إذا خط سطره       | نبذ الحق وارتضى المين دينا |
| وإذا كان فيك نقطة سوء        | كونت من خباثة تكويننا      |
| فاجعليها قسط الذين استباحوا  | في السياسات حرمة الأضعفينا |
| وإذا خفت أن يكون من الصخر    | ر جلاميد ترجم السامعينا    |
| فابخلى بالمداد بخلا وإن أعطي | ت فيه المشين ثم المئينا    |
| فاذا أعوز المداد طبيباً      | يصف الداء دائباً مستعينا   |

فامنحنيهِ المَرادَ مِنّا وعُرفاً واستطبي معونة المحسنينا  
وإذا مهجة الحائِثِ أسدت نقطة سرّها الزكيّ المصونا  
فاجعلها على المودّات وقفاً وهبها رسائل الشّيقينا  
فإذا لم يكن بقلبك إلا ماعدّ الإخلاص للمخلصينا  
فاجعلهِ حظي لا كتب منه شرح حالي لسيد المرسلينا  
هذا والله هو الشعر ، وما وفق إلى مثله أحد كائنًا من كان في هذا العصر

\*\*\*

ولا نطيل بالنقل من شعره وتبع أغراضه ، فهو كالآلماس في الشمس : يشع  
من كل جهة ، ولا يختلف ضوءه إلا في بعض اللون مما يكون الأجمل فيما  
كله جمال ، ويمجّج من الشعاع ما لا تجد حسنة في الشعاع نفسه ، وأحياناً يرق كبعض  
البلور فيمتص حرارة الشمس ويستوقد بها في ذاته ليضرم ما وراء قلبه ،  
وما وراءه إلا قلوبنا الحزينة عليه رحمه الله !

## حافظ إبراهيم<sup>(١)</sup>

فرغتُ الآن من قراءة شعر حافظ بعد أن لم يَعُدْ حافظ بيننا إلا شعره ونثره ، فبالله أحلفُ ما نظرتُ في صفحة مما بين يديّ إلا وأحسست أن ذلك الشاعر العظيم يقول في بيانه الرائع وصناعته البديعة : أنا هنا !  
ولغة هذا الشعر المتدفقة بالحياة كأن كلماتها القوية عروقتُ في جسم حتى متوئب — لم تخرج عن أن تكون هي العربية المبيتة في جزالتها ونصاعتها ودقة تركيبها البياني ، ومع ذلك فليس في هذا العصر كله من يكابر أو يمارى في أنها هي لغة حافظ وحده ، كأنه أرغم التاريخ أن يحتفظ به في أجمل آثاره  
وأنا أعرف في شعره مواضع من الاضطراب والضعف والنقص سائير إلى بعضها ، ولكنني على ما أعرفه أجده هذا الشعر كالتيار يُعْبُ عُبابه لا يبالي ما تنأثر منه وما ركده وما وقع في غير موقعه ، إذ كانت عظمته في اجتماع مادته لا في أجزاء منها ، وفي السر الذي يدفعها في كل موضع لا في المظهر الذي تكون به في موضع دون موضع ؛ فهو أبدا يقول لمن يتصفح عليه أو يلتقده : انظر لما بقي



ترجع صداقتي لحافظ رحمه الله إلى سنة ١٩٠٠ ، أول عهدي بالأدب وطلبه ، وقد شهدت من يومئذ بناءه الأدبي عاليا فعالياً إلى الذروة التي انتهى إليها ، وأخلص لي ثقته وأصفاني مودته ، وكان همك من أخ كريم ، وله في نفسي مكان لم ينسكروه منذ عرفته . ولم يضق بحبيته منذ اتسع لها . وكنت وإياه يرى أحدا

الآخر من هذه اللغة كالجانبين لصورة واحدة : لا يتهاى فى الطبيعة أن يختلفا والصورة بعد قائمة ، ولا أن يضطرب ما بينهما والصورة منهما على وزن وتقدير .

ولكن هذا لا يمنعنى أن أقرر أنه كان عندى أكبر من شعره — ولعله كذلك عند كل من خاطوه بأنفسهم — فإنه يتعاضدك بنفسه القوية وبالمعنى الذى تحسه فى العبقرى ولا تدرى ماهو ؛ وذلك من سحر العبقرين وأثرهم فى نفس من يتصل بهم ، فيتسقى لهم أمراً من أمر واحد ، وحظان بحظ ، ونصيبان بنصيب ؛ لأن مع الإعجاب بآثارهم إعجاباً آخر بالقوة التى أبدعت هذه الآثار ؛ فى ذواتهم المحبوبة يستمر الإعجاب كالسائر على طريق لا موقف عليه ، وفى آثارهم يكئون الإعجاب فى موقف قد انتهت الطريق به فوقف على حد إن أو وإن ، ترب

بجرم حر كان شاعرنا عبقرياً عجيب الصنعة قوى الإلهام بليغ الأثر فى عصره ، يشبه تحريلاً وقع فى صورة من صور التاريخ ، ولكنه كذلك فى مذاهب من الشعر دون غيرها ، فلم يكن معه من التمام فى فنون الشعر ما يكون به الشاعر التام أو الأديب الكامل الأداة ؛ ولم من مرة كلمته فى ذلك ونهته إلى أنه كالنمط الواحد ، وأنه يجب أن يترسل شعره بين النفوس الإنسانية وأغراضها الكثيرة المختلفة ، لأنها كانت السياسة من الحياة فليست الحياة هى السياسة ، ولا ينبغي أن يكون شعره كله كشمس الصيف ، فإن للربيع شمساً أجمل منها وأحب كأنها مجمعة . أزهاره وعطره ونسيمه

كان يفخر بأنه ( الشاعر الاجتماعى ) ، وهذا لقب ميزه به صديقنا ، معنى حافل أيام كان فى مصر قديماً ، فتعلق به حافظ وراه تعبيراً ، وقد كان فى نفسه والملكة التى اختص بها ، قال لى يوما فى سنة ١٩٠٣ : أنا

لا أعد شاعراً إلا من كان ينظم في الاجتماعيات . فقلت له : ومالك لا تقول  
بالعبارة المكشوفة : إنك لا تعد الشاعر إلا من ينظم مقالات الجرائد ...

ولا بد لي أن أبسط هذا المعنى في هذا الفصل ، فإنه كان يخيل إلى دائماً  
أن شاعرنا ( حافظ ) خلق للتاريخ في أصل طبيعته ، ثم زيدت فيه موهبة الشعر  
ليكون مؤرخاً حتى الوصف بليغ التأثير قوى التصرف ؛ ومن ثم جاء أكثر  
ما نظمته وأساسه التاريخ والسياسة ، وصح له بهذا الاعتبار أن يقول إنه الشاعر  
الاجتماعي ، ولكن مادة الشعر غير روح الشعر ، فإذا كان في المسألة الاجتماعية  
وسياسية فليس في الروح إلا الشاعر على إطلاقه ؛ والاجتماعيات ليست  
حقائق الحياة ، وهي بعد ذلك معان خاصة محصورة في زمنها ومكانها ؛  
الحقائق ليست هي الشعر ، وإنما الشعر تصويرها والإحساس به . كل  
شيء تلبسه الحقيقة من النفس ، فالشاعر الاجتماعي شاعر في حيز من  
وجوه الشعر ومذاهبه ، وإذا كان الاجتماع كل شعره فلا يسمى شاعراً ،  
إذ كان الفن إنسانياً وكان شاملاً عاماً ؛ والمقاييس التي يطرد عليها الفن الأدبي  
لا تكون في الزمن ولا في الموضع ، بل في النفس الإنسانية التي لا تحصى بوقت  
ولا مكان ، فإذا لم يكن الشعر إنسانياً عاماً يولد كل جيل من البشر فيجده  
كأنما وضع له وارتهن بأغراضه وحقائقه ، فهو شعر ( كالأخبار الحية ) ، وهذا  
وجه الشبه بينه وبين ما أشرت إليه آنفاً من نظم مقالات الجرائد .

فمقالات الجرائد هذه لا تأتين بالآشياء التي نحن منها في الإنسانية والطبيعة  
والجمال وحقائق الحياة والموت ، بل التي يكون منها يومنا المرقوم بأنه يوم  
كذا من شهر كذا من سنة كذا . . . فإذا مات اليوم ماتت الحياة ، ثم  
تولد ثم تموت ؛ وقد أدرك المتنبي سر الشعر وأنه قائم على  
الإنساني إلى معرفة إنسانية ، فخلد شعره ، فلا يمكن أن يمحى من العربية . . .

وهذا على ما يقدح من وجوه الاعتراض والنقص ، وعلى أن المتنبي كان ضعيفاً في ناحية الجمال والحب ضعفاً ظاهراً كضعف شاعرنا حافظ في هذا المعنى ، ولكن حكمته الإنسانية ودقة أوصافه وإقامته الفضائل والردائل في كمالها الفنى مقام تمائيل بارعة من الجمال ، كل ذلك ترك شعره مستمراً باستمرار الحياة وباستمرار الإنسانية وباستمرار الذوق

إن هذا الكون مبنى فى نفسه مما يعلم العلم تركيبه ولا يعلم سر تركيبه إلا الله وحده ، ولكنه مبنى فى أنفسنا من عمل الحواس ، ثم من التعليل والتفسير ؛ أما الحواس فى كل حى ، لا تخلق بصناعة ولا عمل ، وأما التعليل والتفسير فهما من صناعة الشاعر والأديب ، فكلاهما يُخلق لإتمام الخلق فى الحقيقة ، وهى منزلة لا أدرى كيف يمكن أن تُمسخ حتى تقتصر على معنى الشاعر الاجتماعى أو السياسى ، فترجع به نمطاً ، واحداً مع أن الآثار الأدبية وفى جملتها الشعر - إن هى إلا قوى الفكر وإلهام النفس وبصيرة الروح مسجلة كلها فى بواعثها وأسبابها من نفس عالية ممتازة ؛ وهذه القوى كثيرة التحول ، فى بضرورة أن تكون آثارها كثيرة التنوع ، وتنوع الصور الفكرية فى آثارها أو الأديب ومجئها متوافرة متتابعة هو معيار أدبه وقياس نبوغه عالياً لا ، ومتبعا أو مبتكراً ، وفيما يضىء من نواحيه وما ينطق

من شاعرنا الاجتماعى ( كما كان يجب أن يوصف رحمه الله ) وإن كان قد تنخ في روح الشعب أنفاساً إلهية ، وأحسن فى وصف حوادثه وآلامه وعيوبه ، وأبلغ البيان فى كل ذلك - فإنه نزل فى هذه المرتبة عن وضعه الصحيح ، فكاره نزلته بمكان الشرطى فى الطريق : يقف للجرائم والحوادث ، على حين أن من الشعب مقام المعلم فى مدرسته : يجلس للطباع والأخلاق . ليس أن توجد فى شعر الشاعر حوادث عصره أكثرها أو أقلها ، فإن

فوق هذه منزلة أعلى منها، وهى أن توجد حوادث النهضة بشعر الشاعر، وأن يكون فى شعره العنصر النارى من اللغة الشعبية

على أن (حافظ) رحمه الله أدرك كل هذا فى آخر عهده، فكان يريد أن يميز ديوانه ويستخرج منه جزءاً صغيراً يختار فيه ألف بيت ويسقط ما عداها وإن ... وإن كان فيه شعر اجتماعى .... ومع هذا النقص الذى بعثت عليه طبيعة الزمن وطبيعة الشاعر معاً، فإن تمام حافظ فى مذهبه الاجتماعى الذى نبغ فيه جاء من وراء القوة وفوق الطاقة، لا يجاريه فيه شاعر آخر، بحيث دلّ على أن النابغة قد رُئِىَ إلهى لا ينقص من عظمتِهِ أن يكون حادثة واحدة تدوى دويها فى الدنيا؛ فهو ميسّر منذ نشأته لما خلق له من ذلّ، فأحكا المدرسة الحربية، ثم قيده الجيش، ثم تقاذفه السودان، ثم قذف به الظلم، ثم توا إمام عصره الشيخ محمد عبده، وهو كذلك فى عاياته الوعرة ومقاصد العمران ومعاناته الإصلاح - مدرسة حربية وجيش وفلاة، فلم يكن حانظ إلا الصوت الإنسانى الذى أُعِدَّ بخصائصه للتعبير عن حوادث أُمته وخصائصه وكأنه فى نقلته من السودان إلى مصر قد انتقل من جيش يحارب الجحش الأعداء لأُمته، إلى جيش آخر يحارب المعانى الأعداء لأُمته .

\* \* \*

ولد حافظ إبراهيم سنة ١٨٧١، وكان الكتاب الأول الذى هد الأدب العربى وأرهف ذوقه وأحكم طبيعته، هو كتاب الوسيلة للشيخ حسين المرصفي، المطبوع فى مصر لخمس وخمسين سنة؛ ففى هذا الكتاب قرأ حافظ خلاصة مختارة محققة من فنون الأدب العربى فى عصره ودرس ذوق البلاغة فى أسنى ما يبلغ بها الذوق، ووقف على وعرف منه الطريقة التى نبغ بها البارودى، وهى قراءته دواوين فحول



من العرب ومن بعدهم، وحفظه الكثير منها : فبنى شاعرنا من يومئذ قريحته على الحفظ، ولم يزل يحفظ إلى آخر عمره؛ إذ كانت قريحته كآلة التصوير : لا تُدبِّه لشيء إلا علقته وهذا سبب من أسباب ضعف خياله ولكنه رد عليه من القوة في اللغة ماتناهي فيه إلى الغاية .

واتفق لذلك العهد أن طبعت لزوميات المعرى في مصر ، فتناولها حافظ واستظهر أكثرها، فكانت باعث ميله ونزعته إلى الشعر الاجتماعي؛ والفرق بين حافظ وبين المعرى في الموهبة الفلسفية هو الذي نفذ بالمعرى إلى أسرار كثيرة ووقف بحافظ عند الظاهر وما حوله ، يطير هناك ويقع

قد كان صاحبنا ضعيفاً من هذه الناحية ، فاستصعبت عليه أسرار واستغلقت أسمى من أسرار الخير والشر في الحياة ، والجمال والحسن في الخليفة ، **الجلال والإبداع في الكون**، والإقرار والشك في كل ذلك؛ وقد بلغ المعرى من هذا انغماً لا بأس به، إلا أنه لم يُصف كما تصقّ الأشياء في عين مبصرة؛ كـ **تخطيط**، ووضع من أغراض نفسه المريضة على الصحيح والمريض جميعاً. فيه نحافظ في طريقة أخرى سنشير إليها بعد

آثار مما عرنا بما قرأ في « الوسيلة » من شعر البارودي ، فأصبح من عالياً ، وسار على نهجه في قوة اللفظ وجزالة السبك ومثانة الصنعة وجودة نغم الألفاظ وأجراس الحروف، ولكنه لم يدرك شأو البارودي كان قد ان هذا جمع من دواوين الشعراء وكتب الأدب ما لم يتفق لغيره في وعوداً ، وأدخل في شعره أحسن ما صنعت الدنيا في ألف سنة من تاريخ أفكار ؛ ولذا انتقل عنه حافظ إلى طريقة مسلم بن الوليد في التصنيع أن ما

ليس دا يعالج الشعر في السودان وينظم في جلس ما هو بسبيله من وصف

لا أعد شاعراً إلا من كان ينظم في الاجتماعيات . فقلت له : ومالك لا تقول  
بالعبارة المكشوفة : إنك لا تعد الشاعر إلا من ينظم مقالات الجرائد ...

ولا بد لي أن أبسط هذا المعنى في هذا الفصل ، فإنه كان يخيل لي دائماً  
أن شاعرنا ( حافظ ) خلق للتاريخ في أصل طبيعته ، ثم زيدت فيه موهبة الشعر  
ليكون مؤرخاً حتى الوصف بليغ التأثير قوى التصرف ؛ ومن ثم جاء أكثر  
ما نظمه وأساسه التاريخ والسياسة ، وصح له بهذا الاعتبار أن يقول إنه الشاعر  
الاجتماعي ، ولكن مادة الشعر غير روح الشعر ، فإذا كان في المادة اجتماعي  
وسياسي فليس في الروح إلا الشاعر على إطلاقه ؛ والاجتماعيات ليست  
حقائق الحياة ، وهي بعد ذلك معان خاصة محصورة في زمنها ومكانها ؛

الحقائق ليست هي الشعر ، وإنما الشعر تصويرها والإحساس به -  
حتى تلبسه الحقيقة من النفس ، فالشاعر الاجتماعي شاعر في حين  
وجوه الشعر ومذاهبه ، وإذا كان الاجتماع كل شعره فلا يسفى .  
إذ كان الفن إنسانياً وكان شاملاً عاماً ؛ والمقاييس التي يطرد عليها  
لا تكون في الزمن ولا في الموضع ، بل في النفس الإنسانية التي لا تخضع  
ولا مكان ، فإذا لم يكن الشعر إنسانياً عاماً يولد كل جيل من الناس  
كأنما وضع له وارتتهن بأغراضه وحقائقه ، فهو شعر ( كالأخبار المحددة  
وجه الشبه بينه وبين ما أشرت إليه آنفاً من نظم مقالات الجرائد  
فمقالات الجرائد هذه لا تأتينا بالاشياء التي نحن منها في الإنسانية  
والجمال وحقائق الحياة والموت ، بل التي يكون منها يومنا المرقوم  
كذا من شهر كذا من سنة كذا ... فإذا مات اليوم ماتت الحياة  
تولد ثم تموت ؛ وقد أدرك المتنبي سر الشعر وأنه قائم على  
الإنساني إلى معرفة إنسانية ، فخلد شعره ، فلا يمكن أن يمحي من العربية ...

والفلسفة الشعرية كلها أن يحل في الشاعر الملهم ذلك السر الجميل  
الجادب والمنجذب معاً، المستقر والمتحول جميعاً، الباطن والظاهر في وقت ؛  
فيستكنه الشاعر مالا يدركه غيره، فيقف على الجمال والحسن والركة، ويلهم  
بحكمة والبصيرة، ويتناول الأغراض بالتحليل والتركيب، ويؤتى التعبير عن  
كل ذلك في طريقة خاصة به هي أسلوبه، وهذا لم يتفق على أتمه وأحسنه في  
حافظ، فقصر به في توليد المعاني المبتكرة، ونزل به في الغزل ووصف الجمال ؛  
بيد أنه اتفق له مثل هذا الجلال بعينه في (الجانب المتألم من شعره) ، أى الرثاء  
والشكوى ووصف الفجيعة ؛ ولو ذهبت تستعرض المراثى في الشعر العربي ،  
ومثأت بينها وبين رثاء حافظ للعظماء الذين خالطهم ، كالأستاذ الإمام ، والبارودي ،  
ومصطفى كامل ، وثروت ، لراعك أنك واجدٌ للشعراء ما هو أسمى من معانيه  
وأقوى من خياله ، ولكنك لا تجد البتة ما هو أنغم وأدق مما جاء به في هذا الباب ،  
كأنه منفرد في العربية بهذه الخاصة

وهذا المعرى يقول :

ولولا قولك الخلاق ربّي      لكان لنا بطلعتك افتتان

ويقول في شعر آخر :

أسهب في وصفه علاك لنا      حتى خشينا النفوس تعبدها

وهذان البيتان تراهما صعلوكين إذا قسمتهما بقول حافظ في رثاء

الشيخ محمد عبده :

فلا تنصبوا للناس تمثال (عبده)      وإن كان ذكرى حكمة وثبات

بإني لا أخشى أن يضلّوا فيومئذوا      إلى نور هذا الوجه بالسجّادات

مع أن معنى حافظ مأخوذ منهما ، ولكن انظر كيف جاء به ؟ ويقول المعرى

في رثاء أبيه :

## حافظ إبراهيم<sup>(١)</sup>

فرغتُ الآن من قراءة شعر حافظ بعد أن لم يُعدَّ حافظ بيننا إلا شعره ونثره ، فبالله أحلفُ ما نظرتُ في صفحة مما بين يديَّ إلا وأحسست أن ذلك الشاعر العظيم يقول في بيانه الرائع وصناعته البديعة : أنا هنا ! ولغةُ هذا الشعر المتدفقة بالحياة كأن كلماتها القوية عروقٌ في جسمٍ حيٍّ منبسطٍ — لم تخرج عن أن تكون هي العربية المبيّنة في جزالتها ونصاعتها ودقة تركيبها البياني ، ومع ذلك فليس في هذا العصر كله من يكابر أو يمارى في أنها هي لغة حافظ وحده ، كأنه أرغم التاريخ أن يحتفظ به في أجمل آثاره وأنا أعرف في شعره مواضع من الاضطراب والضعف والنقص سأشير إلى بعضها ، ولكنني على ما أعرفه أجده هذا الشعر كالتيمار يُعْبُ عُبابه لا يبالي ما تنأثر منه وما ركده وما وقع في غير موقعه ، إذ كانت عظمته في اجتماع مادته لا في أجزاء منها ، وفي السر الذي يدفعها في كل موضع لا في المظهر الذي تكون به في موضع دون موضع ؛ فهو أبدا يقول لمن يتوكل عليه أو يلتقده : انظر لما بقي



ترجع صداقتي لحافظ رحمه الله إلى سنة ١٩٠٠ ، أول عهدى بالأدب وطلبه ، وقد شهدتُ من يومئذ بناءه الأدبي عالياً فعالياً إلى الذروة التي انتهى إليها ، وأخلص لي ثقته وأصفاني مودته ، وكان همك من أخ كريم ، وله في نفسي مكان لم ينكره منذ عرفته . ولم يضق بحبته منذ اتسع لها . وكنت وإياه يرى أحدا

وما تمهل يوماً في ندَى وردى إلا قضيتُ لِسَمَحِ البرق بالكسل  
غير أن حافظ نقل المعنى إلى حقه، ومكّن له أحسن تمسكين في صدر  
كلامه، وأتمّ جماله في قوله ( حين خاتم )، فاقطع المعنى وانفرد به، وعاد معنى  
السعدى كالصعلوك على باب بيته؛ وكانت هذه المقابلة في المقتطف آخر عهدى  
بحافظ، فلم أره من بعدها؛ رحمه الله!

وما مرّ بك إنما كان من صناعة الشاعر في غير الجزء الأول من ديوانه  
بعد أن استفحل وتخرج في مدرسة الإمام، أما في الجزء الأول فله هو  
صعاليك... كقوله في الخمر:

خمرة قيل لمنهم عصروها من خدود الملاح في يوم عرس

فهذا البيت صعلوك عند قول ابن الجهم:

مُشْعَشَعَةٌ من كف ظبي كذا نأما تناولها من خده فأدارها

وأنا وقول حافظ ( عصروها من خدود الملاح ) كلام من لم ينضج في البيان  
ولا الذوق، لا يكاد يتوهم معه إلا أن في خدود الملاح (خراجات) عصرت...  
وعلى ضد هذا قول ابن الجهم (تناولها من خده)، فهي كلمة أكثر نعومة من  
ذلك الحد وأجمل نضرة

وقول حافظ في مدح الخديو:

يامن تنافس في أوصافه كلبي تنافس العرب الأبحاد في النسب

فهو صعلوك على بيت أبي تمام:

تغايّر الشعر فيه إذ سمرت له حتى ظننت قوافيه ستقتتل

- ولا نطيل الاستقصاء، وإنما نريد التمثيل حسب

رأى وكان الشاعر أول نشأته يأخذ في طريقة المعرى الذى عمى عن الطبيعة  
فجعل يخلقها من فكره ومحفوظه بمبالغات كاذبة يُغرق فيها بحسب أنه بذلك

يعظم الحقائق فتخرج له الأخيصة الكبيرة، وما يدري أنه بهذا الغلو لا يحى إلا بالباطيل الكبيرة... ولكن حافظ فى مزاجه وتركيبه ونشأته كان رجلاً مبنيًا على الوضوح والقصد، فلم يفلح فى طريقة المعرى؛ ووضوح كذلك باعده من الفلسفة وإيهامها، ومن الطبيعة وأغازها، ومن الغزل ووساوسه؛ وهو الذى أداه إلى الشغف بالحقيقة واستخلاصها فى كل أغراضه التى أجاد فيها؛ ومن ثم خلا شعره أو كأنه خلا..... من أوصاف الطبيعة فى جمالها بلغة الفكر المتأمل، ومن أوصاف الجمال فى سحر بلغة القلب العاشق



وأنت فلا تحسبن الشاعر يحيد فى الغزل والنسيب من أنه شاعر يحسن الصنعة ويحيد الأسلوب، فيكون غرض من الشعر سبيلاً إلى غرض، وفز عوئاً على فن، وتكون رقة الألفاظ وهلهلة النسيج، وقلبي، وكبدى، وياليلة وياقرا، وياغزالا.... وأشباه ذلك - غزلاً ونسيباً؛ كلاً ثم كلاً، والثالثة كلاً أيضاً....

إن الغزل وأوصاف الجمال موهبة فى الشاعر أو الكاتب تُسخر لها قوى هى أشبه فى معجزاتها بما سخر لسلیمان من قوى الجن والريح، غير أنها قوى آلام ولذات ووساوس؛ تلك عظمة فى بعض النفوس الشاعرة كعظمة الملوك والأبطال، غير أنها لا تكمل إلا خائبة أو مغلوبة، فإذا انتصرت سقطت فلا بد لها من تاريخ وحوادث ومزاج عصبي يهيأ لها بروحانية شديدة الحدة شديدة الفورة نائرة أبداً لا تهدأ إلا على توليد معنى بدیع فى جمال من تح أو كماله؛ ثم إذا هدأت بذلك أثارها أنها هدأت، فتعود إلى التوليد، فلا تر تبدع وتصف كأنها آلة تعبير تدور بقلب وعصب؛ هنالك قوتان: إحداهما

توتى الحب كما يصلح غراما وعشقا، والآخرى فرق هذه توتى الحب كما يصلح  
فكرا وتعبيرا : والأولى تجعل صاحبها عاشقا يحب ويدرك ليس غير ،  
والثانية تجعله محبا عمله أن ينقل من لغة ما فى نفسه إلى ما حوله ، ومن لغة  
ما حوله إلى ما فى نفسه : فهو مترجم النفس إلى الطبيعة ، ومترجم الطبيعة إلى  
النفس ؛ والذى أعرفه أن حافظ لم يرزق لاهذه ولا تلك ، فلا طبيعة فيه  
للغزل وفلسفة الجمال ؛ ثم إن التاريخ حصره فى ( الشاعر الاجتماعى ) الذى  
اختار أن يمتاز به ، فهو فى أكثر شعره كان ليس فيه شخص ، بل فيه شعب  
مأسور غفل عن الجمال وعن الطبيعة وعن النشوة بهما ؛ إذ يعيش فى معاناة  
الحرية لا فى التأمل الجميل ، وفى أسباب القوة لا فى أسباب الرقة ، ويريد أن يعمل  
ليوجد حقيقة قبل أن يعمل ليبدع خياله

ومع ذلك فقد جاء فى ديوان حافظ غزل قليل كان كله متابعة وتقليدا  
فى فن يحسن التقايد إلا فيه خاصة ؛ عمل صدرا لقصيدة مدح بها  
الحديو مطالعها :

كم تحت أذيال الظلام مُتيمُ دأى الفؤاد وإليه لا يعلمُ ...  
وقلد ابن أبى ربيعة فى حكاية حب لفقها تلفيقا ظاهرا ، ثم زعم أن الحبيبة  
قالت له فى آخرها :

فاذهب بسحرك قد عرفتُك واقتصد ... فيما تزين للحسان وتوهمُ  
وكلمة صاحبة ابن أبى ربيعة :

أهذا سحرك النسوان قد عرفتني الخبرا

— أهذا سحرك النسوان ؟ هذه كلمة لا تخرج إلا من فم حبيبتة آية فى الظرف ،  
رفيها تجاهلها وعرفانها وإبتسامها وإشراق وجنتيها ، وأكاد والله أرى فيها تلك  
الجميلة وهى تدق بيدها على صدرها دقة الاستفهام المتدلل المتظاهر بالدهشة

ليتهمد فيه الكلام والمتكلم معاً ، أما قول حبيبة حافظ الخشبية ، أو الحجرية ... اذهب ... قد عرفتك واقتصد ... فهذا خليك أن يكون من فقاظ وهو ينصح المتهم بعد الأمر بالإفراج عنه ... أو مأمور قسم عند ضبط الحادثة !

أكبر ظني أن روح حافظ نفسه هي التي أوحى إلى الآن هذه (النكتة) ، فإنه رحمه الله كان آية في هذا الباب ، وله من النوادر محفوفة ومختصرة مالا يلحق فيه ؛ ولو كان كاتباً على قدر ما كان شاعراً ، وزاول النقد واستظهر للكتابة فيه بتلك الملكة المبدعة في التندر والتهمك ، مع ما أوتي من القوة في اللغة والبيان - لكانت النعمة قد تمت به على الأدب العربي ، واقلنا في شعره وكتابته وأدبه ما قال هو في الأستاذ الإمام : فأطلعت نورا من ثلاث جهات

وما دمننا قد ذكرنا النقد فمن الوفاء للتاريخ الأدبي أن نذكر مذهب شاعرنا فيه : فلم يكن عنده منه إلا ذوق الكلام وإدراك النقرة والنيوة في الحرف ، والغلظ والجسأة في اللفظ ، والضعف والتهافت في التركيب ، ثم ما يجيش في الخاطر أو يتلجلج في الفكر من ذوق المعنى وإدراك كنهه والنفاذ إلى آثار النفس الحية فيه ؛ فكان النقد هو الحس بالكلام كما تلمس الحار والبارد وما بينهما ؛ ووصف لي مرة إسماعيل صبرى باشا وأراد أن يبالغ في دقة تمييزه وحسن بصره بالشعر وإدراكه دقائق المعاني ، فقال : « ذواق يامصطفى » ولم يزد

ومذهب الحس بالكلام هذا وإن صلح أن يكون من بعض معاني النقد ، فلا يتهيأ أن يكون هو النقد بمعناه الفلسفي أو الأدبي ، وهو في جه أمره كقولك حسن حسن ؛ وردى ردى ، أما كيف كان حسناً أو رديئاً . وبماذا ولماذا ، فذلك مالا سبيل إليه من مذهب (ذواق) ... ولا وسيلة له



إلا العلم المستفيض ، والاطلاع الواسع ، والحس المرهف ، والقدرة المنمكنة ، مضافة كلها إلى الأدب البارع وفلسفته الدقيقة ؛ ولانعرف لحافظ كتابة في النقد ألبتة ، وقد كان حاول شيئاً من هذا في مقدمة كتابه (ليالى سطيح) ، فتناول بعض خصومه بكلمات رأى هو أن يحوها بعد أن طبعت الكراسة الأولى ، فأسقطها وأعاد كتابة المقدمة وطبعها مرة ثانية ، وكانت عندى النسخة التى محأها ، وهذا مالا أظن أحداً يعرفه الآن ؛ رحم الله شاعراً كان أصفى من الغمام ، وكان شعره كأنه البرق والرعد ...

## كلمات عن حافظ<sup>(١)</sup>(\*)

ذهبتُ بقلبي إلى كل مكان فوجدت أمكنة الأشياء ولم أجد مكان قلبي ؛  
أيها القلب المسكين ، أين أذهب بك ؟  
هذا ما أجبتُ به ( حافظ ) حين سألنى مرة : مالك لا ترضى ولا تهدأ ولا تستقر ؟ وكان يُخَيِّلُ إلى أنه هو راض مستقر هادئ ، كأنما قضى من الحياة نَهْمَتَهُ ولم يبق في نفسه ما تقول نفسه ليت ذلك لى ! وكنت أعجب لهذا الخلق فيه ولا أدري ما تعليله إلا أن يكون قد خُلق مطبوعاً بطابع اليتم فلم يعرف منذ أدرك إلا أنه ابنُ القَدَر : تأتيه الأفراح والأحزان من يد واحدة مقبلة كما تنال الصبي الطاف أبيه ولطمات أبيه .....  
وقد قلتُ له مرة : كأنك يا حافظ تنام بلا أحلام ! فضحك وقال : أو كأننى أحلم بغير نوم ....

---

(١) كتبها فى الذكرى الثالثة لوفاته

(\*) لما توفى حافظ رحمه الله كتبنا فصلاً طويلاً عن أدبه للمقتطف ، فلم نعرض فى كلماتنا هذه لشيء من أدب الرجل وإنما هى ذكرى وبقايا من الأيام

ولقد عرفته منذ سنة ١٩٠٠ إلى أن لحق بربه في سنة ١٩٣٢ ، فما كنت أراه على كل أحواله إلا كاليتيم : محكوماً بروح القبر ، وفي القبر أوله ؛ ولما أزمع السفر إلى اليونان قلت له : ألا تخشى أن تموت هناك فتموت يونانياً . . . . . فقال : أو ترانى لم أمت بعد في مصر . . . ؟ إن الذى بقى هين !



ومن عجائب هذا اليتيم الحزين أنه كان قوى المملكة فى فن الضحك ، كأن القدر عوّضه به ليوجده فى الناس عطف الآباء ومحبة الإخوة . ولم يخل مع فقره من ذريعة قوية إلى الجاه ، ورسيلة مؤكدة إلى ما هو خير من الغنى ؛ فكانت أسبابه إلى الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، ثم حشمت باشا ، ثم سعد باشا زغلول ؛ وهذا نظام عجيب فى زمن ( حافظ ) يقابل الاختلال العجيب فى نفس حافظ ؛ فالرجل كالسفينة المتكفئة : تميل بها موجة وتعد لها موجة ، وهى بهذه وبهذه تمر وتسير

وأولئك الرؤساء العظماء الذين جعلهم القدر نظاماً فى زمن حافظ ، كانوا من أفقر الناس إلى الفكاهة والنادرة ، فكان لهم كالثروة فى هذا الباب ، ووقع إصلاحاً فى عيشتهم وكانوا إصلاحاً فى عيشه ؛ ولو أن الأقدار تشبه بالمدارس المختلفة ، اقلنا إن ( حافظ ) تخرج منها فى مدرسة التجارة العليا . . . فهو كان أبرع من يتاجر بالنادرة



وهذه النواذر كأنها هى أيضاً صنعت ( حافظ ) فى شكل نادرة ؛ فكان فقيراً ، ومع هذا كان للمال عنده متمم ، هو إنفاقه وإخراج من يده ؛ وكان يتيماً ، ولكنه دائماً متودد ؛ وكان حزيناً ، ولكنه أنيس الظلمة ؛ وكان بائساً ،

ولكنه سليم الصدر ، وكان في ضيق ، ولكنه واسع الخلق ؛ وتماث النادرة فيه أنه كان طوال عمره مُتَبَسِّطاً مهتذا كأن له زمناً وحده غير زمن الناس ، فتتراكم عليه الهموم وهو مُسْتَنِيمٌ إلى الراحة ، ويعتريه من الجوع مثل مَكْسَلَةِ الشَّيْبَعِ ، وَيَسْتَرْسِلُ إلى البَطَالَةِ وكأنه مُشَمَّرٌ للجِدِّ ، ويستمكن الحزنُ منه في ساعة فيتهَدَّدُ حزنه بالساعة التالية ....

رأيتَه في أحد أيام بؤسه الأولى قبل أن يتصل عيشه ، وكان يُعْثِدُ قروشاً في يده ، فقلت : ما أمر هذه القروش ؟

قال : كنت أقامرُ الساعة فأضعت ثلاثين قرشاً ولم يبق لي غير هذه القروش الملعونة ، فهُلُمَّ نتعش . ودخل إلى مطعم كان وراء حديقة الأزبكية ، فزعمت له أنني تعشيت ... فأكل هو ودفع ثمن طعامه ثلاثة قروش ؛ وكنت أطلعُ في وجهه وهو يأكل ، فما أتذكره الآن إلا كما طالعتُه بعد عشرين سنةً من ذلك التاريخ حين دعاني (حافظ) إلى مطعم بار اللواء وقد فاضت أمانله ذهباً وفضة ، وكان رحمه الله قد أصدر الجزء الثاني من (البؤساء) ورآني في القاهرة فأمسك بي حتى قرأتُ معه الكتابَ كله فيما بين الظهر والمغرب ؛ وركبنا في الأصيل عربة وخرجنا نتنزّه ، أي خرجنا نقرأ ...



وكان على وجه (حافظ) لونٌ من الرضى لا يتغير في بؤس ولا نعيم ، كيباض الأبيض وسواد الأسود ؛ وهذا من عجائب الرجل الذي كان في ذات نفسه فناً من الفوضى الإنسانية ، حتى لكانه حُلُمٌ شعريٌّ بدأ من أبويه ثم انقطع وتُركَ لِنُتْمِهِ الطبيعية !

ومن نظر إلى (حافظ) على اعتبار أنه فن من الفوضى الإنسانية رآه جميلاً جمال الأشياء الطبيعية لا جمال الناس ؛ ففيه من الصحراء والجبال

والصخور والغياض والبرق والرعد وأشباهاها ؛ وكنت أنا أراه بهذه العين  
فأستجمله ، ويدو لي جزلاً مُطهماً ، وأرى في شكله هندسة كهندسة الكون :  
تتم محاسنها بمقاييحها ؛ وكم قلت له : إنك يا حافظ أجمل من القفر .....  
أما هو فكان يرى نفسه دميماً شنيع المرأة متفاوت الخلق كأنه إنسان  
مغلوط في تركيبه ...

وقد سألته مرة : هل أحب ؟

فقال : النساء اثنتان : فإما جميلة تنفر من قبحي ، وإما دميمة أنفر من  
قبحها ؛ ولهذا لم يفلح في الغزل والديب ، ولم يُحسن من هذا الباب شيئاً  
يسمى شيئاً ؛ وبقي شاعراً غير تام ، فإن المرأة للشاعر كواء لآدم : هي وحدها  
التي تعطيه بحبها عالماً جديداً لم يكن فيه ، وكل شرها أنها تتخطى به  
السموات نازلاً ...



وتهدم حافظ في أواخر أيامه من أثر المرض والشيخوخة ، وكان آخر  
العهد به أن جاء إلى إدارة (المقتطف) وأنا هناك ، فلم يرني حتى بادرني بقوله :  
ماذا ترى في هذا البيت في وصف الأمريكان :  
وتخـذِـنـم مَوْج الأثير بـريـداً حين خِلـم أن البروق كـسـالى<sup>(٥)</sup>  
فنظرتُ إلى وجهه المعروق المتغضن وقلت له : لو كان فيك موضعُ  
قُبلة لقبَلتكَ لهذا البيت ! فضحك وأدار لي خدّه ؛ ولكن بقي خدّه بلا  
تقويل ...



---

(٥) هذا البيت من قصيدة نظمها حافظ يخاطب فيها الأمريكيين ، وقد أشرنا في  
مقالنا في المقتطف إلى أن معناه مسروق

وشهرة هذا الأديب العظيم بنوادره ومحفوظاته من هذا الفن أمر  
مُجمع عليه ؛ وكان يتقَصص النوادرَ والفكاهات ومُطارحات السَّمر من مظانِّها  
في الكتب ورجال الأدب وأهل المجون ، فإذا قصها على من يجالسه زاد في  
أسلوبها أسلوبه هو ، وجعل يقلِّبها ويتصرف فيها ويُبَيِّنُ عنها أحسن الإبانة  
بمنطقه ووجهه ونبراتٍ في لسانه ونبراتٍ في يده

وهو أصمَعُ هذا الباب خاصة ، يروى منه رواية عريضة ، فإذا استهلَّ سَحَّ  
بالنوادير سخا كأنها قوافي قصيدة تدعو الواحدة منها أختها التي بعدها  
وقد أذكرتني ( القوافي ) مجلساً حضرته قديماً في سنة ١٩٠١ أو ١٩٠٠ ،  
وكان ( مصباح الشرق ) قد نشر قصيدة رائية لابن الرومي ، فتعجب المرحوم  
الشيخ محمد المهدي من بسطة ابن الرومي في قوافيه ، فقال له ( حافظ ) : هلم  
نتساجل في هذا الوزن حتى ينقطع أحدنا ؛ وكانت القافية من وزن : قَدَّرَها ،  
أحمرها ، أخضرها ... الخ ، وجعلتُ أنا أخصي عليهما ؛ فلما ضاق الكلام كان  
الشيخ المهدي يفكر طويلاً ثم ينطق باللفظ ، ولا يكاد يفعل حتى يرميه حافظ  
على البديهة ، فيعود الرجل إلى الإطراق والتفكير ؛ ثم انقطع أخيراً وبقي  
حافظ يسرُّدُ له من حفظه الغريب

أما في النوادر فالعجيبة التي اتفقت له في هذا الباب أنه جاء إلى طنطا في  
سنة ١٩١٢ ومديرها يومئذ المرحوم « محمد محب باشا » ، وكان داهية ذكياً  
وظريفاً لبقاً ، وكنتُ أخالطه وأتصلُ به ، فدعا ( حافظ ) إلى العشاء في داره ؛  
فلما مُدت الأيدي قال الباشا : لي عليك شرط يا حافظ . قال وما هو ؟ قال :  
كل لقمة بنادرة !

فتهلل حافظ وقال : نعم ، لك على ذلك . ثم أخذ يقصُّ ويأكل ، والعشاءُ  
حاملٌ ، وحافظ كان نهماً ، فما انقطع ولا أخلَّ حتى وقَّى بالشرط ؛ وهذا لا يمنع

أن الباشا كان يتغافل ويتغاضى ويتشاغل بالضحك ، فيسرع حافظ ويغالط  
بفمه .....  
\* \* \*

ولكن هذه المضحكات أضحكت من (حافظ) مرة كما أضحكت به ؛ فلما كان  
يترجم (مكبث) لشكسبير - وهى كأعماله الناقصة دائما - دعوه لإلقاء (محاضرة)  
فى نادى المدارس العليا ، والنادى يومئذ يجمع خير الشباب حميةً وعلماً ، وكان  
صاحب السرّ فيه (السكرتير) زينة شباب الوطنية المرحوم أمين بك الرافعى ؛  
فقام حافظ فأنشدهم بعض ما ترجمه نظماً عن شكسبير ، ومثله تمثيلاً أفرغ فيه  
جهده ، فأطرب وأعجب ؛ ثم سألوه (المحاضرة) فأخذ يلقي عليهم من نوادره ،  
وبدأ كلامه بهذه النادرة : عرضت على المعتصم جارية يشتريها ، فسألها : أنت  
بكر أم ثيب ؟ فقالت : كثرت الفتوح على عهد المعتصم ...

ونظر حافظ إلى وجوه القوم فأنكرها ... وبقيت هذه الوجوه إلى آخر  
المحاضرة كأنها تقول له : إنك لم تفلاح !

ولقد كان هذا من أقوى الأسباب فى تنبئه (حافظ) إلى مايجب للشباب  
عليه إن أراد أن يكون شاعره ، فأقبل على القصائد السياسية التى كسبهم  
بها من بعد ؛ ونادرة المعتصم كالعورة المكشوفة ؛ ولست أدري أكان حافظ  
يعرف النادرة البديعة الأخرى أم لا ؛ فقد عرضت جارية أدبية ظريفة على  
الرشيد فسألها : أنت بكر أم إيش ؟

فقالت : أنا (أم إيش) يا أمير المؤمنين ...  
\* \* \*

وفن (الشعر الاجتماعى) الذى عُرف به حافظ ، لم يكن فنّه من قبل ، ولا  
كان هو قد تنبّه له أو تحراه فى طريقته ؛ فلما جاءت إلى مصر الامبراطورة

(أوحيني) نظم قصيدته النونية التي يقول فيها :

فاعذرينا على القصور، كلانا غيرة طوارئ الحدائق

ولقيته بعدها فسألني رأيي في هذه القصيدة ، وكان بها مدلا مُعجباً ، شأنه في كل شعره ؛ فانتقدتُ منها أشياء في ألفاظها ومعانيها ، وأشرت إلى الطريقة التي كان يحسن أن يخاطب بها الامبراطورة ؛ فكأنني أغضبته ؛ فقال : إن الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين - أجمعوا على أن هذا النمط هو خير الشعر ، وقالوا لي : إذا نظمت فانظم مثل هذا « الشعر الاجتماعي » ، ثم كأنه تنبّه إلى أنها طريقة يستطيع أن ينفرد بها ، فقال : إن كل قصائد شوقي الآن غزل ومدح ، ولا أثر فيها لهذا الشعر ، على أنه هو الشعر

وتتابعت قصائده الاجتماعية ، فلقيني بعدها مرة أخرى فقال لي : إن الشاعر الذي لا ينظم في الاجتماعيات ليس عندي بشاعر . وأردت أن أغيظه فقلت له : وما هي الاجتماعيات إلا جعل مقالات الصحف قصائد ... ؟ فالأستاذ الإمام وسعد زغلول وقاسم أمين : أحد هؤلاء أو جميعهم أصل هذا المذهب الذي ذهب إليه حافظ ، وهو كثيراً ما كان يقتبس من الأفكار التي تعرض في مجلس الشيخ محمد عبده ، من حديثه أو حديث غيره ، فيبني عليها أو يدخلها في شعره ، وهو أحياناً رديء الأخذ جداً حين يكون المعنى فلسفياً ؛ إذ كانت ملكة الفلسفة فيه كالمعطلة ، وإنما هي في الشاعر من ملكة الحب ، وإنما أولها وأصلها دخول المرأة في عالم الكلام بإيهامها وثرثرتها ...



وكنت أول عهدى بالشعر نظمت قصيدة مدحت فيها الأستاذ الإمام وأنفذتها إليه ، ثم قابلت حافظ بعدها فقال لي إنه هو تلاها على الإمام ،

ولأنه استحسناها ؛ قلت : فماذا كانت كلمته فيها ؟ قال : إنه قال :  
لا بأس بها ...

فاضطرب شيطاني من الغضب ، وقلت له : إن الشيخ ليس بشاعر ،  
فليس لرأيه في الشعر كبير معنى ! قال : ويحك ! إن هذا مَبَاحِ الاستحسان عنده  
قلت : وماذا يقول لك أنت حين تنشده ؟ قال : أعلى من ذلك قليلا ...  
فأرضاني والله أن يكون بيني وبين حافظ ( قليل ) ، وطمعت من يومئذ  
وأنا أرى أن « حافظ إبراهيم » إنْ هو إلا ديوان « الشيخ محمد عابد » :  
لولا أن هذا هذا ، لما كان ذلك ذلك

ومن أثر الشيخ في حافظ أنه كان دائماً في حاجة إلى مَنْ يسمعه ،  
فكان إذا عمل أبياتاً ركب إلى إسماعيل باشا صبرى في القصر العيني ،  
وطاف على القهوات والأندية يُسمع الناس بالقوة ... إذ كانت أذن الإمام  
هي التي ربت الملكة فيه ؛ وقد بينا هذا في مقالنا في (المقتطف)  
وكان تمام الشعر الحافظي أن يُنشده حافظ نفسه ؛ وما سمعت في الإنشاد  
أعربَ عريّة من البارودي ، ولا أعذبَ عذوبة من الكاظمي ، ولا أنخمَ نخامةً  
من حافظ ؛ رحمهم الله جميعاً

وكان أديبنا يُجلُّ البارودي إجلالاً عظيماً ، ولما قال في مدحه :  
فُسرَّ كلٌّ معنى فارسيّ بطاعتي وكلّ نفور منه أن يتودّدا  
قلت له : ما معنى هذا ؟ وكيف يأمر البارودي كل معنى فارسيّ وما  
هو بفارسيّ ؟

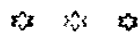
قال : إنه يعرف الفارسية ، وقد نظم فيها ، وعنده مجموعة جمع فيها كل  
المعاني الفارسية البديعة التي وقف عليها ؛ قلت : فيكان الوجه أن تقول له :  
أعزني المجموعة التي عندك ...



أما الكاظمى فكان حافظ يُجافيه ويُباعده ، حتى قال لى مرة وقد ذكرته به : « عَقَّقْنَادِ يَا مُصْطَفَى ! »

وما أنس لآنس فرَحَ حافظ حين أعلمته أن الكاظمى يحفظ قصيدة من قصائده ، وذلك أنهم فى سنة ١٩٠١ — على ما أذكر — أعلنوا عن جوائز يمنحونها من يجيد فى مدح الخديو ، وجعلوا الحكم فى ذلك إلى البارودى وصبرى والكاظمى ، ثم تخلى البارودى وصبرى ، وحكم الكاظمى وحده ؛ فقال حافظ المدالية الذهبية ، ونال مثلها السيد توفيق البكرى

ولما زرت الكاظمى وكنت يومئذ مبتدئاً فى الشعر ولا أزال فى الغَرْزَمَةِ<sup>(٥)</sup> قال : لما إذا لم تدخل فى هذه المباراة ؟ قلت : وأين أنا من شوقى وحافظ وفلان وفلان ؟ فقال : « لِيَةِ تَخَلَّى هِمَّتْكَ ضَعِيفَةٌ ؟ » ثم أسمعنى قصيدة حافظ وكان معجباً بها ، فنقلت ذلك إلى حافظ ، فكاد يطير عن كرسيه فى القهوة



وكان تعثت حافظ على الكاظمى لأنه غير مصرى ، وفى سنة ١٩٠٣ كانت تصدر فى القاهرة مجلة اسمها (الثريا) ، فظهر فى أحد أعدادها<sup>(١)</sup> مقال عن الشعراء بهذا التوقيع ( \* ) ، وانفجر هذا المقال انفجار البركان ، وقام به الشعراء وقعدوا ، وكان له فى الغارة عليهم كَرْفِيف الجيش وَقَعَقَعَةِ السلاح ، وتناولته الصحف اليومية ، واستمرت رجفته الأدبية نحو الشهر ؛ وانتهى إلى الخديو ؛ وتكلم عنه الأستاذ الإمام فى مجلسه ، واجتمع له جماعة من كبار أساتذة العصر السوريين ، كالعلامة سليمان البستاني ، وأديب عصره الشيخ إبراهيم

---

(٥) الغرزمة : أول قول الشعر ، حين يكثر الردى فيه . يقال : فلان يغرزم

(١) عدد يناير سنة ١٩٠٥ ، وانظر ص ٣٨ - ٤٣ « حياة الرافعى »

اليازجى ، والمؤرخ الكبير جورجى زيدان — إذ كان صاحب المجلة  
سورياً — وجعلوا ينفذون إلى صاحب المجلة دسيسا بعد دسيس ليعلموا من  
هو كاتب المقال

وشاع يومئذ أنى أنا الكاتب له ؛ وكان الكاظمى على رأس الشعراء  
فيه ؛ فغضب حافظ لذلك غضبا شديداً ، وما كاد يرانى فى القاهرة حتى  
ابتدرنى بقوله : ورب الكعبة أنت كاتب المقال ، وذمة الإسلام أنت صاحبه ا  
ثم دخلنا إلى « قهوة الشيشة » ، فقال فى كلامه : إن الذى يغىظنى أن  
يأتى كاتب المقال بشاعر من غير مصر فيضعه على رؤوسنا نحن المصريين ا  
فقلت : ولعل هذا قد غاظك بقدر ماسرك ألا يكون الذى على رأسك  
هو شوقى ...

وغضب السيد توفيق البكرى غضبا من نوع آخر ، فاستعان بالمرحوم  
السيد مصطفى المنفلوطى استعانة ذهبية ... وشتم المنفلوطى فكتب مقالا فى  
( مجلة سركيس ) يعارض به مقال ( الثريا ) ، وجعل فيه البكرى على رأس  
الشعراء ... ومدحه مدحا يرن رنيناً

أما أنا فتناولنى بما استطاع من الدم ، وجردنى من الألفاظ والمعانى  
جميعا ، وعدتنى فى الشعراء ليقول إنى لست بشاعر ... فكان هذا رد  
نفسه على نفسه (\*)

وتعلق مقال المنفلوطى على المقال الأول فاشتهر به لا بالمنفلوطى ؛ وغضب  
حافظ مرة ثانية ، فكتب إلى كتابا يذكر فيه تعسف هذا الكاتب وتحامله ،

---

(\*) نشر المرحوم المنفلوطى مقاله هذا فى الطبعة الاولى من كتابه ( النظرات )  
بعد أن هذبه ؛ ثم حذفه من الطبعات الاخرى ، لأنه هو كان يعلم أن الناشئة المستأجرة  
لا يسمى بكاؤها بكاء .....

ويقول : قد وُكِّلْتُ إليك أمر تأديبه<sup>(١)</sup>

فكتبت مقالا في جريدة ( المنبر ) ، وكان يصدرها الأستاذان محمد مسعود وحافظ عوض ، ووضعت كلمة المنفلوطى التى ذمّنى بها فى صدر مقالى أفاخر بها ... وقلت : إني كذلك الفيلسوف الذى أرادوه أن يشفع إلى مَلِكِهِ ، فأكتب على قدم الملك حتى شقّعه ؛ فلما عابوه بأنه أذال حرمة الفلسفة بانحنائه على قدم الملك وسجوده له ، قال : ويحكم ! فكيف أصنع إذا كان الملك قد جعل أذنيه فى رجليه ...



ولم يكن مضى لى فى معالجة الشعر غير سنتين حين ظهر مقال (الثرى) ، ومع ذلك أصبح كل شاعر يريد أن يعرف رأى فيه ؛ فمرت ذات يوم (بحافظ) وهو فى جماعة لا أعرفهم ، فلما اطمأن بنى المجلس قال حافظ : ما رأيك فى شعر اليازجى ؟ فأجبته ، قال : فالبيستانى ؟ فتجيب الحداد ؟ ففلان ؟ ففلان ؟ فداود عمون ؟ قلت : هذا لم أقرأ له إلا قليلا لا يسوغ معه الحكم على شعره . قال : فماذا قرأت له ؟ قلت : رَدّه على قصيدتك إليه :

شَجَّئْنَا مَطالِعُ أَقْمارِها \*

قال : فما رأيك فى قصيدته هذه ؟ قلت : هى من الشعر الوسط الذى لا يعلو ولا ينزل

فما راعنى إلا رجل فى المجلس يقول : أنصفتَ والله ! فقال حافظ :  
أقدم لك داود بك عمون ...  
رحم الله تلك الأيام !

## شوقي<sup>(١)</sup>

هذا هو الرجل الذى يُخَيَّلُ إِلَى أن مصر اختارته دون أهلها جميعا لتضع فيه رُوحها المتكلم ، فأوجبت له مالم توجب لغيره ، وأعانت به مالم يتفق لسواه ، ووهبته من القدرة والتمكين وأسباب الرياسة وخصائصها على قدر أمة تريد أن تكون شاعرة ، لا على قدر رجل فى نفسه ؛ وبه وحده استطاعت مصر أن تقول للتاريخ : شعرى وأدبى !

شوقى : هذا هو الاسم الذى كان فى الأدب كالشمس من المشرق : متى طلعت فى موضع فقد طلعت فى كل موضع ، ومتى ذكر فى بلد من بلاد العالم العربى اتسع معنى اسمه فدلَّ على مصر كلها كأنما قيل النيل أو الهرم أو القاهرة ؛ مترادفات لا فى وضع اللغة ولكن فى جلال اللغة

رجل عاش حتى تمَّ ، وذلك برهان التاريخ على اصطفاؤه لمصر ، ودليلُ العبقرية على أن فيه السرَّ المتحرك الذى لا يقف ولا يكل ولا يقطع نظامَ عمله ، كأن فيه حاسةً نحلة فى حديقة ؛ ويكبر شعره كلما كبر الزمن ، فلم يتخلف عن دهره ، ولم يقع دون أبعد غاياته ، وكأنه مع الدهر على سياقٍ واحد ، وكأن شعره تاريخٌ من الكلام يتطور أطواره فى النمو فلم يجمد ولم يرتكس ، وبقي خيالُ صاحبه إلى آخر عمره فى تدبير السماء كعرائض الغمامة ، سحابه كثير البرق ممتلئٌ بمطرٌ ينصبُّ من ناحية ويمتلئ من ناحية

والناس يُكتبُ عليهم الشباب والكهولة والهرم ، ولكن الأديب الحقُّ يُكتب عليه شبابٌ وكهولةٌ وشباب : إذ كانت فى قلبه الغايات الحية الشاعرة ، ماتت فكُّ يلدُ بعضها بعضها إلى ما لا انقطاع له ، فإنها ليست من حياة الشاعر التى

---

(١) المتتطف : نوفمبر سنة ١٩٣٢ ، وانظر ص ١٥٦ - ١٥٧ ، حياة الرافعى ،

خلقت في قلبه ، ولكنها من حياة المعاني في هذا القلب



أقر هذا في شوقي رحمه الله ، وأنا من أعرف الناس بعيوبه وأما كن الغميمة في أدبه وشعره ؛ ولكن هذا الرجل انقلبت من تاريخ الأدب لمصر وحدها كنفلات المطرة من سخاها المتسار في الجوّ ، فأصبحت مصر به سيدة العالم العربي في الشعر ، وهي لم تُذكر قديماً في الأدب إلا بالنكتة والرقّة وصناعات بدعية ملفقة ، ولم يستفّض لها ذكر بنايعة ولا عبقرى ، وكانت كالمستجدية من تاريخ الحواضر في العالم ، حتى إن أبا محمد الملقب بولي الدولة صاحب ديوان الإنشاء في مصر للظاهر بن المستنصر ( وقد توفي سنة ٤٣١ هـ ) ، وكان رزقه ثلاثة آلاف دينار في السنة غير رسوم يستوفىها على كل ما يكتبه — سَلَّمَ لرسول التجار إلى مصر من بغداد جزءين من شعره ورسائله يحملهما إلى بغداد ليعرضهما على الشريف المرتضى وغيره من أدبائها ، فيستشيرهم في تخليد هذا الأدب المصري بدار العلم إن استجدوه وارتضوه ، كأن حفظ ديوان من شعر مصر ونثرها في مكتبة بغداد قديماً يشبه في حوادث دهرنا استقلال مصر وقبولها في عصبة الأمم ...

وهذا أحمد بن علي الأسواني إمام من أئمة الأدب في مصر ( توفي سنة ٥٦٢ ) ، وكان كاتباً شاعراً يجمع إلى علوم الأدب الفقه والمنطق والهندسة والطب والموسيقى والفلك — أراد أن يدوّن شعر المصريين ، فجمع من شعرهم ( وشعر من طرأ عليهم ) أربع مجلدات ، كأن الشعر المصري وحده إلى آخر القرن السادس للهجرة ، في العهد الذي لم يكن ضاع فيه شيء من الكتب والدواوين لا يلائم أربع مجلدات ... على اختلافهم في مقدار المجلدة ، فقد تكون جزءاً لطيف الحجم ؛ والأسواني نفسه يبلغ ديوانه نحو مئة ورقة

وأخوه الحسن المعروف بالمهذب (الأسواني المتوفى سنة ٥٦١) قال العباد  
الكاتب إنه لم يكن بمصر في زمنه أشعر منه، وسارت له في الناس قصيدة  
سموها النواحة، وصف فيها حنينه إلى أخيه وقد رحل إلى مكة وطالت غيبته  
بها وخيف عليه؛ فالرجل أشعر أهل مصر في زمنه، وحادثة النواحة تجعل  
في هذا المعنى أشعر من نفسه، على أنه مع هذا لم يقل إلا من هذا:

يا ربُّعُ أين نرى الأحبة يَمَمُوا      هل أنجدوا من بعدنا أم أتهموا  
رحلوا وفي القلب المعنى بعدهم      وجدُّ على مرَّ الزمان مخيمٌ  
وتعوّضت بالأنس نفسى وحشة      لا أوحش الله المنازل منهم...

ولولا ابن الفارض والبهاء زهير وابن قلاقس الاسكندري وأمثالهم، وكلهم  
أصحاب دواوين صغيرة، وليس في شعرهم إلا طابع النيل، أى الرقة والحلاوة.  
لولا هؤلاء في المتقدمين لأجذب تاريخ الشعر في مصر؛ ولولا البارودي  
وصبري وحافظ في المتأخرين، وكلهم كذلك أصحاب دواوين صغيرة، لم  
ذكرت مصر بشعرها في العالم العربي؛ على أن كل هؤلاء وكل أولئك  
يستطيعوا أن يضعوا تاج الشعر على مفرق مصر، ووضعوه شوقي وحده!

والعجب أن دواوين المجيدين من شعراء المصريين لا تكون إلا صغيرة  
كأن طبيعة النيل تأخذ في المعاني كأخذها في المادة، فلا فيض ولا خصب  
إلا في وقت بعد أوقات، وفي ثلاثة أشهر من كل اثني عشر شهرا؛ ومز  
جمال الفراشة أن تكون صغيرة، وحسبها عند نفسها أن أجنحتها منقطعة  
بالذهب، وأنها هي نكتة من بديع الطبيعة!

على أنك واجد في تاريخ الأدب المصرى بحبيبة من بحائب الدنيا لا تذكر  
معاها الإلياذة ولا الانياذة ولا الشاهنامة ولا غيرها، ولكنها بحبيبة ملائم  
روح الصحراء إن كانت تلك الدواوين الصغيرة من روح النيل؛ وهو

قصيدة نظمها أبو رجاء الأسواني المتوفى سنة ٢٣٥ هـ، وكان شاعراً فقيهاً أديباً عالماً كما قالوا، وزعموا أنه اقتصّ في نظمها أخبار العالم وقصص الأنبياء واحداً بعد واحد، قالوا وسئل قبل موته كم بلغت قصيدتك؟ فقال: ثلاثين ومائة ألف بيت... وما أشك أن هذا الرجل وقع له تاريخ الطبري وكتب السير وقصص الإسرائيليات فنظمها متوناً متوناً ٠٠٠ وأقضى عمره في ١٣٠ ألف بيت حولها التاريخ إلى خبر مهمل في ثلاثة أسطر! <sup>(١)</sup>



كل شاعر مصرى هو عندى جزء من جزء، ولكن شوقى جزء من كل؛ والفرق بين الجزئين أن الأخير فى قوته وعظمته وتمكنه واتساع شعره جزء عظيم كأنه بنفسه الكل؛ ولم يترك شاعر فى مصر قديماً وحديثاً ماترك شوقى، وقد اجتمع له مالم يجتمع لسواه؛ وذلك من الأدلة على أنه هو المختار لبلاده، فساوى الممتازين من شعراء دهره وارتفع عليهم بأمور كثيرة هى رزق تاريخه من القوة المدبرة التى لاحيلة لا حد أن يأخذ منها مالا تعطى، أو يزيد مائه نقص، أو ينقص ما يزيد؛ وقد حاولوا إسقاط شوقى مراراً فأراهم غباره ومضى متقدماً، ورجع من رجع منهم ليغسل عياله... ويرى بهما أن شوقى من النفس المصرية بمنزلة المجد المكتوب لها فى التاريخ بحرب ونصر، وما هو بمنزلة شاعر وشعره

ولد شاعرنا سنة ١٨٦٨ فى نعمة الخديو إسماعيل باشا، ونثر له الخديو الذهب وهو رضيع فى قصة ذكرها شوقى فى مقدمة ديوانه القديم، ثم كفله الخديو توفيق باشا وعلمه وأنفق عليه من سعة، وأنزل نفسه منه منزلة أب غنى كما يقول شوقى فى مقدمته، ثم تولاه الخديو عباس باشا وجعله شاعره وتركه يقول:

---

(١) انظر خبر (مصر الشاعرة) ص ١٤٦ - ١٤٧ «حياة الرافعى»

## شاعرُ العزيز وما بالقليل ذا اللقبُ

وإذا أنت فسّرت لقب شاعر الأمير هذا بالأمير نفسه في ذلك العهد،  
خرج لك من التفسير : شاعرٌ مرهفٌ مُعانٌ بأسباب كثيرة ، ليكون أداة سياسية في  
الشعب المصري ، تعمل لإحياء التاريخ في النفس المصرية ، وتبصيرها بعظمتها ،  
وإقحامها في معارك زمنها ، وتهيئتها للدفاع ، وتصلُ الشعر بالسياسة الدينية  
التي توجّهت لها الخلافة يومئذ لتضرب فكرة أوروبا في تقسيم الدولة  
بفكرة الجامعة الإسلامية ؛ ولا يخرج لك شوقي من هذا التفسير على أنه  
رجل في قدر نفسه ، بل في قدر أميره ذلك ؛ وكان نمائاً شاباً يغلي غلياً ، ومُعَدّاً  
يومئذٍ لمطامح بعيدة ملففة حشوها الديناميت السياسي ...

كنت ذات مرة أكلم صديقي الكاتب العميق فرح أنطون صاحب (الجامعة) ،  
وكان معجباً بشوقي إعجاباً شديداً ، فقال لي : إن شوقي الآن في أفق الملوك لا في  
أفق الشعراء اقات : كأنك نفيتهم من الملوك والشعراء معاً ؛ إذ لو خرج من هؤلاء  
لم يكن شيئاً ، ولو نفذ إلى أولئك لم يعد شيئاً ؛ إنما الرجل في السياسة الملتوية التي  
تصله بالأمير ، هو مرة كوزير الحربية ، ومرة كوزير المعارف

وهذه السياسة التي ارتاض بها شوقي ولا بسها من أول عهده ، واتجه شعره  
في مذاهبها ، من الوطنية المصرية ، إلى النزعة الفرعونية ، إلى الجامعة الإسلامية ،  
فكانت بهذا سبب نبوغه ومادة مجده الشعري — هي بعينها مادة نقائصه ؛  
فالقد ابتلته بحب نفسه وحب الثناء عليها ، وتسخير الناس في ذلك بما وسعته  
قوته ، إلى غير أشد من غيرة الحسناء تقشعر كل شعرة منها إذا جاءها  
الحسن بثانية ، وهي غيرة وإن كانت مدمومة في صلته بالأرباء الذين لدّعوه  
بالجر ... ونحن منهم ، غير أنها ممدوحة في وضعها من طبيعته هو ؛ إذ  
جعلته كالجواد العتيق الكريم ينافس حتى ظله ، فعارض المتقدمين بشعره كأنهم



معه ، ونافس المعاصرين ليجعلهم كأنهم ليسوا معه ، ونافس ذاته أيضاً ليجعل شوقى أشعر من شوقى ؛ وعندى أن كل مافى هذا الرجل من المتناقضات فرجعه إلى آثار تلك السياسة الملتوية التى رُدَّت بطبيعة القوة عن وجوهها الصريحة ، فجعلت تضطرب فى وجوه من الحيل والأسباب مدبرة مقبلة ، مُتهَدِّية فى كل مجاهلها بإبرة مغناطيسية عجيبة لا يشبهها فى الطبيعة إلا أنف الثعلب المتجه دائماً إلى رائحة الدجاج ...

ومؤرخ الأدب الذى يريد أن يكتب عن شوقى لا يصنع شيئاً إن هو لم يذكر أن هذا الشاعر العظيم كان هدية الخديو توفيق والخديو عباس لمصر ، كالدلتا بين فرعى النيل ؛ وما أصابه المتنبى من سيف الدولة مما ابتعث قريحته وراش أجنحته السماوية وأضفى ريشها وانتزى بها على الغايات البعيدة فى تاريخ الأدب — أصاب شوقى من سمو الخديو عباس أكثر منه ، فكان حقيقاً أن يساوى المتنبى أو يتقدمه ، ولكنه لم يباغ منزلته ، لأن الخديو لم يكن كسيف الدولة فى معرفته بالأدب العربى ورغبته فيه ؛ وسر المتنبى كان فى ثلاثة أشياء : فى جهازه العصبي العجيب الذى لا يقل فى رأى عما فى دماغ شكسبير ، وفى عمدوجه الأديب الملك الذى ينزل من هذا الجهاز منزلة المهندس الكهربائى من آلة عظيمة يديرها بعلم ويقوم عليها بتدبير ويحوطها بعناية ، ثم فى أفق عصره المتألق بنجوم الأدب التى لا يمكن أن يظهر بينها إلا ماهو فى قدرها ، ولا يتميز فيها إلا ماهو أكبر منها ، ولا يتركها كالمنطفئة إلا شمس كشمس المتنبى تنفجر على الدنيا بمعجزاتها النورانية

ولقد والله كان هذا المتنبى كأنه يوزع الشرف على الملوك والرؤساء ؛ وهل أدل على ذلك من أن أبا إسحاق الصابى شيخ الكتاب فى عصره يرأسه أن يمدحه بقصيدتين ويعطيه خمسة آلاف درهم ، فيرسل إليه المتنبى : مارأيت

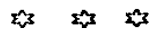
بالعراق من يستحق المدح غيرك، ولكنى إن مدحتك تنكر لك الوزير  
(يعنى المهلبى) لأنى لم أمدحه، فإن كنت لا تبالى هذا الحال فأنا أجيبك ولا  
أريد منك مالا ولا من شعرى عوضا ! فأين فى دهرنا من تُشعره عزّة الأدب  
مثل هذا الشعور ليأتى بالشعر من نفس مستيقنة أن الدنيا فى انتظار كلمتها ؟

على أن شوقى لم يكن ينقصه باعتبار زمنه إلا (الجمهور الشعرى)، وكل  
بلاء الشعر العربى أنه لا يجد هذا الجمهور، فالشاعر بذلك منصرف إلى معانٍ  
فردية من مدوح عظيم أو حبيب عظيم أو سقوط عظيم...! حتى الطبيعة  
تظهر فى الشعر العربى كأنها قطع مبتورة من الكون داخله فى الحدود لا بسة  
التياب؛ ومن ذلك يذبح الشاعر وليس فيه من الإحساس إلا قدر نفسه  
لا قدر جمهوره، وإلا ملء حاجاته لاملء الطبيعة؛ فلا جرم يقع بعيداً عن  
المعنى الشامل المتصل بالمجهول، ويسقط بشعره على صور فردية ضيقة الحدود،  
فلا تجد فى طبعه قوة الإحاطة والتبسط والشمول والتدقيق، ولا تؤانيه  
طبيعته أن يستوعب كل صورة شعرية بخصائصها، فإذا هو على الخاطر العارض  
يأخذ من عفوه ولا يحسن أن يوغل فيه، وإذا هو على نزوات ضعيفة  
من التفكير لا يطول لها بحثه ولا يتقدم فيها نظره، وإذا نفسه تمر على  
الكون مرّاً سريعاً، وإذا شعره مقطع قطعاً، وإذا آلامه وأفراحه أوصاف  
لا شعور، وكلمات لا حقائق، وظلّ طامس ملقى على الأرض إذا قابلته بتفاصيل  
الجسم الحى السائر على الأرض

واجتمع لشوقى فى ميراث دمه ومجارى أعراقه عنصر عربى، وآخر تركى،  
وثالث يونانى، ورابع شركسى؛ وهذه كثرة إنسانية لا يأتى منها شاعر إلا  
كان خليقاً أن يكون دولةً من دول الشعر، وإلى هذا ولد شاعرنا باختلاله  
العصبى فى عيليه، كأن هذا دليل طبيعى على أن وراءهما عينين للمعانى تراحم

عنى البصر ؛ ومالم يكن التركيب العصبي فى الشاعر هياً للنبوغ ، فاعلم أنه وقع من تقاسيم الدنيا فى غير الشعر ، وليس فى الطبيعة ولا فى الصناعة قوة تجعل حنجرة البلبل فى غير البلبل ؛ ومع كل ماتقدم فقد أعين شوقى على الشعر بفراغه له أربعاً وأربعين سنة ، غير مشترك العمل ، ولا متقسم الخاطر ، على سعة فى الرزق وبسطة فى الجاه وعلو فى المنزلة ، وبين يديه دواوين الشعر العربى والأوروبى والتركى والفارسى ؛ وإن تنفس فلا تنفس أن شاعرنا هذا خص بنشاط الحياة ، وهو روح الشعر لروح للشعر بدونه ، فسافر ورحل وتقلب فى الأرض وخالط الشعوب واستعرض الطبيعة يتخللها ببصره ما بين الأندلس والاستانة ، وظهيره على ذلك ماله وفراغه ؛ وإنما قوة الشعر فى مساقط الجو ، فى كل جو جديد روح للشاعر جديدة ؛ والطبيعة كالناس : هى فى مكان بيضاء وفى مكان سوداء ، وهى فى موضع نائمة تحلم وفى موضع قائمة تعمل ، وفى بلد هى كالأنثى الجميلة وفى بلد هى كالرجل المصارع ؛ ولن يجتمع لك روح الجهاز العصبي على أقواه وأشدّه إلا إذا أطعمته مع صنوف الأطعمة اللذيذة المفيدة ، ألوان الهواء اللذيذ المفيد

وعندى أنه لا أمل أن ينشأ لمصر شاعر عظيم فى طبقة الفحول من شعراء العالم ، إلا إذا أعيد تاريخ شوقى مهذباً منقحاً فى رجل وهبه الله مواهبه ثم تهبه الحكومة المصرية مواهبها



والكتاب الأول الذى راض خيال شوقى وصقل طبعه وصحح نشأته الأدبية ، هو بعينه الذى كانت منه بصيرة حافظ وذكرناه فى مقالنا عنه ، أى كتاب الوسيلة الأدبية للبرصنى ؛ وليس السر فى هذا الكتاب ما فيه من فنون البلاغة ومختارات الشعر والكتابة ، فهذا كله كان فى مصر قديماً ولم يغز

شيئاً ولم يخرج لها شاعراً كشوقي ، ولكن السر مافى الكتاب من شعر البارودى لأنه معاصر ، والمعاصرة اقتداء ومتابعة على صواب إن كان الصواب ، وعلى خطأ إن كان الخطأ ؛ وقد تصرّمت القرون الكثيرة والشعراء يتناقلون ديوان المتنبى وغيره ، ثم لا يجيئون إلا بشعر الصناعة والتكلف ، ولا يُخلدُ الجيلُ منهم إلا لما رأى فى عصره ، ولا يستفتح غير الباب الذى فُتح له ، إلى أن كان البارودى ، وكان جاهلاً بفنون العربية وعلوم البلاغة ، لا يحسن منها شيئاً ، وجهله هذا هو كلُّ العلم الذى حوّل الشعر من بعد ؛ فيا لها عجيبة من الحكمة اوهى دليل على أن أعمال الناس ليست إلا خضوعاً لقوانين نافذة على الناس . وأكَبَّ البارودى على مأطاقه ، وهو الحفظ من شعر الفحول ؛ إذ لا يحتاج الحفظ إلى غير القراءة ، ثم المعاناة والمزاولة ؛ وكانت فيه سابقة ، فخرجت مخرج مثلها فى شعراء الجاهلية والصدر الأول من الحفظ والرواية ، وجاءت بذلك الشعر الجزل الذى نقله المرصفي بإلهام من الله تعالى ليخرج به للعربية حافظ وشوق وغيرهما ، فكل مافى الكتاب أنه ينقل روح المعاصرة إلى روح الأديب الناشئ ، فتبعته هذه الروح على التمييز وصحة الاقتداء ، فإذا هو على ميزة وبصيرة ، وإذا هو على الطريق التى تلتهى به إلى مافى قوة نفسه مادام فيه ذكاء وطبع ؛ وبهذا ابتدأ شوقى وحافظ من موضع واحد ، وانتهى كلاهما إلى طريقة غير طريقة الآخر ، والطريقتان معاً غير طريقة البارودى

تحول شوقى بهذا الشعر لا إلى طريقة البارودى ، فإنه لا يطبقها ولا تنهياً فى أسبابه ، وخاصة فى أول عهده ، وكأن لغة البارودى فيها من لقبه ، أى فيها البارود ... ولكن تحولنا كان عن طريقة معاصريه من أمثال الليثى وأبى النصر وغيرهما ، ترك الأحياء وانطلق وراء الموتى فى دواوينهم التى كان

من سعادته أن طبع الكثير منها في ذلك العهد : كالمثنوي وأبي تمام والبحترى  
والمعري ؛ ثم أهل الرقة أصحاب الطريقة الغرامية : كابن الأحنف والبهاء زهير  
والشباب الظريف والتلعفري والحاجري ، ثم مشاهير المتأخرين : كابن النحاس  
والأمير منجك والشرقاوى . وقد حارل شوقي في أول أمره أن يجمع بين هذا  
كله ، فظهر في شعره تقليده وعمله في محاولة الابتكار والإبداع وإحكام التوليد ،  
مع السهولة والرفقة وتكلف الغزل بالطبع المتدقق لا بالحب الصحيح

وأنا حين أكتب عن شاعر لا يكون أكبر همى إلا البحث في طريقة  
ابتداعه لمعانيه ، وكيف ألم وكيف لحظ ، وكيف كان المعنى مَنبَهَةً له ، وهل  
أبدع أم قلّد ، وهل هو شعر بالمعنى شعورا فخالط نفسه وجاء منها ، أم نقله  
نقلًا فجاء من الكتب ؛ وهل يتسع في الفكرة الفلسفية لمعانيه ، ويدقق النظرة  
في أسرار الأشياء ، ويحسن أن يَسْتَشِفَّ هذه الغيوم التي يسبح فيها المجهول  
الشعري ويتصل بها ويستصحب للناس من وحيها ؛ أم فكره استرسالٌ  
وترجيمٌ في الخيال وأخذٌ للموجود كما هو موجود في الواقع ؟ وبالجمله هل  
هو ذاتية تَمَرُّ فيها مخلوقاتٌ معانيه لتُخَاق فتكون لها مع الحياة في نفسها  
حياةٌ من نفسه ، أم هو تَبَعِيَّةٌ كالسَّمَسار بين طرفين : يكون بينهما وليس  
منهما ولا من أحدهما ؟ في هذه الطريقة من البحث تاريخ موهبة الشاعر ،  
ولا يؤدبك إلى هذا التاريخ إلا ذلك المذهب إليه إن أطقته ، أما  
تاريخ الشاعر نفسه فما أسهله ؛ إذ هو صورة أيامه وصلته بعصره ، وليس في تأريخ  
ما كان إلا نقله كما كان

وإذا عرضنا شوقي بتلك الطريقة رأيناه نابغة من أول أمره ، ففيه تلك الموهبة  
التي أسميها حاسة الجو ؛ إذ يتلمح بها النوابع معاني ما وراء المنظور ، ويستنزلون بها  
من كل معنى معنى غيره

انظر أبياته التي نظمها في أول شبابه وسنّه يومئذ ٢٣ سنة على ما أظن، وهي من شعره السائر :

خَدَعُوها بِقَوْلِهِمْ حَسَناءُ      وَالْغَوَانِي يَغْرُهُنَّ الشَّاءُ  
مَاتَرَاهَا تَنَاسَتْ اِسْمِي لَمَّا      كَثُرَتْ فِي غَرَامِهَا الْأَسْمَاءُ  
إِنْ رَأَيْتُنِي تَمِيلُ عَنِّي كَأَنْ لَمْ      تَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَهَا أَشْيَاءُ  
نَظْرَةٌ فَابْتِسَامَةٌ فَسَلَامٌ      فَكَلَامٌ فَمَوْعِدٌ فَلِقَاءُ

دع غلطته في قوله (تميل عني) <sup>(١)</sup>، فإن صوابها : تَمِيلُ ؛ إذ هي جواب إن الشرطية ؛ ولكن تأمل كيف استخرج معانيه ؛ وأنا كنت دائماً وما أزال معجباً بالبيتين الثاني والرابع ، لا إكباراً لمعناهما ، فهما لا شيء عندي ، ولكن إعجاباً بموهبة شوقي في التوليد ، فإنه أخذ البيت الثاني من قول أبي تمام :

أَتَيْتُ فَوَادِها أَشْكُو إِلَيْهِ      فَلَمْ أَخْلَصْ إِلَيْهِ مِنَ الزَّحَامِ

فَرَّ المعنى في ذهن شوقي كما يَمَرُّ الهراء في روضه ، وجاء نسيماً يترقرق بعد ما كان كالريح السافية بترابها ؛ لأن الزحام في بيت أبي تمام حقيق بسوق قائمة للبيع والشراء ، لا بقلب امرأة يحبها ، بل هو يجعل قلب المرأة شيئاً غريباً كأنه ليس عضواً في جسمها ، بل غرفة في بيتها ... وقد سبق شاعرنا أبا تمام بمراحل في إبداعه وذوقه ورقته

والبيت الرابع من قول الشاعر الظريف :

قَفَّ وَاسْتَمَعَ سِيرَةَ الصَّبِّ الَّذِي قَتَلُوا      فَمَاتَ فِي حَبْرِهِمْ لَمْ يَبْلُغِ الْغَرَضَا  
رَأَى خُبَّ فَسَامَ الْوَصْلِ فَامْتَنَعُوا      فَرَامَ صَبْرًا فَأَعْيَا نَيْلَهُ فَقَضَى

وهذه « فاءات » تجرّ إلى القبر ونعوذ بالله منها ... وبما كنت أعيبه على شوقي ضعفه في فنون الأدب ، فإن المويلحي الكاتب الشهير انتقد في جريدته مصباح الشرق أبيات (خدعوها) عند ظهور الشوقيات في سنة ١٨٩٩ ،

(١) انظر المساجلات بين الرافعي والعقاد في هذه القولة بالمقتطف

فارتاع شوقي وتحمل عليه ليمسك عن النقد ، مع أن كلام المويلحي لا يسقط  
ذباة من ارتفاع نصف متر ... ومن مصيبة الأدب عندنا ، بل من أكبر  
أسرار ضعفه ، أن شعراءنا لا طاقة لهم بالنقد ، وأنهم يفرون منه فراراً ويعملون  
على تفاديه ، وأنهم لا يحسنون غير الشعر ؛ فلا البارودى ولا صبرى ولا حافظ  
ولا شوقي كان يُحسن واحد منهم أن يدفع عن نفسه أو يكتب نصلاً فى النقد  
الأدبى ، أو يحقق مسألة فى تاريخ الأدب  
ومن معانى شوقي السائرة :

لك نصحي وما عليك جدالى آفة النصح أن يكون جدالا  
وكرره فى قصيدة أخرى فقال :  
آفة النصح أن يكون جدالا وأذى النصح أن يكون جهارا  
والبيتان من شعر صباه أيضا ، وهما من قول ابن الرومى :  
وفى النصح خيرٌ من نصيح مُوَدَّعٍ ولا خير فيه من نصيح موائب  
فصحح شوقي المعنى وأبدل الموائبة بالجدال ، وذلك هو الذى عجز عنه ابن  
الرومى ؛ ومن إبداعه فى قصيدته (صدى الحرب) يصف هزيمة اليونان :  
يكادون من دُعرٍ تفرُّ ديارُهم وتنجو الرواسى لو حراهن مَشْعَبُ  
يكاد الثرى من تحتهم يلبج الثرى ويقضم بعض الأرض بعضاوية ضب  
وهذا خيال بديع فى الغاية ، جعل هزيمتهم كأنها ليست من هول الترك ،  
بل من هول القيامة ؛ وهو مع ذلك مولدٌ من قول أبى تمام فى وصف كرم  
مدوحه أبى دلف :

تكاد مغانيه تهش عراضها فتركب من شوقٍ إلى كل راكب  
فقاس شاعرنا على ذلك ؛ وإذا كادت الدار تركب إلى الراكب إليها من  
فرحها ، فهى تكاد تفرُّ مع المنهزم من دعرها ؛ وليكن شوقي بنى فأحكم وسما على

أبى تمام بالزيادة التى جاء بها فى البيت الثانى  
ومن أحسن شعره فى الغزل :

حَوّتَ الجمالَ فلو ذهبتَ تزِيدُها      فى الوهمِ حسناً ما استطعتَ مزيداً  
وهو من قول القائل :

ذاتُ حُسنٍ لو استزادت من الحسَنِ إليها      لما أصابتَ مزيداً  
غير أن شوقي قال : لو ذهبتَ تزِيدُها فى الوهمِ ... والشاعر قال : لو استزادت هى ؛  
فلو خلا بيت شوقي من كلمة ( فى الوهم ) لما كان شيئاً ، ولكن هذه الكلمة  
حققت فيه المعنى الذى تقوم عليه كل فلسفة الجمال ؛ وإن جمال الحبيب ليس  
شيئاً إلا المعانى التى هى فى وهم محبه ؛ فالزيادة تكون من الوهم ، وهو بطبيعته  
لا ينتهى ؛ فإذا لم تبق فيه زيادة فى الحسن فما بعد ذلك حسن . وقد بسطنا  
هذا المعنى فى صور كثيرة فى كتبنا : رسائل الأحزان ، والسحاب الأحمر ،  
وأوراق الورد ؛ فانظره فيها

ومما يتم ذلك البيت قولُ شوقي فى قصيدة النفس :

يادمية لا يستزاد جمالها      زِيدِ به حسن المحسن المتبرع

وهذا المعنى يقع من نفسى موقعاً وله من إعجابى محل ؛ فهذه الزيادة التى  
فيه كزيادة العمر لو أمكنت ، وهى فى موضعها كما ينقطع الحظ ثم يتصل ، وكما  
يستحيل الأمل ثم يتفق ويسهل ؛ وقد علمت مأخذ الشطر الأول ، أما الثانى فهو  
من قول ابن الرومى :

يا حَسَنَ الوجه لقد شِئْتَهُ      فاضمِ إلى حسنك إحساناً

وفى القصيدة التى رثى بها ثروت باشا وهى من أحسن شعره تجدد من أبياتها  
هذا البيت البادر :

وقد يموت ~~كثير~~ لا تحسبهم      كأنهم من هوا الخطب ما وجدوا



وشوقى يعارض بهذه القصيدة أبا خالد ابن محمد المهلبى فى داليته، التى رثى بها المتوكل، وكان المهلبى حاضراً قتله هو والبحترى، فرثاه كل منهما بقصيدة قالوا إنها من أجود ما قيل فى مئناها؛ وبیت شوقى مأخوذ من قول المهلبى :

إنّا فقدناك حتى لا أصطبار لنا ومات قبلك أقوامٌ فما فُقدوا  
أى لم يحس موتهم أحد؛ ولكن البيت غير مستقيم، لأن الذى يموت فلا يفقد هو الخالد الذى كأنه لم يمت؛ فاستخرج شوقى المعنى الصحيح وجدل العدم الذى هو آخر الوجود فى الناس، أول الوجود ووسطه وآخره فى هؤلاء الذين هانوا على الحياة فوجدوا وماتوا كأنهم ماتوا وما وجدوا



وإلى ما علمت من قوة هذه الشاعرية، ودقتها فيما تنأتى له، ومجيتها بالمعانى النادرة مستخرجةً استخراج الذهب، مصقولة صقل الجوهر، معدلة بالفكر، موزونة بالمنطق — تجد لها تهافتاً كتهافت الضعفاء، وغرّة كغرة الأحداث؛ حتى لتحسب أن طفولة شوقى كثيراً ما تلعبت فى شعره لعبة هازلة، أو كأن للرجل شخصيتين كما يقول الأطباء، فهما تتعاوران شعره كمالاً ونقصاً، وعلواً ونزولاً، أو قل هى العربية واليونانية فى ناحية من نفسه، والتركية والشركسية فى ناحية أخرى : لتلك الابتكار والبلاغة والمنطق، ولهذه التهويل والمبالغة والخاط؛ وشوقى هو بهما جميعاً؛ تفتنه القوية منهما فيعجب بها إعجاب القوة، وتخدعه الضعيفة فيعجب بها إعجاب الرقة؛ كما أعجب ببيته الذى قاله فى الحنين إلى الوطن من قصيدته الأندلسية الشهيرة :

وطنى لو شُغلت بالخُلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

وهذا البيت مما يتمثل به الشبان وكتاب الصحافة، ولم يفتن أحد إلى فساد وسخافة معناه؛ فإن الخلد لا يكون خُلداً إلا بعد فناء الفانى من الإنسان

وطبائعه الأرضية، وبعد أن لا تكون أرض ولا وطن ولا حنين ولا عصبية ؛  
فكان شوقي يقول : لو شغلت عن الوطن حين لا أرض ولا وطن ولا  
دول ولا أمم ولا حنين إلى شيء من ذلك - فإني على ذلك أحنّ إلى الوطن  
الذى لا وجود له في نفسي ولا في نفسه ... وهذا كله اغو ... والمعنى بعد من  
قول ابن الرومي :

وَحَبِّبْ أَوْطَانَ الرِّجَالِ إِلَيْهِمْ      مَا رَبُّ قَضَائِهَا الشَّبَابُ هُنَالِكَ  
إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذَكَرْتَهُمْ      عَهْدَ الصَّبِيِّ فِيهَا فَخْتُوا لَذَلِكَ  
ومنازعة النفس هي الحنين، ومعنى ابن الرومي وإن كان صحيحاً غير أنه  
لا يصلح لفلسفة الوطنية في زمننا

وإن في شوقي عيبين يذهبان بكثير من حسناته : أحدهما المبالغات التركية  
الفارسية مما تنزعه إليه تركيبته ولا مبالغة في الدنيا تقاربها، كقول بعض  
شعرائهم أن النملة بزفرتها جففت الأبحر السبعة ... وهو إغراق سخيف لا يأتي  
بخيال عجيب كما يتوهمون، بل يأتي بهذيان عجيب ؛ وإذا كان الصدق يأتي  
من الكذب، فإن الكذب نفسه يأتي من هذا الإغراق ؛ ومن هذه التركية  
في شوقي إضافات وهمية، هي من تلك المبالغات كذيل الحمار من الحمار : قطعة  
فيه ودليل عليه وآخر لأوله ولا محل لها في ذوق البلاغة العربية، كقوله :

(عيسى الشعور) إذا مشى      ردّ الشعوب إلى الحياة

وقوله في سعد باشا في حادثة الاعتداء عليه :

وَلَوْ زُلْتَ غُيِّبَ (عمرُ و الأمور) وَأَخْلَى الْمَنَابِرَ سَجَانُهَا  
وَيَدْخُلُ فِي جَنَائِاتِ هَذِهِ التَّرْكِيَّةِ عَلَى شِعْرِهِ تَكَرَّارُهُ الْأَسْمَاءَ الْمُقَدَّسَةَ  
وَالْأَعْلَامَ التَّارِيخِيَّةَ : كِيُوشَع وَعِيسَى وَمُوسَى وَخَالِدٌ وَبَدْرٌ وَسَيْنَاءٌ وَحَاتِمٌ  
وَكَعْبٌ وَغَيْرَهَا مِمَّا هُوَ شَائِعٌ فِي نَظْمِهِ وَلَا تَجِدُهُ أَكْثَرَ مَا تَجِدُهُ إِلَّا ثَقِيلًا

ملولاً: وهذه الألفاظ عندنا فلسفة لا محل لها الآن، فهي أحياناً تكون السحر كله والبلاغة كلها، على شرط أن يكون القلب هو الذى وضعها فى موضعها، وأن لا يضعها إلا على هيئة قلبية، فيكون كأنه وضع نفسه فى الشعر ليخفق خفقانه الحى فى بضعة ألفاظ، وهذا ما لم يحسنه شوقي - والعيب الثانى أن ألفاظ شاعرنا لا يثبت أكثرها على النقد؛ لضعفه فى الصناعة البيانية، ثم لضعف الموهبة الفلسفية فيه واعتباره التهويل شعراً والمبالغة بلاغة وإن فسدت بهما البلاغة والشعر؛ انظر إلى قوله من قصيدته الشهيرة ٢٨ فبراير:

قالوا الحامية زالت قلت لا عجبٌ      قد كان باطلها فيكم هو العجبا  
رأس الحامية مقطوع فلا عدمت      كنانةُ الله حزمًا يقطع الذنبا  
قلنا: فإذا قطع (رأس الحامية) وبقيت منها بقية ما ذنب أو يد أو رجل؛ فإن هذه البقية فى لغة السياسة التى تنقد الألفاظ وحروفها ونقط حروفها... لن تكون ذنباً ولا يداً ولا رجلاً، بل هى (رأس الحامية) بعينه... على أن شوقي إنما عكس قول الشاعر:

لا تقطعن ذنب الأفعى وترساها      إن كنت شهماً فأتبِعْ رأسها الذنبا  
وهذا كلام على سياقه من العقل، فما غناء قطع ذنب الأفعى إذا بقى رأسها، وإنما الأفعى كلها هى هذا الرأس

ولقد ظهر لى من درس شوقي فى ديوانه أمر عجبت له: فإنى رأيته يأخذ من أبى تمام والبحترى والمعرى وابن الرومى وغيرهم؛ فربما ساواهم وربما زاد عليهم، حتى إذا جاء إلى المتنبي وقع فى البحر وأدركه الغرق، لأنه نشأ على رهبة منه كما تشير إليه عبارته فى مقدمة ديوانه الأول؛ وقد وصف خيل الترك فى قصيدة أنقره بقوله:

والصبر فيها وفى فرسانها خُلقٌ      توارثوه أباً فى الروع بعد أب

كما وُلدتم على أعرافها وُلدت في ساحة الحرب لا في باحة الرحب  
وشعره هذا كأنه يرتعد أمام قول المتنبي :

أقبلتها غرر الجياد كأنما أيدى بنى عمران في جبهاتها  
الثابتين فروسةً بجلودها في ظهرها ، والطعن في لباتها  
فكأنها نُتجتُ قياماً تحتهم وكأنهم وُلدوا على صهواتها  
فانظر أين صناعة من صناعة وأين شعرٌ من شعر ؟ وقال في (صدى الحرب)  
يصف مدافع الدردنيل :

قدائفٌ تخشى مهجة الشمس كلما علت مصعداتُها لا تصوبُ  
إذا هبَّ حاميتها على السفن انشنت وغائمها الناجي فكيف الخيبُ  
وهذا الاستفهام (فكيف الخيب) استفهام مضحك ؛ لأنه إذا كان الناجي غائماً  
فالخيب خاسر بلا سؤال ولا فلسفة ؛ والكلمة الشعرية في هذا كله هي قوله (وغائمها  
الناجي) ، وهي كالحاربة تتوارى خوفاً من بيت أبي الطيب :

أغرُّ أعداؤه إذا سلموا بالهرب استكبروا الذي فعلوا  
فهذا هو الشعر لاذك ؛ على أني أشهد أن في قصيدة (صدى الحرب)  
أبياتاً هي من أسمى الشعر ، وكأن شوقي رحمه الله كان ينظم هذه القصيدة من  
إيمانه ومن دمه ومن كل مطامع دنياه وآخرته ، يبتغي بها الشهرة الخالدة في  
الناس ، والمنزلة السامية عند الخديو ، ونباهة الشأن عند الخليفة ، والثواب عند  
الله تعالى ؛ ولو هو في أثناء عملها أسقط نصفها أو أكثر لجاءت فريدة في  
الشعر العربي ، غير أن الحرص كان يغتره ، وكان طول عمره مفتوناً بشعره ؛  
جاء في هذا الشعر بالطم والرّم كما يقولون ؛ وله كثير من الكلام الرذل  
الساقت بضعفه وتهافته ؛ ولولا تلك التركية الفارسية وضعفه البياني ، لما رضى  
أن يكون ذلك في شعره ؛ وليت شعري كيف غاب عن مثله أن التهويل

والإغراق والإحالة مما يهجن الشعر ويذهب بأثره في النفس ويحيله إلى صناعة هي شرٌّ من الصناعة البديعية ؛ لأن هذه تكون في الألفاظ . والألفاظ تحتل العبت البديعي ويخرج بها الأمر إلى أن تكون ضرباً من الرياضة كعانة بعض المسائل في الجبر والهندسة تركيباً وحلاً ؛ ولكن المعاني لا تحتل ذلك ؛ إذ هي تفكير لا يلتوى إلا فسد ، والمعاني التي يأتي بها الشاعر يجب أن تكون فيها مزية بخاصتها من الجمال والبيان ، وأن تكون أخيلتها هي الحقائق التي أول مواضعها فوق حقائق البشر

وهناك ضرب آخر من المبالغة يجيء من سقوط الخيال ؛ لأن في الأسفل مبالغة كما في الأعلى ، وإن كانت مبالغة الأسفل زيادة في السخرية منه والهزء به ؛ وهذه المبالغة تأتي من جمع أشات مختلفة وإدماجها كلها في معنى واحد ، كهذا الذي حاول أن يدج الطبيعة كلها في حبيته فزعم أن فيها من كل شيء ، ونسى أن كل قبيح وكل بغيض هو من كل شيء . . . (١)

إن الخيال الشعري يزيع بالحقيقة في منطق الشاعر لاليقابها عن وضعها ويجيء بها ممسوخة مشوهة ولكن ليعتدل بها في أفهام الناس ويجعلها تامة في تأثيرها ؛ وتلك من معجزاته ؛ إذ كانت فيه قوة فوق القوة عملها أن تزيد الموجد وجوداً بوضوحه مرة وبغموضه أخرى

ولعلماء الأدب العربي كلمة ما أراهم فهموها على حقها ولا نفذوا إلى سرها ؛ قالوا : أعذب الشعراً كذبُهُ ! يعنون أن قوام الشعر المبالغة والخيال ؛ ولا ينفذون إلى ما وراء ذلك ، وما وراءه إلا الحقيقة رائعة بصدقها وجلالها ؛ وفلسفة ذلك أن الطبيعة كلها كذبٌ على الحواس الإنسانية ، وأن أبصارنا وأسماعنا وحواسنا هي عمل شعري في الحقيقة ؛ إذ تنقل الشيء على غير ماهو في نفسه

(١) يعني قول العقاد في وحى الأربعين :

فبك مني ومن الناس ومن كل موجود وموعد توأم

ليكون شيئاً في نفوسنا ، فيؤثر فيها أثرة جمالا وقبحاً وما بينهما ؛ وما هي خمرة الشعر مثلاً ؟ هي رضاب الحبيبة ؛ ولكن العاشق لورأى هذا الرضاب تحت المجهر لرأى ... لرأى مستنقعاً صغيراً ... ولو كان هذا المجهر أضعاف الأضعاف مما يحجر به لرأيت ذلك الرضاب يعجج عجيجاً بالهوام والحشرات التي لا تخفى بنفسها ولكن أخفاها التدبير الإلهي بأن جعل رتبته في الوجود وراء النظر الإنساني ، رحمة من الله بالناس ؛ فأعذب الشعر ما عمل في تجميل الطبيعة كما تعمل الحواس الحية بسر الحياة ؛ ولهذا المعنى كان الشعراء النوابغ في كل مجتمع هم كالحواس لهذا المجتمع

ومن سخيّف الإغراق في شعر شوقي قوله في رثاء مصطفى باشا كامل ، وهي أبيات يظن هو أنه أوقع كلامه فيها موقعاً بديعاً من الإغراب :

فلو أنّ أوطانا تُصوّر هيكلًا      دفنوك بين جوانح الأوطان  
أو كان يُحمل في الجوارح ميت      حملوك في الأسماع والأجفان  
أو كان للذكر الحكيم بقية      لم تأت بعدد - رُئيت في القرآن

فهذه فروض فوق المستحيل بأربع درجات ... وتصور أنت ميتاً يحمل في الجوارح فيترمم فيها ويبلى ... وما زال الشاعر في أبياته يخرج من طامة إلى طامة ، حتى قال : رثيت في القرآن ، ولو سئلت أنا إعراب ( لو ) في هذه الأبيات لقلت إنها حرف نقص وتافيق وعجز ... وكيف يسوغ في الفرض أن تكون للقرآن بقية لم تنزل ، والله تعالى يقول فيه : « اليوم أكملت لكم دينكم » ؛ والامر أمر دين قد تم ، وكتاب مقدس ختم ، ونبوّة انقضت ؛ والشاعر ماض في غفلته لم يتنبه لشيء ولم يدر أنه يفرض فرضاً يهدم الإسلام كله ، بل حسب أنه جاء بخيال وبلاغة فارسية ؛ وشوقي في الحقيقة كامل كناقص ، وإن من معجزات هذا الشاعر أن يكون ناقصاً وهذا النقص كله ويكمل

وفي الشوقيات صفحات تكاد تغرد تغريداً، وفيها صفحات أخرى تنقّ نقيق الضفادع؛ وفي هذا الديوان عيوب لا زبد أن نقتصمها؛ فإن ذلك يحتاج إلى كتاب برأسه إذا ذهبنا نأق بها ونشرح العلة فيها ونخرج الشواهد عليها، ولكن من عيوبه في التكرار أن له بيتاً يدور في قصائده دوران الحمار في الساقية، وهو هذا البيت :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت      فإن همّو ذهبّت أخلاقهم ذهبوا  
بل هذا البيت :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت      فإن تولّت مضوا على آثارها قدّما  
بل هو هذا :

كذا الناس بالأخلاق يبق صلاحهم      ويذهب عنهم أمرهم حين تذهب  
بل هو هذا البيت :

ولا المصائب إذ يرمى الرجال بها      بقاتلات إذا الأخلاق لم تصب  
وقد تكرر (فيما قرأته من ديوانه) ثلاث عشرة مرة، فعاد المعنى كطيلسان ابن حرب الذي جعل الشاعر يرقعه ثم يرقعه حتى ذهب الطيلسان وبقيت الرقع... والبيت الأول من العين النادر، ولكن أفسده في الباقي سوء ملكة الحرص في شوقي، أو ضعف الحس البياني، أو ابتداله الشعر في غير موضعه، أو وهن فكرته الفلسفية من جوانب كثيرة؛ وهذه الأربعة هي الأبواب التي يقتحم منها النقد على شعر صاحبنا، ولو هو كان قد حصنها بأضدادها لكان شاعر العربية من الجاهلية إلى اليوم، ولكن عسى أن ينقل الشعر إلى طور جديد في التاريخ؛ ولكن الفوضى وقعت في شوقي من أول أمره؛ فأرسل إلى أوربا لدرس الحقوق وكان الوجه أن يرسل لدرس الآداب والفلسفة، وغامر في سياسة الأرض وكان الحق أن يشتغل بسياسة السماء، وتهالك في مادة

الدنيا وكان الصواب أن يتهالك في معانيها

إن الفوضى ذاهبة بنا مذاعبها في الأدب والشعر ، فكل شاعر عندنا  
كؤلف يضع رواية ثم يمثلها وحده وعليه أن يمثلها وحده ، فهو يخرج على  
النظارة في ثياب الملك فيلقى كلاماً ملكياً ، ثم ينقلب فيجىء في ثوب القائد  
فيلقى كلاماً حربياً ، ثم ينقلب فيعود في هيئة التاجر فيلقى كلاماً سوقياً ثم  
يروغ ويرجع في مبادل الخادم ثم ... ثم ... ثم يتوارى فيظهر في جلدة  
بربرى ... وهذه الفوضى التي أهملتها الحكومة وأهمها الأمراء والكبراء هي  
حقيقة مؤلمة ، ولكن هي الحقيقة !



وشوقى على كل هذا هو شوقي : أول من احتفى بتاريخ مصر من الشعراء ،  
وأول من توسع في نظم الرواية الشعرية فوضع منها ست روايات ، وهو  
صاحب الآيات البديعة في الوصف ، وهذه الناحية هي أقوى نواحيه ، ولقد  
ألهمنى قراءة البارع من شعره في أغراضه وفنونه المختلفة أن الله تعالى  
ينعم على الآداب الجميلة بأفراد ممتازين في جمال أرواحهم وقوتها ، تجد الآداب  
لذتها فيهم وسموها بهم ، كأن الأمر قياس على ما يقع من عشق الناس لبعض  
المعاني ، فيكون في المعاني ما يعشقه بعض الناس ، ومتى بلغ عشق المعنى لإنسان  
مبلغ الاختصاص والوجد ظهر الفن أبدع ما يرى ، كأن المعنى الأدبي يتجمل  
ويتحجب ليستميل هذا الإنسان الحاكم عليه حكم الحب

فيامصر ، لقد مات شاعرُك الذي كان يحاول أن يخرج بالجيل الحاضر  
إلى الزمن الذي لم يأت بعد ، فإذا جاء هذا الزمن الزاخر بفنونه وآدابه  
العالية ، وذكرت مجد شعرك الماضي ، فليقل أساتذتك يومئذ : كان هذا الماضي  
شاعراً اسمه شوقي !



## بعد شوقي<sup>(٥)</sup>

كان يتوجّه الظن على شوقي رحمه الله ، فيزعمُ الزاعمُ أن شوقي هو يُحيي شعره ، وهو يرفع منه ، وهو يُشيعُ حوله قوةَ الجذب من مغناطيس الثروة والمكانة ، وأن الرجل ما أوفى على الشعراء جميعاً لأنه أفضلهم ، بل لأنه أغناهم ؛ ولا من أنه أقواهم قوةً ، بل لأنه أقواهم حيلةً ؛ وأن الشاعر لو جاء يومه لبطل السحرُ والساحر ، فترجع العصا وهي عصاً بعد أن انقلبت حية ، ويثول هذا الشعرُ إلى حقيقته ، وتتسم الحقيقة بِسِمَتها ؛ كأن شوقي كان يعملُ لشعره بقوة السموات والأرض لا بقوة رجل من الناس

فقد ذهب الرجلُ إلى ربه ، وخلا مكانه ، وبطلت كلُّ وسائله ، ونام عن شعره نومةً الأبدية ، وتركه لما فيه يحفظه أو يضيعه إن كان فيه حق من الشعر أو باطل ، وأصبح الشاعرُ هو وماله وجأه وشعره في حكم الكلمة التي يقولها الزمن ، ولم تعد هذه الكلمة في حكمه ؛ فهل أثبتّه الزمن أو نفاه ، وهل سَلِمَ له أو كابره ، وهل ردّه في أغمار الشعراء أو جعل الشعراء بعده أدلة من أدلته ؟



أول ما ظهر لي أن الزمن بعد شوقي أصبح أقوى في الدلالة عليه وأصدق في الشهادة له ، كما تكون الظلمة بعد غياب القمر شرحاً طويلاً لمعنى ذلك الضياء ، وإن سطعت فيها الكواكبُ وتوقّد منها شيء وتلاّلاً

---

(٥) لما توفي شوقي كتبنا لشيخ مجلاتنا (المقتطف) فصلاً طويلاً عنه وعن شعره ومنزلة شعره ؛ فلم نعرض لشيء من ذلك هنا [ قلت : وقد نشرناه قبل هذا الفصل ]

شيء ؛ فقد دلّ الزمنُ على أن ذلك الشأن لم يكن لشاعرٍ كالشعراء يقال في وصفه إنه مفننٌ مجيدٌ مبدع ؛ ولكنه للذي يقال فيه إنه صوتُ بلاده وصيحةُ قومه .

كانت تحدثُ الحادثة ، أو يتخالَجُ الناسُ معنى من الهم الذي يعمُّهم ، أو يستطيرهم فرح من أفراح الوطن ، أو يزولُ عظيم من العظماء فيزيد صفحةً في التاريخ ، أو ينشأ كونٌ صغير من أكوان الحضارة في الشرق كبنك مصر ، أو ترتجُّ زلزلة في الحياة العربية أينما ارتجَّت ، فإذا كلُّ ذلك قد وقع في الدنيا بهيئتين إحداهما في ذهن شوقي ، فيرسلُ قصيدته الشروذ السائرة داويةً مجلجلة ، فلا تكاد تظهر في مصر حتى تلتقى حولها الأفكارُ في العالم العربي كله ، فتكون شعراً من أسرى الشعر وأحسنيه ، ثم تجاوزُه فإذا هي صلةٌ من أقوى الصلات الذهنية بين أدباء العربية وأوثقها ، ثم تجاوزها فإذا هي عاطفةٌ تجمع القلوبَ على معناها ، ثم تسمو فوق هذا كله فإذا هي من هذا كله زعامةُ مصر على الشعر العربي

واليوم يقع مثلُ ذلك فتطير بعض الفقايق الشعرية من هنا وثمَّ ملونة متفخخة ماضية على قانون الفقايق في الطبيعة : من أن لحظة وجودها هي لحظة فناها ، وأن ظهورها يكون لتظهر فقط لالتنفع

ولست أمارى في أن بيننا شعراء قليلين يجيدون الشعر ، ولهم فكرٌ وبيان ومذهبٌ وطريقة ؛ ولكن ما منهم أحد إلا وهو يشعر من ذات نفسه أن الحوادث لم تختره كما اختارت شوقي ، وأنه في الحياة كالواقف على باب ديوان ينتظر أن يُعهد إليه ، وأن يخرج له التقليد ؛ فهو ينتظر وسيُنتظر .

وهذا عجيبٌ حتى كأنه سحرٌ من سحر الزمن حين تفصل الدنيا بين العبقريِّ الفذ وبين من يشبهونه أو ينافسونه — بضروب خفية من الصرفة

والعوائق ، لاهى كلها من قوة العبقرى ، ولاهى كلها من عجز الآخرين  
وأعجب من ذا أن ( شوقى ) كان فى العالم العربى كأنه عملٌ تاريخى متميزٌ من  
أعمال مصر ، غير أنه مسمى باسم رجل ؛ وكان على الحقيقة لا على الحاز -  
كأن فيه شيئاً من هذه الروح التاريخية المتغلّبة التى تَخْلُدُ بأسماء الآثار الفنية  
وتكسبها العظمة فى الوجودين : من محالها ومن نفس الإنسان  
وأعجب من هذا وذلك أنى لم أر شعراً عربياً يحسُنُ فى وصف الآثار  
المصرية ما يحسُنُ فى وصفها شعرُ شوقى ، حتى لأسأل نفسى : هل تختار بعض  
الاشياء العظيمة وصفها ومفسر عظمتها ، كما تختار المرأة الجميلة عاشقها  
ومُستجلى حسنها ؟



وما بان شوقى على غيره إلا بأنه رجل أفرغ فى رأسه الذهن الشعرى  
الكبير ، فكان فى رأسه مَصْنَعُ عَمَّالِ الأعصاب ، ومادته المعانى ، ومهندسه  
الإلهام ؛ والدنيا تُرسل إليه وتأخذ منه ؛ وعلامة ذلك من كل شاعر عظيم  
أن تَضَعَ دنياه على اسمه شهادتها له ؛ ولهذا ما يكون بعض الشعراء كأن اسمه  
فى وزن اسم مملكة ، فإذا قلت شكسبير وانجلترا ، فهما فى العظمة النفسية  
من وزن واحد ، وكذلك المتنبى والعالم العربى ، وكذلك شوقى ومصر  
قالوا : كان الفرزدق ينقح الشعر ، وكان جرير يَخْشُبُ ( أى يُرسل شعره  
كما يجىء فلا يتنوّق فيه ولا ينقحه ) ؛ وكان خَشْبُ جرير خيراً من تنقيح  
الفرزدق ؛ ولم يتنبه أحد إلى السر فى ذلك ؛ وما هو إلا السر الذى كان فى  
شوقى بعينه ، سر الامتلاء الروحى قد أمدَّ بالطبع ، وأعين بالذوق ، وأوتى  
القوة أن يتحول بآثاره فى الكلام ؛ فكل ما كان منه فهو منه : يجىء دائماً  
قريباً بعضه من بعضه ، ولا يكاد ينفذ إلى شعور إلا اتحد به

وقد كان عمر بن ذرّ الواعظ البليغ<sup>(٥)</sup> إذا تكلم في مجلسه نشر حوله جوا من روحه ، فيجعل كلّ ما حوله يتموّج بأمواج نفسية ؛ فكان كلامه يعصف بالناس عصفت الهواء بالبحر يقوم به ويقعد ، وكان من الوعاظ من يقلده ويحاكيه ولا يدرى أنه بذلك يعرض الغلظة على ردها وصوابها ، فقال بعض من جالسه وجالسههم : ما سمعتُ عمر بن ذرّ يتكلم إلا ذكرتُ النفخ في الصور ، وما سمعت أحداً يحكيه إلا تمنيتُ أن يجلد ثمانين ...

فالفرق روحاني طبيعي كما ترى ، لا عمل فيه لأحد ولا لصاحبه . وهو يشبه الفرق بين عاصفة من الهواء وبين نسيم من الريح يرسلان على جهتين في البحر ؛ ففي ناحية يلتجج الماء ويثب ويتضرب ويقصف قصف الرعد ، وفي الأخرى يترجرج ويتزحف ويقشعر ويهمس كوسواس الحلى

والشأن كل الشأن للكميّة الوجدانية في النفس الشاعرة أو الممتازة ؛ فهي التي تعين لهذه النفس عملها على وجه ما ، وتهيئها لما يراد منها بقدر ما ، وتقيمها على دأبها إلى زمن ما ، وتخصّها بخصائصها لغرض ما ؛ وإذا أنت حققت لم تجد الفروق بين النوابع بعضهم من بعض إلا فروقا في هذه الكمية ذاتها مقدارا من مقدار ؛ ولولا ذلك لكان أصغر العلماء أعظم من أكبر الشعراء ؛ فقد يكون الشاعر العظيم كأنه تلميذ في العلم ، ثم يكون العلم كأنه تلميذ لقلب هذا الشاعر وعواطفه ؛ ولئن عجز النقد العلّشي أن ينال من الشاعر العبقري ، لقد يما عجز في كل أمة

وقد كان فيمن حاولوا إسقاط شوقي من هو أوسع منه اطلاعا على آداب الأمم ، وأبصر بأغراض الشعر وحقيقته ، وكان مع ذلك حاسدا شائنا قد ثَقَبَ في قلبه الحقد ؛ والحاسدُ المبغضُ هو في اتساع الكلام وطغيان

---

(٥) هو عمر بن ذرّ الهمداني الكوفي المتوفى سنة ١٥٦ للهجرة وكان من أبلغ المتكلمين

العبارة أخو المحب العاشق ؛ فكلاهما يدور الدُم في كبده معاني ووساوس ،  
وكلاهما يجرى كلامه على أصلٍ مما في سريرته ، فلا تجد أحدهما إلا عالياً عالياً  
بمن يحب ، ولا تجد الآخر إلا نازلاً نازلاً بمن يبغض ؛ وكان هذا الناقد  
شاعراً ، فأنضاف شعره إلى حسده ، إلى بغضه ، إلى ذكائه ، إلى اطلاعه ، إلى  
جهده ، إلى طول الوقت وتراخي الزمن ؛ وهذه كلها مفرقات نفسية . . . .  
بعضها أشد من بعض كالبارود ، إلى الديناميت ، إلى الميليديت ؛ ولكن شوقي  
كان في مرتقى لم يبلغه الناقد ، فانقلب جهدُ هذا عجزاً ، وأصبح البارود والتراب  
في يده بمعنى واحد . . . (١)



ومن أعجب ما عجبت له من أمر هذا الناقد ، أنى رأيته يقرر للناس صواب  
الحقيقة بزعمه ، فإذا هو يقرر غلطه وجهله وتعسفه ؛ وهو في كل ما يكتب  
عن شوقي يكون كالذى يرى الماء العذب وعمّله في إنبات الروض  
وتوشيتته وتلوينه ، فيذهب يعيبه للناس بأنه ليس هو البنزين . . . الذى يحرك  
السيارات والطيارات !

تناول شوقي بعد موته فجرده من الشخصية ، أى من حاسة الشعر ، ومن  
إدراك السر الذى لا يُخلَقُ الشاعرُ الحقُّ إلا لإدراكه والكشف عن حقائقه ؛  
وكان فيما استدل به على ذلك أن شوقي لا يحسن وصف الربيع بمثل ما وصفه  
ابن الرومى فى قوله :

تجدُ الوحوشُ به كفايتها والطيرُ فيه عتيدةُ الطعمِ -  
فطباؤُه تُضحى بمُنْتَطَحٍ وحمامه يضحى بمختَصمِ -

وزعم أن ابن الرومى قد وُلد بحاسة لم يولد بها شوقي ، ولهذا الحاسة

(١) أحسبه يعنى العقاد

اندمج في الطبيعة فأدرك سر الربيع ، وأنه غليان الحياة في الأحياء ، فالظباء  
تنتطح من الأثر الخ الخ وبني على ذلك ناطحة سحاب .... لا ناطحة  
ظباء (\*)

أما شوقي الشاعر الضعيف العاجز الذي لم يولد بمثل تلك الحاسة ، فلو  
أنه شهد ألف ربيع لما أحس هذا الإحساس ، ولا استطاع أن يحىء بمثل هذا  
القول المعجز ؛ وكل ذلك من هذا الناقد جهل في جهل ، وأعاليل  
بأضاليل بأباطيل ؛ فابن الرومي في هذا المعنى لص لا أكثر ولا أقل ، فلم  
يحس شيئاً ولا ابتدع ولا اخترع

قال الجاحظ : يقال في الخصب ( أى الربيع ) : نَفَشَت العنبر لاختها ؛  
وخلّفت أرضاً تظالم معزاها ( أى تتظالم ) ؛ قال : لأنها تنفش شعرها وتنصب  
رُوقيتها في أحد شقيها فتنتطح أختها ، وإنما ذاك من الأثر ، ( أى حين سمت  
وأخصبت وأعجبتهأ نفسها )

فأنت ترى أن ابن الرومي لم يصنع شيئاً إلا أنه سرق المعنى واللفظ جميعاً ،  
ثم جاء للقافية بهذه الزيادة السخيفة التي قاس فيها الحمام على الظباء والمعزى ...  
فاستكره الحمام على أن يختصم في زمن بعينه وهو يختصم في كل يوم ؛  
وإنما شرط الزيادة في السرقة الشعرية أن تضاف إلى المعنى فتجعله كالمفرد  
بنفسه أو كالمخترع

ولعمري لو كان للطبيعة مائة صورة في الخيال الشعري ، ثم قدم شوقي  
للناس تسعاً وتسعين منها ، لقال ذلك الناقد المتعنت : لا ، إلا الصورة التي  
لم يقدمها ...



---

(\*) لا يحضرني كلام الكاتب بنصه ، ولكن هذا بعض معناه ، وكله تهويل

وكان شعر شوقي في جزالته وسلاسته كأنما يحمل العصا لبعض الشعراء يرُدُّهم بها عن السفسفة والتخليط والاضطراب في اللفظ والتركيب ؛ فكثر الاختلالُ في الناشئين من بعده ، وجاءوا بالكلام المخاط الذي تبعث عليه رخاوة الطبع وضعف السليقة ، فتراه مكشوفاً سهلاً ولكن سهولته أقبح في الذوق من جفوة الأعراب على كلامهم الوحشي المتروك

والآفة أن أصحاب هذا المذهب يقرضون مذهبهم فرضاً على الشعر العربي ، كأنهم يقولون للناس : دعوا اللغة وخذونا نحن ! وليس في أذهانهم إلا ما اختلط عليهم من تقليد الأدب الأوربي ، فكل منهم عابد الحياة ، مندمج في وحدة الكون ، يأخذ الطبيعة من يد الله ، ويجاري الانهائية ، ويفنى في اللذة ، ويعانق الفضاء ، ويغنى على قيثارته للنجوم ؛ وبالاختصار : فكل منهم مجنون كُغوى ...

وأنا فليست أرى أكثر هذا الشعر إلا كالجيف ، غير أنهم يقولون إن الجيفة لا تعدُّ كذلك في الوجود الأعظم ، بل هي فيه عمل تحليلي علمي دقيق ؛ لقد صدقوا ؛ ولكن هل يكذب من يقول : إن الجيفة هي فساد وتفنن وقذر في اعتبار وجودنا الشخصي ، وجود النظر والشم ، والانقباض والانبساط ، وسلامة الذوق وفساد الذوق !



وكان حاسدو شوقي يحسبون أنه إذا أزيح من طريقهم ظهر تقدُّمهم ؛ فلما أزيح من الطريق ظهر تأخرهم .... وهذه وحدها من عجائبه رحمه الله ! وقد كان هذا الشاعر العظيم هبةً ثلاثة ملوك للشعب ، فهيهات يذبح مثله إلا إذا عمل الشعب في خدمة الشعر والأدب عمل ثلاثة ملوك .... وهيهات !

# الشعر العربي

في خمسين سنة<sup>(١)</sup>

إذا اعتبرت الشعر العربي قبل خمسين سنة خَلَتْ ( أى قبل إنشاء المقتطف ) وتأملت حليته ومعرضه ، وانظرت في منهاجه وطريقته ، وتصفحت معانيه وأغراضه — لم تر منه إلا شبيها بما تراه من بقايا الورق الأخضر في شجرة ثقل عليها الظل فهو جامد مُسْتَوْحَم ، وُحْمٌ ن ظالها شعاع الشمس فهو بارد يرتعد ، فالحياة فيها ضعيفة متهالكة ، لا هي تموت كالموت ولا هي تحيا كالحياة ، وما ثم إلا ماءٌ ناشف وروتق عليل ومنظر من الشجرة الواهنة كأنه جسم الربيع المعتل بدت عروقه وعظامه .

كان ذلك الشعر فاسد السبك ، متخلف المنزلة ، قليل الطلاوة ، بين مديح قد أُعيد كل معنى من معانيه في تاريخ هذه اللغة بما لا يحصى إلا الملائكة الموكلون بإحصاء الكذب ، وبين هجاء ساقط هو بعض المواد التي تشتعل بها نار الله يوم تَطَّلَع على الأفئدة ، وبين غزل مسروق من القلوب التي كانت تحب وتعشق ، وبين وصف لا عيب لموصوفه سواه ، وشكوى من الدهر يشكو الدهر منها ، وتحزن ويأس وندب تجعل ديوان الشاعر كما سَمَّى أحد ظرفاء القرن الثانى عشر للهجرة ديوان أحد أصحابه « بالملطمة ... » ، وراثاء كقراءة القراء في جنازات الموتى ، لا فيها عظة السكوت ولا فائدة النطق ، وتغمر كل ذلك أنواع من الصناعة بيّنة التعسف ، ضعيفة التقليد ، لا ترى المتأخر فيها مع المتقدم إلا قريبا مما يكون عملُ اللص في أخذ المال ، من عمل صاحب المال في جمعه ؛ والعجيب أنك إذا اعترضت الشعر من القرن العاشر للهجرة



إلى القرن الثالث عشر (السادس عشر للميلاد إلى التاسع عشر) رأيته نازلاً من عصر إلى عصر بتدرّج من الضعيف إلى الأضعف، حتى كأنما ينحط بقوة طبيعية كقوة الجذب، كلما هبطت شيئاً أسرع شيئاً إلى أن تلتصق بالأرض؛ وبعضهم يسمي هذه العصور بالعصور المظلمة، ولم يتنبه أحد إلى أن في الأدب ناموساً كناموس رد الفعل، يُخرج أضعف الضعف من أقوى القوة، وأن انحطاط الشعر في تلك العصور - على أنه لم يكن إلا صناعة بديعية - إنما سببه القوة الصناعية العجيبة التي كانت للشعر منذ القرن السادس إلى العاشر، بعد أن نشأ القاضي الفاضل المتوفى سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م)؛ وكان رجلاً من الرجال الذين يخلقون حدوداً للحوادث تبدأ منها أزمنة وتنتهي عندها أزمنة؛ ففتن الناس بأدبه وصناعته، وصرف الشعر والكتابة إلى أساليب النسكّة البديعية؛ وظهرت من بعده عصابته التي يسمونها العصابة الفاضلية، وما منهم إلا إمام في الأدب وتلومته، فكان في مصر القاضي ابن سناء الملك، وسراج الدين الوراق، وأبو الحسين الجزار، وأضرابهم؛ وكان في الشام عبد العزيز الأنصاري، والأمير مجير الدين بن تميم، وبدر الدين يوسف ابن لؤي الذهبي، وأمثالهم؛ فهذه العصابة هي التي تقابل في تاريخ الأدب العربي عصابة البديع الأولى: كمسلم، وأبي تمام، وابن المعتز، وغيرهم؛ وكلتا الفئتين استبدت بالشعر وصرفته زمناً، وأحدثت فيه انقلاباً تاريخياً متميزاً؛ بيد أن العصابة الفاضلية بلغت من الصنعة مبلغاً لامطمع في مثله لأحد من بعدها، حتى كأنهم لم يدعوا كلمة في اللغة يجري فيها نوع من أنواع البديع إلا جاءوا بها وصنعوا فيها صنعة؛ وكان بعضهم يأخذ من بعض ويزيد عليه، إلى آخر المائة الثامنة، فلم يتركوا باباً من يأتي بعدهم إلا باب السرقة بأساليبها المعروفة عند علماء الأدب.

ولهذا لا نكاد نجد شعراً عربياً بعد القرن التاسع إلا أول النهضة الحديثة ،  
إلا رأيت صوراً ممسوخة مما قبله ؛ وكل شعراء هذه القرون ليسوا بمن وراءهم  
إلا كالظل من الإنسان : لا وجود له من نفسه ، وهو ممسوخ أبداً إلا في الندرة  
حين يسقط في مرآة صافية ؛ ومتى كان الشعراء لا ينشئون إلا على فنون  
البلاغة وصناعاتها ، وكانت هذه كلها قد فرغ منها المتقدمون ؛ فما ثمَّ جديد في  
الأدب والفن إلا ولادة الشعراء وموتهم ، وإلا تغير تواريخ السنين ... وهذا  
إذا لم نعد من الأدب تلك الصناعات المستحدثة التي ابتدعها المتأخرون مما  
سنشير إلى بعضه : كالتاريخ الشعري وغيره .



إن الفكر الإنساني لا يسير التاريخ ، ولا يقدر قدراً فيه ، ولا ينقله من  
رسم إلى رسم ؛ لأنه هو نفسه كما خلق مصلحاً خالق مفسداً وكما يستطيع أن يوجد  
يستطيع أن يفنى ، وكما تطرد به سبيل تلتوى به سبيل أخرى ؛ وما أشبه هذا  
الفكر في روعته بقطار الحديد : يطير كالعاصف ويحمل كالجبل ويدهش كالمعجزة ،  
وهو مع كل ذلك لا شيء لولا القضيبان الممتدان في سبيله ، يحرقانه كيف  
انحرفا ، ويسيران به أين ارتميا ، ويقفان به حيث انتهيا ؛ ثم هو بجملته ينقلب  
لأولاهي اختلال يقع فيهما .

لا جرم كانت العصور مرسومة معينة النمط ذاهبة إلى السكال أو منحدره  
إلى النقص ، حسب الغايات المحتومة التي يسير بها الفكر في طريق القدر  
الذي يقوده

فهذه علوم البلاغة التي أحدثت فناً طريفاً في الأدب العربي ، وأنشأت  
الذوق الأدبي نشأته الرابعة في تاريخ هذه اللغة ، بعد الذوق الجاهلي ، والمحدث ،  
والمولّد - هي بعينها التي أضعفت الأدب وأفسدت الذوق وأصارتَهُ إلى رأينا

في شعر المتأخرين، كأنما انقلبت عليهم علوماً من الجهل، حتى صار النمط العالي من الشعر كأنه لا قيمة له؛ إذ لا رغبة فيه، ولا حُفْل به؛ لمبايذته لما ألفوا وخلوه من النكتة والصناعة؛ وحتى كان في أهل الأدب ومدرّسيه من لا يعرف ديوان المتنبي!

ولا يصف لك معنى الشعر في رأى أدباء ذلك العهد كقول الشيخ ناصيف اليازجى المتوفى سنة ١٨٧١

مَلَلْتُ مِنَ الْقَرِيضِ وَقَلْتُ يَكْفِي لَأَمْرِ شَابٍ قَوَّتُهُ بَضْعُفِ  
أُحَاوَلُ نَكْتَةً فِي كُلِّ بَيْتٍ وَذَلِكَ قَدْ تَقَصَّرَ عَنْهُ كُفْيُ  
أَجَلُ الشَّعْرِ مَا فِي الْبَيْتِ مِنْهُ غَرَابَةُ نَكْتَةٍ أَوْ نَوْعِ اطْفِ  
يريد النكتة البلاغية وأنواع البديع، وذلك ما قصرت عنه كفه وكف غيره، لأنه شيء مفروغ منه، حتى لا يأتي المتأخر بمثال فيه إلا وجدته بعينه لمن تقدّموه على صور مختلفة ينظر بعضها إلى بعض، وما يأتي اختلافها إلا من ناحية الحِذْق في إخفاء السرقة بالزيادة والنقص، والإلمام والملاحظة، والتعريض والتصريح، وغيرها مما يعرفه أئمة الصناعة، ولا يتسبب إليه بأقوى أسبابه إلا مَنْ رُزِقَ الْقُوَّةَ عَلَى التَّوْلِيدِ وَالِاخْتِرَاعِ

إذا عرفت ذلك السر في سقوط الشعر واضطرابه وسفسفته، لم تر غريباً ماهو غريب في نفسه، من أن بدء النهضة الشعرية الحديثة لم يكن العلم الذي يصحح الرأى، ولا الاطلاع الذي يؤتى الفكر، ولا الحضارة التي تهذب الشعور، ولا نظام الحكم الذي يحدث الاخلاق؛ وإنما كان ضرباً من الجهل وقف حدّاً منيعاً بين زمن فنون البلاغة وبين زماننا؛ وكان كالمساحل لذلك الموج المتدفع الذي يتضرب على مدّ ثمانمائة سنة من القرن السادس إلى الرابع عشر للهجرة؛ والله أسرار عجيبة في تقلب الأمور وخلق الاحداث

ودفع الحياة الفكرية من نمط إلى نمط ، وإخراج العقل المبتدع من هيئة إلى هيئة ، وجعل بعض النفوس كالينابيع للتيار الإنساني في عصر واحد أو عصور متعاقبة ، وإقامة بعض الأشخاص حدوداً على الأزمنة والتواريخ ؛ فكان الذى أحدث الانقلاب الرابع فى تاريخ الشعر العربى ، وأنشأ الذوق نشأته الخامسة ، هو الشاعر الفحل محمود باشا البارودى ، الذى لم يكن يعرف شيئاً ألبتة من علوم العربية أو فنون البلاغة ؛ وإنما سمى به المهمة لأنه حادثة مرسله للقلب والتغيير ، فأبعده الله من تلك العلوم ، وأخرجه لنا من دواوين العرب ، كما نشأ مثل ابن المقفع والجاحظ من فصحاء الأعراب ؛ ويسر له من أسباب ذلك ما لم يتفق لأحد غيره مما لا محل لبسطه هنا ، ولا تكاد تجد شعر أديب متأخر يستقيم له أن يذكر فى شعر كل عصر من لدن زمننا إلى صدر الإسلام ثم لا تنحط مرتبته - غير كلام البارودى هذا ؛ وهو وحده الذى يقابل القاضى الفاضل فى أدوار التاريخ الأدبى ، على بعد ما بينهما ؛ لأن شعره هو الذى نسخ آية الصناعة ، ودار فى ألسنة الرواة ، وكان المثل المحتذى فى القوة والجزالة ودقة التصوير وتصحيح اللغة ؛ ولم يشأ الله أن يسبقه إلى ذلك أحد ؛ لأن النهضة الاجتماعية فى هذا الشرق العربى كانت فى علم الله مرهونة بأوقاتها وأسبابها ؛ ولولا ذلك لسبقه شاعر القرن الحادى عشر الأمير منجك المتوفى سنة ١٠٨٠ هـ ( ١٦٦٩ م ) ؛ فقد اتفقت لهذا الأمير نشأة كنشأة البارودى ، فكان كثير الحفظ من دواوين العصور الأولى ، وكان يقلد أبا فراس الحمدانى ويحتذى على مثاله ؛ ولكن عصره كان فى العصور الهالكة ، فخرج الشاعر ضعيفاً كما يخرج كل شىء فى غير وقته ولغير تمامه وبغير وسائله الطبيعية ونشأت العصابة البارودية وفيها إسماعيل صبرى وشوقى وحافظ ومطران وغيرهم ، وأدركوا ما لم يدركه البارودى وجاءوا بما لم يحى به ، واتصل

الشعر بعضه يبيض ، وسارت به الصحف ، وتناقلته الافواه ، وأنسى ذكر البلاغة وفنونها بالنشأة المدرسية الحديثة التي جعلت من ترك البلاغة بلاغة ؛ لأنها صادفت أوائل الانقلاب ليس غير ؛ وبذلك بطل في مصر عصر أبي النصر والليث والساعاتي والنديم وطبقتهم ، وفي الشام عصر اليازجي والكسبي والأنسي والأحذب وأضرابهم ، وفي العراق عهد الفاروقى والموصلى والبزّاز والتميمي وسواهم ؛ واستقلّ الشعر عربياً عصرياً وخرج كما يخرج الفكر المخترع ماضياً في سبيل غير محدودة



لا ريب في أن الطرق التي تتبع في تربية الأمة وتكوين روحها العالمية لا بد أن يكون لها أثر بين في شعر شعرائها ؛ فإنما الشعر فكر ينبض وعاطفة تختلج ، وما أرى الشاعر الحق من أمته إلا كالزهرة الصغيرة من شجرتها ؛ إن لم تكن خلاصة ما فيها من القوة فهي خلاصة ما في الشجرة من معنى الجمال ولونه وملبسه ، ولا تعدم مع هذه الصفة أن تكون وحدها الكوكب الساطع في هذا الأفق الأخضر كله . ولقد أطردت النهضة منذ خمسين سنة أوجولها ، في الأدب والعلم ؛ وفي الفكر والفن والصناعة ؛ واستوى لنا من ذلك ما لم يتفق لهذه الأمة في عصر من عصورها ، حتى بلغنا من ذلك أن صرنا كأنما فتحنا أرضاً من أوروبا وتغلبنا عليها ، أو أنشأنا أوروبا عربية وما نزال نعمارها وننقل إليها العلوم والفنون والآداب ، ونستخرج لها الأمثلة والأساليب ؛ غير أن الشعر العربي مع هذا كله لم يوفّ قسطه ولم يبلغ مبلغه في مجارة هذه النهضة قوة ابتكار وسلامة اختراع وحسن تنوع ، لسببين : الأول أنه لا يزال كما كان منذ فسدت اللغة العربية : شعر فئة لا شعر أمة ، فهو يوضع للخاصة للشعب ، ويدور مع الأغراض والحاجات لأمع الطبائع

والأذواق ؛ وذلك لو تأملتَ هو من بعض الأسرار في سمو هذا الشعر وقوة  
إحكامه وإبداع تديسيقه وجمال ترشيحه ، منذ الدولة العباسية إلى القرن الخامس ؛  
ثم انحطاطه بعد ذلك وتدلّيه شيئاً فشيئاً حتى بلغ الدرك الأسفل في العصور  
المتأخرة ؛ إذ كانت الفئة التي يوضع لها ويصف أهواءها وأغراضها وتتقبله  
وتثيب عليه وتحسن وزنه ونقده ، هي في الناحيتين كما ترى من طرفي المنظار  
الذي يقرب البعيد ، فهي بالنظر في أوله واضحة جليلة مترامية إلى الجهات ،  
وبالنظر في آخره ضئيلة ممسوخة لا تكاد تُعرف . وما أقضى العجب من  
غفلة بعض الكتاب في هذا الزمن إذ يناهضون العربية ويُزرون على الفصاحة  
ويعملون على انكاش سوادها وتقليل أهلها ، وما يدرون أنهم بذلك يسقطون  
الشعر قبل الكتابة على خطأ أو عمد وقلما تجد واحداً من هؤلاء يحسن معالجة  
الشعر ، فإن أصبت له شعراً وجدته لا غناء فيه أو في أكثره ، وأين وضعت  
يدك منه لم تخطئ أن تقع على مثل مما يمثل به لعيب من عيوب البلاغة

وهذه النهضة التي نحن في صدد الكلام عنها أوسع مدى وأوفر أسباباً من  
تلك التي كانت في الدولة العباسية ، بما دخلها من أدب كل أمة ، وما اتصل بها  
من أساليب الفكر ؛ ولكن أين رجال الفصاحة المتمكنون منها ، المتعصبون  
لها العاملون على بثها في الألسنة ، مع أن عصرهم أوسع من عصر الرواة ،  
بكثرة ما أخرجت المطابع من أمهات الكتب والدواوين ، حتى أغنت كل مطبعة  
أدبية عن راية من أئمة الرواة

والسبب الثاني الذي من أجله لا يزال الشعر متخلفاً عن منزلته الواجبة  
له - سقوط فن النقد الأدبي في هذه النهضة ؛ فإن من أقوى الأسباب التي سمت  
بالشعر فيما بعد القرن الثاني وجعلت أهله يبالغون في تجويده وتهذيبه ، كثرة  
النقاد والحفاظ وتبّعهم على الشعراء واعتبار أقوالهم وتدوين الكتب في

نقدم، كالذى كان فى دروس العلماء وحلقات الرواية ومجالس الأدب، وكالذى صنفه مهلهل بن يموت فى نقد أبى نواس وأحمد بن طاهر، وابن عمار فى أبى تمام، وبشر بن تميم فى البحتري، والآمدى فى الموازنة، والحاتمى فى رساليته، والجرجاني فى الوساطة، وما لا يحصى من مثل هذه الكتب والرسائل، وأنت من النقد فى هذه النهضة بين اثنين : صديق هو الصديق أو عدو هو العدو... فإن ابتغيت لهما ثالثاً فكاتب لا تتعادل وسائل النقد فيه فلا خير فى كلامه ؛ أما الناقد الذى استعرض علم العربية وآدابها، وكان شاعراً كاتباً قوى العارضة دقيق الحس ثاقب الذهن مستوى الرأى بصيراً بمذاهب الأدب متمكناً من فلسفة النقد مبرزاً فى ذلك كله — فهذا الخيال يذكرنى كلمة قلتها يوماً للبارودى إذ قالت له : إن الشاعر لا يكون لسان زمنه حتى يوجد معه الناقد الذى هو عقل زمنه : فقال : ومن ناقد الشعر فى رأيك ؟ قلت : الكاتب وهو شاعر، والأديب وهو فيلسوف، والمصلح وهو موفق ؛ فكأنما هوات عليه حتى قال رحمه الله : « فىن دا كله ؟ » قلت : فلعله لا ينشئ لنا هذا العقل الملتب إلا العصر الذى يوجد لنا أسطولا كأسطول انجلترا



وعلى ما نزل بالشعر العصرى من هذين السببين فقد استقلت طريقته وظهر فيه أثر التحول العلمى والانقلاب الفكرى، وعدل به أهله إلى صور الحياة بعد أن كان فى أكثره صوراً من اللغة، وأضافوا به مادة حسنة إلى مجموعة الأفكار العربية، ونوعوا منه أنواعاً بعد أن كان كالشئ الواحد، واتسعت فيه دائرة الخيال بما نقلوا إليه من المعانى المترجمة من لغات مختلفة، وهو من هذه الناحية أوسع من شعر كل عصر فى تاريخ هذه اللغة ؛ إذ كان الأولون إنما يأخذون من اليونانية والفارسية، ثم أخذ المتأخرون قليلاً من

التركية ؛ أما في العهد الأخير فيكاد العقل الإنسانى كله يكون مادة الشاعر العربى، لولا ضعف أكثر المُحدَثين من النشر الجديد فى البيان وأساليبه وُبُعدهم من ذوق اللغة واعتياص مرامها عليهم، حتى حسبوا أن الشعر معنى وفكر، وأن كل كلام أدّى المعنى فهو كلام، ولا عليهم من اللغة وصناعتها، والبيان وحقيقته ؛ وحتى صرنا والله من بعض الغثاثة والركاكة والاختلال فى شَرِّ من تَوَعَّر نظم الجاهلية وجفاء ألفاظه وكزازة معانيه ؛ وهل ثمَّ فرق بين أن تنفر النفس من الشعر لأنه وعر الألفاظ عِسرَ الاستخراج شديد التعسف، وبين أن تمجّه لأنه سافط اللفظ متسوّل المعنى مضطرب السياق ؟ ثم تراهم يُجرون الشعر كله على اختلاف أغراضه نمطاً واحداً من تسهيل اللفظ ونزوله، حتى كأن هذه اللغة لا تنوع فى ألفاظها وأجراس ألفاظها، مع أن هذا التنوع من أحسن محاسنها وأخص خصائصها دون غيرها من اللغات، كما أن كل تنوع هو من أبدع أسباب الجمال والقوة فى كل فن ؛ ولا يدرى أصحابنا أن كل ذلك من عملهم عبث فى عبث إذا هم لم يعطوا الشعر حَقَّهُ من صناعة اللغة ؛ وهذا شاعر الفرس الشهير مصلح الدين السعدى الشيرازى إمام من أئمة البلاغة فى قومه لا يدفع مكانه وشعره مثل من أسى الأمثلة فى جمال المنطق الروحى، وليس فى الناس إلا من يسلم له هذا المحل من النبوغ، وهو مع ذلك حين نظم الشعر لم تنفعه نافعة من حكمة أو خيال أو فكر، وذهب فى التعسف كل مذهب، وحمل على كلامه من العيوب ما لم يسلم معه إلا صحة الوزن، كقوله فى وصف نكبة بغداد وتخريبها

فقد ثكلت أم القرى والكعبة      مدامع فى الميزاب تسكب فى الحجر  
على جُدر المسـتـصرية ندبة      على العلماء الراسحين ذوى الحجر  
نواب دهر ليتنى مت قبلها      ولم أر عدوان السفية على الحجر



محابر تبكى بعدهم بسوادها وبعض قلوب الناس تألف بالغدر  
لحى الله من تُسدى إليه بنعمة وعند هجوم اليأس أحلك من حبر  
فانظر أى شعر هذا فى الركائكة والهذيان والسخف، وفى خمود الفكر  
وضعف الروح وذهاب الرونق، وتأمل كيف هوى به السعدى من مكانته  
التي بوّاه إياها أدبُه العالى، وكيف سقط إلى حيث ترى، مع أنه فى محراب  
الفكر إمام وراءه صفوف من عصور البلاغة

ومن ههنا نشأ فى أيامنا ما يسمونه « الشعر المنشور »، وهى تسمية تدل على  
جهل واضعها ومن يرضاها لنفسه؛ فليس يضيق النثر بالمعاني الشعرية، ولا هو  
قد خلا منها فى تاريخ الأدب؛ ولكن سر هذه التسمية أن الشعر العربى  
صناعة موسيقية دقيقة يظهر فيها الاختلال لأوهى علة ولايسر سبب،  
ولا يوفق إلى سبك المعانى فيها إلا من أمده الله بأصح طبع وأسلم ذوق  
وأفصح بيان؛ فمن أجل ذلك لا يحتمل شيئاً من سخف اللفظ أو فساد العبارة  
أو ضعف التأليف، ولا تستوى فيه أسمى المعانى مع شئ من هذه العلل وأشباهها،  
وتراه يلقي بمثل (السعدى) من الفلك الأعلى إلى الحضيض، لا يقيم له وزناً  
ولا يرعى له محلاً ولا يقبل فيه عذراً ولا رخصة؛ غير أن النثر يحتمل كل  
أسلوب، وما من صورة فيه إلا ودونها صورة إلى أن تنتهى إلى العامى الساقط  
والسوقى البارد؛ ومن شأنه أن ينبسط وينقبض على ما شئت منه، وما يتفق  
فيه من الحسن الشعرى فإنما هو كالذى يتفق فى صوت المطرب حين يتكلم  
لا حين يغنى؛ فمن قال « الشعر المنشور » فاعلم أن معناه عجز الكاتب عن  
الشعر من ناحية وأدعاؤد من ناحية أخرى

\*\*\*

والذى أراه جديداً فى الشعر العربى مما أبدعته هذه النهضة أشياء :

أولاً : هذا النوع القصصى الذى توضع فيه القصائد الطوال ، فإن الآداب العربية خالية منه ؛ وكان العرب ومن بعدهم إذا ذكروا القصة ألغوا بها اقتضاباً وجاءوا بها فى جملة السياق على أنها مثل مضروب أو حكمة مرسلة أو برهان قائم أو احتجاج أو تعليل وما جرى هذا المجرى مما لا ترد فيه القصة لذاتها ولا لتفصيل حوادثها ، وهو كثير فى شعر الجاهلين والإسلاميين ، والجيد منه قليل حتى فى شعر الفحول ؛ فإن طبيعة الشعر العربى تأباه ؛ والذين جاءوا به من العصرين لا يجيدون منه إلا قطعاً تعرض فى القصيدة وأبياتاً تتفق فى بعض معانيها وأغراضها مما يجرى على أصله فى سائر الشعر طال أو قصر ؛ والسبب فى ذلك أن القصة إنما يتم تمامها بالتبسط فى سردها وسياقة حوادثها وتسمية أشخاصها وذكر أوصافهم وحكاية أفعالهم وما يداخل ذلك أو يتصل به ، وإنمابنى الشعر العربى فى أوزانه وقوافيه على التأثير لا على السرد ، وعلى الشعور لا على الحكاية ؛ ولا يريدون منه حديث اللسان ولكن حديث النفس ؛ فهو فى الحقيقة عندهم صناعة روحية يصنعون بها مقادير من الطرب والاهتزاز والفرح والحزن والغضب والحمية والفخر والاستطالة ونحوها من المعانى التى هى بسبب من أسباب الانفعال والنزعة ؛ فلا جرم كان سبيلهم إلى ذلك هو التحديد لا الإطلاق ، وضبط المقادير لا الإسراف منها ؛ إذ كان من شأن هذه الأمور فى طبيعة النفس أن ما زاد منها عن مقداره تحوّل وانقلب فى تأثيره ، وذلك هو السبب أيضاً فى أن هذا الشعر مالم يكن قائماً على اختيار اللفظ وصنعة العبارة وتصفياتها وتهذيبها واختيار الوزن للمعنى وإدارة الفكر على ما يلفت النفس من ضروب المجاز والاستعارة ونحوها - سقط وركّ بمقدار ما ينقصه من ذلك ؛ وليس الشأن فى إطالة القصيد ؛ فمن الشعراء من نظم رويّاً واحداً فى أربعة آلاف

بيت، ومنهم من نظم تفسير القرآن كله؛ ولكن عيب مثل هذا الشعر في العربية أنه شعر ... وما أخجل ابن الرومي على جلاله محله إلا طول قصائده وسياسة الكلام فيها مع ذلك على ما يشبه أسلوب الحكاية وخروجها مخرج المقالة يتحدث بها، فلم تحي له إلا مقطعات وأبيات ومات سائر شعره وهو حي وميت على السواء، حتى قال فيه صاحب الوساطة : « ونحن نستقرئ القصيدة من شعره وهي تناهز المائة أو تربي أو تضعف، فلا نعثر فيها إلا بالبيت الذي يروق أو البيتين، ثم قد تلسخ قصائد منه وهي واقفة تحت ظلها جارية تحت رسلها لا يحصل منها السامع إلا على عدد القوافي ... »

والعجيب أن بعض الكتاب في عصرنا ممن لا تحقيق لهم في مثل هذه المسائل، يعدّون أحسن محاسن ابن الرومي ما هو أفصح عيوبه، وقاتل الله صناعة الكتابة، فيكأنها لملء الفراغ هي كذلك لإفراغ الملائن ... (١)

ثانياً : صياغة بعض الشعر على أصل من أصول التفكير في الإنجليزية أو الفرنسية أو غيرها من لغات الأمم، فيخرج الشعر عربياً وأسلوبه في تأدية المعنى أجنبي؛ وأكثر ما يأتي هذا النوع من أمريكا، وأنا أعجب بكثير منه لما فيه من الغرابة والحسن .

وما زالت أجناس الأمم يضيق بعضها بأشياء ويتسع بعضها بأشياء فلسنا مقيدون بالفكر العربي ولا بطريقته، وعلينا أن نضيف إلى محاسن لغتنا محاسن اللغات الأخرى؛ ولكن من غير أن نفسدها أو نحيف عليها أو نبيعها ببيع الوكس؛ ومتى كان هذا النوع من الشعر رصيناً محكماً جيد السبك رشيق المعروض، كان في النهاية من الرقة والإبداع؛ ولم يأت التجديد في هذه اللغة إلا من هذه الناحية، كالذي تراه فيما أخذ عبد الحميد وابن المقفع من نمط الأداء في اللغة الفارسية

ثالثاً : الانصراف عن إفساد الشعر بصناعة المديح والرثاء ، وذلك بتأثير الحرية الشخصية في هذا العصر ؛ والمدح إذا لم يكن باباً من التاريخ الصحيح لم يدل على سمو نفس الممدوح ، بل على سقوط نفس المادح ؛ وتراه مدحاً حين يتلى على سامعيه ، ولكنه ذم حين يُعزى إلى قائله ! وما ابتليت لغة من لغات الدنيا بالمديح والرثاء والهجاء ما ابتليت هذه العربية ؛ ولذلك أسباب لا محل لتفصيلها .

رابعاً : الإكثار من الوصف والإبداع في بعض مناحيه والتفنن في بعض أغراضه الحديثة ؛ وذلك من أسمى ضروب الشعر ، لا تتفق الإجادة فيه والإكثار منه إلا إذا كان الشعر حياً ، وكانت نزعة العصر إليه قوية ، وكان النظر فيه صحيحاً ؛ ولما وصف الشيخ أحمد الكردي ( من شعراء القرن الثاني عشر ) السفينة واستهل بهذا الوصف مدح الوزير راغب باشا ، عدوا ذلك حادثة من حوادث الأدب في عصره ، فتأمل !

خامساً : إهمال الصناعات البديعية التي كان يُبنى عليها الشعر ، فيُنظم البيت ليكون جناساً أو طباقاً أو استخداماً أو تورية الخ ، أو ضرباً آخر من صناعة العدد والحساب ، كالتاريخ الشعري بأنواعه ؛ أو صناعة الحرف ، كالمفلوب والمهمل وغيرهما ؛ أو صناعة الفكر ، كاللغز والمعنى ؛ أو صناعة الوضع كالتشجير والتطريز ، إلى ما يلبث حق بهذا الباب الذي ذهب أهله فلا يتيسر لأحد من بعدهم أن يجاريهم فيه ، وكانت لهم في كل ذلك عجائب استقصيناها بالتدوين في موضعها من ( تاريخ آداب العرب )<sup>(١)</sup> ؛ بيد أن إهمال صناعة البديع شيء وإهمال فن البديع نفسه شيء آخر ؛ ومن هنا جاء ما نراه في بعض الشعر الحديث « والشعر المنتور » من الإغراق السخيف الذي لا يقوم على أصل ، من التعدي في ضروب

(١) انظر الجزء الثالث من ( تاريخ آداب العرب ) للرافعي

الاستعارة، والبعد في المجاز، والإحالة في الوضع، ونحوها مما يرجع إلى الجهل بطبيعة البلاغة، وبما لا نعدّه إلا ضرباً من الفساد يلتحق بما كان في العصور الماضية وإن كان على الضد منه

سادساً : النظم في الشئون الوطنية والحوادث الاجتماعية، مما يجعل الشعر محيطاً بروح العصر وفكره وخياله، وهو باب لا ينهض به إلا أفراد قلائل، ولا يزال ضعيفاً لم يستحكم؛ وقد قالوا إن للقاضي الفاضل اثني عشر ألف بيت في مدح الوطن والحنين إليه، ولكن لا أحسب أن فيها مائة من نحو ما يُنظم في هذا العصر مما أدى بالشعر إلى أن يدخل في باب السياسة ويعدّ من وسائلها، وفي طرق التربية ويعد من أسبابها

سابعاً : استخراج بعض أوزان جديدة من الفارسية والتركية، وهو قليل، جاء به شوقي في قصيدتين ولم يتابعه أحد، لإفراط ذلك الوزن في الخفة حتى رجع إلى الثقل ... ثم نظم بعض الشعر من أوزان مختلفة قريبة التناسق على قاعدة الموشح، ولكنه شعر لا توشيح، كما ينظم بعض شعراء أمريكا وسوريا؛ ولم يحدث مثل ذلك في العربية، فإن القصيدة كانت تنظم من بحر واحد، وقد يخرج منه وزن آخر؛ ولا نعرف في تاريخ الأدب قصيدة تتألف من وزنين إلا الذي قالوا أن حسين بن عبد الصمد المتوفى سنة ٩٨٤ هـ (١٥٧٦ م) قد اخترعه ونظم فيه أبياته التي مطلعها :

فاح عرف الصبا وصاح الديك وانثنى البان يشتكي التحريك

قم بنا نجتلي مشعشعة تاه من وصفه بها اللّسيك

وعارضها ولده الإمام الشهير بهاء الدين العاملي صاحب الكشكول بأبيات قالوا إنها سارت في عصره مسير المثل، ونسج عليها شعراء ذلك العصر، كالنابلسي وغيره، ومطلعها :

يانديى بمهجتى أفديك قم وهات الكترس من هاتيك

خمرة إن ضللت ساحتها فسنا نور كأسها يهديك

على أن هذا الوزن بشطريه مستخرج من الخفيف ، فليس باختراع كما  
زعموا ، وإنما هو ابتداع فى التأليف الشعرى ؛ وقد اجتزأنا بما مرت  
الإشارة إليه ، فإنه كل ما تغير به الرسم فى هذه الصناعة ؛ وتركنا الأمثلة تفاديا  
من الإطالة

\*\*\*

وبعد فلا ريب أن النفس البشرية فى حاجة أبداً مع دينها الروحى إلى  
دين إنسانى يقوم فيها على الشعور والرغبة والتأثير ، فيفسر لها حقائق الحياة ،  
ويكون وسيلة من وسائل تغييرها ؛ ليجعلها ألطف بما هى فى اللطف ، وأرق بما  
تكون فى الرقة ، وأبدع بما تتفق فى الإبداع ؛ ذلك الذى يصل بظهوره  
ولبهامه بين الواضح والغامض ، والخالد والفانى ؛ ذلك الذى لا يحتمل الجمال  
إلا به ، ولا تسكن النفس إلا إليه ؛ ذلك هو الشعر !

---

## صروف اللغوي<sup>(\*)</sup>

كان شيخنا هذا رجلاً حصيفاً جيد المنزعة حسن الرأي ، ممكناً له فيما كان يعترضه من مسائل اللغة ، قوياً على الأحوال التي تجري له من أوضاعها فيما يعانيه من النقل ويزاوله من الترجمة على اختلاف مناحيها وكثرة فنونها ، وعلى أنها لا تزال كل يوم تدبث من علم وتحتفل من رأي وتمتد مد السيل كأنها دنيا عقلية لا يبرح عقل الإنسان دائماً يخلق فيها ويبذلها من معاني الكون وأسراره ، فلا الكون ينفد لتمام ، ولا هي تتم قبل أن ينفد الكون

ثبت شيخنا على ذلك عمر دولة من الدول في خمسين سنة ونيف ، يضرب قلبه في السهل والصعب ، وفي الممكن والممتنع ؛ وإنه ليمر في كل ذلك مرّاً لا يثنى ، ويحذو حذوا لا يختلف ، كأن الصعب عنده نسق السهل ، والممتنع صوغ الممكن ؛ فلو قلت إنه بُني في أصل خلقه وتركيبه على أن يكون قوة من قوى التحويل لتحقيق المشابهة العقلية بين الشرق والغرب لما أبعدت ، ولو زعمت أن ذلك القلم الحى لم يكن إلا عرقاً في جسم الإنسانية لكان عسى ... وانتهى شيخنا في العهد الأخير إلى أن صار يُعَدّ وحده حجة اللغة العربية في دهر من دهورها العاتية ، لافى الأصول والأفيسة والشواذ وما يكون من جهة الحفظ والضبط والإتقان ، بل فيها هو أبعد من ذلك وأرد بالمتفعة على اللغة وتاريخها وقومها ، بل فيما لا تنهى إليه مَطْمَعَة أحد من علمائها وكتابها وأدبائها ؛ إذ وقع الإجماع على أنه انفرد في إقامة الدليل العملي

---

(\*) هو العلامة الدكتور يعقوب صروف صاحب «المقتطف» ، وقد نشر هذا

على سعة العربية وتصرفها وحسن انقيادها وكفايتها، وأنها توائى كل ذى فن على فنه، وتماذكلَّ عصر بمادته؛ وأنها من دقة التركيب ومطاوعته مع تمام الآلات والأدوات بحيث ينزل منها رجل واحد بجهدِه وعمله منزلة الجماعات الكثيرة فى اللغات الأخرى، كأنها آخر ما انتهت إليه الحضارة قبل أن تبدأ الحضارة

ولا يذهبنَّ عنك الفرق بين رجل حافظ والكتابُ أحفظ منه، وهو من الكتاب خرج وإلى الكتاب يرجع؛ وبين رجل يكون ترجماناً من ترجمة العقل الإنسانى المعنى بتأويل الكون وتفسيره، والطائر بالالفاظ الإنسانية على أجنحة العلوم والفنون والمخترعات والمعانى؛ فإن ذلك ينقل عن الواضع ثم لا يتعدى هذه المنزلة ولا يتجاوز مُثُون الالفاظ، وأما هذا فلا يزال يضطرب مع الالفاظ ومعانيها يجاذبها ويدافعها، ثم لا يزال يضع يده فى النسيج اللغوى يسدى ويلحم. فهو مدفوع إلى المسالك الدقيقة من مذاهب الوضع وطرقه، وأساليب الأخذ والانتزاع؛ وهو مقيدٌ أبداً بخاص المعنى وخاص اللفظ على التعيين والتحديد، لا يجد فسحة من ضيقين؛ فإن لم يكن مثل هذا فى منزلة الواضع فهو فى المنزلة بعده ولا ريب

إنما اللغوى الأكبر عندى هو هذا الكون، وما العالم باللغة وفنونها إلا وسيلة لتهديب الطريقة تهذيباً عقلياً، فيجب من ثمَّ أن يكون للغوى رأى وعلم وذكاء وبصر، ويجب أن يطابق النواميس، فلا يتعاضد ما بينه وبينها، لأنه وسيلة إنطاقتها ليس غير؛ ومن ذلك أرى الدكتور صرُوف فى الغاية، فقد كان ينزع فى مذهبه اللغوى منازع علمية دقيقة تُوزَن وتقاس وتختبر، فى حين لا تزيع ولا تنه ولا تختل، وتراها تنطاق وهى مقيدة، وتتقيد وهى مطلقة؛ إذ كان لا يعتدُّ اللغة عربية للعرب، بل عربية للحياة؛ وما تهدمه وتبنيه وما



تُحدثُهُ وتُلسخِهُ فهي على أصولها فيمن قبلنا، ولكن فروعها فينا نحن وفيمن يلينا وفيمن بعد هؤلاء، فلنا أن نتولاها على تلك الأصول وعلى ما يشبهها في الطريقة حين تلتقل الحال ويتغير الرسم، وإِعلَة إن وجبت، ولقياس إن جاز. والدكتور بهذا الاعتبار يشتد في التمسك بالقواعد والضوابط ولا يترخص في شيء منها غير أنه لا يكون كأقوام يرون الفروع من الجذوع قد خرجت، فيحسبون الثمرات سبيلها من الجذوع أيضاً... وإن لم تخرج منها فستجىء منها

عرض لي يوماً أحد هؤلاء اللغويين فانتقد في المقطم قصيدة من القصائد التي رفعها إلى جلالة الملك فؤاد، وتمحل في نقده ودلّ ببعض ما نقله من كتب اللغة، فكان فيما تكلم فيه لفظاً (الأزاهر والورود)، فقال إنهما ليسا من اللغة ولم يجرى في كتبها؛ وكان من ردّى عليه أن قلت له إن العرب جمعوا الجمل ستة جموع، وجمعوا الناقة سبعة لأنها أكرم عليهم منه، وأن لكل حياة صورها الدائرة في ألفاظها، فالزهر والورد عند المولدين والمحدثين أكرم من الجمل والناقة عند العرب، أو هذان كهذين؛ ثم هما من خاص الألفاظ المولدة، فلنا أن نجمعهما على كل صور الجمع التي يسوغها القياس، لأن ههنا العلة الموجبة التي لم تكن مع العرب فيهما؛ فمن الصحيح أن نقول: زهور، وأزهار، وأزاهر، وأزاهير الخ؛ فلما لقيت الدكتور بعد نشر هذا الرد هنأني به ثم قال فيما قال: يحسبون أن العرب هم الجمل والناقة وليس غير ما استجمل وما استنوق... أما هذا الدهر الطويل العريض فليس عندهم شيئاً، وهم يستطيعون أن ينكروا على المولدين ألف كلمة، ولكن هل في استطاعتهم أن ينكروا على التاريخ ألف سنة؟ فذكرت له الأصل الذي قرره أبو علي الفارسي في العربي الصحيح نفسه: من أنه ليس كل ما يجوز في

القياس يجب أن يخرج به سماع، فإذا أخذ إنسان على طريقة العرب وأمّ مذهبهم فلا يُسأل مادليله وما سماعه وما روايته، ولا يجب عليه من ذلك شيء، حتى قال أبو علي: لو شاء شاعر أو مدّسع أن يبنى بالحاق اللام (\*) اسماً وفعلًا وصفة لجاز له، وليكن ذلك من كلام العرب؛ وذلك نحو قولك: خَرَجَجْ أَكْثَرُ مِنْ دُخَالٍ، وَضَرْبَبَ زَيْدٌ عَمْرًا، وَمَرَرْتُ بِرَجُلٍ ضَرْبَبٍ، وَكُرْمَمٍ، ونحو ذلك. قال تليذه ابن جني: فقلت له: أترجل اللغة ارتجالاً؟ قال: ليس بارتجال لكنه مقيس على كلامهم فهو إذاً من كلامهم

وسألني مرة عن وجه الخلاف بين ما يسمونه القديم والجديد، فقلت له: إن الخلاف ليس على جديد ولا قديم، ولكن على ضعف وقوة؛ فإن قومًا يكتبون وينظمون ولكن لم تُقسَمِ الفصاحة والبلاغة على مقدار ما يطبقونه من ذلك، ولا يتسع الصحيح لأرائهم في اللغة والأدب، وقد أرادوا أن يسعوا كل ذلك من حيث ضافوا، ويطاولوه من حيث تقاَجَرُوا، وينالود من حيث عجزوا: فظنوا بالامر ما يظن إنسان يمشي على الأرض ويعرف أنها تدور، فيؤول ذلك بأنه هو يدير الأرض على محورها بحركة قدميه... نحن نقول: أسلوب ركيك، فيقولون: لا بل جديد، ونقول: لغة سقيمة، فيقولون: بل عصرية، ونقول: وجه من الخطأ، فيقولون: بل نوع من الصواب، وهلمَّ جرَّ أو سَجَبًا... ثم قلت له: أفتجد أنت الركاكزة واللحن والخطأ والغثاثة وإنَّ وأخواتها باباً جديداً أو أمراً مبتدعاً أو شيئاً يحتاج إلى اسم جديد غير اسمه العربي؟ قال: لا، وأنا معك في هذا، وطريقتي في المقتطف أن اللغة في قواعدها عربية، ولكن من قواعدها أن لكل مقام مقالا، فنحن نكتب كتابة صحيحة ونريد بها أن ترفع العامة ولا تنزل بالخاصة، فنخدم العربية من الجهتين

(\*) زيادة حرف من جنس لام الكلمة وإلحاقه بها.

ثم نشر بعد ذلك في عدد شهر مايو سنة ١٩٢٧ مقالا جعل عنوانه (أسلوبنا في الترجمة والتعريب) وابتدأه بهذه العبارة : « اللغة جسم حي نام ، وشأن من يحاول منعها من النمو شأن الصيغيين الذين يربطون أقدام بناتهم لكي لا تنمو وتبأخ حدها الطبيعي ، ولكن إذا كان النمو مشوّهاً فلا بد من تقييده وتهذيبه » : وكل مانقوله نحن هو التقييد والتهذيب واتقاء الشوهة أن تُلم باللغة وأساليبها فتترادف على محاسنها بمعانيها ، وتطمس مقائنها بمقاييسها : فإن هذه المعايير والمقاييس إذا هي استجمعت وانساغت في لغة من اللغات لبستها بأشكالها فلا تزال تنسّكر منها حتى لا تبقى لها وصفاً يعرف ، والحسن وحده هو الذي يُحد بالأوصاف والتعاريف ، وهو الذي يدقّق فيه ويبالغ في قياسه وتقديره ، فإن وقع فيه الفضول واختلطت الخدود وضعفت الملاءمة وجرى الوصف ناقصاً وزائداً فقد خرج إلى القبح ، وإن خرج إلى القبح لم يعد الناس يحدّون له حدّاً أو يعبّأون له بقاعدة ، ووجدوا فيه كل الأوصاف الجميلة مقلوبة منكّرة ، لأنه هو جمال مقلوب : ( فتقييد التشويه وتهذيبه ) كلمتان فيهما الكلام كله ، أو هما المصراعان لهذا الباب : ومن أجل ذلك كنا نعد الدكتور من حججتنا على أصحاب الجديد ، لأنه أوسعهم إحاطة وأكثرهم علماً وأمدّهم عملاً ، ثم لن يدانيه أحد منهم إلا إذا جمع لنفسه عمرين ، وهل في الجديد رجل ذو عمرين ... ؟

قلنا إن الشيخ كان في المنزلة التي تلي منزلة الواضع ، وقد دفعته العلوم إلى ذلك دفعا ، لأنه مقيد بخاص المعنى في كل ما يترجم أو يعرّب ، ثم بالخصائص العلمية الدقيقة التي لا تحتمل في أدائها ما تحتمل المعاني الأدبية ؛ وقد تصدر للكتابة والترجمة منذ شباب هذا العصر ، ومنذ بدأ الناس يقرأون العلوم الحادثة في الشرق ؛ فلا جرم لم يكن لغويا كأبي عمرو وأبي زيد والخليل والأصمعي وأبي حاتم

وأبى عبدة وأضرابهم ممن يحملون عن العرب ويؤدون ماحلوه ، ولا  
كان لغويا في طريقة سيبويه والكسائي والزجاج والاختفش واليزيدي  
وأشباههم ممن ينظرون في اللغة وعلمها وأقيستها وشواذها ؛ ولكنه لغوى  
فيما يعمر بين الشرق والغرب ، يحمل بلسان ويؤدى بلسانٍ غيره ويوافق  
بين المعاني الجديدة والألفاظ القديمة ، ويشابك بين خيوط التاريخ في هذه  
وهذه ، وبأخذ اللغة للاستعمال وللحفظ وللتعليم وللتدوين وللمنفعة لاللبهاة  
وللفائدة لالتبيل ؛ ويترجم وإن في خياله العالم الواسع الذي ينقل عنه  
بعلمائه وأدبائه وكتبه ومجلاته ومصطلحاته ، ويكتب وإن له تلك الملكة  
الدقيقة التي كونتها العلوم الرياضية والطبيعية والفلسفية وغيرها ؛ فلم يكن بد  
من أن يبتدع ، وأن تكون له طريقة يوافق فيها ويخالف ، وقد بسط هو  
القواعد التي أخذ بها وجرى عليها ، فكتب فيها مقالا في مقتطف شهر يوليو  
لسنة ١٩٠٦ ، وأعاد نشره في عدد شهر ماي لسنة ١٩٢٧ ، وهو يوافق فيه أكثر  
العلماء ، وخاصة الإمام الجاحظ ؛ مع أن قاعدة الجاحظ لم تكن يومئذ معروفة ،  
ولكن كلا الشيخين حصيف الرأي تأم الإدارة في عمله ، قوى الحسبة والتدبير  
فيما يأخذ وما يدع ؛ وخلاصة رأى الدكتور أنه ينظر في الكلمة الأعجمية ، فإن  
أصاب لها مرادفا في العربية يحددها وينبئ بها فذاك ، وإلا أمرها في كتابته  
وهو مقيد بقاعدة القارئ وما هو أخف على قارئه في المثونة وأبين له في  
الدلالة ، فإن كانت اللفظة الأعجمية أوفى وأشبع في الاستعمال عدل إليها ، قال :  
وغنى عن البيان أننا التزمنا أن نجارى العلماء في المصطلحات العلمية التي تفقد  
دالاتها بتعريبها : كالحامض الكبير يتوس والكبريتيك الخ ، فإن لكل من هذه  
الملحقات والزوائد التي فيها معنى خاصا يدل على تركيب الحامض المراد كما يعلم  
دارسو الكيمياء ؛ قال : فمن يسمى الحامض الكبير يتيك بالحامض الكبير يتى كمن

يسمى الفرس حماراً لأن لكل منهما رأساً وذنباً...

والجاحظ يقول في مثل ذلك : إن رأيي في هذا الضرب من هذا اللفظ أن أكون مادمت في المعاني التي هي عبارتها والمادة فيها على أن اللفظ بالشئ العتيد الموجود ( يعنى اللفظ العلمى الاصطلاحى ) وأدع التكلف لما عسى ألا يسلس ولا يسهل إلا بعد الرياضة الطويلة ... ولكل صناعة ألفاظ قد جعلت لأهلها بعد امتحان سواها ، فلم تلزق بصناعتهم إلا بعد أن كانت بينها وبين معانى تلك الصناعة مشاكلات

فأنت ترى الجاحظ لا يمتنع من الألفاظ الأعجمية والعامية كما هي مادامت المعانى قائمة ، وقاعدته هي الأخف والأدل والأفهم والأشيع ، وهذا بعينه يقول الدكتور فيه : « يشترط في حسن التعبير أن يؤدي المعنى المراد إلى ذهن السامع بأقل ما يكون من الوقت والكلفة والإسراف في القوة العصبية » وقد كلنى بعضهم في خطأ الدكتور من ناحية الألفاظ الأعجمية وإقحامها في كتابته ، وأنه يجنح إلى ذلك بأوهى سبب ؛ ولا أراه خطأ ، بل أنا أرد ذلك إلى ما بينته آنفاً من أمر الناقل والواضع ولا يعجزنا أن نجد لصنيع الدكتور نصاً يقوم به وينهض بحجته ؛ فقد قال أبو علي الفارسي : إن العرب إذا اشتقت من الأعجمي خلطت فيه ، فإذا كان هذا في الاشتقاق وهو لا يكون إلا من أصل ، فكيف بالتعريب ؟ على أنه لا خلط ولا اضطراب ، إنما هو سبيل الوضع وحكمة الدلالة وأن اللغة هكذا تجيء ، ثم يأتي بعد ذلك النحوى يقول لماذا ولأن ...

وقد أعجبنى حسن تقسيم الدكتور لقواعده التي بسطها في مقاله المستفيض ، حتى إنى لأراه باباً جديداً في التقسيم المعروف عند علماء البلاغة واللغة لا يتذال الألفاظ وغرابتها ، إذ لم يبق عندنا غريب ومبتذل ولا بيننا عرب ومحدثون

بيد أن من تلك القواعد أن الأستاذ يترخص في الألفاظ العامة وهو يجد فصيحها، ويقول في ذلك : « إذا سمعت الفلاح المصرى كلمة بذار مرة في الأسبوع أو في الشهر ، سمع كلمة ( تقاوى ) مائة مرة وألف مرة ، فرأينا أن محاولة تغيير لغة العامة في هذه الكلمات و أمثالها ضرب من العبث وإضاعة للوقت وتضييع للفائدة ، بخاريناهم فيما نكتبه لهم » وهذا ما كنت أجادله فيه ولا أسلم له بشيء منه ، لأنه أغفل أصلا اجتماعياً عظيماً ، فإن عامتنا غير منقطعة من العربية الفصحى ، ولا يزال فيهم ميراثها من القرآن والحديث وكلام العلماء في أمور دينهم ، وهذه هي وسائل مزجهم بالفصحى وردّهم إليه ، ولا تزال هذه الوسائل تفعل ما تفعله النواميس المحتومة ولولاها لما بقى للفصحى بقية بعد .

وقد كان جاء إلى مصر من بضع سنين رجلٌ من أمريكا هو من تلاميذ الدكتور القدماء ، فنزح إلى ذلك البر فأتجر فأثرى وفشت له نعمة عظيمة ؛ ولما لقيته لقيت في يده صحيفة وضع فيها مسائل في اللغة والنحو ، وكان أعدها ليسأل عنها ؛ وفي أولها هذا السؤال : لماذا يقال فُصح الرجل فصاحة فهو فصيح ، ثم يقول : شعرٌ شاعرٌ فهو شاعر ؟ ألم يكن القياس أن يقال شعرٌ شعارةٌ فهو شعيرٌ ، والفصاحة والشعر من باب واحد ؟

وهذا السؤال وإن كان في ظاهر الرأى لغواً وعبثاً ولكنه دقيق في تاريخ اللغة وأقيستها ، ولا محل لبسط الكلام عليه في هذا الموضع ، غير أنى أنهيت الخبر للدكتور صرّوف وقلت له : إن صاحبك هذا يضع قواعد اللغة في الميزان الذى في حانوته ... وأنت كذلك تعالج بعض الألفاظ أحياناً ببعض الغازات والحوامض .

قلت هذا لأنى لم أسلم له قط فيما كان يراه في مثل البذار والتقاوى ، على

أنه قيد الكلام بقوله ( فيما كتبه لهم ) ، وهذا احتباس يدافع عنه بقوة كما ترى . ولا يمتري أحد في أن هذه النهضة اللغوية التي أدركناها وعملنا فيها لم تكن سوى نمو طبيعي لعمل رجال أفذاذ نضال الدكتور صروف في طليعتهم ، لأنه كان أطولهم جهاداً وأكثرهم عملاً وأظهرهم أثراً ؛ وكان المقتطف يجيء لها كل شهر كأنه قطعة زمنية مسلطة بناموس كناموس النشوء ، حتى لآلم هذا المقتطف أن يكون عصرًا من العصور قد خرج في شكل الكتابة ؛ ولقد كاشفني الدكتور في آخر أيامه أنه كان يود لو ختم عمله بوضع معجم في اللغة يصلح أن يقال فيه إنه معجم الشعب ، وفصل لي طريقته ، إذ كنت أكله في كتاب لغوي افتتحت العمل فيه من زمن ولا يعرف أحد من أمره خبراً<sup>(١)</sup> فقال لي : خذ بين طريقي وطريقتك ، وامض أنت في هذا العمل ؛ فإنني لو وجدت فراغاً لما عدلت بهذا الأثر شيئاً ، وما كل سهل هو سهل

على أن شيخنا هذا لو قد كان تفرغ للغة وتوفر عليها واجتمع لها بذلك العمر وتلك العلوم والأدوات ، لكان فيها بأمة من الأسيان الماضين من لدن أبي عمرو بن العلاء إلى الدكتور يعقوب صروف ، ولكن لعل الدهر أضيق من أن يتسع أو هو أوسع من أن يضيق ... لإمام آخر كأبي علي الفارسي ، يفرغ سبعين سنة لفرع واحد من علوم اللغة هو علم القياس والاشتقاق والعلل الصرفية ويجعله همه وسدومه على ما قال تلميذه ابن جني : ولا يعتاقه عنه ولد ، ولا يعارضه فيه متجر ، ولا يسوم به مطلباً ، ولا يخدم به رئيساً ؛ فكانه إنما كان مخلوقاً له .

وكانت للدكتور طريقة جريئة في رد الألفاظ العربية إلى أصولها والرجوع

---

(١) أحسبه يعني المعجم الذي كان يعاون فيه صديقه المرحوم أحمد زكي باشا ، وانظر

بها إلى أسباب أخذها واشتقاقها وتصاريدها من لغة إلى لغة ، وأعانها على ذلك ثقب فكره وسعة علمه ودقة تمييزه وميله الغالب عليه في تحقيق ناموس الشؤ وتبين آثاره في هذه المخلوقات المعنوية المسماة بالألفاظ ؛ وكان معجبا بكل ما جاء من هذا الباب ولو كان من خطي ؛ لأنه إلى الرأي يقصد وللطريقة يمكن ومع الخاطر يحرى

وهذا باب يحتاج إلى التسامح والتساهل ؛ إذ لا يمكن تحقيقه ، ولا تتفق الحيطه فيه ، وليس إلا أن يتلوَّح شيء منه ويسمح شيء وتلاخ علة ويعرض سبب ؛ ثم هو في الدكتور من بعض الدلالة على استحكام ملكة الوضع فيه ، ونزوعه إلى أن يقتاس بقياسه ويستخرج من علمه ؛ وقد تراه يبعد في ذلك فينصب لك الدليل من وراء بضعة آلاف سنة ، وأنا الساعة أعانُ ذاكرتي وأديرها من ههنا وههنا لأجد كلمة قال لى مرة في تاريخها إن العرب أخذوها عن اليونان حين كانت مكة نفسها جارية في حكمهم ، واسكنى أنسيت هذه الكلمة ، إذ لم أرتبطها ، وإذ كنت لا أرى هذا المذهب ولا أحسن أن أقول فيه قولا ، وأعدُ كل ما يقال فيه من باب تلفيق الأدلة ، كأنه ذئب ذلك الأعرا بى الذى يريد أن يجعل فى الناس منه مثل غرائز الغنم ... فىقول « إلاً تره تظنه » ،

والدكتور صروف رجل مالى فى المال وفى اللغة جميعاً ، فمذهبه القصد فى الدلالة والقصد فى الوقت والقصد فى القوة ؛ وقد صرفته ثلاثتها عن الشعور عما كان فى حكمه من تحبير النثر وتوشيته ، على أنه يحسنهما لو أراد ولو سحت نفسه بالوقت ينفقه ولا يتعرف قدر ماضى منه فى هذه الساعات ، بل فى ساعة الـكون الـكبرى التى يتعاقب فيها عقربا النهار والليل ، كما كان ينفق البارودى يوماً فى بيت أو بيتين

وكان شيخنا فى آخر مجالسى معه قبل وفاته بشهر أو نحوه ، أطلعنى على



كل ما نشره في مجلدات المقتطف من شعره ، فأعجبت بأشياء منه ، وأشرت على صديقنا الأستاذ فؤاد صروف أن يعيد نشر قصيدة الرفّاش التي ترجمها الدكتور عن الإنجليزية في نسق سلس موشح القوافي ، والتي يقول فيها صاحبها يصف مخازي المدنية :

مخازٍ توالّت فصالت وصارت    على اللحم دوداً وفي العظم سوساً  
وسألني الدكتور بعد أن فرغت من شعره : في أي طبقة تعدّني من شعرائهم ؟ ففكرت قليلاً ثم قلت له : في طبقة الدكتور صروف ! فضحك لها كثيراً

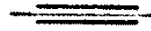
وكانت له آراء في الشعر العربي غير بعضها في آخر عهده ، ومما قاله لي مرة : إن الذي يريد أن يخلد ذكره في هذا الشرق فلا يُنسى ، لا ينبغي له أن يطمع في هذا إلا إذا بنى هرمًا كهرم الجيزة ، وهي كلمة فلسفية كبيرة تنطوي على شرح طويل يعرفه من يعرفه

وقد كادت قاعدة القصد التي أومأت إليها تفتي به في آخر مدته إلى القول بإسقاط الإعراب بته ، وأظن ذلك خاطراً سنح له فأخذ بأوله وترك أن ينظر في أعقابه ، فزرتة مرة في شهر يناير لسنة ١٩٢٧ ، وكان يصحح تسويدة جواب كتبه عن سؤال ورد عليه في هل يمكن الرجوع إلى اللغة الفصحى في القراءة والتكلم وما الفائدة من ذلك ؟ فلما أمرّ الجواب على نظره دفعه إلى فقراته ، فإذا هو يرى أن كل حركة من حركات الإعراب والبناء يتمور فيها وقت ما : قال : فإذا قضينا على أبناء العربية ألا يتكلموا إلا كلاماً معرباً نكون قد أضعنا عليهم ثلث الوقت الذي يقضونه في التكلم من غير فائدة تجني

ولقد جادلته في ذلك ولججت في الخلاف معه ، وقلت له إن هذه قاعدة

مالية ، ثم إنك أغفلت أمر العادة وما تيسره ، وفي الكلام إيجاز يقوم مع الإعراب هذا المقام حين لا يكون من الإيجاز بدُّ ، وفي اللهجات العامية من الحشو ومط الصوت وفساد التركيب ما يذهب بأكثر من ثلث الوقت ؛ فأحسبه اقتنع وإن كنت رأيت لم يقتنع

وإنه ليحضرني بعد هذا كلام كثير في فضائل الدكتور وآدابه وشمائل نفسه الزكية ومنزعه في الأخلاق الطيبة الكريمة ، ولو ذهبت أفصل لخرجت إلى الإفاضة في فنون مختلفة ، ولكني أجترئ من كل ذلك بأنه كان يظهر لي دائماً كأنه في ظل من محبة الله .



## الشيخ الخضرى<sup>(١)</sup>

تحوّل الكاتب إلى كتاب، ورجع المفكر إلى فكرة، وأصبح من كان يُدارس الناس فإذا هو درّس يُذكر أو يُنسى، وتناول التاريخ عالماً من علمائه، فجعله نبأ من أنبائه، وكان يبينه فوضعه فى بنائه، وقيل مات الشيخ الخضرى !

آه لو يرجع إنسان واحد من طريق الموت التى أولها هذه النقطة الصغيرة المسماة بالكرة الأرضية، وآخرها حيث تجد كلمة « الآخر » بلا معنى لا محدود ولا مضمون ! وآه لو استطعنا أن نتكلم عن الميت كأنه حى بيننا، ونحن كثيراً ما نتكلم عن الحى كأنه مات من زمن ! إني لا أكتب هذه الكلمات وكأنى أنظر إلى وجه أبى رحمه الله، وأشهد ذلك السمىّ العجيب، وذلك الوقار الذى يغمر النفس هيبةً وجلالاً، وأستروح ذلك الحب الذى هو أحد الطرق الثلاث المنتهية من الأرض إلى السماء، ومن المخلوق إلى الخالق، والمبتدئة من السماء إلى الأرض، ومن الخالق إلى المخلوق : طريق الآم، وطريق الآب، وطريق الإنسانية ؛ أكتب وكأن يداً من وراء المسادة تمسح على قلبى فأجد ثقله وفترةً، وأستشعر حنيناً وشوقاً، وأحسّ هذا القلب ينازعنى إلى قوم ذهبوا بلا رجعة، وفارقوا بلا وداع، وغابوا عنا بلا خبر؛ دخلوا إلى أنفسنا ولا تحويهم، وخرجوا منها ولا تخلو منهم، فما دخلوا ولا خرجوا، وهذه هى الحيرة التى يتركها الميت العزيز للحى المتفجع كيف يعرف بأمواته ما هو الموت !



كنا منذ بضع وثلاثين سنة في مدينة المنصورة، وكان أبي يومئذ كبير قضاة الشرع في ذلك الاقليم، فإني لألعب ذات يوم في بهو دارنا إذ طرق الباب، فذهبت أفتح فإذا أنا بشيخ لم يبلغ سنَّ العمامة (\*) ولم أُمَيِّز من هيئته أهو طالب علم أو هو عالم، فكان حدثاً لكنه يتَّسم بسمة الجد؛ ورأيتُه لا تموج به الجبَّة كالعلماء، غير أنها لا تمجُّه كالطلبة؛ وكان في يده مجلد ضخيم لو نطق لقال له: دعني لمن هو أسنُّ منك أفما قدرته يزُنُّ عشرين مجلداً من مثله، ونظر إلى نظرة كأنى لا أزال أراها في عينه إلى الساعة، فسلمت عليه فقال: أين الشيخ؟ يعنى الوالد — قلت: خرج آنفاً؛ قال: فادفع إليه هذا الكتاب، وقل له جاء به الخضرى

ثم أغلقت الباب وانتحيت جانباً وفتحت المجلد، فإذا هو جزء من التفسير الكبير للفخر الرازى، كان قد استعاره من مكتبتنا؛ وعرفت الشيخ من يومئذ، وكان أستاذاً للعربية في مدرسة الصنائع، يضع كتاب النحو والصرف مع المطرقة والمشار والقَدوم، فيذهب شيء في شيء، وكأنه لا يعلم شيئاً؛ وقلما كنا نذكره في مدرستنا، إذ كان لنا شيخ خل ثقة من رجال الأزهر، غير أن الخضرى كان له موضع في كل مجلس، وكان يداخل قوما من الخاصة يعنون بالمسائل الإسلامية وفلسفتها وتقريبها من العامة والدهماء، وإشارة من بعض هؤلاء وضع أول كتبه: «نور اليقين في سيرة سيد المرسلين»، ويكاد هذا الاسم يدل على وزن الأستاذ في أول عهده، وأنه لا يزال وراء السجعة الآتية من القرون الأخيرة لم يمضِ على وجه ولم يُعرف بمذهب



---

(\*) كناية عن الحداثة وأنه شيخ بالمنظر لا بالسن

إن الذى يريد أن يقول قولاً صحيحاً فى هذا الفقيه العالم المؤرخ الأديب  
المربى ، يجب أن يرجع بتياريه إلى منبعه ليعرف مبلغ انبعائه وقوة جريته ومدَّ  
عبائه ؛ فما كان الخضرى شيئاً قبل أن يتعلق بمدار ذلك النجم الانسانى العظيم  
الذى أهدته السماء إلى الأرض وُسِّى فى أسمائها « محمد عبده » ، لقد أخرجته  
دار العلوم كما أخرجت الكثيرين ، ولكن دار علومه الكبرى كانت أخلاق  
الاستاذ الامام وشمائله وآراؤه وبلاغته وهمة نفسه . ألا إنه لا بد من  
رجل واحد يكون هو الواحد الذى يبدأ منه العدد فى كل عصر ، وأنت  
فكيف تأملت الخضرى فاعلم أنك بإزاء معنى من معانى الشيخ محمد عبده ، على  
فرق ما بين النفسين ، بل أنت من الخضرى كأنك ترى الشيخ سارياً فى مظهر  
من مظاهر الزمن

كان يحضر دروس الشيخ ، ويختلف إلى ناديه ، ويناقله بعض الرأى ، ويعارض  
معه بعض الكتب التى كان يُرجع إلى الشيخ فى تصحيحها أو الإشراف على  
طبعها ؛ فنفذ الشيخ إلى نفسه ووجد السبيل إلى الاستقرار فيها ، فهو من بعدُ  
حريص على وقته ، مجد فى عمله ، دائب على طريقه ، آخذ بالآخلاق الفاضلة ، مصلح  
مُربٍّ غيور ؛ وكل ذلك فى سمته وهيبته ، وجزالة رأى ، وشرفِ همّة ، وإخلاص  
حقِّ الاخلاص ؛ وما أرى فوضى عصرنا هذا وانحطاطه وإسفافه وسخافة قوْلهم  
جديد وقديم ، وجرىء ورجعى ، وحرو جامد - إلا من خلاء العصر وفراغه  
من النفس الكبيرة ؛ وحاجته إلى إمام عظيم ؛ ومتى أصبحنا نضرب فى دائرة  
لامركز لها ، فهى المربع وهى المستطيل وهى كل شكل إلا أن تكون  
الدائرة ؛ والذين رأوا طاغور الشاعر الهندى المتصوف حين نزل بمصر ، ورأوا  
سحره وتحويله كل جديد مدةً أيام إلى قديم ، وإخراسه هذه الألسنة عن نقده  
ومعارضته ، وعن معاندة الحق طيشاً ونزقاً وضلالاً وتجديداً ... يستطيعون  
( ٢٦ ج ٣ وحى القلم )

أن يدركوا ما أومأنا إليه ، ويتبينوا السر فيما نحن فيه ، ويتمثلوا ما كان للشيخ محمد عبده في عصره ، بل في خلق عصره



وانتهى الخضرى إلى مدرسة القضاء الشرعى ، فألف كتابه فى الأصول ، اختصر فيه وهذب وقارب ، فهو كتاب فى هذا العلم لا كتاب هذا العلم ، وأساتذة الأصول قوم آخرون لو أنت منهم مثل الشيخ الرافعى الكبير ، لرأيت البحر الذى يذهب فى ساحله نصف طول الأرض ، وقد بعث الخضرى على ذلك أن جماعة يومئذ كان منها صديقنا المرحوم حفى ناصف ، والشيخ المهدي ، وغيرهما ، اجتمعوا على إبداع نهضة فى التأليف ، فذهب ثلاثة منهم بحصة الأدب ، وفرغ الخضرى الأصول : أخبرنى بذلك حفى بك رحمه الله ؛ ثم لما اختار القائمون على الجامعة المصرية القديمة صديقنا العلامة المؤرخ جورجى زيدان لدرس التاريخ الإسلامى فيها ، طار الخبر فى الأمة بأنهم اختاروا القنبلة ... وشعر الناس بمعنى الهدم قبل أن يتهدم شيء ، فاضطرت الجامعة إلى أن تنحيه ، وعهدت فى الدرس إلى الأستاذ الخضرى ، فألقى دروسه التى جمعها فى كتابه (تاريخ الأمم الإسلاميه) ، وقال فى مقدمة هذا الكتاب : « أرجو أن أكون قد وفقت لتذليل صعوبة كبرى ، وهى صعوبة استفادة التاريخ العربى من كنيه » ؛ نقول : وعلى أن الشيخ أحسن فى كتابه ، وجاء بمادة غزيرة من فكره ورأيه ، وبسط واختصر ، وباعد وقرب ، فإن كلمته هذه إما أن تكون أكبر من التاريخ أو أكبر من كتابه

ورد فى السنة الماضيه على كتاب الشعر الجاهلى للدكتور طه حسين ، وكان رده خطاباً أراد أن يحاضر به طلبة الجامعة ، لأنه أستاذ أستاذهم ؛ فسكأنه أراد جعل أستاذهم هذا تلميذا معهم ، وأبت عليه الجامعة ما أراد ، ولعلها فطنت إلى

هذا الغرض ؛ ولما علم أنى شرعت فى طبع ردى على الدكتور طه<sup>(١)</sup>، كلفنى فى استلحاق مقالهِ وجعله ذيلًا فى الكتاب ، وقد رنأه يومئذ فى نحو خمسين صفحة أو دونها ، وقد سألتُهُ أن يبنى منه ما كان فى مقادير الرصاص ويقتصر على ماهو فى وزن القنابل ، فقال : « كله قنابل » ! ثم اتسع كتابى وجاوز مقدارهُ إلى الضعف ، فوسَّع هو رده وزاد فيه وطبعهُ فى قريب من ضعفهِ على حدة

دع كتابهُ المشهور (مذهب الأغاني) ، فهذا لا يقال إن الشيخ ألفهُ ، بل ألفته خمس عشرة سنة ؛ وأظن كل ذلك لا يُذكر فى جنب الكتاب الذى كان يعمل فيه أخيراً ، وهو كتاب « الأدب المصرى » ، أخبرنى أنه فى جزئين ودعانى إلى دارهِ لأرى (المكتبة الخضرية) ؛ ولأطلع على هذا الكتاب ، فوعدته ولم يُقدر لى ؛ وقد حدثنى أنه معنى أشد العناية باستجماع الفروق التى يمتاز بها الأدب المصرى عن الأدب الحجازى والشامى والعراقى والاندلسى ، وأنه أصاب من ذلك أشياء متميزة منذ الدولة الطولونية ، يحق لمصر أن تقول فيها هذا أدبى ؛ وكان يكتُم خبر هذا الكتاب ، حتى إن صديقنا الأستاذ حافظ بك عوض صاحب جريدة كوكب الشرق ، اقترح عليه أن يكتب فصلاً فى الشعراء المصريين وأدبهم يعقدهُ لكتاب حفلة تكريم شوقى بك ؛ ثم لقيه بعد ذلك فقال له الشيخ : إن البحث سائر على أحسن وجوهه !



كان الخضرى يفرح للقاءى ويهش لى ، وكنت أتبين فى وجهه أشعة روحه الصافية ، ولعله كان يرى بى فى نفسه ذلك الشيخ الذى أعطانى المجلد ، كما كنت أرى به فى نفسى ذلك التلميذ الذى أخذ المجلد منه ؛ على أن مرجع ذلك فى الحق إلى سعة صدره ، وفسحة رأيه ، وبسطة ذرعهِ ، وسمو أدبه وإنصافهِ ؛ فلا يحقد ولا يحسد ، ولا يتجاوز قدرهُ ، ولا ينزل بأحد عن قدرهِ ، ولا يدعى مالا

(١) المعركة تحت راية القرآن .

يحسن ؛ وقد عرف قراء المقتطف مثلاً من أخلاقه هذه أو أكثرها حين انتقدته صديقنا الأستاذ عبد الرحيم بن محمود ، وتناول الجزء الأول من كتابه (مذهب الأغاني) وراح يتقلقل له بكلمود صخر ٠٠٠ فوسعه الشيخ وعنى به ورد عليه في المقتطف ، ونعته بالأستاذ الجهد وانتصف منه ، وأنصفه معاً . ولقد اقترحت عليه مرة أن يضع كتاباً في حكمة التشريع الإسلامى وفلسفته ، فقال لى : « مُشَقَّة » يعنى أن العمل أكبر منه ، ولكن هذا نبيه إلى وضع كتابه في تاريخ التشريع الإسلامى

ولما أصدرت الجزء الأول من (تاريخ آداب العرب) فى سنة ١٩١١م أهدته إلى الشيخ ، فاشتراه وقرأه ، ثم لقيته وسأله رأيه فيه ، فقال : (جداً كويس) فكان تقديم (جداً) تقريظاً ، و (كويس) تقريظاً آخر ؛ وهو يقول هذا على حين كان بعض إخوانه الشيوخ يكاد يموت غمّاً بهذا الكتاب وما كتب عنه ، وعلى حين كلنى بعضهم مرتين فى ترك هذا العمل ونفض يدى منه ، لأنه - زعم - عمل شاق بلا فائدة ...

وقد زرت الأستاذ الحضرى فى وزارة المعارف فى السنة الماضية ، فبعد أن جلست إلى جانبه نهض مرة ثانية وجعل يثبتنى بقوة فى الكرسي ، كأنه لم يطمئن بعد إلى أنى جلست ، ثم فاض بكلام كثير ، فكان فيما قاله : « أنا الآن أعيش فى غير زمنى ! » وكأنما كان ينهى إلى نفسه بهذه الكلمة من حيث لا يدرى ولا أدرى ؛ وقال لى إنه يجلس إلى مكتبه فى كل يوم ست ساعات ، يقرأ أو يؤلف أو يفسخ ؛ لأن كل كتبه المخطوطة هو ناقلها وناسخها ومصححها ، وأنه ينلو كل يوم أربعة أجزاء من القرآن الكريم ، قال : ولا يعترية البرد ولا مرض من أمراضه ، لما اعتاد من رياضة صدره بهذه التلاوة ، وقال : إن كل ما هو فيه إنما هو من بركة القرآن .





ولنسك عند هذا الحد ؛ فإن للذكرى غمراً على القلب ؛ وبالجملة فقد كان رحمه الله عالماً كالكتاب ، وكاتباً كالعلماء ؛ فهو من هؤلاء وأولئك يلف الطبقتين ، وهو وحده منزلة بين المنزلتين ؛ وبذلك تميّز ؛ وظهر ، فإنه في إحدى الجهتين عقل جرى تمثله رواية واسعة في علوم مختلفة ، فتراه يبعث من عقله الحياة إلى الماضي حتى كأنه لم يمض ، وهو في الجهة الأخرى علم مستفيض لا يقف عند حد الصحيفة أو الكتاب ، بل لا يزال يلتمس له عقلاً يخرج به ، ويتصرف به ، حتى يكبر عن أن يكون قديماً بحثاً فيدبّط الحاضر إلى ماضيه ويطلقهما إطلاقاً واحداً . لم يكن الشيخ جديداً إلا بالقديم ، ولا قديماً إلا بالجديد ؛ فإننا لا نعرف قديماً محضاً ولا جديداً صرفاً ، ولا نقيم وزن أحدهما إلا بوزن من الآخر إذا أردنا بهما سنّة الحياة ؛ وأنت لن تجد حياً منقطعاً عما وراءه ، بل أنت ترى الطبيعة قيدت كل حيّ جديد إلى أصلين من القديم لا أصل واحد هما أبواه فمنهما يأتي ومنهما يستمد وهما أبداً فيه وإن كان على حدة ؛ وبعد فلو جاريت السخافة العصرية المشهورة لقلت إن المذهب القديم ... قد انهدّ ركن من أركانه ، ونقص قنطار كتب من ميزانه ؛ ولكن هذه السخافة في رأيي كما ترى من جماعة ائتملوا أن يطفثوا نجماً في السماء لأنه قديم ، فاتفقوا على ذلك وأجمعوه بينهم وفرغوا من أمره ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون كيف يهيئون العربات والمضخات التي تحمل إلى السماء بضعة أبحر ليصبوها على النجم ...

# رأي جديد

## في كتب الأدب القديمة <sup>(١)</sup>

أدبُ الكاتب لابن قتيبة من الدواوين الأربعة التي قال ابن خلدون فيها من كلامه على حدِّ علم الأدب : « وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصولَ هذا الفن وأركانه أربعة دواوين : وهي أدبُ الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للبرّد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي ؛ وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها » .

وقد يظن أدباء عصرنا أن كلمة ابن خلدون هذه كانت تصلح لزمّنه وقومه ، وأنها تتوجّه على طريقة من قبلهم في طبقة بعد طبقة إلى أصول هذه السلسلة التي يقولون فيها حدثنا فلان عن فلان إلى الأصمى أو أبي عُبيدة أو أبي عمرو ابن العلاء وغيرهم من شيوخ الرواية ونقّلة اللغة ، ولكنها لا تستقيم في آدابنا ولا تُعد من آلاتنا ولا تقع من معارفنا ؛ بل يكاد يذهب من يتغلّز منهم بالآراء الأوروبية التي يسميها علمه ... ومن يَسْتَرْسِلُ إلى التقليد الذي يسميه مذهبه ... إلى أن تلك الكتب وما جرى في طريقها هي أموات من الكتب ، وهي قبور من الأوراق ، وأنه يجب أن يكون بيننا وبينها من الإهمال أكثر مما بينها وبيننا من الزمن ، وأن بعث الكتاب منها وإحياءه يُوشك أن يكون كبعث الموتى : علامة على خراب الدنيا ...

فأما أن يكون ذلك علامة على خراب الدنيا ، فهو صحيح إذا كانت الدنيا

---

(١) كتبت مقدمة لشرح الجواليقي على أدب الكاتب لابن قتيبة

هى محرر جريدة ... من أمثال أصحابنا هؤلاء ، وأما تلك الكتب فأنا أحسبها لم توضع إلا لزمنا هذا ولادبائه وكتابه خاصة ، وكان القدر هو أثبت ذلك القول فى مقدمة ابن خلدون لينتهى بنصه إلينا فلمستخرج منه ما يقيمنا على الطريقة فى هذا العصر الذى وقع أدباؤه فى متسع طويل من فنون الأدب وفضطرب عريض من مذاهب الكتابة وأفقي لا تستقر حدوده من العلوم والفلسفة ... فإن هذه المادة الحافلة من المعاني تحي آداب الأمم فى أوربا وأمريكا ، ولكنها تكاد تطمس آدابنا وتمحقنا محققاً تذهب فيه خصائصنا ومقوماتنا ، وتحيلنا عن أوضاعنا التاريخية ، وتفسد عقولنا ونزعائنا ، وترمى بنا مراميتها بين كل أمة وأمة ، حتى كأن ليست منّا أمة فى حيزها الإنسانى المحدود من ناحيه بالتاريخ ومن ناحية بالصفات ومن ناحية بالعلوم ومن ناحية بالآداب ؛ ومن ذلك أبشلى أكثر كتابنا بالانحراف عن الأدب العربى أو العصبية عليه أو الزرارية له ، ومنهم من تحسبه قد رُمى فى عقله لهوسه وحقاقته ، ومنهم من كأنه فى حقيقته سُلخ قلبه ، ومنهم المقلد لا يدرى أعلى قصده هو أم جور ، ومنهم الحائر يذهب فى مذهب ويحىء من مذهب ولا يتجه لقصد ، ومنهم من هو منهم وكفى ...

وقلنا تلّبه أحدٌ إلى السبب فى هذا ؛ والسبب فى حقارته وضعفه « كالمكروب » : بذرة طامسه لاشأن لها ، ولكن متى تنبتُ تنبت أوجاعاً وآلاماً وموتاً وأحزاناً ومصائب شتى

السبب أن أولئك الأدباء كلهم ثم من يتشيع لهم أو يأخذ برأيهم ، ليس منهم واحد يُرى فى أساسه الأدبى تلك الأصول العربية المحضة القائمة على دراسة اللغة وجمعها وتصنيفها وبيان عللها وتصاريقها ومطارح اللسان فيها ، والمتأدية بذلك إلى تمكين الأديب الناشئ من أسرار هذه اللغة وتطويعها له ،

فيكون قِيَمًا بها وتكون هي مُسْتَجِيبَةٌ لقلبه جارية في طبيعته مَسْدَدَةٌ في تصرفه ، حتى إذا نشأ بها واستحكم فيها أَحَسَّنَ العملَ لها وزاد في مادَّتها وأخذَ لها من غيرها وكان خَلِيقًا أَنْ يَمُدَّ فيها ويَحْسِنَ الملاءمةَ بينها وبين الآداب الأخرى ويجعل ذلك نَسْجًا واحدًا وبيانًا بَعْضُهُ من بَعْضِهِ ، فيَنمو الأدب العربي في صَنِيْعِهِ كما تنمو الشجرةُ الحية : تأخذ من كل ما حوّلها لِعُنْصُرِها وطَبِيعَتِها وليس إلا عُنْصُرُها وطَبِيعَتُها حَسْبُ

إن أدب الكاتب وشرحه هذا الإمام الجواليقي <sup>(٥)</sup> وما صُنِّفَ من باهما على طريقة الجمع من اللغة والخبر وشعر الشواهد والاستقصاء في ذلك والتبسيط في الوجوه والعِلَلِ النحوية والصرفية والامعان في التحقيق ، كل ذلك عمل يَلْبَغِي أَنْ يَعْرِفَ على حقه في زَمَننا هذا ؛ فهو ليس أدبًا كما يُفْهَم من المعنى الفلسفي لهذه الكلمة ، بل هو أبعد الأشياء عن هذا المعنى ؛ فإنك لا تجد في كتاب من هذه الكتب إلا التأليف الذي بين يديك ، أما المؤلف فلا تجده ولا تعرفه منها إلا كالكلمة المحبوسة في قاعدة ... وكأنه لم يكن فيه روح لإنسان بل روح مادّة مُضَمَّتُهُ ، وكأنه لم يذْشأ ليعملَ في عصره بل ليعملَ عصره فيه ، وكأنَّ ليس في الكتاب جهة إنسانية متعيّنة ، ثمَّ تأليف ولكن أين المؤلف ؟ وهذا كتابُ ابن قتيبة ولكن أين ابن قتيبة فيه ؟

وما أخطأ المتقدمون في تسميتهم هذه الكتب أدبًا ؛ فذلك هو رسمُ الأدب في عصرهم ، غير أن هذا الرسم قد انتقل في عصرنا نحن ، فإننا نحن المخطئون اليوم في هذه التسمية ، كما لو ذهبنا نسمي الجمل في البادية الأكسبريس ،

---

(٥) الجواليقي : جمع شاذ لجوالق ، وقد نسب هذا الإمام إلى عمل الجوالق وبيعها ؛ وهذا الجمع ليس بينه وبين واحدٍ إلا الحركة ، فالمفرد جوالق ( بضم الجيم ) والجمع بالفتح ؛ ومثله ألفاظ أحصوها : كحلاجل ، وعدامل ، وخثارم ، وغيرها

والهَوْدَجُ عربية بولسان .

ومن هذا الخطأ في التسمية ظهر الادب العربي لقصار النظر كأنه تكرر عصر واحد على امتداد الزمن ، فإن زاد المتأخر لم يأخذ إلا من المتقدم ؛ وصارت هذه الكتب كأنها في جملتها قانون من قوانين الجدسية نافذ على الدهر ، لا ينبغي لعصر يأتي إلا أن يكون من جدس القرن الأول .

هذه الكتب من هذه الناحية كالخلل : يسمى لك عسلا ثم تذوقه فلا يجنى عليه عندك إلا الاسم الذي زور له ؛ أما هو فكما هو في نفسه وفي فائدته وفي طبيعته وفي الحاجة إليه ، لا ينقص من ذلك ولا يتغير .

الحقيقة التي يعينها الوضع الصحيح أن تلك المؤلفات إنما وضعت لتكون أدبا ، لا من معنى أدب الفكر وفنه وجماله وفلسفته ، بل من معنى أدب النفس وتثقيفها وتربيتها وإقامتها ، فهي كتب تربية لغوية قائمة على أصول محكمة في هذا الباب ، حتى ما يقرؤها أعجمي إلا خرج منها عربيا أو في هوى العربية والميل إليها ؛ ومن أجل ذلك بُليت على أوضاع تجعل القارئ المتبصر كأنما يصاحب من الكتاب أعرابيا فصيحاً يسأله ، فيجيبه ويستهديه فيرشده ؛ ويخرجه الكتاب تصفحاً وقراءة كما تخرجه البادية سماعاً وتلقيناً ؛ والقارئ في كل ذلك مُسْتَدْرَجٌ إلى التعريب في مَدْرَجَةٍ مَدْرَجَةٍ من هوى النفس ومحبتها ، فتصنع به تلك الفصول فيما دُبِّرَتْ له مثلما تصنع كتب التربية في تكوين الخلق بالأساليب التي أُدِيرَتْ عليها والشواهد التي وضعت لها والمعالِم النفسية التي فصلت فيها .

ومن ثم جاءت هذه الكتب العربية كلها على نسق واحد لا يختلف في الجملة ، فهي أخبار وأشعار ولغة وعربية وجمع وتحقيق وتمحيص ، وإنما تتفاوت بالزيادة والنقص والاختصار والتبسط والتخفيف والنشيل ونحو

ذلك مما هو في الموضوع لافي الوضع ، حتى لينخيل إليك أنّ هذه كتب جغرافية  
للغة وألفاظها وأخبارها ؛ إذ كانت مثل كتب الجغرافية : متطابقة كلها على  
وصف طبيعة ثابتة لا تتغير معالمها ولا يخاق غيرها إلا الخالق سبحانه  
وتعالى .

وإذا تدبرت هذا الذي بيّناه لم تعجب كما يعجب المتطفلون على الأدب  
العربي والمتخبطون فيه من أن يروا إيمان المؤلفين متصلًا بكتبهم ظاهر الأثر  
فيها ، وأنهم جميعاً يقررون أنما يريدون بها المنزلة عند الله في العمل لحياطة هذا  
اللسان الذي نزل به القرآن الكريم وتأديته في هذه الكتب إلى  
قومهم كما تُؤدّي الأمانة إلى أهلها ، حتى لولا القرآن لما وُضع من ذلك  
شيء ألبتة .

وأنا أتلمّع دائماً العامل الإلهي في كل أطوار هذه اللغة ، وأراه يُديرها  
على حفظ القرآن الذي هو معجزتها الكبرى ، وأرى من أثره مجيء تلك  
الكتب على ذلك الوضع ، وتسخير تلك العقول الواسعة من الرواة والعلماء  
والحفاظ جيلاً بعد جيل في الجمع والشرح والتعليق بغير ابتكار ولا وضع ولا  
فلسفة ولا زيغ عن تلك الحدود المرسومة التي أومأنا إلى حكمةتها ؛ فلو أنه كان  
فيهم مجددون من طراز أصحابنا من أهل التخليط ، ثم ترك لهم هذا الشأن  
يتولونه كما نرى بالنظر القصير والرأي المعاند والهوى المنحرف والكبرياء  
المصممة والقول على الهاجس والعلم على التوهم ومجادلة الأستاذ حيص  
للأستاذ بيصر ... إذن لضرب بعضهم وجه بعض وجاءت كتبهم متدبرة ،  
ومُسيخ التاريخ وضاعت العربية وفسد ذلك الشان كله ، فلم يتسق  
منه شيء .

ومما ترّده على قارئها تلك الكتب في تربيته للعربية ، أنها تُمكن فيه

للصبر والمعاناة والتحقيق والتورُّك في البحث والتدقيق في التصفُّح ، وهي الصفات التي فقدتها أدباءُ هذا الزمن ، فأصبحوا لا يتثبتون ولا يُحققون ، وطال عليهم أن ينظروا في العربية ، وثقل عليهم أن يستبطنوا كتبها ؛ ولو قد تربَّوا في تلك الأسفار وبذلك الأسلوب العربي لَتَمَّت الملاءمة بين اللغة في قوتها وجزالتها وبين ماعسى أن ينكره منها ذوقهم في ضعفه وعاميته وكانوا أحقَّ بها وأهلها .

وذلك بعينه هو السر في أن من لا يقرءون تلك الكتب أول نشأتهم ، لا تراهم يكتبون إلا بأسلوبٍ منحط ، ولا يجيئون إلا بكلامٍ سقيم غث ، ولا يرون في الأدب العربي إلا آراء مُلتَوِيَّة ؛ ثم هم لا يستطيعون أن يُقيموا على درس كتاب عربي ، فيُساهلون أنفسهم ويحكمون على اللغة والأدب بما يشعرون به في حالتهم تلك ، ويتورَّطون في أقوال مضحكة ، وينسون أنه لا يجوز القطع على الشيء من ناحية الشعور مادام الشعور يختلف في الناس باختلاف أسبابه وعوارضه ، ولا من ناحية يجوز أن يكون الخطأ فيها ؛ وهم أبداً في إحدى الناحيتين أو في كليهما .



وهذا شرح الجواليقي من أمتع الكتب التي أشرنا إليها ، وصاحبه هو الإمام أبو منصور موهوب الجواليقي المولود في سنة ٤٦٥ للهجرة ، والمتوفى سنة ٥٤٠ هـ ، وهو من تلاميذ الإمام الشيخ أبي زكريا الخطيب التبريزي ؛ أول من درس الأدب في المدرسة النظامية ببغداد (\*) وقرأ الجواليقي على شيخه هذا سبع عشرة سنة ، استوفى فيها علوم الأدب من اللغة والشعر والخبر والعربية بفنونها ، ثم خلف شيخه على تدريس الأدب في النظامية بعد علي بن

---

(\*) أنشأها نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقي المتوفى سنة ٤٨٥ هـ

أبي زيد المعروف بالفصيحى (\*)

وما نشك أن هذا الشرح هو بعض دروسه في تلك المدرسة ، فأنت من هذا الكتاب كأنك يازاء كرسى التدريس في ذلك العهد ، تسمع من رجل انتهت إليه إمامة اللغة في عصره ، فهو مدقق محيط مبالغ في الاستقصاء ، لا يند عنه شيء مما هو بسبيله من الشرح ، معنىً بالتصريف ووجوهه مما انتهى إليه من أثر الامام ابن جنى فيلسوف هذا العلم في تاريخ الادب العربى ، فإن بين الجواليقي وبينه شيخين كما تعرف من إسناده في هذا الشرح

وقد قالوا إن أبا منصور في اللغة أمثلُ منه في النحو ، على إمامته فيهما معاً ؛ إذ كان يذهب في بعض علل النحو إلى آراء شاذة ينفرد بها ، وقد ساق منها عبدالرحمن الأنبارى مثلين في كتابه نزهة الألباء ، ولكن هذا الشذوذ نفسه دليل على استقلال الفكر وسعته ومحاولته أن يكون في الطبقة العليا من أئمة العربية (\*\*\*) وهو على ذلك رجل ثقة صدوق كثير الضبط عجيب في التحري والتدقيق ؛ حتى كان من أثر ذلك في طباعه أن اعتاد التفكير وطول الصمت فلا يقول قولاً إلا بعد تدبر وفكر طويل ، فان لم يهتد إلى شيء قال لا أدري ، وكثيراً ما كان يُسأل في المسئلة فلا يجيب إلا بعد أيام

وكان ورعاً قوى الإيمان ، انتهى به إيمانه وعلمه وتقواه إلى أن صار

---

(\*) لقب بذلك لكثرة إعادته كتاب الفصيح في اللغة

(\*\*) قال ياقوت في ترجمة أبي على الفارسي من معجم الادباء : قرأت بخط الشيخ

أبي محمد الخشاب : كان شيخنا (يعنى الجواليقي) قلماً يتنبل عنده ممارس للصناعة النحوية ولو طال فيها بابه ، ما لم يتمكن من علم الرواية وما تشتمل عليه من ضروبها ، ولا سيما رواية الاشعار العربية وما يتعلق بمعرفتها من لغة وفصحة ؛ ولهذا كان مقدماً لابن سعيد السيرافي على أبي على الفارسي رحمه الله ، ويقول : أبو سعيد أروى من أبي على ، وأكثر تحقُّقاً منه بالرواية وأثرى منه فيها .



أستاذ الخليفة المقتنى لأمر الله ، فاختص بإمامته في الصلوات ، وقرأ عليه المقتنى شيئاً من الكتب ، وانتفع بذلك وبأن أثره في توقيعاته كما قالوا .

والذى يتأمل هذا الشرح فضل تأمل يرى صاحبه كأنما خلقه الله رجلاً لإحصاء في اللغة ، لا يفوته شيء مما عرف إلى زمنه ؛ وهو ولا ريب يجرى في الطريقة الفكرية التي نهجها ابن جنى وشيخه أبو علي الفارسي ؛ ومن أثر هذه الطريقة فيه أنه لا يتحجر ولا يمنع القياس في اللغة ، ويلحق ما وضعه المتأخرون بما سُمع من العرب ، ويروى ذلك جميعه ويحفظه ويلقيه على طلبته ؛ ومن أمتع ما جاء من ذلك في شرحه قوله في صفحة ٢٣٥ ، وهو باب لم يستوفه غيره ولا تجده إلا في كتابه ، وهذه عبارته :

قولهم : يدى من ذلك فَعِلَة : المسموع منهم في ذلك ألفاظ قليلة ، وقد قاس قوم من أهل اللغة على ذلك فقالوا : يدى من الإهالة سَنِيخة ، ومن البيض زَهْمَة ، ومن التراب تَرَبَة ، ومن التين والعنب والفواكه كَتَنَة وكَمْدَة ولَزِجَة ، ومن العشب كَتَنَة أيضاً ، ومن الجبن نَسْمَة ، ومن الجص شَهْرَة ، ومن الحديد والشَّبه والصُّفْر والرصاص سَهِيكة وصدِئَة أيضاً ، ومن الحمأة رَدِغَة ورَزِغَة ، ومن الخضاب رَدِغَة ، ومن الحنطة والعجين والخبز نَسِغَة ، ومن الحل والنبيذ خِطَة ، ومن الدبس والعسل دَبِغَة ولَزِغَة أيضاً ، ومن الدم شَحِطَة وشَرِقَة ، ومن الدهن زَنِخَة ، ومن الرياحين ذَكِيَة ، ومن الزهر زَهْرَة ، ومن الزيت قَنَمَة ، ومن السمك سَهِيكة وصِمْرَة ، ومن السمن دَسِمَة ونَسِمَة ونَمِسَة ، ومن الشهد والطين لَشِقَة ، ومن العطر عَطْرَة ، ومن الغالية عَبِقَة ، ومن الغسلة والقدر وحِرَة ، ومن الفرصاد قَنِئَة ، ومن اللبن وَضْرَة ، ومن اللحم والمرق غَمْرَة ، ومن الماء بِلَلَة وسَبِرَة ، ومن المسك ذَفِرَة وعَبِقَة ، ومن النَّن قَنَمَة ، ومن النفط جَعِدَة . انتهى .

فالمسموع من هذه الألفاظ عن العرب لا يتجاوز سبعا فيما نرى ، والباقي كله أجراه علماء اللغة وأهل الأدب على القياس ، فأبدع القياس منها أربعاً وثلاثين كلمة ؛ ولوتدبرت كيفية استخراجها ورجعت إلى الأصول التي أخذت منها لآيقنت أن هذه العربية هي أوسع اللغات كافة ، وأنها من أهلها كالنبوة الخالدة في دينها القوى : تنتظر كل جيل يأتي كما ودّعت كل جيلٍ غَبرَ لأنها الإنسانية ، لهؤلاء وهؤلاء .

إن ظهور مثل هذا الشرح كالتوبيخ لأكثر كتاب هذا الزمن أن اقرءوا وادرسوا وخصوا لغتكم بشطر من عنايتكم ، وتربّوا لها بتربيتها في مدارسكم ومعاهدكم ، واصبروا على معاناتها صبر المحب على حبيبته . فإن ضعفتم فصبر البارّ على من يلزمه حقه ؛ فإن ضعفتم عن هذا نصبر المتكلف المتجمل على الأقل !

---

## أمير الشعر في العصر القديم<sup>(١)</sup>

الوجه في أفراد شاعر أو كاتب من الماضين بالتأليف ، أن تصنع كأنك تُعيدُه إلى الدنيا في كتاب وكان إنساناً ، وتُرجعه درساً وكان عمرًا ، وترثه حكاية وكان عملاً ، وتنقله بزمناه إلى زمنك ، وتعرضه بقومه على قومك ، حتى كأنه بعد أن خلقه الله خلقه إيجادٍ يخلق العقل خلقه تفكير

من أجل ذلك لابد أن يتقصى المؤلف في الجمع من آثار المترجم وأخباره ، وأن يحمل في ذلك من العنت ما يحمله لو هو كان يحرق وراء مَلَكِيٍّ من يترجمه لقراءة كتاب أعماله كتاب في يديهما ... ولا بد أن يبالغ في التمهيص والمقابلة ، ويدقق في الاستلباط والاستخراج ، ويضيف إلى عامة ما وجد من العلم والخبر خاصة ما عنده من الرأى والفكر ، ويعمل على أن ينقح ما انتهى إليه الماضي في أدبه وعلمه بما بلغ إليه الحاضر في فنّه وفلسفته ؛ وذلك من عمل العقل المتجدد أبداً والمترادف على هذه الحياة بمذاهبه المختلفة ، يشبهه عمل الدهر المتجدد أبداً والمترادف بالليل والنهار على هذه الأرض ، كل نهار أو ليل هو آخر وهو أول ، وكذلك العقول كلها آخر من ناحية وأول من ناحية

والتجديد في الأدب إنما يكون من طريقين : فأما واحدة فإبداع

---

(١) [المقتطف] : وضع الأديب محمد صالح سمك رسالة قيمة في امرئ القيس وأمير الشعر في العصر القديم ، تقع في نحو مائتين وخمسين صفحة ، سلك فيها مسلكاً طريفاً ، وحلاها بمقدمة بليغة للاستاذ الجليل مصطفى صادق الرافعي ، فخص المؤلف المقتطف بنشر المقدمة وبعض أبحاث الرسالة فيها طبقاً لرغبتنا

الأديب الحى فى آثار تفكيره بما يخلق من الصور الجديدة فى اللغة والبيان ،  
وأما الأخرى فإبداع الحى فى آثار الميى بما يتناولها به من مذاهب النقد المستحدثة  
وأساليب الفن الجديدة ؛ وفى الإبداع الأول إيجاد مالم يوجد ، وفى الثانى  
إتمام مالم يتم ؛ فلا جرم كانت فىهما معاً حقيقة التجديد بكل معانيها ، ولا تجديد  
إلا من ثمة ، فلا جديد إلا مع القديم

وإذا تبينت هذا وحقيقته أدركت لماذا يتخبط منتحلو الجديد بيننا  
وأكثرهم يدعيه سفاهاً ويتقلده زوراً ، وجملة عملهم كوضع الزنجى الذرور  
الابيض (البودرة) على وجهه ثم يذهب يدعى أنه خرج أبيض من أمه لامن  
العلبة ..... فإن منهم من يصنع رسالة فى شاعر وهو لا يفهم الشعر ولا  
يحسن تفسيره ولا يجده فى طبعه ، ومنهم من يدرس الكاتب البليغ وقد باعده  
الله من البلاغة ومذاهبها وأسرارها ، ومنهم من يحدد فى تاريخ الأدب ولكن  
بالتكذب عليه والتفحم فيه والذهاب فى مذهب المخالفة ، يضرب وجه المقبل  
حتى يحىء مدبراً ، ووجه المدبر حتى يعود مقبلاً ؛ فإذا لكل طريق جديد ، وينسى  
أن جديده بالصنعة لا بالطبيعة وبالزور لا بالحق

ألا إن كل من شاء استطاع أن يطب لكل مريض ، لا يكلفه ذلك  
إلا قولاً يقوله وتلفيقاً يدبره ، ولكن أكذاك كل من وصف دواء  
استطاع أن يشفى به ؟

وبعد فقد قرأت رسالة امرئ القيس التى وضعها الأديب السيد محمد  
صالح سمك ، فرأيت كاتبها — مع أنه ناشئٌ بعد — قد أدرك حقيقة الفن فى  
هذا الوضع من تجديد الأدب ، فاستقام على طريقة غير ملتوية ، ومضى فى  
المنهج السديد ولم يدع الثبوت وإنعام النظر وتقليب الفكر وتحسين الرأى ،  
ولا قصر فى التحصيل والاطلاع والاستقصاء ، ولا أراه قد فاته إلا

مالا بد أن يفوت غيرَه مما ذهب في إهمال الرواة المتقدمين وأصبح الكلام فيه من بعدهم رجما بالغيب وحكما بالظن

فإن امرأ القيس في رأي إنما هو عقلٌ بياني كبير من العقول المفردة التي خلقت خالقها في هذه اللغة ، فوضع في بيانها أوضاعا كان هو مبتدعها والسابق إليها ، ونهجَ لمن بعده طريقها في الاحتذاء عليها والزيادة فيها والتوليد منها ؛ وتلك هي منقبتة التي انفرد بها والتي هي سر خلوده في كل عصر إلى دهرنا هذا وإلى مابقيت اللغة ؛ فهو أصل من الأصول في أبواب من البلاغة كالتشبيه والاستعارة وغيرهما ، حتى لكانهُ مصنع من مصانع اللغة لارجل من رجالها ؛ وكما يقال في زمننا في أمم الصناعة : سيارة فورد وسيارة فيات ، يمكن أن يقال مثل ذلك في بعض أنواع البلاغة العربية : استعارة امرئ القيس ، وتشبيه امرئ القيس

ولكن تحقيق هذا الباب وإحصاء ما انفرد به الشاعر وتأريخ كلماته البيانية بما لا يستطيعه باحث وليس لنا فيه إلا الوقوف عند ما جاء به النص ولقد نهينا في ( إعجاز القرآن ) إلى مثل هذا ؛ إذ نعتقد أن أكثر ما جاء في القرآن الكريم كان جديداً في اللغة ، لم يوضع من قبل ذلك الوضع ولم يحجر في استعمال العرب كما أجراه ، فهو يصب اللغة صباً في أوضاعه لأهلها لا في أوضاع أهلها ؛ وبذلك يحقق من نحو ألف وأربعمائة سنة مالا نظن فلسفة الفن قد بلغت إليه في هذا العصر ؛ إذ حقيقة الفن على ما نرى أن تكون الأشياء كأنها ناقصة في ذات أنفسها ليس في تركيبها إلا القوة التي بنيت عليها ، فإذا تناولها الصانع الحاذق الملمهم أضاف إليها من تعبيره ما يشمرك أنه خالق فيها الجمال العقلي ، فكأنها كانت في الخلقة ناقصة حتى أتمها

وهذا المعنى الذي يبيناه هو الذي كان يحوم عليه الرواة والعلماء بالشعر قديماً ،

يُحِسُّونَهُ وَلَا يَجِدُونَ بَيَانَهُ وَتَأْوِيلَهُ ، فَتَرَى الْأَصْمَعِي مِثْلًا يَقُولُ فِي شَعْرِ لَبِيدٍ :  
إِنَّهُ طِيلَسَانٌ طَبَرِي . أَيْ مُحْكَمٌ مَتِينٌ وَلَكِنْ لَا رَوْتَقَ لَهُ : أَيْ فِيهِ الْقُوَّةُ وَلَيْسَ فِيهِ  
الْجَمَالُ : أَيْ فِيهِ التَّرَكِيبُ وَلَيْسَ فِيهِ الْفَنُّ

وَالْعَقْلُ الْبَيَانِيُّ كَمَا قُلْنَا فِي غَيْرِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ ، هُوَ ثَرَوَةُ اللُّغَةِ ، وَبِهِ وَبِأَمْثَالِهِ  
تَعَامَلُ التَّارِيخُ ، وَهُوَ الَّذِي يَحَقِّقُ فِيهَا فَنَّ الْأَفَاضَةِ وَصُورَهَا : فَهُوَ بِذَلِكَ امْتِدَادُهَا  
الزَّمَنِيَّ وَاتِّقَالُهَا التَّارِيخِيَّ وَتَخَلُّقُهَا مَعَ أَهْلِهَا إِنْسَانِيَّةً بَعْدَ إِنْسَانِيَّةٍ فِي زَمَنٍ بَعْدَ  
زَمَنٍ ، وَلَا تَجْدِيدٌ وَلَا تَطَوُّرٌ إِلَّا فِي هَذَا التَّخَلُّقِ مَتَى جَاءَ مِنْ أَهْلِهِ وَالْجَدِيرِينَ  
بِهِ : وَهُوَ الْعَقْلُ الْمَخْلُوقُ لِلتَّفْسِيرِ وَالتَّوْلِيدِ وَتَلَقَّى الْوَحْيَ وَأَدَاتُهُ وَاعْتَصَارُ الْمَعْنَى  
مِنْ كُلِّ مَادَّةٍ وَإِدَارَةُ الْأَسْلُوبِ عَلَى كُلِّ مَا يَنْصِلُ بِهِ مِنَ الْمَعَانِي وَالْآرَاءِ ،  
فَيَنْقُلُهَا مِنْ خَلْقَتِهَا وَصَيَغَتِهَا الْعَالَمِيَّةِ إِلَى خَاقِ إِنْسَانٍ بَعِينَةٍ ، هُوَ هَذَا الْعَبْقَرِيُّ  
الَّذِي رُزِقَ الْبَيَانُ

وَاللَّسْبُ الَّذِي أَوْمَأْنَا إِلَيْهِ بَقِيَ امْرُؤُ الْقَيْسِ كَالْمِيزَانِ الْمَنْصُوبِ فِي الشَّعْرِ  
الْعَرَبِيِّ يَبِينُ بِهِ النَّاقِصُ وَالْوَافِي : قَالَ الْبَاقِلَانِيُّ فِي كِتَابِهِ (الْإِعْجَاز) : وَقَدْ تَرَى  
الْأَدَبَاءَ أَوَّلًا يَوَازِنُونَ بِشِعْرِهِ (يُرِيدُ امْرَأَ الْقَيْسِ) فَلَانًا وَفَلَانًا وَيَضْمُونَ  
أَشْعَارَهُمْ إِلَى شِعْرِهِ ، حَتَّى رُبَّمَا وَازَنُوا بَيْنَ شَعْرِ مَنْ لَقِينَاهُ (تَوَفَّى الْبَاقِلَانِيُّ  
سَنَةَ ٤٠٣ هـ لِلْهَجْرَةِ) وَبَيْنَ شِعْرِهِ فِي أَشْيَاءَ لَطِيفَةٍ وَأُمُورَ بَدِيعَةٍ ، وَرُبَّمَا نَضَلُوهُمْ  
عَلَيْهِ أَوْ سَوَّوْا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ أَوْ قَرَّبُوا مَوْضِعَ تَقَدُّمِهِ عَلَيْهِمْ وَبَرُوزِهِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ . اهـ  
وَمَعْنَى كَلَامِهِ أَنَّ امْرَأَ الْقَيْسِ أَصْلٌ فِي الْبَلَاغَةِ ، قَدَمَاتٌ وَلَا يَزَالُ يَخْلُقُ ، وَتَطَوَّرَتْ  
الدُّنْيَا وَلَا يَزَالُ يَجِيءُ مَعَهَا ، وَبَلَغَ الشَّعْرُ الْعَرَبِيُّ غَايَتَهُ وَلَا تَزَالُ عَرَبِيَّةٌ عِنْدَ الْغَايَةِ  
وَعَرَضَ الْبَاقِلَانِيُّ فِي كِتَابِهِ طَوِيلَةَ امْرِئِ الْقَيْسِ<sup>(٥)</sup> فَانْتَقَدَ مِنْهَا أَيْبَانًا

(٥) أَيْ مَعَالِمَتَهُ ، وَهَذِهِ الْقِصَاصُ الَّتِي تَسْمَى الْمَعَالِمَاتِ لَمْ تَكْتُبْ وَلَمْ تَعْلَقْ كَمَا سَنَبَدْتَهُ

فِي تَارِيخِ آدَابِ الْعَرَبِ

[ قُلْتُ : انْظُرِ الْجُزْءَ الثَّلَاثَ ]

كثيرة ، ليدل بذلك على أن أجود شعر وأبدعه وأفصحه وما أجمعوا على تقدمه في الصناعة والبيان ، هو قبيل آخر غير نظم القرآن لا يمتنع من آفات البشرية ونقصها وعوارها ؛ فركب في ذلك رأسه ورجليه معاً ... فأصاب وأخطأ ، وتعسف وتهدى ، وأنصف وتحامل ؛ وكل ذلك لمكانة امرئ القيس في ابتكاره الياقنى الذى لا يمكن أن يدفع عنه ؛ ولما انتقد قوله :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لحوها غير معجل

قال : « فقد قالوا عني بذلك أنها كبيضة خدر في صفاتها ورقتها ، وهذه كلمة حسنة ولكن لم يسبق إليها بل هي دائرة في أفواه العرب » . ألا ليت شعري هل كان الباقلاني يسمع من أفواه العرب في عصر امرئ القيس قبل أن يقول (وبيضة خدر) ؟

على أن الكناية عن الحبيبة ( بيضة الخدر ) من أبدع الكلام وأحسن ما يؤتى العقل الشعري ، ولو قالها اليوم شاعر في لندن أو باريس بالمعنى الذى أرادته امرؤ القيس — لا بما فسر بها به الباقلاني — لاستبدعت من قائلها ولا أصبحت مع القبلة على كل فم جميل ؛ بل هم يمرون في بعض بيانهم من طريق هذه الكلمة ، فيكنون عن البيت الذى يتلاقى فيه الحبيبان (بالعش) ، وما يتخذ العش إلا للبيضة . إنما عني الشاعر العظيم أن حبيبته في نعومتها وترفها ولين ما حولها ، ثم في متنها وحرارة الشباب فيها ، ثم في رقتها وصفاء لونها وبريقها ، ثم في قيام أهلها وذويها عليها ولزومهم إياها ، ثم في حذرهم وسهرهم ، ثم في انصرافهم بحملة الحياة إلى شأنها وبحملة القوة إلى حياطتها والمحاماة عنها — هي في كل ذلك منهم ومن نفسها كبيضة الجارح في عشه ، إلا أنها بيضة خدر ، ولذلك قال بعد هذا البيت :

تجارت أحراساً إليها ومعشراً على حراساً لويسرون مقتلي

فتلك بعض معاني الكلمة وهي كما ترى ، وكذلك ينبغي أن يفسر البيان ....

## البؤساء<sup>(١)</sup>

ترجم حافظ هذا الجزء الثانى من البؤساء فطوى به الاول، وكانوا يحسبون الاول قد عقلت بمثله البلاغة فلا ثانى له. وبين الجزئين زمن لو اتسع به أديب فى قراءة كتب الادب لاستوعبها كلها، فكأن ارتفاع السن بحافظ فى هذه المدة جعل منه فى قوة الادب حافظين يترجمان معاً

وما البؤساء فى ترجمته إلا فكر فيلسوف تعلق فى قلم شاعر فانعطفت عليه حواشى البيان من كل نواحيه، وجاء ما تدرى أشعراً من الثرأم نثراً من الشعر، وخرجت به الكتابة فى لون من الصفاء والإشراق كأنما تنحل عليه أشعة الضحى

ترجم حافظ فوضع اللغة بين فكره ولسانه، ووقف تحت سخابة من السحب التى خفى عليها جناح جبريل، فما تخلو كتابته من ظلم يتنفس عليك برائحة الإعجاز؛ وتراه يتحدر مع الكلام ويتناول منه ويدع، فما نزع به الكلام منزعاً إلا وجده متمكناً منه وأصابه حيث أصابه كالتيار جملة واحدة تلف أول النهر وآخره على مد ما يجرى؛ فهو حيث كان فى السهل وفى الصعب، غير أنه يستسر فى موضع ويستعلن فى موضع، ويحيش ويهدر ويترامى فى العمق فيدوى دويّاً

ومن هنا يحسبه بعضهم يحنح إلى ما يستجنى من الكلام، وإلى استكراه بعض الألفاظ والتكلف لبعضها؛ وإنما ذاك وضع من أوضاع اللغة ومذهب من مذاهب البلاغة، ولا بد أن يشتد القول ويلين، وأن يكون فى أجراس الحروف ما فى نغم الإيقاع؛ وما أشبه هندسة البيان بهندسة الطبيعة التى تغمز

---

(١) كتبها عن الجزء الثانى من البؤساء؛ وانظر مقال المؤلف عن حافظ فى هذا الجزء



النهر وترمى بالبحر وتقذف بالجبل الأشم؛ وما الجبل لو حققت في وجود التناسب الطبيعي إلا بحرقة تحجر فانتثرت أمواجه من صخوره، وكلا اثنيهما على ما بين الصلابة واللين تعبير في أساليب القوة عن القوة، وتوضيح لأقوى مالا يمكن أن يظهر، بأقوى مالا يمكن أن يخفى

يخطئ الضعاف من الكتاب وبخاصة في أيامنا هذه ... إذا حسبوا المصاحبة العربية قبيلا واحداً من اللفظ الرقيق المأنوس؛ ولقد تجد بعض هؤلاء الضعفاء وإنه يرى في الكلام الجزل المتفصح ما يرى في جمجمة الأعاجم إذا نظقوا فلم يبينوا؛ وإنما هي العربية، وإنما فصاحتها في مجموع ما يطرد به القول؛ والفصاحة في جماتها وتفصيلها إحكام التناسب بين الألفاظ والمعاني، والغرض الذي يتجه إليه كلاهما؛ فتي فصل الكلام على هذا الوجه وأحكم على هذه الطريقة، رأيت جماله واضحاً بيئاً في كل لفظ تقوم به العبارة، من الدسج المهلهل الرقيق، إلى الحبك المحكم الدقيق، إلى الأسلوب المندمج الموثق الذي يسرد في قوة الحديد؛ إذ يكون كل حرف لموضعه، ويكون كل موضع لحرفه، ويكون كل ذلك بمقدار لا يسرف، وقياس لا يخطئ، ووزن لا يختلف؛ وهذه هي طبيعة الفصاحة العربية دون سائر اللغات، وبها يمكن الإعجاز في هذه اللغة ولم يمكن في سواها

ومترجم البؤساء أحد الأفراد المعدودين الذين أحكموا هذه الطريقة ونفذوا إلى أسرارها، ففي كل موضع من كتابته، ووضع روعة، حتى ما تدرى أي كتب أم يصوغ أم يصور، وكأنه لا ينقل من لسان إلى لسان بل من فكر إلى فكر، فترى أكثر جملة كأنها تضيء فيها المصاييح

ومن الخواص التي انفرد بها حافظ أنه ظاهر في صنعة ألفاظه ظهور هيئته في صنعة معانيه؛ إذ لا تجد غيره من المترجمين يتسع لهذا الأسلوب أو

يطايقه ؛ وأكثر الكتب المترجمة إلى العربية إنما تطمس على اسم المترجم قبل أن تكشف عن اسم المؤلف ، فلا يحيا الميت إلا بموت الحي ؛ وهم في أكثر ما يصنعون لا يعدون أن يصححوا العامية أو يفصحوا بها قليلا ، فيستوى في صنعة البيان أن يكون ناقل الكتاب هذا أو ذاك أو ذلك ، لأنهم سواسية ، ولا تؤتيك كتبهم أكثر مما تؤتيك الاسم المعلق على مسماه

غير أنك في البؤساء ترى مع الترجمة صنعة غير الترجمة ، وكأنما ألف هيجو هذا الكتاب مرة وألفه حافظ مرتين ، إذ ينقل عن الفرنسية ؛ ثم يفتن في التعبير عما ينقل ، ثم يحكم الصنعة فيما يفتن ، ثم يباليغ فيما يحكم ؛ فأنت من كتابه في لغة الترجمة ، ثم في بيان اللغة ، ثم في قوة البيان ؛ وبهذا خرج الكتاب وإن مترجمه لاحق به في العربية من مؤلفه ، وجاء وما يستطيع أحد أن ينسى أنه لحافظ دون سواه

وتلك طريقة في الكتابة لا يستعان عليها إلا بالأدب الغرير ، والذوق الناضج ، والبيان المطبوع ؛ ثم بالصبر على مطاولة التعب ومعاناة الكد في تخير اللفظ وتجويد الأسلوب وتصفية العبارة ؛ فلقد ينفق الكاتب وقتاً في عمر الليل ليخرج من آخره سطرأ في نور الفجر ، وبهذا الصنيع جاءت صفحات البؤساء على قلبها كشباب الهوى ؛ لكل يوم منه فجره وشمسه ، ولكل ليلة قرها ونجومها



والذي نغتمزه في هذه الترجمة أن الضجر يستبد أحيانا بصاحبنا فيستكرهه على غير طبعه ، ويرده إلى غير مألوفه ؛ ومن ثم يضطرب ذوقه وسليقته أو يذهب به عنهما ، فيعدل بالمعنى عن لفظه المعروف الذي استعمله الأدباء فيه ، كاستعماله قارن بين كذا وكذا ، وإنما يستعملون مثل بينهما ، أو يخل بوزن الكلمة

فى ميزان الذوق ، فترى العبارة اليابسة فى الجملة الخضراء التى ترف ؛ وذلك  
ما لامطمع لأحد أن يسلم منه ؛ لأنه أثر الضعف الإنسانى فىمن ارتهنوا  
أنفسهم بملايسة القوة العليا فى هذه الإنسانية  
ولم يتنزه عنه كتاب إلا ذلك الكتاب العزيز الذى اهتزت له السموات  
السبع والأرض ومن فىهن

## الملاح التائه<sup>(١)</sup>

إذا أردت أن أكتب عن شعر فقرآته ، كان من دأبى أن أقرأه متثبثاً  
أتصفح عليه فى الحرف والكلمة ، إلى البيت والقصيدة ، إلى الطريقة والنهج ،  
إلى ما وراء الكلام من بواعث النفس الشاعرة ودوافع الحياة فيها ، وعن أى  
أحوال هذه النفس يصدر هذا الشاعر ، وبأىها يتسبب إلى الإلهام ، وفى أىها  
يتصل الإلهام به ، وكيف يتصرف بمعانيه ، وكيف يسترسل إلى طبعه ، ومن أين  
المأتى فى رديته وسقطه ، وبماذا يسلك إلى تجويده وإبداعه

ثم كيف حدة قريحته وذكاء فكره والملكة النفسية البليانية فيه ، وهل هى  
جبارة متعسفة تملك البيان من حدود اللغة فى اللفظ إلى حدود الإلهام فى  
المعنى ، ملكة استقلال تنفذ بالأمر والنهى جميعاً ، أو هى ضعيفة رخوة ليس معها  
إلا الاختلال والاضطراب ، وليس لها إلا ما يحمل الضعيف على طبعه المكشود  
كلما عنف به سقط به ؟

أتبين كل هذا فيما أقرأ من الشعر ، ثم أزيد عليه انتقاده بما كنت أصنعه

---

(١) ديوان الشاعر المهندس على محمود طه . وانظر حياة الرانعى ، ص ١٧٦ - ١٧٨

أنا لو أنى عاجلت هذا الغرض أو تناولت هذا المعنى ، ثم أضيف إلى ذلك كله ما أثبتته من أنواع الاهتزاز التى يحدثها الشعر فى نفسى ؛ فإنى لأطرب للشعر الجيد الوثيق أنواعاً من الطرب لا نوعاً واحداً ، وهى تشبه فى التفاوت ما بين قطرة الندى الصافية فى ورق الزنبقة وقطرة الشعاعة المتألقة فى جوهر الماسية وموجة النور المتألهة فى كوكب الزهرة

وأكثر الشعر الذى يُنظم فى أيامنا هذه لا يتصل بنفسى ولا يخف على طبعى ، ولا أراه يقع من الشعر الصحيح إلّا من بعد ، وهو منى أنا كالرجل يمر بى فى الطريق لا أعرفه : فلا ينظر إلىّ ولا أنظر إليه ، فما أبصر منه رجلاً وإنسانية وحياة أكثر مما أراه ثوباً وحذاء وطربوشاً والعجيب أنه كلما ضعف الشاعر من هؤلاء قوى على مقدار ذلك فى الاحتجاج لضعفه ، وألهم من الشواهد والحجج ما لو ألهم بعده من المعانى والخواطر لكان عسى ...

فإذا نافرّت المعانى ألفاظها واختلفت الألفاظ على معانيها قال : إن هذا فى الفن ... هو الاستواء والاطراد والملاءمة وقوة الحبك ؛ وإذا عوص وخانه اللفظ والمعنى جميعاً وأساء ليتكلف وتساقط ليتجذاق وجاءك بشعره وتفسير شعره والطريقة لقهم شعره قال : إنه أعلى من إدراك معاصريه ، وإن عجرة معانيه هذه آتية من أن شعره من وراء اللغة ، من وراء الحالة النفسية ، من وراء العصر ، من وراء الغيب ؛ كأن الموجود فى الدنيا بين الناس هو ظل شخصه لا شخصه ، والظل بطبيعته مطموس مبهم لا يُبين إبانة الشخص . وإذا أهلك الشاعر الاستعارة وأمراض التشبيه وخنق المجاز بحبل - قال لك : إنه على الطريقة المصرية وإنما سدد وقارب وأصاب وأحكم . وإذا سعى المقالة قصيدة .... وخطط فيها خلطه وجاء بها فى أسلوب معرض وأقبحه وخرج إلى ما لا يطاق من الركاكزة والغثائفة - قال لك : هذه هى

وحدة القصيدة ، فهي كل واحد أفرغ إفراغ الجسم الحى : رأسه لا يكون إلا في موضع رأسه ورجلاه لا تكون إلا في موضع رجليه ...

تلك طبقات من الضعف تظاهرت الحجاج من أصحابها على أنها طبقات من القوة ، غير أن مصداق الشهادة للأفوياء عظامهم المشبوحة ، وعضلاتهم المفتولة ، وقلوبهم الجريئة ، أما الألسنة فهي شهود الزور في هذه القضية خاصة

\*\*\*

هناك ميزان للشاعر الصحيح وللآخر المتشاعر : فالأول تأخذ من طريقته ومجموع شعره أنه ما نظم إلا ليثبت أنه قد وضع شعرا ، والثانى تأخذ من شعره وطريقته أنه إنما نظم ليثبت أنه قرأ شعراً ... وهذا الثانى يشعرك بضعفه وتلفيقه أنه يخدم الشعر ليكون شاعراً ، ولكن الأول يريك بقوته وعبقريته إلى الشعر نفسه يخدمه ليكون هو شاعره

أما فريق المتشاعرين فليمثل له القارئ بمن شاء وهو فى سعة ... وأما فريق الشعراء فى أوائل أمثلته عندى الشاعر المهندس على محمود طه . أشهد : أنى أكتب عنه الآن بنوع من الإعجاب الذى كتبت به فى المقتطف عن أصدقائى القدماء : محمود باشا البارودى : وإسماعيل باشا صبرى ، وحافظ ، وشوقى ، رحمهم الله وأطال بقاء صاحبنا ؛ فهذا الشاب المهندس أوتى من هندسة البناء قوة التمييز ودقة المحاسبة ، ووهب ملكة الفصل بين الحسن والقبح فى الأشكال بما علته من العلم وما علته من الذوق وهذا إلى جلاء الفطنة وصقال الطبع وتموج الخيال وانفساح الذاكرة وانتظام الأشياء فيها ؛ وبهذا كله استعان فى شعره وقد خان مهندساً شاعراً ، ومعنى هذا أنه خالق شاعراً مهندساً ؛ وكأن الله تعالى لم يقدر لهذا الشاعر الكريم تعلم الهندسة ومزاولتها والمهارة فيها إلا لما سبق فى علمه أنه سينبغ نبوغه للعربية فى زمن الفوضى وعهد التقلل

وحين فساد الطريقة وتختلف الأذواق وتراجع الطبع ووقوع الغلط في هذا المنطق لانعكاس القضية ، فيكون البرهان على أن هذا شاعر وذاك نابغة وذلك عبقرى — هو عينه البرهان على أن لا شعر ولا نبوغ ولا عبقرية ؛ وهذه فوضى تحتاج في تنظيمها إلى (مصلحة تنظيم) بالهندسة وآلاتها والرياضة وأصولها والأشكال والرسوم وفنونها ، فجاء شاعرنا هذا وفيه الطب لما وصفنا ؛ فهو ينظم شعره بقريحة بيانية هندسية ، أساسها الاتزان والضبط ، وصواب الحسبة فيما يقدر للمعنى ، وإبداع الشكل فيما ينشئ من اللفظ ، وألاً يترك البناء الشعري قائماً ليقع إذ يكون واهناً في أساسه من الصناعة ، بل ليثبت إذ يكون أساسه من الصناعة في رسوخ وعلى قدر

وديوان « الملاح التائه » الذى أخرجه هذا الشاعر لا ينزل بصاحبه من شعر العصر دون الموضع الذى أومأنا إليه ؛ فما هو إلا أن تقرأ وتعتبر ما فيه بشعر الآخرين حتى تجد الشاعر المهندس كأنه قادم للعصر محملاً بذهنه وعواطفه وآلاته ومقاييسه ليصلح ما فسد ، ويقم ما تداعى ، ويرمم ما تخرب ، ويهدم ويبنى



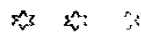
ديوان الشاعر الحق هو إثبات شخصيته ببراهين من روحه ، وها هنا فى « الملاح التائه » روح قوية فلسفية بيانية ، تؤتيك الشعر الجيد الذى تقرأه بالقلب والعقل والذوق ، وتراه كفاء أغراضه التى ينظم فيها ؛ فهو مكثّر حين يكون الإكثار شعراً ، مقل حين يكون الشعر هو الاقلال ؛ ثم هو على ذلك متين رصين ، بارع الخيال ، واسع الإحاطة ، تراه كالدارة : يصعد بك محيطها ويهبط لا من أنه نازل أو عال ، ولكن من أنه ملتف مندج ، موزون مقدر ، وضع وضعه ذلك ليطوح بك

وهو شعر تعرف فيه فنية الحياة ، وليس بشاعر من لا ينقل لك عن الحياة نقلاً فنياً شعرياً ؛ فترى الشيء في الطبيعة كأنه موجود بظاهره فقط ، وتراه في الشعر بظاهره وباطنه معاً ؛ وليس بشعر ما إذا قرأته ، واسترسلت إليه لم يكن عندك وجهاً من وجوه الفهم والتصوير للحياة والطبيعة في نفس ممتازة مدركة مصورة

ولهذا فليس من الشرط عندى أن يكون عصر الشاعر وبيئته في شعره ، وإنما الشرط أن تكون هناك نفسه الشاعرة على طريقتهما في الفهم والتصوير ، وأنت تثبت هذه النفس بهذه الطريقة ان لها أن تقول كلمتها الجديدة ، وأنها مخلوقة له الحق في أن تقولها ، إذ هي للعقول والأرواح أخت الكلمة القديمة : كلمة الشريعة التي جاءت بها النبوة من قبل

وليس في شعر على طه من عصرياتنا غير القليل ، ولكن العجيب أنه لا ينظم في هذا القليل إلا حين يخرج المعنى من عصره ويلتحق بالتاريخ ، كثرثاء شوقي ، وحافظ ، وعدلى باشا ، وفوزى المعلوف ، والطيارين دوس وحجاج ، والملك العظيم فيصل ؛ فإن يكن هذا التدبير عن قصد وإرادة فهو عجيب ، وإن كان اتفاقاً ومصادفة فهو أعجب ؛ على أنه في كل ذلك إنما يرمى إلى تمجيد الفن والبطولة في مظاهرها ، متكلمة ، وسياسية ، ومغامرة ، ومالكة أما سائر أغراضه إنسانية عامة ، تتغنى النفس في بعضها ، وتمرح في بعضها ، وتصلى في بعضها ؛ وليس فيها طيش ولا فجور ولا زندقة إلا ... ظلالاً من الحيرة أو الشك ، كتلك التي في قصيدة « الله والشاعر » ، وأظنه يتابع فيها المعرى ؛ ولست أدرى كم ينخدع الناس بالمعرى هذا ، وهو في رأي شاعر عظيم ، غير أن له بضاعة من التلفيق تعدل ماخرجه « لا نكشير » من بضائعها إلى أسواق الدنيا

ومما يعجبني في شعر على طه أنه في مناحي فلسفته وجهات تفكيره يوافق رأي الذي أراه دائماً ، وهو أن ثورة الروح الانسانية ومعركتها الكبرى مع الوجود — ليستا في ظاهر الثورة ولا في العراك مع الله كما صنع المعري وأضرابه في طيشهم وحماتهم ، ولكنهما في الهدوء الشعري للروح المتأمل ، ذلك الهدوء الذي يجعل الطبيعة نفسها تنقسم بكلام الشاعر كما تنقسم بأزهارها ونجومها ، ويجعل الشاعر أداة طبيعية متخذة لكشف الحكمة وتغطيتها معاً ؛ فإن العجيب الذي ليس أعجب منه في التدبير الإلهي للنفوس الحساسة — أن زخرفة الشعر وما يجري مجراه في الفن إنما هي ضرب من زخرف الطبيعة حين تبتدع الشكل الجميل لتتعم أغراضها من وراءه ؛ ولو ثارت الأزهار — مثلاً — على الوجود وخالقه ثورة أوائك الشعراء لما صنعت شيئاً غير إفساد حكمتها هي وما يتصل بهذه الحكمة من المصالح والمنافع ، ولن تقتصر إلا ببقائها أزهاراً ، فذلك حربها وسلبها معا .



وأسلوب شاعرنا أسلوب جزل ، أو إلى الجزالة ، تبدو اللغة فيه وعليها لون خاص من ألوان النفس الجميلة يزهو زهوه فيكثر منه في النفس تأثيرها وجمالها ، وهذه هي لغة الشعر بخاصته ؛ ولا بد أن ننبه هنا إلى معنى غريب ، وذلك أنك تجد بعض النظامين يحسنون من اللغة وفنون الأدب ، فإذا نظموا وخلا نظمهم من روح الشعر — ظهرت الألفاظ في أوزانهم وكأنها فتدت شيئاً من قيمتها ، كأن موضعها في هذا النظم غير موضعها في اللغة ، وما اختلف اللفظ ولا غيره ، ولكن وضعه ثم هو الذي أساء إفلاسه ، إذ أقامه مقام الذي يريد أن يعطى ثم هو إذا وقف لا يصنع شيئاً إلا أن يعتذر بأنه لم يجد ما يعطيه ... فهذا كان رجلاً من الناس وكان في ستر وعافية ، فلما وقف



موقفه انقلب مدلساً كاذباً مدّعياً فاختلقت به الحال وهو هو لم يتغير  
وما الأسلوب البياني إلا وسيلة فنية لمضاعفة التعبير ، فإن لم يكن هذا  
ما يعطيه كان وسيلة فنية أخرى لمضاعفة الخيبة ؛ وهذا ما تحسه في كثير من  
شعر النظامين أو البديعيين في العصور الميئة ، وتحسه في الشعر الميت الذي  
لا يزال ينشر بيننا

وعلى طه إذا حرص على أسلوبه وبالع في إتقانه واستمر بحريه على  
طريقته الجيدة متقدماً فيها ، متعمقا في أسرار الألفاظ وما وراء الألفاظ ،  
وهي تلك الروعة البيانية التي تكون وراء التعبير وليس لها اسم في التعبير ،  
معتبراً اللغة الشعرية — كما هي في الحقيقة — تأليفاً موسيقياً لا تأليفاً لغوياً ...  
فإنه ولا ريب سيجد من إسعاف طبعه القوى ، وعون فكره المشبوب ، وإلهام  
قريحته المولدة — ما يجمع له النبوغ من أطرافه ، بحيث يعده الوجود من كبار  
مصوريه ، وتتخذ الحياة من بلغاء المعبرين عنها في العربية ؛ ومن ثم تنظمه  
العربية في سمط جواهرها التاريخية الثمينة ، ويصله السلك بشوقي وحافظ  
والبارودي وصبري ، إلى المتنبي والبحري وابن الرومي وأبي تمام ، إلى ما وراء  
ذلك ، إلى الجوهرة الكبرى المسماة جبل النور البياني ، إلى امرئ القيس  
وليس هذا ببعيد على من يقول في صفة القلب :

|                         |                           |
|-------------------------|---------------------------|
| يا قلب نذك أي أسرار     | مازلن في نشر وفي طي       |
| يا ثورة مشجوبة النار    | أقلقت جسم الكائن الحي     |
| حملته العبء الذي فرقت   | منه الجبال وأشفقت رهبا    |
| وأثرت منه الروح فانطلقت | تحسوا الحميم وتأكل اللهبا |
| وعجبت منك ومن إباءك في  | أسر الجمال وربقة الحب     |
| وتلفّت المتكبر الصلف    | عن ذلة المقهور في الحرب   |

ووهمت ناراً ذات إيماض      فبسطت كفك نحوها فزعا  
مرت بعينك لمحة الماضى      فوثبت تمسك بارقاً لمعا  
والأرض ضاق فضاؤها الرحب      وخلت فلا أهل ولا سكن  
حال الهوى وتفرق الصحب      وبقيت وحدك أنت والزمن  
ولو ذهبنا نختار من هذا الديوان لا اخترنا أكثره ، فقصائده ومقاطيعه  
تتعاقب ، ولا يمكن تعاقب الشمس على أيامها : تظهر جديدة الجمال فى كل صباح ،  
لأن وراء الصباح مادة الفجر ، وكذلك تأتى القصائد من نفس شاعرها

....

## المقتطف والمتنبى<sup>(١)</sup>

المقتطف شيخ مجلاتنا ؛ كلهن أولاده وأحفاده ؛ وهو كالجدّ الأكبر : زمنٌ  
يجتمع ، وتاريخ يتراكم ، وانفرادٌ لا يلحق ، وعلم يزيد على العلم بأنه فى  
الذات التى تفرض إجلالها فرضاً وتجب لها الحرمة وجوباً وبتضاعف منها  
الاستحقاق فيتضاعف لها الحق

وهل الجد إلا أبوة فيها أبوة أخرى ، وهل هو إلا عرش حتى درجاته الجليل  
تحت الجليل ، وهل هو إلا امتداد مسافاته العصر فوق العصر ؟

والمقتطف يكبر ولا يهرم ، ويتقدم فى الزمن تقدم المخترعات ماضيةً  
بالنواميس إلى النواميس ، مقيدةً بالمبدأ إلى الغاية ؛ وهو كالعقل المنفرد بعبقريته :  
واجبه الأول أن يكون دائماً الأول ؛ فلقد أنشئ هذا المقتطف وما فى  
المجلات العربية ما يغنى عنه ، ثم طوى فى الدهر سبعة وثمانين مجلداً أقامها سبعة

---

(١) كتاب والمتنبى ، للصدىق محمود محمد شاكر .

وثمانين دليلاً على أن ليس ما يغنى عنه ؛ ثم أسقّت الدنيا حوله بأخلاقها وطباعها ، وتحولت مجلات كثيرة إلى مثل الراقصات والمغنيات والممثلات ... وبقى هو على وفائه لمبدئه العلى والسمو فيه والسمو به ، كأنما أخذ عليه فى العلم والأدب ميثاق كميثاق النبيين فى الدين والفضيلة ؛ فبين يديه الواجب لا الغرض ، وهمّه الإبداع بقوى العقل لا الاحتيال بها ، وهديّه الحقيقة الثابتة فى الدنيا لا الأحلام المتقلبة بهذه الدنيا ، وطريقه فى كل ذلك طريق الفيلسوف ، من هدوء نفسه لامن أحوال الدهر ، فهو ماضٍ على اليقين ، نافذ إلى الثقة ، متنقل فى منزلة منزلة من يقينه إلى ثقته ، ومن ثقته إلى يقينه

وقد بدأ المقتطف مجلده الثامن والثمانين بعدد ضخم أفرده للمتنبى<sup>(١)</sup> . ولئن كانت الأندية والمجلات قد احتفلت بهذا الشاعر العظيم ، فما أحسب إلا أن روح الشاعر العظيم قد احتفلت بهذا العدد من المقتطف ولست أغلو إذا قلت إن هذه الروح المتكبرة قد أظهرت كبرياءها مرة أخرى . فاعتزلت المشهورين من الكتاب والأدباء ، ولزمت صديقنا المتواضع الأستاذ محمود شاكر مدة كتابته هذا البحث النفيس الذى أخرجه المقتطف فى زهاء ستين ومائة صفحة ، تدلّه فى تفكيره ، وتوحى إليه فى استنباطه ، وتديه فى شعوره ، وتبصره أشياء كانت خافية وكان الصدق فيها ، ليردّها على أشياء كانت معروفة وكان فيها الكذب ؛ ثم تعينه بكل ذلك على أن يكتب الحياة التى جاءت من تلك النفس ذاتها ، لا الحياة التى جاءت من نفوس أعدائها وحسادها

ولقد كان أول ما خطر لى بعد أن مضيت فى قراءة هذا العدد — أن المؤلف جاء بما يصح القول فيه إنه كتّب تاريخ المتنبى ولم ينقله ؛ ثم لم أكد أمعن فى القراءة حتى خيل إلى أنه قد وضع لشعر المتنبى بعد تفسير

الشراح المتقدمين والمتأخرين تفسيراً جديداً من المتنبي نفسه ؛ وما الكلمة الجديدة في تاريخ هذا الشاعر الغامض إلا الكلمة التي نشرها المقتطف اليوم إن هذا المتنبي لا يفرغ ولا ينتهي ؛ فإن الإعجاب بشعره لا ينتهي ولا يفرغ ؛ وقد كان نفساً عظيمة خلقها الله كما أراد ، وخلق لها مادتها العظيمة على غير ما أرادت ، فكأنما جعلها بذلك زمناً يمتد في الزمن

وكان الرجل مطويا على سر ألقى الغموض فيه من أول تاريخه ، وهو سر نفسه ، وسر شعره ، وسر قوته ؛ وبهذا السر كان المتنبي كالمملك المغصوب الذي يرى التاج والسيف ينتظران رأسه جميعاً ، فهو يتقى السيف بالحذر والتلفف والغموض ، ويطلب التاج بالسكتمان والحيلة والأمل

ومن هذا السر بدأ كاتب المقتطف ، فجاء بحثه يتحدّر في نسق عجيب ، متسلسلاً بالتاريخ كأنه ولادة ونمو وشباب ؛ وعرض بين ذلك شعر أبي الطيب عرضاً خيل إلى أن هذا الشعر قد قيل مرة أخرى من فم شاعره على حوادث نفسه وأحوالها ؛ وبذلك انكشف السر الذي كان مادة التهويل في ذلك الشعر المخم ، إذ كانت في واحة الرجل دولة أضخم دولة ، عجز عن خلقها وإيجادها فخلقها شعرا أضخم شعر ، وجاءت مبالغاته كأنها أكاذيب آماله البعيدة متحققة في صورة من صور الإمكان اللغوى

ومن أعجب ما كشفه من أسرار المتنبي سر حبه ، فقال : إنه كان يحب خولة أخت الأمير سيف الدولة ، وكتب في ذلك خمس عشرة صفحة كبيرة ، وكأنها لم تُرضه فقال إنه كان يؤمل أن يكتب هذا الفصل في خمسين وجهاً من المقتطف ؛ وهذا الباب من غرائب هذا البحث ، فليس من أحد في الدنيا المكتوبة (أى التاريخ) يعلم هذا السر أو يظنه ، والأدلة التي جاء بها المؤلف تقف الباحث المدقق بين الإثبات والنفي ؛ ومتى لم يستطع المرء نفياً ولا

إثباتاً في خبر جديد يكشفه الباحث ولم يهتد إليه غيره ، فهذا حسبك إعجاباً يُذكر ، وهذا حسبه فوزاً يُعدّ

ولعمري لو كنت أنا في مكان المتنبي من سيف الدولة لقلت إن المؤلف قد صدق ... فهناك موضع لا بد أن يبحث في القلب الشاعر الذي وضعت فيه الدنيا حكمتها ، وطوت فيه القوة سرها ، وبث فيه الجمال وحيه ؛ وأصفر هذه الثلاث أكبر من الملوك والممالك ، ولكن الحبيبة أكبر منها كلها ...

(٥)

## محمد

عملُ الأستاذ توفيق الحكيم في تصنيف هذا الكتاب أشبهُ شيء بعمل « كريستوف كولمب » في الكشف عن أمريكا وإظهارها من الدنيا للدنيا : لم يخلق وجودها ولكنه أوجدها في التاريخ البشري ، وذهب إليها فقيل جاء بها إلى العالم ، وكانت معجزته أنه رآها بالعين التي في عقله ، ثم وضع بينه وبينها الصبرَ والمعاناةَ والحدقَ والعلمَ حتى انتهى إليها حقيقة ماثلة

قرأ الأستاذ كتب السيرة وما تناولها من كتب التاريخ والطبقات والحديث والشمائل ، بقريحة غير قريحة المؤرخ ، وفكرة غير فكرة الفقيه ، وطريقة غير طريقة المحدث ، وخيال غير خيال القاص ، وعقل غير عقل الزندقة ، وطبيعة غير طبيعة الرأي ، وقصد غير قصد الجدال ؛ فخلص له الفن الجميل الذي فيها ، إذ قرأها بقريحته الفنية المشبوبة ، وأمرها على إحساسه الشاعر المتوثب ، واستلّها من التاريخ بهذه القريحة وهذا الإحساس كما هي

---

(٥) كتاب توفيق الحكيم

فِي طبيعتها السامية متجهةً إلى غرضها الإلهي محققةً عجائبها الروحانية المعجزة وقد أمدته السيرة بكل ما أراد ، وتطاوعت له على ما اشتهى ، ولانت في يده كما يلين الذهب في يد صائغه ؛ فجاء بها من جواهرها وطبيعتها ليس له فيها خيال ولا رأى ولا تعبير ، وجاءت مع ذلك في تصنيفه حافلة بأبداع الخيال ، وأسسى الرأى ، وأبلغ العبارة ؛ إذ أدرك بنظرته الفنية تلك الأحوال النفسية البليغة ، فنظمها على قانونها في الحياة ، وجمع حوادثها المدونة فصورها في هيئة وقوعها كما وقعت ، واستخرج القصص المرسلّة فأدارها حواراً كما جاءت في السنة أهلها ؛ وبهذه الطريقة أعاد التاريخ حياً يتكلم وفيه الفكرة وملائكتها وشياطينها ، وكشف ذلك الجمال الروحاني فكان هو الفن ، وجلت تلك النفوس العالية فكانت هي الفلسفة ، وأبقى على تلك البلاغة فكانت هي البيان . كانت السيرة كاللؤلؤة في الصدفة ، فاستخرجها فجعلها اللؤلؤة وحدها



إن هذا الكتاب يفرض نفسه بهذه الطريقة الفنية البديعة ، فليس يمكن أن يقال إنه لا ضرورة لوجوده ؛ إذ هو الضروري من السيرة في زمننا هذا ، ولا يُغْتَمَرُ فيه أنه تخريف وتزوير وتلفيق ؛ إذ ليس فيه حرف من ذلك ، ولا يردُّ بأنه آراء يخطئ المخطئ منها ويصيب المصيب ؛ إذ هو على نص التاريخ كما حفظته الأسانيد ، ولا يُرمى بالغشاة والركاكة وضعف النسق ؛ إذ هو فصاحة العرب الفصحاء الخُصَّص كما رُويت بألفاظها ؛ فقد حصنه المؤلف تحصيئاً لا يُقتحم ، وكان في عمله مخلصاً أتم الإخلاص ، أميناً بأوفى الأمانة ، دقيقاً كل الدقة ، حذراً بغاية الحذر

ومن فوائد هذه الطريقة أنها هيأت السيرة للترجمة إلى اللغات الأخرى

فى شكل من أحسن أشكالها يرغم هذا الزمن على أن يقرأ بالإعجاب تلك الحكاية المنفردة فى التاريخ الإنسانى ؛ كما أنها قرّبت وسهلت فجعلت السيرة فى نصها العربى كتاباً مدرسياً بليغاً بلاغة القلب واللسان ، مريباً للروح ، مرهفاً للذوق ، مصححاً للملكة البيانية

وحسبُ المؤلف أن يقال بعد اليوم فى تاريخ الأدب العربى : إن ابن هشام كان أول من هدّب السيرة تهذيباً تاريخياً على نظم التاريخ ، وأن توفيق الحكيم كان أول من هدبها تهذيباً فنياً على نسق الفن

## ديوان الأعشاب<sup>(٥)</sup>

أبو الوفا شاعر ملء نفسه ، مافى ذلك شك ؛ مذهبهُ الجمال فى المعنى يبدعه كأما يزهر به ، والجمال فى الصورة يخرجها من بيانه كما تخرج الغصون والأوراق من شجرتها ، وله طبع وفيه رقة ، وهو يجرى من البيان على عرق ، وسليقته تجعله ألزم لعمود الشعر وأقرب إلى حقيقة ، حتى إنه ليعد أحد الذين يعتصم الشعر العربى بهم ، وهم قليل فى زمننا ، فإن الشعر منحدر فى هذا العصر إلى العامية فى نسقه ومعانيه ، كما انحدر التمثيل ، وكما انحدرت أساليب الكتابة فى بعض الصحف والمجلات

وللعامية وجوه كثيرة تنقلب فيها الحياة ، ومرجعها إلى روح الإباحة الذى فشا بيننا ونشأ عليه النشر فى هذه المدينة التى تعمل فى الشرق غير

---

(٥) للشاعر المجيد محمود أبو الوفا ، وهذا المقال كان حديثاً مع بعض الأصدقاء عن الديوان ونشر فى الرسالة الغراء [قلت : وانظر حياة الراعى ، ص ١٨٩ - ١٩١]

عملها في الغرب ، فهي هناك رخص وعزائم ، وهي هنا تسمع وترخص ، في ظل ضعيف من العزيمة ؛ وإهمال البلاغة العربية الجميلة كما هي في قوانينها ليس إلا مظهرًا لتلك الروح تقابله المظاهر الأخرى ، من إهمال الخلق ، وسقوط الفضيلة ، وتخنث الرجولة ، وزيف الأمانة ، وفساد العقيدة ، واضطراب السياسة ، إلى مايجرى هذا المجرى مما هو في بلاغة الحياة المبينة كالمرذول والمطرح والسفساف في بلاغة الكلام الفصيح ؛ كل ذلك في مواضعه تحلل من القيود وإباحة وتسمع وترخص ، وكل ذلك عامية بعضها من بعض ، وكل ذلك لحن في البلاغة والخلق والفضيلة والرجولة والأمانة والعقيدة والسياسة .

والشعر اليوم أكثره (شعر النشر) في الجرائد ، على طبيعة الجرائد لا على طبيعة الشعر ؛ وهذه إباحة صحافية غمرت الصحف ، وأخضعت أذواق كتابها لقوانين التجارة ، فإنهم لينشرون بعض القصائد كما تنشر (الإعلانات) : لا يكون الحكم في هذه ولا هذه لبيان أو تمييز أو منفعة ، بل على قدر الثمن أو ما فيه معنى الثمن !

ومن مادية هذا العصر وطغيان العامية عليه ، أننا نرى في صدر بعض الجرائد أحياناً شعراً لا يكون في صناعة الشعر ولا في طبقات النظم أضعف ولا أبرد منه ، ولا أدل على فساد الذوق الشعري ، ولكنه على ذلك الأصل الذي أوماننا إليه يعد كلاماً صالحاً للنشر ، وإن لم يكن صالحاً للشعر

وهكذا أصبحت العاية في تمسكها تجعل من الغفلة حذقا تجاريا ، ومن السقوط علواً فلسفيا ، ومن الركافة بلاغة صحفية ، ومتى تغير معنى الحذق ، ودخلته الإباحة ، ووقع فيه التأويل ، وأحيط بالتأويل والشبه - فالريية حينئذ أخت الثقة ، والعجز باب من الاستطاعة ، والضعف معنى من التمكين ، وكل



مالا يقوم فيه عذر صحيح كان هو بطبيعة التلفيق عذر نفسه .  
وأكثر ما تفسره الصحف من الشعر هو في رأي صناعة احتطاب من  
الكلام ... وقد بطل التعب إلا تعب التقشش والحمل ، فلم تعد هناك صناعة  
نفسية في وشى الكلام ، ولا طبع موسيقى في نظم اللغة ، ولا طريقة فكرية  
في سبك المعانى ؛ وهذه العامية الثقيلة أخذ الشعر يزول عن نهجه ، وبطل  
عن سبيله ، ووقع فيه التوعر السهل ... والاستكراه المحبوب ... وصرنا إلى  
ضرب حديث من الوحشية ، هو الطرف المقابل للشعر الوحشى في أيام  
الجاهلية ؛ فدام الكلام غريباً ، والنظم قلقاً ، والمأتى بعيداً ، والمعنى مستهلكاً ،  
والنسيج لا يستوى ، والطريقة لا تشابه - فذلك كله مسخ وتشويه في الجملة  
وإن اختلفت الأسباب في التفصيل ، وإذا كان المسخ جاهلياً بالغريب من  
الألفاظ ، والنافر من اللغات ، والوحشى من المعانى ؛ وكان عصرياً بالركيك  
من الألفاظ ، والنازل من التعبير ، والهجين من الأساليب ، والسخيف من  
المعانى ؛ ثم بالسقط والخلط والاضطراب والتعقيد - فهل بعض ذلك إلا من  
بعضه ؟ وهل هو فى الشعر الجميل إلا كسلخ الإنسان الذى مسخه الله فساخته  
من معان كان بها إنساناً ، ليضعه فى معان يصير بها قرداً أو خنزيراً ليس  
عليه إلا ظاهر الشبه ، وليس معه إلا بقية الأصل ؟

فالقردية الشعرية ، والخنزيرية الشعرية . متحققتان فى كثير من الشعر  
الذى يفشر بيننا ؛ ولكن أصحاب هذا الشعر لا يرونهما إلا كمالاً فى تطور الفن  
والعلم والفلسفة ؛ وأنت متى ذهبت تحتج لزيف الشعر من قبل الفلسفة ،  
وتدفع عن صديقه بحجة العلم ، وتعمل لتصحيح فسادة بالفن -- فذلك عينه  
هو دليلنا نحن على أن هذا الشعر قردى خنزيرى ، لم يستو فى تركيبه ، ولم  
يأت على طبعه ، ولم يخرج فى صورته ؛ وما يكون الدليل على الشعر من

رأى ناظمه وافتتانه به ودفاعه عنه ، ولكن من إحساس قارئه واهتزازه له وتأثره به .



والشاعر أبو الوفا جيد الطريقة ، حسن السبك ، يقول على فكر وقريحة ، ويرجع إلى طبع وسليقة ، ولكن نفسه قلقة في موضعه الشعري من الحياة ؛ وفي رأيه أن الشاعر لا يتم بأدبه ومواهبه حتى يكون تمامه بموضع نفسه الشعري الذي تضعه الحياة فيه ؛ والكلام يطول في صفة هذا الموضع ، ولكنه في الجملة كمنبت الزهرة : لا تزكو زكاءها ولا تباع مبالغها إلا في المكان الذي يصل عناصرها بعناصر الحياة وافية تامة ، فلا يقطعها عن شيء ولا يرد شيئاً عنها ؛ إذ هي بما في تركيبها وتهيئتها إنما تتم بموضعها ذاك لتهيئته وتركيبه ، فإن كانت الزهرة على ما وصفنا ، وإلا فما بد من مرض اللون ، وهرم العطر ، وهزال النضرة ، وسقم الجمال .

ولولا أن الحكمة وفيت الأستاذ أبا الوفا قسطه من الألم . ووهبته نفساً متألماً حصرتها في أسباب ألمها حصراً لا مفر منه — لفقدت زهرتها عنصر تلوينها ، ولخرج شعره نظماً حائلاً مضطرباً منقطع الأسباب من الوحي ؛ غير أن جهة الألم فيه هي جهة السماء إليه ؛ ولو هو تكافأت جهاته المعنوية الأخرى ، وأعطيت كل جهة حقها ، وتخلصت عما يلبسها — لارتفع من مرتبة الألم إلى مرتبة الشعور بالغامض والمبهم ، ولكان عقلاً من العقول الكبيرة المولدة التي يحيا فيها كل شيء حياة شعرية ذات حس

ولكن ما دامت الحياة قد وزنت له بمقدار ، وطففت مع ذلك وبخست ، فقد كان يحس به أن يقصر شعره على أبواب الزفرة والدمعة واللهفة ، لا يعدوها ، ولا يزاول من المعاني الأخرى ما ضعفت أدواته معه أن تتصرف ،

أو انقطعت وسيلته إليه أن تبلغ ؛ وبظهر لى أن أبا الوفا يحذو على حذو  
إسماعيل باشا صبرى ، وهو شبيه به فى أنه لم تفتح له على الكون إلا نافذة  
واحدة ؛ غير أن صبرى أقبل على نافذته ونظر ماوسعه النظر ، أما أبو الوفا  
فيحاول أن ينقب فى الحائط ليجعلهما نافذتين ....

أما أنه ليس من الشعر أن تنزل الحيرة الفلسفية عن منزلتها بين اليقين  
والعقل ، أو المشهود والمحجب ، أو الواقع والسبب ، أو الرسم والمعنى -  
فتنقلب حيرة معاشية تسم الأشكال والمعانى بسمتها المادية الترابية ، وتقع  
فى الشعر فتقحم بين شعر القلب العاشق ، وشعر الفكر المتأمل - شعر المعدة  
الجائعة ، وتضع بين أشواق الكون شوقها هى إلى الطعام والثياب  
والمال .....

على أنه كان الأمثل فى التدبير ، والأقرب إلى طريقة النفس الشاعرة أن  
يصرف أبو الوفا هذا الشعور المادى الذى يتلذع به ، فيحوله فيجعله باباً من  
حكمة السخرى الشعرى بالدنيا وأهلها وحوادثها ، كما صرفه ابن الرومى من  
قبل فأخطأ فى تحويله ، فجعله مرة باباً من المدح والنفاق ، ومرة باباً من  
الهجاء والإفداع .

ولو بذل الشاعر أبو الوفا مجهوده فى ذلك ، واتهم الدنيا ثم حاكمها ،  
ونص لها القانون ، وأجلس القاضى ، وافتتح المجلس ، ورفعها قضية قضية ،  
ثم أخذها حكماً حكماً ، تارة فى نادرة بعد نادرة ، ومرة فى حكمة إلى حكمة ،  
وأونة فى سخرية مع سخرية - إذن لاهتدى هذا المتألم الرقيق إلى الجانب  
الآخر من سر الموهبة التى فى نفسه ، فأخرج مكنون هذه الناحية القوية  
منها ، فكان ولا ريب شاعر وقته فى هذا الباب ، وإمام عصره فى  
هذه الطريقة .

على أن في صفحات ديوانه أشياء قليلة توهم إلى هذه الملكة ، ولكنها  
مبثوثة في تضاعيف شعره ، والوجه أن يكون وجهه في تضاعيفها ؛ وإنه  
ليأتى بأسمى الكلام وأبدعه ، حين يعتمد إلى ذلك الأصل الذى نهىنا إليه ،  
فيصرف لهفة نفسه إلى بعض وجوهها الشعرية ، كقوله في «حلم العذارى» ،  
وهى من بدائع ومحاسن شعره :

|                   |                   |
|-------------------|-------------------|
| هاهما عيناك تغري  | نى على شتى الظنون |
| فيهما بحر وموج    | وسهول وحزون       |
| ووضوح وغموض       | واضطراب وسكون     |
| ومعان بينات       | ومعان لا تبين     |
| وتهاويل فنون      | من رشاد وجنون     |
| وأشعاع حيارى      | من منى أو من حنين |
| ليت شعري أى سر    | خلفها تيك الجفون  |
| آه إن السر أنبا   | عنه ذان الطائران  |
| حينما مالا على غص | نهما يعتنقان ...  |

فهذه أبيات في شعر الجمال كالحراب مأوّه عابده ...

# النجاح وكتاب سر النجاح<sup>(١)</sup>

ما خلق الله ذا عقل من بنى آدم إلا أودع في تركيبه شيئين كالمقدمة والنتيجة ، وأعطاه بهما القدرة على الوسيلة والغاية ، ليحييا من حياً عن بينة ويهلك من هلك عن بينة ؛ ففي تركيب الإنسان قوة الرغبة في النجاح وأن يتأق إلى سره أو يبلغ منه أو يقاربه ، وفي هذا التركيب عينه ما يهتك به هذا الحجاب ويفضى منه إلى هذا السر ويجمع بك عليه ، وما أنكر أن النجاح قدر من الأقدار ، ولكنه قدر ذو رائحة قوية خاصة به يستروحها من تحت السماء وهو لا يزال في السماء وبينه وبين الأرض أمد ودهر وأسباب وأقدار كثيرة ؛ ولولا أن هذه الخاصية فيه وفي الإنسان منه لما توفرت رغبة في عمل ولا صح نشاط في الرغبة ولا توجه عزم إلى النشاط ولا توثقت عقدة على العزم

غير أن في الإنسان كذلك ما يفسد هذه الخاصية أو يضعفها أو يعطلها تعطيلاً ، فإذا هي تضل ولا تهدي وكانت تهدي ولا تضل ، وإذا هي زائغة عن الحق ملتوية عن القصد وكانت هي السبيل إلى الحق وهي الدليل على القصد ؛ وما ينال منها شيء إلا واحد من ثلاث : العجز ، وضعف الهمة ، واضطراب الرأي فأما العجز فنزلة تجعل الإنسان كالنبات يرتفع عن الأرض بعوده ولكنه غائر فيها بأصول حياته ، وأما ضعف الهمة فنزلة الحيوان الذي لا هم له إلا أن يوجد كيفما وجد وحيثما جاء موضعه من الوجود ، إذ هو يولد ويكدهح ويكد ليكون لحماً وعظماً وصوفاً ووبراً وشعراً أثاثاً ومتاعاً ، وكأنه ضرب

آخر من النبات إلا أنه نوع آخر من المنفعة  
وأما اضطراب الرأي فنزلة بين المنزلتين ترجع إلى هذه مرة وإلى هذه  
مرة وتقع من كليهما ، وقعها ، والعجز وضعف الهمة واضطراب الرأي  
في لغة العقل معان ثلاثة لكلمة واحدة هي الخيبة ، وما أسرار النجاح إلا  
الثلاثة التي تقابلها وهي القوة والعزيمة والثبات

ولكن في هذا الإنسان طفولةً وشباباً ، وهما حالتان لا بد منهما ، وهما من  
الضعف والنزق بطبيعتهما ، وفيهما يتثاقل الإنسان إلى أغراضه ، ويرتد عن  
صعابها ، وينخدل دون غاياتها ؛ وليس يأتي للطفل أن يدرك الرجل في معانيه ،  
ولا للشباب أن يبلغ الحكيم في كماله ؛ فكأن هذين ليس لهما أمل في أسباب  
النجاح ، وكأن كليهما لا يحسن أن يطوى فؤاده على شيء ولا أن يجمع رأيه  
على أمر ، غير أن من حكمة الله ورحمته أنه أرصد من نواميسه القوية  
لضعف الطفولة ونزق الشباب ما هو سناد يمنع ، وموئل يعصم ، وقوة تصلح ؛  
وهو ناموس القدوة الذي يتمثل في الأب والام والصاحب والعشير والمعلم  
والكتاب ؛ لأن الله جَلَّتْ قدرته يَبْثُ في الخاق ما يوجههم دائماً إلى  
الاعتقاد ويحملهم عليه ويبصرهم به ، حتى كأن الحياة كلها إنما هي ممارسة لفضيلة  
الإيمان به من حيث يدرى الإنسان أو لا يدرى

وكتاب سر النجاح الذي ترجمه أستاذنا العلامة الدكتور يعقوب صروف  
في سنة ١٨٨٠ وظهرت طبعته الرابعة في هذه الأيام ، هو والله في باب القدوة  
ناموس على حدة ، وما رأيت كتاباً تلائم نسجه واستوت أجزاؤه ووضع  
آخره على أوله وانسب كله إلى الغرض الذي كتب فيه وجاء مقطعا واحدا  
في معناه وفائدته - كهذا الكتاب الذي يعلم الضعيف كيف يقوى ، والعاجز  
كيف يعتمد ، والمضطرب كيف يثبت ، والمحزون كيف يأمل ، واليائس كيف

يثق، والمنهزم في الحياة كيف يقبل، والساقط كيف ينتهض؛ ويعلمك مع ذلك كيف تريح الكد بالكد، وكيف تسقط التعب بالتعب، وكيف تمضي عزيمتك وتعتقدها وتضرب كرة الأرض بقدميك وإن لم تكن ملاكاً ولا قائداً ولا فاتحاً، وإن كنت من صميم السوقة، وإن كنت من فقرك وراء عتبة واحدة؛ لأقول إن هذا الكتاب علم، فإن هذا القول يسقط به دون منزلته ولا يعدو في وصفه أن يجعله مجموعاً من الورق الصقيل على طبع جيد، مع أنه مجموع من الأرواح والعزائم وأعصاب القلوب؛ ولكني أقول في وصفه العلى إن المدارس تخرج من الكتب تلاميذ... وهذا الكتاب يخرج من التلاميذ رجالاً أقوياء أشداء معصومين عصيب جذوع الشجر العاتى، من قوة النفس وصلابتها. وصحة العزيمة ومضائها، وتصميم الرأى ونفاذه؛ ومما يعطى من قوة الصبر والثبات ومطاولة التعب إلى أبعد حدود الطاقة الإنسانية

وما تقرأه حق قراءته وتستوفيه على وجهه من التدبر والإمعان إلا خرجت منه وقد وضع في نفسك شيئاً أعظم من نفسك كأننا من كنت وكيف كنت، فإن تكن طفلاً خرجت رجلاً، وإن كنت رجلاً خرجت حكيماً، وإن كنت حكيماً استحدثت في نفسك ما يجعلك بالحكمة فوق الدنيا وكنت بها في الدنيا

قال الأستاذ المترجم في مقدمته: «أشهد لأبناء وطنى أننى لم أنتفع بكتاب قدر ما انتفعت بهذا الكتاب». وهذه هى الكلمة التى لا يقول غيرها من يقرأ «سر النجاح»، ولا يمكن أن يقول غيرها؛ إذ هو بنى في وضع من فائدة النفس وما يرهف حدها ويبتعث ملكاتها ويستنهض قواها ويستنفد وسائلها على ما يشبه القواعد التى لا تؤدى إلا إلى نتيجة واحدة من أين

اعتبرتها ، كاثنان واثنان أربعة ، وثلاثة وواحد أربعة ، وأربعة وحدات أربعة ، وهلمّ جرّاً

تلك شهادة المترجم ، أما أنا فأشهد لقد عرفت منذ زمن طالباً في الأزهر ، فلما تعرّف إلىّ جعل يشكو ويتبرم وينفض لى نفسه ويقول : الأزهر وعلومه وفنونه ومسائله ومشاكله ، والمتون وما فيها ، والشروح وما إليها والخواشي وما يرد ويعترض ويحاج به ويقال فيه ، وكل كلمة بساعة من العمر ، وكل سطر بيوم ، وكل جزء بسنة ، وتركت ورأى كذا وكذا فداناً وأقبلت على كذا وكذا علماً ، فلا حصدت من هذه ولا من تلك ! قلت : وما يمسكك والباب مفتوح ولا يسألك الأزهر إلى أين ولا تسألك الدنيا إذا خرجت إليها من أين ؟ قال : والله ما ربطنى إلى هذه الأعمدة خمس عشرة سنة كاملة على يأس ومضض إلا كتاب سر الجاح ، وما أمضيت نيتى مرة على وجه من وجوه العيش إلا رأيت هذا الكتاب قد ضرب وجه هذه الية فردها إلى هذا المكان وألقاها في هذا المستقر ، وما هممت بترك الأزهر إلا انتصب فى وجهى كل الأبطال الذين فرأت أخبارهم فيه وأمسكونى ، لا من يدي ولا من رجلى ، ولا من من اعتقادى وإيمانى وأملى !

قلت : فوالله لا يدعك حتى تنجح ، وما ربط الله على قلبك بهذا الكتاب وثبت فؤادك باليقين الذى فيه إلا وقد كتب لك الخير كله



# أبو تمام الشاعر

تحقيق مدّة إقامته بمصر<sup>(١)</sup>

لم يبق بُدٌّ من أن نبليغ بالكلام في هذا المعنى إلى مقطع الحق فيه، وأن ننفذ بتحقيقه إلى خاصته، وننتهي من خاصته إلى برهانه؛ فإن علماء الأدب قديماً وحديثاً ألقوا خبر أبي تمام كلاماً مرسلًا يجري في الرواية على طرقها المختلفة، لا على التاريخ في وجهه المتعين، ويؤخذ على أنه خبر كالأخبار إن صدق فقد صدق وإن كذب فهو على ما يجيء، إذ لم يكن يعنيه من الشاعر إلا شعره، يحملونه عنه أو يأخذونه من رواته أو يجدونه في ديوانه؛ أما أخبار الشاعر فهي لا تتصل بالكتاب ولا بالسنة، فنجتمع لهم كما تجتمع، ويتناولونها كما اتفقت بما دخلها من الكذب والتزويد والتلفيق، وما يكون فيها مما يظاهر بعضه بعضاً أو ينقض بعضه على بعض؛ والمحقق منهم من يروى الصدق والكذب معاً ليخرج من التبعة، فلا بد من تبعة في أحد القيصين؛ وليبرأ بصدق أحدهما من كذب أحدهما، كما صنع ابن خلدان في سياقة خبر أبي تمام وهذا نص عبارته:

كانت ولادة أبي تمام ٠٠٠ بجاسم وهي قرية بين دمشق وطبرية، وأنشأ بمصر،

---

(١) لما أنشأ المؤلف مقاله عن شوقي (رحمه الله) غضب من غضب من أدباء مصر، وزعموا أنه يقصد الغرض من مكانه (مصر الشاعرة)، ورماء من رماه في وطنيته، وحاول بعضهم أن يردّ عليه رأيه في الشعر المصري بتعداد شعراء مصر العربية، واستمع شيء شيئاً فجاء ذكر أبي تمام وما قالوا عن إقامته في مصر؛ فأنشأ المؤلف هذا المقال. وانظر ص ١٤٦ - ١٤٧، حياة الرافعي،

قيل إنه كان يسقى الماء بالجرة في جامع مصر ، وقيل كان يخدم حائكا يعمل عنده بدمشق وكان أبوه خماراً بها .

والذين يعرفون طرق الرواية ومصطلحاتها يدركون من هذه العبارة أن ابن خلكان ينتفى من أن تكون عليه تبعة أحد الخبرين أو كليهما ؛ فإن الرواية متى افتتح الخبر (بقيل أو يقال) فقد دل على أن هذا الخبر غير مقطوع به ؛ إذ تسمى هذه الصيغة عندهم صيغة التريض ، فهي لا تفيد الصحة ولا الجزم بها ؛ وظاهر أن أبا تمام لا يمكن أن يكون قد نشأ بمصر وبدمشق في وقت معاً .

وابن خلكان قد وقف على الكتاب الذي عمله الصولى في أخبار أبي تمام ونقل عنه ، وهو المرجع في هذا الباب ؛ فلا بد أن يكون هذا الكتاب قد خلا من تحقيق هذه الرواية ، بل نحن نرجح أنه قد خلا منها بته ، فلم يذكر أن نشأة أبي تمام كانت بمصر ؛ لأن صاحب الأغاني أغفلها ولم يشر إليها بحرف ، مع أنه ينقل عن الصولى نفسه ويقول في كتابه ( أخبرني الصولى ) ، وكذلك أهملها صاحب مروج الذهب ، وهو ينقل أيضاً عن الصولى ؛ وهذا يثبت لنا أن الخبر لم يكن معروفاً يومئذ ، وإلا فما هو التاريخ عند أبي الفرج والمسعودى إن لم يكن هو هذا ؟

ولكن ذكر الرواية في كتاب الأنبارى ( طبقات الأدباء ) ، واقتصر ناقلها على أن أبا تمام نشأ بمصر ، وأنه كان يسقى الماء بها ، ولم يذكر رواية عمله بدمشق ؛ والأنبارى متأخر توفى سنة ٥٧٧ ، فهو بعد موت أبي تمام بثلاثة قرون ونصف ، فلا قيمة لروايته ، وشأنه شأن غيره من الناقلين ؛ ونحن نرى أن هذه الرواية قد صنعت في مصر نفسها للغرض من أبي تمام والزراية عليه ، وبقيت مروية فيها ثم حملت كما تحمل كل رواية لذاتها لا لتحقيقها ، سواء أكانت موجهة

على الحق أم معدولا بها عنه ؛ ولا أوضع في المهنة من سقاية الماء في الجامع بالجرة ، ولعمري ما ذكرت (الجرة) هنا عبثاً ، والغلو في التحقير هو بعينه الدليل على الكذب فهذه الكلمة كأثر المجرم في جريمته ...

وبعد فإننا نقرر أن هذا الشاعر العظيم لم ينشأ بمصر ، وأنه ولد وتأدب في الشام ثم قدم إلى مصر شاعراً ناشئاً يتكسب بأدبه كما قدم عليها غيره من الأندلس والمغرب والشام والعراق ، وأنه لم يأت إلى مصر إلا في ولاية عبد الله بن طاهر الأديب الشاعر القائد العظيم ، وقد سُحلت له ولاية مصر والشام والجزيرة في سنة ٢١٠ أو ٢١١ على خلاف بين المؤرخين ، وكانت سن أبي تمام يومئذ بين ٢١ و ٢٣ سنة ؛ وقد كان ابن طاهر مغناطيساً للشعراء في كل مكان ينزله ، حتى قال فيه بعضهم وعزم على الهجرة إلى مصر :

يقول رجال إن مصر بعيدة وما بعدت مصر وفيها ابن طاهر

وأبعد من مصر رجال نراهم بحضرتنا معروفيهم غير ظاهر

عن الخير موتى ما تبالي أزرهم على طمع أم زرت أهل المقابر

وقد قصده أبو تمام إلى مصر ، كما قصده بعد ذلك إلى خراسان في سنة

٢٢٠ ، وهي السنة التي وضع فيها أبو تمام أو في التي تليها كتاب الحماسة

كما حققناه ولا محل لذكره هنا .

ونحن نسوق أدلتنا على صحة ما ذهبنا إليه في نفي أن يكون أبو تمام قد

نشأ بمصر أو جاءها طفلاً ، أو تكون منها طبيعته في الشعر ، أو يكون لها أثر في عبقريته :

١ - المجمع عليه بلا خلاف أن الشاعر ولد في الشام ، وما دام كذا لقد

قالت الطبيعة كلمتها في أصل نبوغه وعبقريته ، فإن الأديب يولد ولا يُصنع كما

يقول الانجليز ؛ وكل العلماء يعرفونه بالطائي أو لا يطعن في نسبه إلا من

لا يحقق، وهو نفسه يباهى بطائيته، وذلك كالشرح على كلمة الطبيعة في أسباب نبوغه الوراثية ؛ وقد تنقل الرجل بين مصر والشام والعراق وخراسان وأرمينيا وغيرها، فما بلد أولى من بلد بأن يكون مثار عبقريته

٢ — إن الشاعر إنما يتكسب من شعره يمدح من يهتز له أو يعطى عليه، ولم يمدح أبو تمام أحداً من أهل مصر؛ فإن كان مدح فيها عبد الله بن طاهر فإنما إليه قصد وله جاء؛ وابن طاهر ليس مصرياً، وقد جاء إلى مصر ورجع منها قبل أن يحول عليه الحول، فلو أن نشأة هذا الشاعر كانت بمصر وتأدبه كان فيها لا صبنا له مدحا كثيراً في أعيانها وعلماؤها؛ إذ هو متى قال الشعر لا يتكسب إلا منه؛ وفي ديوان الشاعر هجاء لابن الجلودى نظمته في مصر، ولكن ابن الجلودى ليس مصرياً، بل هو قائد من قواد المأمون، ولأه محاربة الزط سنة ٢٠٥، ثم أقدم بعد ذلك مصر، ثم ولى عليها في سنة ٢١٤؛ فكل المصرية في شعر أبي تمام هي في هجائه للشاعر المصرى يوسف السراج، ولعلها في بعض مقاطيع أخرى من الغزل أو الوصف

٣ — ولد أبو تمام في سنة ١٨٨ أو ١٩٠، ومن الثابت أنه كان بمصر في سنة ٢١٤ حين نظم قصيدته الدالية والنونية في رثاء عمير بن الوليد - وعمير هذا ليس مصرياً، بل هو من خراسان، وكان بمصر عاملاً لأبي إسحق المعتصم ابن الرشيد - فلو كان أبو تمام قد جاء إلى مصر طفلاً كما يقال لكانت مدة قوله الشعر فيها لا تقل عن عشر سنوات، مع أن كل ما نظمته وهو فيها لا يبلغ عشر قصائد؛ وهذا ديوانه بين أيدينا وإليه وحده المرجع في الدلالة على صاحبه .

٤ — روى المرزبانى فى الموشح عن العباس بن خالد البرمكى قال : أول ما نبغ ( أى قال الشعر ) أبو تمام الطائى أنانى بدشق يمدح محمد بن الجهم

فكلمته فيه فأذن له ؛ فدخل عليه وأشده ، ثم خرج فأمر له بدراهم يسيرة ، ثم قال : إن عاش هذا ليخرجن شاعراً .

فهذا نص على أن الشاعر لم يكن يومئذ إلا في ابتداء الشعر ، ولم يكن قد خرج شاعراً بعد وكان شعره من الطبقة التي يثاب عليها (بдраهم يسيرة) . وأبو تمام بعد ذلك هو نفسه الذي نثر عليه عبد الله بن طاهر ألف دينار فترفع أن يمسه وترك الخدم يذهبونها ، وكان ذلك سبباً في تغير ابن طاهر عليه .

هـ — نقل ابن خلكان في ترجمة ديك الجن الشاعر الحمصي المشهور ، عن عبد الله بن محمد بن عبد الملك الزبيدي قال : كنت جالساً عند ديك الجن ، « يعنى بحمص » ، فدخل عليه حدث فأنشده شعراً عمله ، فأخرج ديك الجن من تحت «صلاه درجا كبيراً فيه كثير من شعره ، فسلمه إليه وقال : يا فتى تكسب بهذا واستغن به على قولك . فلما خرج سألته عنه فقال : هذا فتى من أهل جاسم ، يذكر أنه من طي ، يكنى أبا تمام ، واسمه حبيب بن أوس ، وفيه أدب وذكاء وله قريحة وطبع . فهذا نص آخر على أن أبا تمام كان يومئذ حدثاً - أى غلاماً - وكان لا يزال يطلب الأدب ، وقد أعانه أستاذه بنسخ من قصائده يتخرج بها ، ويحذو عليها ؛ فهو قد نشأ في الشام وتأدب فيها

٦ — نظم أبو تمام قصيدته اللامية « أصب بحميا كأنها مقتل العذل » يصف تقدير الرزق عليه بمصر وخيبة أمله الذي أمله ، من المال ، وفي هذه القصيدة يحن إلى الشام ويستسقى لها ويذكر أرض البقاعين وقرى الجولان التي نشأ فيها ؛ ولا يحن الشاعر لأرض إلا إذا كان فيها حبه أو شبابه وأدبه ، أما الطفولة فمدسية بآثارها ، إذ لا آثار لها في النفس متى شب المرء إلا بعيداً بعيداً ، وإنما الحنين لما تتعلق به الغريزة المميزة

٧ — في هذه القصيدة يقول أبو تمام يخاطب أحبابه :

عدتني عنكم مكرها غربة النوى لها وطرف في أن تمر ولا تحلى  
والنوى في لغة الشاعر هي رحيله للتكسب بشعره ؛ ولما رجع عوف بن  
حلم الشيباني إلى وطنه بعد وفادته على عبد الله بن طاهر في خراسان ؛ سئل عن  
حاله فقال : رجعت من عند عبد الله بالغنى (والراحة من النوى) ؛ ويؤيده قول  
أبي تمام في قصيدته تلك :

نأيت فلا مالا حويت ولم أقم فأمتع ، إذ فجعت بالمال والأهل  
يعنى أنه اغترب مكرها يطلب التكسب لا غير ، ولا كسب للشاعر إلا  
من شعره ؛ فهو بنص كلامه عن نفسه قدم إلى مصر شاعراً يتكسب ويتعرض  
للغنى كما يصنع غيره

٨ — في هذه القصيدة اللامية يقدم لنا أبو تمام رحمه الله دليلاً يأكل  
الأدلة ، كأنما ألهم من وحى الغيب أننا سنحتاج إلى هذا الدليل يوماً  
لندفع به عنه ؛ فهو يحن إلى حبيب له في الشام ويقول إن غربة النوى  
التي وصفها :

أت بعد هجر من حبيب فركت صباية ما أبقى الصدود من الوصل  
أخمسة أحوال مضت لمغيبيه ؟ وشهران بل يومان ثكل من الشكل<sup>١</sup>  
يعنى أنه قال هذا الشعر وقد مضى على إقامته في مصر خمس سنوات ،  
وكان قد جاء من الشام عاشقاً ذلك العشق الذي فيه (الصدود والوصل) ،  
والطفل لا يحب مثل هذا الحب ولا يحن ذلك الحنين ؛ فإذا كان الشاعر  
قدم إلى مصر في سنة ٢١٠ كما رجحناه ، وسنه بين ٢١ و ٢٣ سنة ، فيكون قد  
نظم هذه القصيدة في سنة ٢١٥ وعمره يومئذ بين ٢٦ و ٢٨ سنة ؛ فلو أن  
أبا تمام جاء من الشام طفلاً صغيراً فكيف للطفل أن يقول مثل هذا

الشعر بعد خمس سنوات؟ وما هجر الحبيب « وصباية ما أبقى الصدود  
من الوصل » ؟

٩ - مدح شاعرنا محمد بن حسان الضبي بقصيدة نونية يذكر فيها تنقله في  
البلاد فقال منها :

بالشام أهلى ، وبغداد الهوى ، وأنا بالرقتين ، وبالفسطاط إخوانى  
وما أظن النوى ترضى بما صنعت حتى تشافه بى أقصى خراسان !  
فأنت ترى أنه جعل أهله بالشام ، وجعل أصدقاءه بمصر ؛ فلو أنه كان قد  
نشأ بها لجعل بها أهله ؛ إذ لا ينشأ إلا مع أبيه وأمه ؛ والبيت الثانى دليل  
منه هو على أنه لم ينزل بمصر مقيماً ولا متوطناً ، بل متنقلاً كما نزل بغيرها  
١٠ - تقول كتب الأدب فى مدارس الحكومة : إن أبا تمام نقل إلى  
مصر صغيراً فلشأ بها (وقد بينا فساد ذلك) ، ثم خرج إلى مقر الخلافة فمدح  
المعتصم ؛ وهذا غير صحيح ؛ فإن أبا تمام خرج من مصر قبل أن يدخلها المأمون  
فى سنة ٢١٦ حين جاءها وقتل بها عبد رس الفهرى ؛ فلو كان الشاعر يومئذ  
لمدح المأمون وذكر هذه الواقعة ؛ والمعتصم ولى الخلافة سنة ٢١٨ ، وديوان  
أبى تمام يثبت أنه فى سنة ٢١٧ كان بالعراق ، وقد مدح المأمون بقصيدته الميمية ،  
وذكر فى مدحه وقعة الروم ، وهذه كانت فى تلك السنة

يخلص من كل ما تقدم أن أبا تمام ولد فى الشام وتأدب فيها ، وقدم إلى مصر  
كبيرا يتكسب بالشعر ، فأقام بها بين خمس سنين وست ، ولم يجد له عيشاً  
بها بعد قتل عمير بن الوليد الذى قتل فى سنة ٢١٤ ؛ فإنه كان يعيش فى كنفه ،  
وقد صرح فى قصيدته النونية التى رثاه بها أنه يأمل من بعده فى ابنه محمد  
فقدوم الشاعر إلى مصر كان فى سنة ٢١٠ أو حوالىها ، وخروجه منها كان فى  
سنة ٢١٥ أو حوالىها ، والله أعلم

## القديم والجديد<sup>(١)</sup>

أقول للأستاذ الفاضل الدكتور طه حسين « في رفق ولين » وفي مجلة أيضاً: إني في هذه الأيام ضنين بما أملك من وقى أشد الضن، أحسب السماء تتفجر من يومى في ساعة كالفجر، فلا يصرفنى عن تلك الساعة شيء ولا يصرفها عنى شيء؛ إذ بين يدي كتاب في الرسائل أعمل فيه وأستعين الله على الفراغ منه في وقت معين، وقد أظللّ أو كاد؛ فلا يرى الأستاذ أنى أستطير هذه المرة كالطيرة الأولى، فإن جناحى في فضاء آخر، وإن هذا الكتاب الذى أعالجه لا يحشمنى عرقاً من القربة كما قالوا قديماً، بل لعله فى ألمه أشبه « بعملية » تشرح فى القلب، وستذهب الدقائق التى أكتب فيها هذه الكلمة مأثوماً عليها، لأنها ذاهبة بصفحتين من كتابى .

وأما بعد فلا أرى من الإنصاف أن يعتمد الدكتور إلى جمل يقتضيه من مقال فى مجلة الهلال ثم يهدفها للرد، وكان عسى أن يدفع عنها شيء مما قبلها أو ما بعدها أو يشد منها بعض جهاتها أو يأتى بها فى سياق يبين عن معناها .

وزعم الأستاذ أنه لا يفهم من كلامى هذه الجملة « وأنت تعلم أن الذوق الأدبى فى شيء إنما هو فهمه، وأن الحكم على شيء إنما هو أثر الذوق فيه، وأن

---

(١) نشرها حين المعركة بينه وبين الدكتور طه حسين ( بك ) حول كتابيه : رسائل الأحزان ، ، و السحاب الأحمر ، ؛ وللدكتور طه فيهما وفى أسلوبهما رأى .  
وانظر كتابى : المعركة تحت راية القرآن ، ، و حياة الرافعى ،



النقد إنما هو الذوق والفهم جميعاً...» ثم دار بهذه الكلمات دورة العاصفة وجعلها مسألة كمسألة الدور والتسلسل المشهورة، بل جعلها من قبيل « قصة وقضية »... فتراه يقول : ذوق هو الفهم ، وفهم هو الذوق ، وفهم ليس بالذوق ، وذوق ليس بالفهم ، وهلم صاعداً ونازلاً ؛ وضرب لنا مثلاً بالموسيقى فقال : « ما نظن أن الذين يذوقون الموسيقى ويطربون لها يفهمونها جميعاً » . وأنا أفسر كلامي بهذا المثل نفسه ، أقتصر عليه ولا أعدوه

نأتى الآن بأستاذ قد برع في الموسيقى وخالطت أعصابه ولحمه ودمه ، وندفع إليه قطعة ملحنة ونقول له : اسمع وافهم واحكم وانتقد ؛ يسمعها مرة بعقله أو لعقله يتبين ما يكون فيها صواباً وما يكون خطأ ، ثم ما يعلو عن الصواب من الإجادة والإتقان ، وما ينحط عن الخطأ من الإساءة والتخليط ؛ فهذا هو الفهم ريسمعها مرة ثانية بحسه أو لحسه ، فيرى أثر ما فهم ، ويديرها في ذوقه ليعرف كيف موقعها من الغرض الذي وضعت له ، فإنها لم توضع لتكون أصواتاً ، بل لتخاق من الأصوات شيئاً ؛ فهذا هو الذوق ، وهو كما تراه بعد الفهم ونائئ عنه ، ومثل الأستاذ طه حسين لا يخفى عليه أن من يقول : إن الذوق في شيء إنما هو فهمه ، أو إنما هو عن فهمه ، أو إنما ينشأ عن فهمه ، فالعبارة في باب المجاز واحدة لا تختلف .

ثم إن أستاذ الموسيقى وقد سمع القطعة مرتين ، أو مرة كمرتين إن باغ أن يكون له في كل أذن واحدة أذنان ، يستفتى ذوقه الفنى ويحكم للقطعة أم عليها ؛ فهذا هو أثر الذوق .

الآن قد حكم الأستاذ وانتقد وحزم برأيه ، فندب له فلان يقول : أخطأت وأساءت رجعت وغفلت ، أو تعصبت وحططت في هوى صاحب اللحن ؛ فمن أين جاء هذا الخلاف وكيف وقع هذا القول ؟

بل كيف ساغ للثاني أن يجهل الأول ويرى غير رأيه ويحكم غير حكمه ،  
إلا إذا كان قد فهم غير فهمه فأنشأ له الفهم ذوقاً وأحدث له الذوق حكماً  
وجاءت من هذه المقدمات تلك النتيجة التي نسميها البعد ، وما هي في الحقيقة  
إلا الذوق والمهم جميعاً . فالذين يذوقون الموسيقى ويطربون لها ولا يفهمونها  
فقد فهموها على مقدار ما استقر في نفوسهم من أساليب التطريب وما  
فيهم من المطاوعة لهذه العاطفة ؛ أو لا تراهم يقولون في أمثال هؤلاء إن لهم  
آذاناً موسيقية ؟ فهذه الآذن هي الفهم بعينه ، لأنها حاسة اجتمعت من مران  
طويل ، وقد تقوم في بعض الناس على جهله بالموسيقى مقام علم برأسه

ويقول الأستاذ طه إنه قد يقرأ كلامي ويفهمه ولا يذوقه ولكن عدم  
الذوق هنا هو الذوق ؛ وليت شعري ما معنى قول المتنبي : « ومن يك ذا  
فم مر ..... »

ولو كان الأستاذ وأمثاله هم في هذا القياس المتر والكيلومتر ، لوجب ألا  
أجد من يذوق كلامي ويعجب به ويغالي فيه ويكون ذنباً من ذنوبي عند  
الله بإسرافه في المغالاة ، وأنا واحد بكل واحد مثل الأستاذ طه عشرة ومائة  
من غيره ، ولو خرج هو إلى العالم لرأى وسمع ، وفيهم من هم أعلى منه  
كعباً وأمدّ عنقاً وأضخم هامة وأبدع بديعاً وأبلغ وأزكى وأعلم إلى عدد من  
هذه الواوات .

وعجبت للدكتور يريد أن لا يفهم من عبارتي كما يقول إلا أن « الذوق  
هو نفس الفهم ، فاللفظان يدلان على معنى واحد ، وإذن وإذن وإذن ... »  
فهل يرى إذا قلت له : رأيت القمر وفلانة ليلة كذا فكانت إنما هي القمر -  
أني أقصد بهما معنى واحداً فيقول لها : « وإذن » فليس شيئين مختلفين وإنما  
هو شيء واحد ، وإذن فكيف صار لها وجه في السماء ووجه في الأرض وبقيت

مع ذلك امرأة من الإنس : وإذن فهذا كلام لا يفهم ...  
قال بعضهم إن « لو » تفتح عمل الشيطان ، يريد أنها أداة التنى ، والمذهب الجديد سيضم « إذن » إلى « لو » ، ثم ما هي الكلمة الثالثة ياترى ؟  
أنا مع إعجابى بالدكتور الفاضل أرى أنه مستهتر بأشياء ، وأن من خلقه أن  
ملا يرضى عنه وما لا يفهمه « ليسا شئير مختلفين » . فإذا لم يكن من الفهم  
بد قال إنه لا يقتنع . فإذا ضايقته وضيقته عليه لم يبق إلا ما يقول النحاة في  
« أى » التى حيرهم إعرابها وبناؤها : أى كذا خلقت ...

وأنا وأمثالى إنما نحرص أشد الحرص على هذه اللغة لأنها أساس الأمة  
الإسلامية ، فلا نرضى إلا أن يكون هذا الأساس ثابتاً متيناً لا يزعه شيء  
ولا يثلمه شيء ولا يضعفه شيء : والدكتور وأمثاله لا يباليون أن تكون  
هذه الأمة كبيوت أمريكا المتحركة ...

لست أنكر التجديد ، بل لعل الدكتور يذكر مناقشتى إياه فى (الجريدة)  
وإصراره يومئذ أن ليس لأحد أن يدخل فى اللغة كلمة ، وأن قول الناس تنزه  
ومتنزه ونزهة الخ كلها من الكلام العامى ، وتعلقه بنص ابن سيده فى ذلك ،  
واستخراجه له نص ابن قتيبة وكلاماً كثيراً من استعمال العلماء ، ثم قوله  
أحسنتم ولكن لو جئتنى باللفظة فى كلام المبرد والجاحظ وفلان وفلان  
ما اقتنعت .

إنما أنكر شيئاً واحداً ، وهو أن يقال مذهب قديم ومذهب جديد ؛  
فقد وسع الله على الناس فيما علموا وفيما جهلوا ، ولكن أصحابنا يريدون  
الانكسب إلا نمطاً بعينه ، ولا نذهب إلا مذهباً بعينه : لأن كل ذلك هو الجديد ؛  
فأيهما خير لنا ولهم وللذين سيخرجون تاريخهم من قبورنا : أن نعتد اللغة  
والآداب كل ما اجتمع من قديم وجديد ونحكم هذه اللغة ونحفظها ونُدفع

عنها ونجعل تجددها كنجد الحسناء في أثوابها وفي ألوانها دون تشوبه ولا مسخ ولا لمس الجسم الجليل ، أم نقول : هذه الشفة وهذا الأنف وهذا الموضع الممتاع الخذل وهذا الموضع المضمض الباحل وتعال يادكترهات المبضع والمشرط والمقص والمشار والإبرة والخيط وإذن ..... ؟

لقد أذكر أني رأيت في بعض مقالات الأستاذ طه حسين أو في بعض ما يقرظ به الكتب أنه قال إن القديم قد أثبت دائماً أنه أقوى وأمتن وأصح ، فهل رجل عن هذا الرأي أم ظهر له في الجديد ما هو أقوى وأمتن وأصح ؟ ثم يا أيها الملاء أقتوني ما هو هذا الجديد ؟ أهو ذاك الخيال الشارد المجنون ، أم تلك الشهوات المتوثبة المتلهفة ، أم ذلك الأسلوب الفج المستوخم ، أم العامية السقيمة الملحونة : أم هو في الحقيقة بين رغبة في النبوغ قبل أن تتم الأداة وتستحكم الطريقة ، كما هو شأن فريق من الكتّاب ، فيختصرون الطريق بكلمة واحدة هي المذهب الجديد - وبين رغبة في التعصب الآداب الأجنبية كما هو شأن فريق آخر - وبين رغبة في الخط من قيمة بعض الناس ورميهم بالجهل والسخف وأنه لا قيمة لما يجيئون به ، كل ذلك في تعبير على يصح أن يكون نظرية علمية ... وقبلهم قالها العرب في القرآن الكريم : « لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين » ! فقد شاءوا فلم يقولوا ؛ ولو أن المذهب الجديد فسر القرآن يوماً ... لقال في معنى أساطير الأولين إنهم أرادوا بها المذهب القديم ...

ويقول الدكتور طه إن هناك قومًا ينصرون المذهب الجديد وليس لهم من اللغات الأجنبية وآدابها حظ ، وحظهم من اللغة العربية وآدابها موفور ؛ ثم طلب رأيي في هؤلاء وما أصل مذهبهم الجديد ؛ فأقول : إنني أعرف بعضهم ، وأعرف أن أدبهم لا يشبه شيئاً إلا جلود بعض الكتب التي ليس فيها إلا

متن وشرح وحاشية : جلد مافوف على ورق، وورق ينطوى على قواعد محفوظه ، وهم أفقر الناس إلى رأى ؛ وهذه علة حبهم للأساليب الجديدة القائمة على الترجمة ونقل الآراء من الغرب إلى الشرق ، وبالمعنى الصريح المكشوف : من الأدمغة المملوءة إلى الأدمغة الفارغة ؛ وفيهم بعض أذكىاء ولكن ذكاءهم فى حواسهم ، فإن لم يكن هذا فليقولوا هم لماذا ؟

ولو أنك سألت العنكبوت : ماهى الظبية الحوراء العيناء التى تطمعين فيها وتنصبين لها كل هذه الأشراك والحبائل ؟ ل قالت لك : مهلا حتى تقع فتراها ! فإذا وقعت رأيتها ثمة ورأيتها ذبابة ...

ولكن ماذا يقول الدكتور فى الأستاذ الإمام الكبير الشيخ محمد عبده ؟ أكان يدعو إلى مذهب جديد فى اللغة والأدب ويفتن بالروايات الغرامية وبأسلوب « إميل زولا » فى روايته المعروفة وبمثل رواية (الاجرسون ) إن كان الناس عند الدكتور من بعض الحجج فإن الشيخ وحده بأمة كاملة ممن يعينهم

وأختتم هذه الكلمة بالشكر الأستاذ طه حسين والثناء عليه ، ثم إنى مسترسل فى عملى ، وهذا عذرى إليه



# المرأة والميراث

قرأت في المقطم كلمة الكاتب المعروف سلامة موسى فيما يزعمه إجابات مختصرة عن اعتراضات تهافت بها رأيه في الدعوة إلى مساواة المرأة بالرجل في الميراث ؛ وهو ينصح لمن يريد أن يناقشه أن يقرأ نص محاضراته في السياسة الأسبوعية

وقد رجعت إلى نص المحاضرة فإذا الكاتب هو هو في ضعف تفكيره وسوء تقليده . يكاد لا يميز بين الرأي الصحيح الثابت في نفسه لأنه قائم على حكمته الباعثة عليه ؛ وبين الرأي المتغير في كل نفس بحسبها لأنه قائم على منزع أو غفلة أو مرض في النفس

ترى الكاتب لا يدعو إلا إلى تقليد أوربا ، وتكاد عباراته في ذلك لا تخصي ، ويقول إن « المصلح المثمر عندنا هو مقلد لأوربا لا غش في تقليده » ، فليس إلا أوربا وتقليدها وإذا لم يكن في أوربا قرآن ولا إسلام فالإصلاح المثمر عند الكاتب ألا يبقى من ذلك شيء ...

« مقلد أوربا لا غش في تقليده » ، وما هو الغش في التقليد ؟ هو أن تستعمل رأيك وفكرك فتدع وتأخذ على بينة في الحالين ، وأن تأبى أن تحمل على طبيعتك الشرقية مالا تصلح عليه ولا تقوم به ؛ وإذا انقلبت أوربا شيوعية أو إباحية وجب ألا نغش في التقليد ... وإذا كانت الشمس لا تطلع ستة أشهر في بعض جهات أوربا وتطلع في مصر كل يوم وجب أن يكون المصري أعمى ستة أشهر ...

والظاهر أن الكاتب يقول بالتقليد لأنه طبيعي فيه ... ورأيه في الميراث

إنما هو ترجمة ... لعمل مصطفى كمال ؛ وإن كان مصطفى كمال قد أصلح الترك في سنوات كما يقولون ،برهان التاريخ لا يخضع المشنقة ولا لمحاكم الاستقلال ولا يأتي إلا في وقته الذي سيأتي فيه ، وسيرى الناس يومئذ ما يكون وهما مما يكون حقيقة

ويرد الكاتب على رأى الأستاذ الأخلاقى رئيس تحرير المقطم فى خشيته أن يقتصر الإصلاح على القشور دون اللباب ، فيقول إنه « معتقد أن الأمة التى تشرع فى اتخاذ المدنية الحديثة يجب أن تبدأ بالقشور ... لأنها أسهل عليها من اللباب ، بل هى لا تستطيع غير ذلك » . أ كذلك بدأت اليابان ؟ وهل كل الطبائع كطبيعة بعض الناس ، تستطيع أن تعترف قشور المدنية ... وتنصرف إلى مذاقها وسفاسفها ؟

ولا ريب أن حضرته لا يفهم الدين الإسلامى لأنه ليس من أهله ، فهو يقرنا على ذلك ، وهو بذلك يقرنا على أنه متطفل فى اقتراحه ؛ وإن الذى يقرأ فى محاضراته قوله : « إن الطبقة الغنية فى الأمة هى التى تقرر ديانة الأمة ... » يستيقن أنه لا يفهم ديناً من الأديان ، وأنه قصير النظر فى أمور الاجتماع وأبواب السياسة ؛ وأن يمينه وشماله وأمامه ووراءه إن هى إلا جهات الزمام الذى ينقاد فيه ؛ فلا شخصية له ، وإنما يتابع وينقاد الآراء التى يترجم منها بلا نقد ولا تمييز

إن ميراث البنت فى الشريعة الإسلامية لم يقصد لذاته ، بل هو مرتب على نظام الزواج فيها ، وهو كعملية الطرح بعد عملية الجمع لإخراج نتيجة صحيحة من العاملين معاً ، فإذا وجب المرأة أن تأخذ من ناحية وجب عليها أن تدع من ناحية تقابلها ؛ وهذا الدين يقوم فى أساسه على تربية أخلاقية عالية يُدشئ بها طباعاً ويعدل بها طباعاً أخرى ، كما بيناه فى مقالنا المنشور فى مقتطف هذا

الشهر<sup>(١)</sup> - فهو يربأ بالرجل أن يطمع في مال المرأة أو يكون عالة عليها؛ فمن ثم أوجب عليه أن يهرها وأن ينفق عليها وعلى أولادها، وأن يدع لها رأيتها وعملها في أموالها، لاتحد إرادتها بعمله ولا بأطماعه ولا بأهوائه؛ ركل ذلك لا يقصد منه إلا أن ينشأ الرجل عاملاً كاسباً معتمداً على نفسه مشاركاً في محيطه الذي يعيش فيه، قوياً في أمانته، منزهاً في مطامعه، متهيئاً لمعالي الأمور؛ فإن الأخلاق كما هو مقرر يدعو بعضها إلى بعض، ويعين شيء منها على شيء يماثلها، ويدفع قويا ضعيفها، ويأنف عاليها من سافلها؛ وقد قلنا مراراً إنه لا يجوز لتكلم أن يتكلم في حكمة الدين الإسلامي إلا إذا كان قوى الخلق، فإن من لا يكون الشيء في طبعه لا يفهمه إلا فهم جدل لا فهم اقتناع

للرأة حق واجب في مال زوجها، وليس الرجل مثل هذا الحق في مال زوجته؛ والإسلام يبحث على الزواج، بل يفرضه؛ فهو بهذا يضيف إلى المرأة رجلاً ويعطيها به حقاً جديداً، فإن هي ساوت أخاها في الميراث مع هذه الميزة التي انفردت بها انعدمت المساواة في الحقيقة، فتزيد وينقص؛ إذ لها حق الميراث وحق النفقة وليس له إلا مثل حقها في الميراث إذا تساويا

فإن قلت كما يقول سلامة موسى إن في الحق أن تنفق المرأة على الرجل وأن تدفع له المهر ثم تساويه في الميراث، قلنا: إذا تقرر هذا وأصبح أصلاً يعمل عليه بطل زواج كل الفقيرات وهن سواد النسوة، إذ لا يملك ما يهرن به ولا ما ينفقن منه؛ وهذا ما يتحاهاه الإسلام لأن فيه فساد الاجتماع وضياع الجلسين جميعاً؛ وهو مفض بطبيعته القاهرة إلى جعل الزواج للساعة ولليوم وللوقت المحدود... ولا إيجاد لقطاع الشوارع، بدلا من أن يكون الزواج للعمر والواجب والتربية الرجل على احتمال المسؤولية الاجتماعية بإيجاد الأسرة وإنشائها والقيام عليها والسعى في مصالحها



من هنا وجب أن ينعكس القياس إذا أريد أن تستقيم النتيجة الاجتماعية التي هي في الغاية لامن حق الرجل ولا من حق المرأة بل من حق الأمة ؛ وما نساء الشوارع ونساء المعامل في أوروبا إلا من نتائج ذلك النظام الذي جاء مقلوبا ، فهن غلطات البيوت المتخربة والمسئولية المتهمة ؛ وهن الواجبات التي ألقاها الرجال عن أنفسهم فوقعت حيث وقعت !

وإذا انزاحت مسئولية المرأة عن الرجل انزاحت عنه مسئولية النسل ، فأصبح لنفسه لآلامته ؛ ولو عم هذا لمسخ الاجتماع وأسرع فيه الهرم وآتى عليه الضعف ، وأصبحت الحكومات هي التي تستولد اللاس على الطريقة التي تستنتج بها البهائم وقد بدأ بعض كتاب أوروبا يدعون حكوماتهم إلى هذا الذي ابتلوا به ولا يدرون سببه ، وما سببه إلا ما بيننا آنفاً

ثم إن هناك حكمة سامية ، وهي أن المرأة لا تدع نصف حقها في الميراث لأخيها يفضلها به — بعد الأصل الذي نهبنا إليه — إلا لتعين بهذا العمل في البناء الاجتماعي ؛ إذ تترك ما تترك على أنه لامرأة أخرى ، هي زوج أخيها ؛ فتكون قد أعانت أخاها على القيام بواجبه للأمة ، وأسدت للأمة عملا آخر أسى منه بتيسير زواج امرأة من النساء

فأنت ترى أن مسألة الميراث هذه متغلغلة في مسائل كثيرة لامنفردة بنفسها ، وأنها أحكم الحكمة إذا أريد بالرجل رجلا أمته وبالمرأة امرأة أمتها ، فأما إذا أريد رجلا نفسه وامرأة نفسها ، وتقرر أن الاجتماع في نفسه حماقة ، وأن الحكومة خرافة ، وأن الأمة ضلالة ، فحينئذ لا تنقلب آية الميراث وحدها بل تنقلب الحقيقة

وبما نعجب له أن سلامة موسى يتكلم في محاضراته كأن كل الوالدين ذوو مال وعقار ، فنصف الأمة على هذا محروم نصف حقه وكأنه لا يعرف

أن السواد الأعظم من الناس لا يترك ما يورث ، لا على الربع ولا على النصف ؛  
وأن كثيراً ممن يموتون عن ميراث لا يحيا ميراثهم إلا أياماً من بعدهم ثم  
يذهب في الديون ، إذ لا تركة مع دين ، وكثيرون لا يسمن ميراثهم ولا يغنى ،  
فلم تبق إلا فئات معينة من كل أمة لا يجوز أن تنقلب من أجلها تلك  
الحكمة الاجتماعية التي هي من حظ الأمة كلها لقيام بعض الأخلاق  
عليها كما بسطناه

ومما تشتمل له النفوس الكريمة قول المترجم في محاضراته : فلو كانت  
الفتيات يرثن مثل إخوتهن الذكور ، لكان ( في ثروتهن ) إغراء للشبان  
على الزواج ...

إن الدين الإسلامي لا يعرف مثل هذا الإسفاف في الخلق ولا يقره ، بل  
هو يهدمه هدماً ويوجب على كل رجل أن يحمل قسطه من المسؤولية مادام مطيقاً  
إن كرهه أو رضى ، ولعمري إن تلك الكلمة وحدها من كاتبها لهى أدل من اسم  
المحل على بضاعة المحل ...



# كلمة مؤمنة

في ردِّ كلمةٍ كافرة<sup>(١)</sup>

تلقيت كتاباً هذه نسخته :

أكتب إليك متعجلاً بعد أن قرأت « كلمة كافرة » في كوكب الشرق الصادر مساء الجمعة ٢٧ من أكتوبر : كتبها متصدر من نوع قولهم : حبذا الإمارة ولو على الحجارة... وسمى نفسه « السيد » ، فإن صدق فيما كتب صدق في هذه التسمية .

طعن القرآن وكفر بفصاحته ، وفضل على آية من كلام الله جملة من أوضاع العرب ، فعقد فصله بعنوان « العثرات » على ذلك التفضيل ، كأن الآية عثرة من عثرات الكتاب يصححها ويقول فيها قوله في غلط الجرائد والناشئين في الكتابة ؛ وبرقع وجهه وجبن أن يستعلن ، فأعلن بزندقته أنه حديث في الضلالة

غلى الدم في رأسى حين رأيت الكاتب يلج في تفضيل قول العرب : « القتل أنفى للقتل » على قول الله تعالى في كتابه الحكيم : « ولكم في القصص حياة » ، فذكرت هذه الآية القائلة : « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم » وهذه الآية : « شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض » ؛ ثم هممت بالكتابة فاعترضني ذكرك ، فألقيت القلم لاتناوله بعد ذلك وأكتب به إليك .

---

(١) البلاغ : نوفمبر سنة ١٩٢٣ ، وانظر ص ١٧٢ - ١٧٤ « حياة الرافعي »

ففي عنقك أمانة المسلمين جميعاً لتكتبين في الرد على هذه الكلمة الكافرة لإظهار وجه الإعجاز في الآية الكريمة ، وأين يكون موقع الكلمة الجاهلية منها ؛ فإن هذه زندقة إن تركت تأخذ مأخذها في الناس جعلت البر فاجراً ، وزادت الفاجر فجوراً « واثقوا فتنة لا تصيبين الذين ظلموا منكم خاصة » واعلم أنه لا عذر لك . أقولها مخلصاً ، يملئها على الحق الذي أعلم لإيمانك به ، وتفانيك في إقراره والمدافعة عنه والذود عن آياته ؛ ثم أعلم أنك ملجأ يعتصم به المؤمنون حين تناوشهم ذئاب الزندقة الأدبية التي جعلت همها أن تلغ ولوغها في البيان القرآني .

ولست أزيدك ، فإن موقفي هذا موقف المطالب بحقه وحق أصحابه من المؤمنين ، واذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سُئل علماً عليه فـكـتـمـه جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار » أو كما قال  
والسلام عليكم ورحمة الله  
م . م . ش .



قرأت هذا الكتاب فاقشعر جسمي لوعيد النبي صلى الله عليه وسلم ، وجعلت أردد الحديث الشريف أستكثر منه وأملأ نفسي بمعانيه ، وإنه ليكثر في كل مرة ، فإذا هو أبلغ تهكم بالعلماء المتجاهلين ، والجهلاء المتعلمين ؛ وإذا هو يؤخذ من ظاهره أن العالم الذي يكتم علمه النافع عن الناس يحىء يوم القيامة ملجماً ، ويؤخذ من باطنه أن الجاهل الذي يبث جهله الضار في الناس يحىء يوم القيامة ملجماً مبرذعاً ... أي : فهذا وهـذا كلاهما من حمير جهنم !

والتمست عدد الكوكب الذي فيه المقال وقرأته ، ولم أكن أصدق أن في العالم أديباً يميزاً يضع نفسه هذا الموضع من التصفح على كلام الله

وأساء الأدب في وضع آية منه بين عثرات الكتاب ، فضلاً عن أن يسمو لتفضيل كلمة من كلام العرب على الآية ، فضلاً عن أن يبالغ في هذا التفضيل ، فضلاً عن أن يتهوس في هذه اللجاجة ؛ ولكن هذا قد كان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

ولعمري وعمر أيبك أيها القارئ ، لو أن كاتباً ذهب فأكل خلط فتضلع فنام قاسئثقل خلم ... أنه يتكلم في تفضيل كلمة العرب على تلك الآية ، واجتهد جهده وهو نائم ذاهب الوعي فلم يأل تخريفاً واستطالة ، وأخذ عقله الباطن يكس دماغه ويخرج منه ( الزبالة العقلية ) ليلقيها في طريق النسيان أو في طريق الشيطان — لما جاء في شأوه بأسخف ولا أبرد من مقالة « السيد » فسواء أوقع هذا التفضيل من جهة الهذيان والتخريف كما فعل كاتب النوم ، أم وقع من جهة الخلط والخبط كما فعل كاتب الكوكب — فهذا من هذا ، طباق سخافة بسخافة ..

نعم إن مقالة الكوكب أفضل من مقالة الكاتب الحالم ... ولكن قليل الزيت في الزجاجاة التي أهديت لجحا لا يعد زياً مادام هذا القليل يطفو على ملء الزجاجاة من ... من البول !

ولقد تذبا القاضى البافلانى قبل مئات السنين بمقالة الكوكب هذه

فأسفلها الرد بقوله :

« فإن اشتبه على متأدب أو متشاعر أو ناشئ أو مرمد فصاحة القرآن وموقع بلاغته وعجيب براعته فما عليك منه ، إنما يخبر عن نفسه ، ويدل على عجزه ، ويبين عن جهله ، ويصرح بسخافة فهمه وركاكة عقله » ما علينا ... يقول كاتب الكوكب بالنص :

قالت العرب قديماً في معنى الفصاح : ( القتل أنفى للقتل ) ، ثم أقبل

القرآن الكريم على آثار العرب ( هكذا ) فقال : « ولكم في القصص حياة »  
يا أولى الألباب لعلمكم تتقون » وقد مضت سنة العلماء من أساطين البيان أن  
يعقدوا الموازنة بين مقالة العرب هذه وبين الآية الحكيمه أيتهما أشبهه  
بالفصاحة ( هكذا ) ، ثم يخلصون منها إلى تقديم الآية والبيان القرآني ...  
ثم قال : من رأى كاتب هذه الكلمة تقديم الكلمة العربية على الآية الغراء ،  
( اللهم غفراً ) على ثلج الصدر بإعجاز القرآن ( كلمة للوقاية من النياحة ...  
وإلا فإذا بقي من الإعجاز وقد عجزت الآية ؟ زه زه يارجل ... )

ثم قال : إن فيما تقدم به الكلمة العربية على الآية الحكيمه ( اللهم  
غفراً ) مزايا ثلاثاً : أولى هذه المزايا الثلاث ، هذا الإعجاز الساحر فيها ؛  
ذلك أن « القتل أنفى للقتل » ثلاث كلمات لا أكثر ، أما الآية فإنها سبع كلمات  
( كذا ) : وعلى تلك فهي أقدم عهداً وأسبق ميلاداً من آية التنزيل ( تأمل )  
حاشا كلام الله القديم ، والإعجاز ميزة أية ميزة ؛ الميزة الثانية للكلمة  
الاستقلال الكتابي وفقد التعاقد بينها وبين شيء آخر سابق عليها ، حتى إن  
التمثل بها المستشهد يبتدئ بها حديثاً مستمها ويختتمه في غير مزيد ولا فضل ،  
فلا يتوقف ولا يستعين بغيرها ؛ أما الآية فإنها مدسوقة مع ما قبلها بالواو ،  
فهى متعاقدة مترابطة معه ، لا يتمثل بها المتمثل حتى يستعين بشيء سواها ،  
وليس الذى يعتمد على غيره فلا يستقل كالذى يعتمد على نفسه فيستقل ؛  
الميزة الثالثة أن الكلمة ليست متصلة فى آخرتها بفضل من القول تغنى  
عنه ، على حين تتصل الآية بما تغنى عنه من القول . ويترد كالفصل ، وهو  
كلمتا « يا أولى الألباب » و « لعلمكم تتقون » ، وإن كان لا زيادة فى القرآن  
ولا فضول

ثم قال : إن مدرساً جاءه بالفصل الذى عقده الإمام السيوطى فى كتابه

الاتقان لتفضيل الآية على الكلمة وفيه قرابة خمسة وعشرين حجة ؛ قال إنها انحطت بعد أن رماها بنظره العالى إلى أربع « أما الباقيات فمن نسج الانتحال والتزيد » ، قال : وأولاهما أن الآية أوجز لفظاً ، والكاتب يرى الآية « سبع كلمات فى تحديد ودقة » قال : « إذاً لقد بطلت حجة الإيجاز فى الآية » ( اللهم غفرأ ) : قال : والثانية « أن فى الكلمة العربية تكراراً لكلمة القتل سلمت الآية منه » ورد الكاتب أن هذا التكرار « يتحلل طلاوة ويقطر رقة » ( قال ) : وهذا فى فيه طعم العسل ، ( قلنا : وعليه الذباب يا سيدنا ... ) والثالثة أن فى الآية ذكراً للقصاص بلفظه على حين لا تذكر الكلمة إلا القتل وحده ، وليس كل قتل قصاصاً ؛ ودفع الكاتب هذا بأن الكلمة انطوت على قتلين أحدهما ينفى صاحبه ، فذاك هو القصاص ؛ قال : « إذن فالكلمة والآية فى قصد القصاص يلتقيان فرسى رهان » ؛ والرابعة أن القصاص فى الآية أعم يشمل القتل وغيره ، وأقر الكاتب أن الآية نضلا على الكلمة من هذه الناحية ، ولكن الكلمة حكمة لاشريعة ، وهى من قضاء الجاهلية ، فليس عليها أن تبين ما لم يعرفه العرب ، ولم يخلق بعد ، قال : « إذن فليست الكلمة مقصرة عن بيان ، متبلدة عن إحسان »



هذا كل مقاله بحروفه بعد تخليصه من الركافة والحشو ومالا طائل تحته ، ونحن نستغفر الله ونستعينه ونقول قولنا ، ولكننا نقدم بين يدي ذلك مسألة ، فمن أين للكاتب أن كلمة « القتل أنى للقتل » مما صحت نسبته إلى عرب الجاهلية ، وكيف له أن يشبث إسنادها إليهم وأن يُوثَّق هذا الإسناد حتى يستقيم قوله أن القرآن أقبل على آثار العرب ... ؟

أنا أقرر أن هذه الكلمة مولدة وضعت بعد نزول القرآن الكريم وأخذت

من الآية ، والتوليد بينَ فيها ، وأثر الصنعة ظاهر عليها ؛ فعلى الكاتب أن يدفع هذا بما يثبت أنها مما صح نقله عن الجاهلية ؛ ولقد جاء أبو تمام بأبداع وأبلغ من هذه الكلمة في قوله :

وَأَخَافُكُمْ كِي تُغْمَدُوا أَسْيَافَكُمْ إِنَّ الدَّمَ الْمُغْبَرَّ يَحْرُسُهُ الدَّمُ  
(الدم يحرسه الدم) ، هذه هي الصناعة وهذه هي البلاغة لا تلك ، ومع هذا فكلمة الشاعر مولدة من الآية ، يدل عليها البيت كله ؛ وكأن أبا تمام لم يكن سمع قولهم « القتل أنفى للقتل » وأنا مستيقن أن الكلمة لم تكن وضعت إلى يومئذ .<sup>(٥)</sup>

ولو أن متمثلاً أراد أن يتمثل بقول أبي تمام فانتزع منه هذا المثل « الدم يحرسه الدم » ، أيكون حتماً من الحتم أن يقال له : كلا ياهذا فإن البيت سبع كلمات فلا يصح انتزاع المثل منه ولا بد من قراءة البيت بمصراعيه كما يقول كاتب الكوكب في الآية الكريمة ليزعم أنها لا تقابل الكلمة العربية في الإيجاز ؟

إن الذي في معاني الآية القرآنية مما ينظر إلى معنى قولهم القتل أنفى للقتل كلمتان ليس غير ، وهما « القصاص ، حياة » ؛ والمقابلة في المعاني المتماثلة إنما تكون بالألفاظ التي تؤدي هذه المعاني دون ما تعلقت به أو تعلق بها مما يصل المعنى بغيره أو يصل غيره به ؛ إذ الموازنة بين معنيين لا تكون إلا في صناعة تركيبهما ، ويخيل إلى أن الكاتب يريد أن يقول إن باقى الآية الكريمة لغو وحشو ، فهو حميلة على الكلمتين : القصاص حياة ، يريد أن يقولها ولكنه غص بها ، وإلا فلماذا يلج في أنه لا بد في التمثل ، أى لا بد في المقابلة ؛ من رد الآية بألفاظها جميعاً ؟



فإذا قيل إنه لا يجوز أن يتغير الإعراب في الآية ، ويجب أن يكون المثل  
منزعا منها على التلاوة ، قلنا : فإن ما يقابل الكلمة منها حينئذ هو هذا . « في  
القصاص حياة » ، وحملتها اثنا عشر حرفا مع ، أن الكلمة العربية أربعة عشر ؛  
فالإيجاز عند المقابلة هو في الآية دون الكلمة

وأما قوله تعالى : « يا أولى الألباب لعلمكم تتقون » فلو كان الكاتب من  
أولى الألباب لفهمها وعرف موقعها وحكمتها وأن إيجاز الآية لا يتم إلا  
بها ، إذ أريد أن تكون معجزة زمنية كما سيشير إليه ، ولكن أنى له  
وهو من الفن البياني على هذا البعد السحيق ، لا يعلم أن آيات القرآن الكريم  
كالزمن في نسقها : ما فيه من شيء يظهره إلا ومن ورائه سر يحققه

ثم إن الإيجاز في الكلمة العربية ليس من « الإيجاز الساحر » كما يصفه  
الكاتب ، بل هو عندنا من الإيجاز السافط : وليس من قبيل إيجاز الآية  
الكريمة ولا يتعاق به فضلا عن أن يشبهه ، إذ لا بد في فهم صيغة التفضيل من  
تقدير المفضل عليه ، فيكون المعنى « القتل أكثر نفياً للقتل من كذا » ، فما هو  
هذا « الكذا » أيها الكاتب المتعثر ؟

أليس تصور معنى العبارة وإحضارة في الذهن قد أسقطها ونزل بها  
إلى الكلام السوقى المبتذل وأوقع فيها الاختلال ؟ وهل كانت إلا صناعة  
شعرية خيالية ملفقة كما أومأنا إلى ذلك آنفاً ، حتى إذا أجريتها على منهجها من  
العربية رأيتها في طريقة هذا الكلام العربي الأمريكاني كقول القائل : « الفرح  
أعظم من الترح » ، « الحياة هي التي تعطى للحياة » ... ؟

بهذا الرد الموجز بطلت الميزات الثلاث التي زعمها الكاتب لتلك الكلمة ،  
وإن الكلمة نفسها لتبرأ إلى الله من أن تكون لها على الآية ميزة واحدة  
فضلا عن ثلاث

ولنفرض « فرضاً » أن الكلمة وثيقة الإسناد إلى عرب الجاهلية وأنها من بيانهم ، فما الذى فيها ؟

١ — إنها تشبه قول من يقول لك : إن قتلت خصمك لم يقتلك . وهل هذا إلا هذا ؟

وهل هو إلا بلاغة من الهذيان ؟

٢ — إنها تشبه أن تكون لغة قاطع طريق عارم يتوئب على الحلال والحرام ، لا يخرج لشأبه إلا مقررراً فى نفسه أنه إما قاتل أو مقتول ، ولذلك تكرر فيها القتل على طرفيها ، فهو من أشنع التكرار وأفظعه .

٣ — إن فيها الجهل والظلم والهمجية ، إذ كان من شأن العرب ألا تُسلم القبيلة العزيزة قاتلاً منها ، بل تحميه وتمنعه ، فتقلب القبيلة كلها قاتلة بهذه العصبية ؛ فمن ثم لا ينفى عار القتل عن قبيلة المقتول إلا الحرب والاستئصال قتلاً قتلًا وأكل الحياة للحياة ، فهذا من معانى الكلمة : أى القتل أنفى لعار القتل ، فلا قصاص ولا قضاء كما يزعم الكاتب

٤ — إن القتل فى هذه الكلمة لا يمكن أن يخصص بمعنى القصاص إلا إذا خصصته الآية فيجىء مقترناً بها ، فهو مفتقر إليها فى هذا المعنى ، وهى تُلبسه الإنسانية كما ترى ، ولن يدخله العقل إلا من معانيها ؛ وهذا وحده إعجاز فى الآية وعجز من الكلمة



وقبل أن نبين وجوه الإعجاز فى الآية الكريمة ونستخرج أسرارها ، نقول لهذا الطفيل : إنه ليس كل من استطاع أن يُطير فى الجو ورقة فى قصة فى خيط — جاز له أن يقول فى تفضيل ورقته على منطاد زباين ، وأن فيما تقدم به على المنطاد الكريم ميزات ثلاثاً : الذيل ، والورق الملون ، والخيط ...

يقول الله تعالى : «ولكم في القصاص حياة» .

١ - بدأ الآية بقوله (ولكم) ، وهذا قيد يجعل هذه الآية خاصة بالإنسانية المؤمنة التي تطلب كلها في الإيمان ، وتلتمس في كلها نظام النفس ، وتقرر نظام النفس بنظام الحياة ؛ فإذا لم يكن هذا متحققا في الناس فلا حياة في القصاص ، بل تصلح حينئذ كلمة الهوجية : القتل أنفى للقتل ، أى اقتلوا أعداءكم ولا تدعوا منهم أحداً ، فهذا هو الذى يبقاكم أحياء وينفى عنكم القتل ؛ فالآية الكريمة بدلالة كلمتها الأولى موجهة إلى الإنسانية العالية ، لتوجه هذه الإنسانية في بعض معانيها إلى حقيقة من حقائق الحياة

٢ - قال « في القصاص » ولم يقل في القتل ، فقيده بهذه الصيغة التي تدل على أنه جزاء ومواخذة ، فلا يمكن أن يكون منه المبادأة بالعدوان ، ولا أن يكون منه ما يخرج عن قدر المجازاة قلّ أو كثر

٣ - تفيد هذه الكلمة « القصاص » بصيغتها (صيغة المفاعلة) ما يشعر بوجوب التحقيق وتمكين القاتل من المنازعة والدفاع ، وألا يكون قصاص إلا باستحقاق وعدل ؛ ولذا لم يأت بالكلمة من اقتصاص مع أنها أكثر استعمالاً ، لأن الاقتصاص شريعة الفرد ، والقصاص شريعة المجتمع

٤ - من إعجاز لفظة القصاص هذه أن الله تعالى سمي بها قتل القاتل ، فلم يسمه قنلاً كما فعات الكلمة العربية ، لأن أحد القتلين هو جريمة واعتداء ، فنزه سبحانه العدل الشرعى حتى عن شبهه بالفظ الجريمة ؛ وهذا منتهى السمو الأدبى في التعبير

٥ - ومن إعجاز هذه اللفظة أنها باختيارها دون كلمة القتل تشير إلى أنه سيأتى في تصور الإنسانية العالمة المتحضرة عصر لا يرى فيه قتل القاتل بجنايته إلا شرّاً من قتل المقتول ؛ لأن المقتول يهلك بأسباب كثيرة مختلفة ، على حين

أن أخذ القاتل لقتله ليس فيه إلا نية قتله ؛ فعبّرت الآية باللغة التي تلائم هذا العصر القانوني الفلسفي ، وجاءت بالكلمة التي لن تجرد في هذه اللغة ما يحزى عنها في الاتساع لكل ما يراد بها من فلسفة العقوبة

٦ - ومن إعجاز اللفظة أنها كذلك تحمل كل ضروب القصاص من القتل فما دونه ، وعجيب أن تكون بهذا الإطلاق مع تقييدها بالقيود التي مرت بك ؛ فهي بذلك لغة شريعة إلهية على الحقيقة ، في حين أن كلمة القتل في المثل العربي تنطق في صراحة أنها لغة الغريزة البشرية بأقبح معانيها ؛ ولذلك كان تكرارها في المثل كتكرار الغلظة ؛ فالآية بلفظة (القصاص) تضعك أمام الألوهية بعدلها وكماها ، والمثل بلفظة (القتل) يضعك أمام البشرية بنقصها وظلمها .

٧ - ولا تدس أن التعبير بالقصاص تعبير يدع الإنسانية محلها إذا هي تخلصت من وحشيتها الأولى وجاهليتها القديمة ، فيشمل القصاص أخذ الدية والعفو وغيرهما ؛ أما المثل فليس فيه إلا حالة واحدة بعينها كأنه وحش ليس من طبعه إلا أن يفترس .

٨ - جاءت لفظة القصاص معرفة بأداة التمريف ، لتدل على أنه مقيد بقيوده الكثيرة ؛ إذ هو في الحقيقة قوة من قوى التدمير الإنسانية فلا تصالح الإنسانية بغير تقييدها

٩ - جاءت كلمة (حياة) منونة ، لتدل على أن ههنا ليست حياة بعينها مقيدة باصطلاح معين ؛ فقد يكون في القصاص حياة اجتماعية ، وقد يكون فيه حياة سياسية ، وقد تكون الحياة أدبية ، وقد تعظم في بعض الأحوال عن أن تكون حياة

١٠ - إن لفظ (حياة) هو في حقيقته الفلسفية أعم من التعبير (بنفي

(القتل)، لأن نفي القتل إنما هو حياة واحدة ، أى ترك الروح فى الجسم ، فلا يحتمل شيئاً من المعانى السامية ، وليس فيه غير هذا المعنى الطبيعى الساذج ؛ وتعبير الكلمة العربية عن الحياة ( بنى القتل ) تعبیر غليظ عامى يدل على جهل مطبق لا محل فيه لعلم ولا تفكير ، كالذى يقول لك : إن الحرارة هى نفي البرودة

١١ — جعل نتيجة القتل حياةً تعبیر من أعجب ما فى الشعر يسمو إلى الغاية من الخيال ، ولكن أعجب ما فيه أنه ليس خيالاً ، بل يتحول إلى تعبیر على يسمو إلى الغاية من الدقة ، كأنه يقول بلسان العلم : فى نوع من سلب الحياة نوع من إيجاب الحياة .

١٢ — فإذا تأملت ما تقدم وأنعمت فيه تحققت أن الآية الكريمة لا يتم إعجازها إلا بما تمت به من قوله « يا أولى الألباب » ، فهذا نداء عجيب يسجد له من يفهمه ، إذ هو موجه للعرب فى ظاهره على قدر ما بلغوا من معانى اللب ، ولكنه فى حقيقته مرجح لإقامة البرهان على طائفة من فلاسفة القانون والاجتماع ، هم هؤلاء الذين يرون إجرام المجرم شذوذاً فى التركيب العصبى ، أو وراثية محتومة ، أو حالة نفسية قاهرة ، إلى ما يجرى هذا المجرى ؛ فمن ثم يرون أن لا عقاب على جريمة ، لأن المجرم عندهم مريض له حكم المرضى ؛ وهذه فلسفة تحتماها الأدمة والكتب ، وهى تحول القلب إلى مصلحة الفرد وتصرفه عن مصلحة المجتمع ، فنبههم الله إلى ألبابهم دون عقولهم ، كأنه يقرر لهم أن حقيقة العلم ليست بالعقل والرأى ، بل هى قبل ذلك باللب والبصيرة ، وفلسفة اللب هذه هى آخر ما انتهت إليه فلسفة الدنيا

١٣ — وانتهت الآية بقوله تعالى « لعلمكم تتقون » ، وهى كلمة من لغة كل زمن ، ومعناها فى زماننا نحن : يا أولى الألباب ، إنه برهان الحياة فى حكمة

القصاص تسوقه لكم ، لعلكم تتقون على الحياة الاجتماعية عاقبة خلافه ،  
فاجعلوا وجهتكم إلى وقاية المجتمع لا إلى وقاية الفرد .

\*\*\*

وبعد فإذا كان في الآية الكريمة — على ما رأيت — ثلاثة عشر وجها  
من وجوه البيان المعجز ، فمعنى ذلك من ناحية أخرى أنها أسقطت الكلمة  
العربية ثلاث عشرة مرة .

— .... —

## القتل أنفى للقتل

ليست مترجمة

بعد أن نشرت مقالة ( الكلمة المؤمنة ) في ( البلاغ ) ، كتب أديب  
فلسطين الأستاذ إسعاف النشاشيبي : إن هذه الكلمة مترجمة عن الفارسية ،  
وقد نقلها الثعالبي في كتابه ( الإيجاز والإعجاز ) ، فنشرنا في البلاغ هذا  
التعليق :

-----

قال الأستاذ الكبير محمد إسعاف النشاشيبي في كلمته للبلاغ أن عبارة  
« القتل أنفى للقتل » ليست بعربية ولا مولدة ، بل هي مترجمة ؛ أي فهي  
مطموسة الوجه من كونها أعجمية وقسح الخطأ في نقلها إلى العربية فكانت  
غلطة من جهتين

وإنه ليسرني أن تكون فوق ذلك زنجية نقلت إلى المالطية ثم ترجمت إلى  
العربية ، فتكون غلطة من أربع جهات ، لا من جهتين فقط ... ولكن هذه

الكلمة لم يشر إلى أصاها غير ( الثعالبي ) ، وهو مع ذلك لم يقطع فيها برأى ، بل أشار إلى ترجمتها في صيغة من صيغ التريض المعروفة عند الرواة فقال : « يحكى أن فيما ترجم عن أزدشير ... » و ( يحكى ) هذه ليست نصاً في باب الرواية ، وقد يكون هذا الامام انقى الله فابتعد بالكلمة وطوح بها إلى ما وراء بلاد العرب ، أو تكون الكلمة أُلقيت إليه على أنها مشتبه في نسبتها ؛ ولو كانت العبارة مترجمة لتنافلها الأئمة معروّة إلى قائلها أو لغتها التي قيلت فيها .

ولقد ذكرها العسكري في كتابه ( الصناعتين ) على أنها ( من قولهم ) ، أى العرب أو المولدين ؛ ونقلها الرازى في تفسيره ، فقال : إن للعرب في هذا المعنى كلمات ، منها « قتل البعض إحياء للجميع » ، وأحسنها « القتل أنقى للقتل » ؛ وكذلك جاء بها ابن الأثير في كتاب « المثل السائر » ولم يعزّها ؛ وقال مفسر الأندلس أبو حيان في تفسيره : إنها تروى برواية أخرى وهى : « القتل أوقى للقتل » ، وكل ذلك صريح في أن خبر الترجمة قد انفرد به الثعالبي

ولا يقوم الدليل على ترجمتها إلا بظهور أصلها الفارسى ، فإن كان علم ذلك عند أحد فليتفضل به مشكوراً مأجوراً

( تنبيه ) : نشرنا هذه الكلمة ومضت بعدها سنوات ولم يقف أحد على أن للعبارة أصلاً فارسياً ، فلم يبق عندنا ريب أنها من صنيع بعض الزنادقة وقد ولّدها من الآية الكريمة ليُجرّيها في مجرى المعارضة ؛ وقد كتب الأستاذ الكبير عبد القادر حمزه صاحب جريدة ( البلاغ ) أن تلك العبارة حكمة مصرية قديمة ؛ ولا نمنع أن يكون هذا ، فإن بعض الحكماء مما تتوارّد عليه العقول الانسانية النابغة ؛ إذ كانت الطبيعة البشرية كأنها تُملّيه ؛ غير أن العبارة ليست في كلام الجاهلية القديمة ولا الحديثة ، وألفاظ المصرية غير ألفاظ العربية ؛ فلم يبق إلا توارد الخواطر ، والله أعلم .

# القتل أنفى للقتل

ليست جاهلية

وبعد كلمتنا تلك عن الترجمة نشر أديب في البلاغ أن الكلمة جاهلية ،  
فتعقبناه بهذا التعليق :



أثبت الأستاذ عبد العزيز الأزهري فيما نشره في البلاغ أن هذه الكلمة  
عربية في دعواه ، واحتج لذلك بحجج ، أقواها زعمه « أنها وردت بين ثنائ  
عهد القضاء الذي بعث به سيدنا عمر إلى أبي موسى الأشعري ؛ ولاندرى  
أين وجد الكاتب كلمة « القتل » فضلا عن « القتل أنفى للقتل » - في ذلك العهد  
المشهور المحفوظ ، وقد رواه الجاحظ في البيان والتبيين ، وجاء به المبرد في  
الكامل ؛ ونقله ابن قتيبة في عيون الأخبار وأورده ابن عبدربه في العقد  
الفريد ، وساقه القاضي الباقلاني في الإعجاز ؛ وفي كل هذه الروايات  
الموثقة لم تأت الكلمة في قول عمر ، بل لاحتل لها في سياقه ، وإنما جاء قوله  
« فإن أحضر بيته أخذت له بحقه وإلا وجهت عليه القضاء ، فإن ذلك أنفى  
للك » .

أما سائر حجج الكاتب فلا وزن لها في باب الرواية التاريخية وقد أصبح  
عاليها سافلها كما رأيت

والذي أنا واثق منه أن الكلمة لم تعرف في العربية إلى أواخر القرن  
الثالث من الهجرة ، وهذا الامام الجاحظ يقول في موضع من كتابه ( البيان  
والتبيين ) في شرح قول علي كرم الله وجهه « بقية السيف أنفى عددًا



أكثر ولدًا» مانصه : « ووجد الناس ذلك بالعيان للذي صار إليه ولده من نهك السيف وكثرة الذرة وكرم النجل : قال الله تبارك وتعالى : « ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب ، وقال بعض الحكماء : قتل البعض إحياء للجميع

ولم يزد الجاحظ على هذا ، ولو كانت الكلمة معروفة يومئذ لما فاتته كما هو صديقه في كتبه<sup>(٥)</sup> ، خصوصاً وهي أوجز وأعذب مما نسبته لبعض الحكماء ؛ وهذه العبارة الأخيرة ( قتل البعض ... ) هي التي زعم الرازي في تفسيره أنها للعرب ... فلا عبرة في هذا الباب بكلام المفسرين ولا المتأخرين من علماء البلاغة ، وإنما الشأن للتحقيق التاريخي .

ونص الجاحظ في كتاب « حجب النبوة » على أن قوماً منهم ابن أبي أعوجاء ، وإسحاق بن طالت ، والنعمان بن المنذر ، وأشباهم من الأرجاس الذين استبدلوا بالعز ذلاً ، وبالإيمان كفرًا ، وبالسعادة شقوة ، وبالحجة شبهة ، كانوا يصنعون الآثار ، ويولدون الأخبار ، ويبشونها في الأمصار ، ويطعنون بها على القرآن » ؛ فهذا عندنا من ذاك

وإن لم ينهض الدليل القاطع على أن الكلمة مترجمة عن الفارسية بظهور أصلها في تلك اللغة ورجوعه إلى ما قبل الإسلام ، فهي ولا ريب مما وضع على طريقة ابن الراوندي الزنديق المملوح الذي كان في منتصف القرن الثالث

---

(٥) أورد الجاحظ الآية الكريمة في الجزء الثاني من كتابه ( الحيوان ) صفحة ٣١ ثم قال : إلى هذا المعنى رجع قول الحكيم الأول : بعض القتل إحياء للجميع . وهذا إلى ما تقدم هو نص على أن الجاحظ لم يسمع هذه الكلمة ولم يعرفها ، وقد توفي الجاحظ سنة ٢٥٥ للهجرة ، وألف كتابه ( الحيوان ) في آخر عمره وهو مفلوج ، لم تكن الكلمة معروفة إلى ذلك العهد ، لافي الرواية ولا في الترجمة ، مع انتهاء زمن رواية واستبحار الترجمة عن الفارسية

وألف في الطعن على القرآن وقال في كتابه « الزمردة » : « إنا نجد في تدوين  
أكرم بن صيفي شيئاً أحسن من - إنا أعطيناك الكوثر - ، فكان واضح الكلمة  
يقول على هذه الطريقة : « إنا نجد في كلام العرب شيئاً أبغ من - وإكم  
القصاص حياة - »

وهؤلاء المتطرفون على القرآن الكريم إنما يريدون بما يصنعونه  
مثل هذه الكلمة أن يوجدوا للعامة وأشباههم من الأحداث والأغرار وأهل  
الزيغ والضعفاء في العلم - سبيلاً إلى القول في نقض الإعجاز ، ومساغاً إلى التهمة ،  
في أن القرآن تنزيل ؛ والخطأ في مثل هذا يتجاوز معنى الخطأ في البيان إلى  
معنى الكفر في الدين ، وذلك ما يرمون إليه ؛ وهذه بعينها هي طريقة المبشرين  
اليوم ، فكان إبليس من عهد أوائك الزنادقة إلى عهد المبشرين لم يستطع  
أن يتغير ، ولا أن يكون ... أن يكون مجدداً ...



تم الجزء الثالث من وحى القلم  
وبه تم الكتاب

## فهرس الجزء الثالث من وحي القلم

| صفحة   |                            | صفحة                            |
|--------|----------------------------|---------------------------------|
| ٢١٤    | صعاليك الصحافة             | ٣                               |
| ٢٢٠    | • • (٢)                    | ٣١                              |
| ٢٢٦    | • • (٣)                    | ٣٥                              |
| ٢٢٣    | • • (تمة)                  | ٥٠                              |
| ٢٤٠    | أبو حنيفة ولكن بغير فقه    | ٥٨                              |
| ٢٤٦    | الأدب والأديب              | ٦٧                              |
| ٢٥٨    | سر النبوغ في الأدب         | ٧٤                              |
| ٢٧٣    | نقد الشعر وفلسفته          | ٨١                              |
| ٢٨٨    | فيلسوف وفلاسفة             | ٨٨                              |
| ٢٩٣    | شيطاني وشيطان طاغور        | ٩٧                              |
| ٣٠٠    | فلسفة القصة                | ١٠٦                             |
| ٣١٦    | حافظ إبراهيم               | ١١٩                             |
| ٣٢٣    | كلمات عن حافظ              | ١٢٥                             |
| ٣٤٤    | شوق                        | ١٣١                             |
| ٣٦٥    | بعد شوق                    | ١٣٧                             |
| ٣٨٧    | صروف اللغوى                | ١٤٣                             |
| ٣٩٩    | الشيخ الخضرى               | ١٤٩                             |
| ٤٠٦    | رأى جديد فى كتب الأدب      | ١٥٦                             |
| القديم |                            | ١٦٢                             |
| ٤١٥    | أمير الشعر فى العصر القديم | ١٧٢                             |
| ٤٢٠    | البؤساء                    | ١٧٩                             |
| ٤٢٣    | الملاح التائه              | ١٨٤                             |
| ٤٣٠    | المقتطف والمتنبى           | ١٨٩                             |
| ٤٣٣    | محمد : لتوفيق الحكيم       | ١٩٨                             |
| ٤٣٥    | ديوان الأعشاب              | ٢٠٥                             |
|        |                            | السمو الروحى الأعظم             |
|        |                            | قرآن الفجر                      |
|        |                            | اللغة والدين والعادات           |
|        |                            | الأسد                           |
|        |                            | أمراء للبيع                     |
|        |                            | العجوزان                        |
|        |                            | • • (٢)                         |
|        |                            | • • (٣)                         |
|        |                            | • • (تمة)                       |
|        |                            | السطر الأخير من القصة           |
|        |                            | عاصفة القدر                     |
|        |                            | القلب المسكين                   |
|        |                            | • • (٢)                         |
|        |                            | • • (٣)                         |
|        |                            | • • (٤)                         |
|        |                            | • • (٥)                         |
|        |                            | • • (٦)                         |
|        |                            | • • (٧)                         |
|        |                            | • • (٨)                         |
|        |                            | • • (تمة)                       |
|        |                            | انتصار الحب                     |
|        |                            | قنبلة بالبارود لا بالماء المقطر |
|        |                            | شيطان وشيطانة                   |
|        |                            | نهضة الاقطار العربية            |
|        |                            | لاتجنى الصحافة على الأدب        |

| صفحة                             | صفحة                       |
|----------------------------------|----------------------------|
| ٤٦٣ كلمة مؤمنة في رد كلمة كافرة  | ٤٤١ النجاح وكتاب سر النجاح |
| ٤٧٤ القتل أنفى للقتل ليست مترجمة | ٤٤٥ ٧٢ أبو تمام الشاعر     |
| ٤٧٦ القتل أنفى للقتل ليست جاهلية | ٤٥٢ ٧٢ القديم والجديد      |
|                                  | ٤٥٨ المرأة والميراث        |

تم الفهرس

To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)